

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثاني من المجلد الثاني

٧



تونس



بيروت

الكتاب الثالث

العصر الذهبي

من ٤٨٠ إلى ٣٩٩ ق : م

۱۳۸ - اثیة پرئوس لندیاس ، الستس لیورپدیز .

- ق. م. -
- ٤٣٧ - البروبيليا .
- ٤٣٥ - ٤٣٤ الحرب بين كورنفة وكرثيرا .
- ٤٣٣ - حلف أثينة وكثيرا .
- ٤٣٢ - ثورة پوتيديا ، محاكمة أسهاشيا ، وفدياس : وأنكساغوراس .
- ٤٣٠ - ٤٠٤ حرب الهلويونيز .
- ٤٣٠ - ٤٢٤ ظهور روايات ميديا ، أندرومكى ، وهكيبا ليورپديز ؛ وإلكترا لسفكليز .
- ٤٣٠ - الطاعون في أثينة ، محاكمة پركليز .
- ٤٢٩ - موت پركليز ، كليون يعول السلطة ، أوديب الملك لسفكليز .
- ٤٢٨ - ثورة متلفي ، ليورپديز يكتب هپوليتوس : موت أنكساغوراس .
- ٤٢٧ - قدوم جورجياس إلى أثينة ؛ پروذكوس ، وهيباس السونسطائيان .
- ٤٢٥ - حصار اسفكتيريا ؛ سفكليز يكتب « الأكرونيين » .
- ٤٢٤ - برسيدياس يستولى على أمفيبوليس ؛ نقي نوكلديس المؤرخ ، أرستغيز يكتب رواية « الفرسان » .
- ٢٢٣ - أرستغيز يكتب رواية « السحب » ؛ زيوكسيس المؤرخ ؛ وپرهسيوس الإفوسى المثالان .
- ٤٢٢ - رواية « الزنايير » لسفكليز ؛ موت كليون وبراسيداس .
- ٤٢١ - صلح نيشباس ؛ رواية « السلام » لأرستغيز .
- ٤٢٠ - أبقرات الكوسى ؛ الطيب ؛ ديموقريطس الأيديرى ، الفيلسوف پوليقليطس السكيوفى ، المثال .
- ٤٢٠ - ٤٠٤ الإركثيوم .
- ٤١٩ - لباس الخطيب .
- ٤١٨ - انتصار اسبارطة في ماتينية ؛ رواية « أيون » ليورپديز .
- ٤١٦ - ملحة ميلوس ؛ رواية « إلكترا » ليورپديز (٩) .
- ٤١٥ - ٤١٣ حلة أثينة على سراقوصه .
- ٤١٥ - بترالهما ؛ سقوط ألسيديز ؛ « الطور راديات » ليورپديز .
- ٤١٤ - حصار سراقوصه ؛ رواية « الطيور » لأرستغيز .
- ٤١٣ - هزيمة أثينة في سراقوصه ؛ رواية إلفينيا في طوديس ليورپديز .
- ٤١٢ - مسرحيتا هلن وأندرمدا ليورپديز .
- ٤١١ - ثورة الأربهاة ؛ روايتا « ليسترانا » و « سموةيا زوسا » لأرستغيز .
- ٤١٠ - عودة الديمقراطية ؛ انتصار ألسيديز في سديكوس .
- ٤٠٨ - ثيموثيوس الملقى الشاعر والموسيقى ؛ رواية « أورشيز » . ليورپديز .

- ق . ٢ . ٠
- ٤٠٦ اقتصار أثينة في أرغنوسى ، موت يورديدز ، وسفكليز ؛ مسرحيتا
« الباكين » و « إنجيانيا في أويس » ليورديدز .
- ٤٠٧ ديونيسيوس الأول طاغية في سراقوسة .
- ٤٠٨ اقتصار اسبارطة في إيسميوتاى ، مسرحية « الضفادع » لأرستفانيز .
- ٤٠٩ نهاية حرب البيلوبونيز ، حكم الثلاثين في أثينة .
- ٤١٠ عودة للديمقراطية .
- ٤١١ هزيمة ثورث الثانى في كونكسا ، ارتداد العشرة الآلاف أنباغ زقوفون ؛
مسرحية أوديب في كولونوس لسفكليز .
- ٣٩٩ محاكمة سقراط وموته .

الباب الحادى عشر

بركليز والتجربة الديمقراطية

الفضل الأول

نهضة أثينة

يقول شلى Shelley إن « الفترة الواقعة بين مولد بركليز وموت أرسطو تعد بلا شك أهم فترة في تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها أو من حيث أثرها في مصائر الإنسان المتحضر من بعدها » . وكانت أثينة هي المسيطرة على هذه الفترة ، وقد نالت ولاء معظم المدن الإيجية فأمدتها هذه المدن بالأموال لأنها تزعمتها في إنقاذ بلاد اليونان من الغزو الأجنبي ، ولأن أيوليا بعد هذه الحرب قد حلت بها الفاقة ، واسهارة قد اضطربت أحوالها بسبب تسريح جيوشها وما حدث فيها من زلازل وفتن ؛ ولأن الأسطول الأثينى قد نال من النصر في العالم التجارى ما لا يقل عن نصره الحربى في أرتميزيوم سلاميس :

ولسنا نقصد أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها نهائيا ؛ فقد استمر النزاع بين الفرس واليونان من عهد أن فتح قورش أيونيا إلى أن هزم الإسكندر دارا الثالث . وقد طرد الفرس من أيونيا في عام ٤٧٩ ومن البحر الأسود عام ٤٧٨ ومن تراقيا سنة ٤٧٦ ، وفي عام ٤٦٨ انتصر أسطول يونانى بقيادة سيمون الأثينى نصراً مؤزراً على الفرس فى البر وفى البحر عند مصب نهر يوريمدون Eurymedon (*) : وفى ذلك الوقت ألفت المدن

(*) نهر فى بولنانيا فى جنوبى آسيا الصغرى .

اليونانية في آسية وبحر إيجه اتحاد ديلوس بزعامة أثينة وتبرعت كلها بمقدار من المال أودع في هيكل أبولو في ديلوس . وأمدت أثينة هذا الاتحاد بالسفن بدل المال فلم تلبث لهذا السبب أن أصبحت لها الزعامة عليه بفضل قوتها البحرية ، ولم يلبث اتحاد الأنداد أن استحال إلى إمبراطورية أثينة .

وانضم كبار الساسة الأثينيون جميعهم ومنهم الرجل الفاضل أرسطيديز والرجل المنزه الطاهر بركليز إلى تمسكليز الذي لا ضمير له في هذه السياسة الجديدة ، سياسة التوسع الاستعماري . ولم تكن أثينة مدينة لإنسان مآ بمثل ما كانت مدينة به لتمسكليز ، ولم يكن أحد من رجالها أكثر منه تصميماً على أن ينال جزاء ما قدمه لها ، فلما أن اجتمع زعماء اليونان ليقترحوا مكافأة أولئك الرجال الذين أظهروا كفاية ممتازة في الدفاع عن البلاد اقترح كل منهم لنفسه أولاً وتمسكليز ثانياً : وكان هو الذي سير تاريخ اليونان في المهجرى الذي سار فيه بعدئذ ، وذلك بأن أقنع أثينة أن البحر لا البر والتجارة لا الحرب هما سبيل السيطرة والسيادة ، ومن أجل هذا أخذ يفلوض بلاد الفرس ويسعى إلى وضع حد للنزاع القائم بين الإمبراطورية الهرمة والإمبراطورية الفتية حتى تزول العقبات القائمة في سبيل الاتجار مع آسية ويم الرخاء أثينة . وقد حشد رجال أثينة - بل ونساءها وأطفالها - لإقامة سور حول المدينة وسور آخر حول ثغرى بيرية Piraeus ومنيشيه Muniychia ، ووضع الخطة التي نفذها بركليز لإقامة أرصفة عظيمة ، ومخازن ، ومصافي في بيرية تسهلاً للتجارة البحرية . وكان يعرف أن هذه السياسة ستثير الغيرة والحسد في نفس إسبارطة ، وقد تودى إلى نشوب الحرب بين الدول المتنافسة ، ولكنه كان يسعى لرقى أثينة وتقدمها ، وكان هذا الأمل ووثوقه بقوة الأسطول الأثيني يدفعانه إلى العمل دفعاً .

وكان في أهدافه من العظمة بقدر ما في وسائله من الانحطاط ، فقد استخدم الأسطول لإرغام جزائر سككديس على أداء الجزية له بحجة أن هذه (٢ - ج ٢ - مج ٢)

الجزائر استسلمت للفرس أسرع مما ينبغي لها أن تستسلم ، وأنها أمدت خشيارشاي بالجنود ، ويلوح أنه أعفى بعض المدن من هذه الجزية بعد أن قلعت له الرشا^(٣) . ول هذه الاعتبارات عينها أعد العدة لاستدعاء بعض المنفيين ، ويقول تيموقريون Timocreon إنه كان يحتفظ بما يقدم له من الرشا وإن لم يفلح في إعادتهم^(٤) إلى أوطانهم . ولما عهد إلى أرسنديز الإشراف على الأموال العامة وجد أن من كانوا يشرفون عليها قد اختلسوا الكثير منها ، وأن تمسكليز لم يكن أقلهم اختلاساً^(٥) ، وتبديداً لها ، وأصدر الأثينيون حوالى عام ٤٧١ قراراً بتفويضه من البلاد لأنهم كانوا يخشون مقدرته وفساد ضميره فخرج منها يريد البقاء فى أرجوس . ولكن وثائق ذات بال لم تلبث أن وقعت فى يد الإسبارطيين تثبت على ما يظهر أن تمسكليز دارت بينه وبين بوزنياس نائب الملك عندهم ، وكانوا قد أماتوه جوعاً لأنه اتصل بالفرس فى مفاوضات تثبت عليه الخيانة لبلاده . وانهزت إسبارطة هذه الفرصة لإسقاط عدوها ، فأطلعت أثينة على هذه الوثائق وأرسلت أثينة من فورها أمراً بالقبض على تمسكليز ، فما كان منه إلا أن فر إلى كرسيرا Corcyra ، وأبت هذه أن تحميه ، فلجأ إلى بيروس حيث أقام زمناً قصيراً ، ثم أبحر منها سرّاً إلى آسية ، وطلب إلى خليفة خشيارشاي أن يكافئه على منعه اليونان من تعقب آثار الأسطول الفارسي بعد سلاميس ، وانخدع أرتمخشتر (أردشير) بما وعده به تمسكليز من مساعدة على إخضاع بلاد اليونان^(٥) فقبضه إلى مستشاريه وخصه بموارد بعض المدن الخاضعة لحكمه .. وقبل أن يستطيع تمسكليز إنفاذ الخطة التى أقفصت مضجعه عاجله المنية فى مجنيزيا عام ٤٤٩ : وهو فى سن الخامسة والستين ، بعد أن نال إعجاب بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها واكتسب كراهيتها .

وآلت زعامة الحزب الديمقراطى فى أثينة بعد تمسكليز وأستنديز إلى إفيليز ، كما آلت زعامة الحزب الأبحاركى أو حزب المحافظين إلى سيمون بن

ملتباس . وكان سيمون متصفاً بمعظم الفضائل التي تنقص ثمستكلير ، ولكنه كانت تعوزه الكياسة والمقدرة اللتان لا بد منهما للنجاح في الحكم والسياسة . ولما ضاق ذرعاً بما كان يحاك في المدينة من دسائس تولى قيادة الأسطول ، وثبت دعائم الحرية في بلاد اليونان بما ناله من النصر في يوريميلون ، وعاد إلى أثينة ظافراً ولكنه فقد حب الشعب له حين أشار بتسوية النزاع مع إسبارطة . ووافقت الجمعية على كره منها أن تعهد إليه قيادة قوة أثينة لمساعدة الإسبارطيين على إخضاع الهيلوتيين في إيثومي ، ولكن الإسبارطيين لم يأمنوا للأثينيين وارتابوا فيهم حتى وهم يريدون لهم الخير . وبلغ من سوء ظنهم بجنود سيمون أن عادوا إلى أثينة غاضبين ، كما عاد سيمون بجلاله الخزي والعار ، وسقطت مكانته بين مواطنيه . وفي عام ٤٦١ صدر قرار الجمعية بنفيه بتحريض پركليز ، وسقطت بسقوطه منزلة الحزب الأبحركي إلى الحضيض ، لقد ظلت الحكومة مدى جيلين في قبضة الديمقراطيين . وبعد أربع سنين من سقوطه استعصر پركليز من الجمعية قراراً باستدعائه مدفوعاً إلى ذلك بندمه على فعلته (أو لعشق إليپنيس Elpenice أخت سيمون كما تقول الشائعات) ، ومات سيمون ميتة شريفة في معركة بحرية في جزيرة قبرص .

وآلت زعامة الحزب الديمقراطي وقتئذ إلى رجل قد يدهش القارئ إذا قلنا إنا لا نعرف عنه إلا القليل ، مع أن نشاطه هو الذي غير مجرى تاريخ أثينة ، والرجل الذي نعنيه بقولنا هذا هو إفيلتز . وكان إفيلتز هذا رجلاً فقيراً ولكنه طاهر اليد ، ولم يعيش طويلاً بعد أن هدأت نار الأحقاد السياسية في أثينة . وكانت الحرب قد زادت من قوة حزب الشعب لأن المواطنين الأحرار نسوا إلى حين ما كان بين طبقاتهم من شقاق وانقسام ، ولأن الجيش - الذي كان يسيطر عليه الأشراف - لم يكن هو الذي كسب معركة سلاميس ، بل كسبها الأسطول ، وكان رجاله من فقراء المواطنين كما

كانت قيادته في أيدي طبقة التجار الوسطى . وحاول الحزب الأبحركى أن يحتفظ بامتيازاته بتركيز السلطة العليا في الأريوبجوس (مجلس الشيوخ) المحافظ ، فإكان جواب إفيليز إلى أن قام بهجوم (*) عنيف على مجلس الشيوخ القديم ، ووجه تهماً شنيعة إلى الكثيرين من أعضائه ، وأمر بإعدام بعضهم (٧) ، وحل الجمعية على أن توافق على إلغاء ما كان باقياً للأريوبجوس من سلطة إلغاء يكاد يكون تاماً . وأنتى أرسطاطاليس الأرستقراطى النزعة فيما بعد على هذه السياسة المتطرفة بحجة أن « انتقال السلطات القضائية التي كانت من قبل من اختصاص مجلس الشيوخ إلى أيدي العامة كان فيما يبدو عظيم النفع لأن لإرشاد العدد القليل من الناس أيسر من لإرشاد العدد الكبير منهم (٨) » . غير أن المحافظين من أهل ذلك الوقت لم يؤمنوا بهذه النتيجة وهم هادئون . ولما عجزوا عن شراء ضمير إفيليز سلطوا عليه من اغتاله في عام ٤٦١ (٩) ، وانتقلت بعد موته زعامة الحزب الديمقراطي التي تعرض من يتولاها لأشد الأخطار إلى مركز الأرسقراطى .

(٥) إن ما يقوله جروت Grote في عام ١٨٥٠ م عن الأريوبجوس لذكركنا بعض ما وجه من نقد المحكمة العليا في الولايات المتحدة عام ١٩٣٧ . قال : « لقد كان الأريوبجوس وحده هو الذي تستمر سلطة أعضائه على الحياة ، ويبدو أنه لهذا السبب كان ذا سلطان واسع لا حد له ، وأن طول الأمد ودوام هذا السلطان قد خلعا عليه ثوبا من المقدسة ، وجعلاه في قلوب الناس إجلالا ديليا ... يضاف إلى هذا أن الأريوبجوس كان له حق الإشراف على الجمعية الشعبية : وكان يحرص على ألا تخرق شرائع البلاد بشيء من إجراءاتها . وكانت له سلطات واسعة مطلقة غير مقيدة ، لم يمنحه إياها الشعب بقرار رسمي منه » (٦) .

الفصل الثاني

پرکلیز

ولد قبل مرون ثلاث سنين رجل أصبح فيما بعد صاحب السلطة العليا على جميع قوى أثينة المادية والروحية في خلال عصر عظمتها ومجدها : وكان والده زنتيوس Xanthippus ممن حاربوا في سلاميس ، وقد تولى قيادة الأسطول الأثيني في معركة ميكالى ، واسترد مضيق الهلسنت لبلاد اليونان : وكانت أجرسنى Agariste أم پرکلیز حفيدة المصلح كليستينز ، ولهذا فإن نسبه من جهة أمه يتصل بأسرة الألقميونيين القديمة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « ولما قرب يوم مولده رأت أمه في منامها أنها ولدت أسداً ، وبعد بضعة أيام ولدت پرکلیز - وكان جسمه كاملاً سوياً في كل شيء ما عدا رأسه ، فقد كان طويلاً بعض الطول غير متناسب مع جسمه (١٠) » وكثيراً ما سخر نقاده من طوله . وتعلم الموسيقى على دامون Damon أشهر معلمها في زمانه ، وعلمه فيثاغورس الموسيقى والأدب ، واستمع إلى محاضرات زينون الإيلي في أثينة ، وأصبح صديقاً وتلميذاً للفيلسوف أنكساغوراس . وتثقف في أثناء نموه بثقافة عصره السريعة النماء ، وجمع في ذهنه واستخدم في سياسته جميع نواحي الحضارة الأثينية - الاقتصادية ، والعسكرية ، والأدبية ، والفنية ، والفلسفية . وبلغ علمنا أنه كان أكمل إنسان أنجبته بلاد اليونان جميعها .

ولما رأى أن مبادئ الحزب الأبحركى لا تتمشى مع روح العصر انضم من بداية حياته العامة إلى حزب « الديموس » (الشعب) أى سكان أثينة الأحرار . وكانت كلمة « الشعب » وقتئذ ، كما كانت في أمريكا إلى أيام چفرسن ، تفترض تخمين. تطلق عليه بعض القيود الخاصة بالملكية : وكان حين

ينزل ميدان السياسة بوجه عام وحين يقدم على أى عمل سياسى بوجه خاص ، يستعد له أكمل استعداد ، فلا يتردد فى أن يمضى فى أى عمل تفرضه عليه قواعد التربية الحقة ، لا يتكلم إلا قليلا ، ولا يطيل الكلام ، ويدعو الآلهة أن تمسك لسانه فلا ينطق بأية كلمة لا تمت بصلة قوية للموضوع الذى يتكلم فيه . وكان الناس كلهم ومنهم الشعراء المزليون الذين يحقدون عليه ، يسمونه « الأولي » الفصيح اللسان الذى لم تسمع أئينة قبله مثل فصاحته فى قوتها وعظيم تأثيرها ، ومع هذا فالمورخون كلهم مجمعون على أن خطبه كانت خالية من الانفعال ، تتأثر بها العقول المستنيرة . ولم يكن نفوذه مستمداً من ذكائه فحسب ، بل كان مستمداً كذلك من صلاحه واستقامته ، ولم يكن يستنكف أن يستعين بالرشا ليحصل للدولة على أغراضها ، أما هو نفسه فكان « بلا جدال مبرأ من جميع ضروب الفساد وأكبر من أن يهتم بالمال (١١) » . ومحدثنا المؤرخون أن بركليز لم يصف طوال حياته العامة شيئاً ما إلى ما ورثه من أبيه ، على حين أن ثمستكليز تولى المناصب العامة وهو فقير وخرج منها وهو واسع الثراء (١٢) . ومما يدل على فطنة الأثينيين وحكمتهم فى ذلك العهد أنهم ظلوا خلال ثلاثين عاماً أو نحوها بين ٤٦٧ و ٤٢٨ ينتخبونه ويجددون انتخابه — ما عدا فترات قصيرة — ليكون واحداً من الأستراتيجوى أى القادة العشرة ، وكان بقاؤه فى منصبه هذه المدة الطويلة نسبياً مما جعله صاحب السلطة العليا فى المجلس العسكرى ، وأمكنه أن يجعل منصب الأستراتيجوس أو توكراتور أى القائد صاحب السلطة أعلى المناصب الحكومية شأنها وأعظمها سلطاناً . وحصلت أئينة فى أيامه على فوائد الحكم الأرستقراطى والدكتاتورى ، وإن كانت قد استمتعت أيضاً بجميع مزايا الديمقراطية . فقد بقى لها ما كان يزدان به عهد بيستراتس من حكم صالح وعمل على نشر الثقافة وتشجيعها ، واجتمع لها ما كان فى عهد بيستراتس من حسن توجيه ، وفرط ذكاء ، وسرعة البت فى الشئون العامة ، مضافة إلى رضا المواطنين الأحرار رضا كاملاً يظهرونه عاماً بعد

عام. وكان وجوده برهاناً يثبت به التاريخ المبدأ القائل إن خير وسيلة لتنفيذ الإصلاحات القائمة على أسس الحرية وأضمن الطرق لتثبيت هذه الإصلاحات وتقوية دعائمها هي أن يتولاها زعيم حلو معتدل ، يستمتع بتأييد الشعب ، ومن أجل ذلك بلغت الحضارة اليونانية أعلى درجاتها حين تمت الديمقراطية نمواً يكتفى لأن يكسبها قوة وتعدد في نواحي نشاطها ، وبقي فيها من الأرستقراطية ما يكسبها حسن النظام وسلامة اللوق :

وأدت إصلاحات بركليز إلى زيادة سلطة الشعب زيادة عظيمة . ذلك أن عدم أداء أجور للقضاة نظير عملهم في المحاكم كان قد أكسب الطبقات لثرية سلطاناً عظيماً فيها وإن كانت سلطتهم قد زادت من قبل في عهد صولون وكليسثينز وإفيليز . وأدرك بركليز هذا ، فقرر في عام ٤٥١ أبولين obols أى ما يعادل بـ ١٠ من الريال الأمريكي لكل قاض عن كل يوم يجلس فيه للقضاء ، ثم رفع هذا الأجر بعدئذ إلى ثلاث أبولات ، وكان هذا الأجر في كلتا الحالتين يعادل وقتئذ نصف ما يكسبه الأثني العادي من عمله اليومي (١٣) . ولسنا نستطيع أن نحمل محمل الجدل قول بعضهم : إن هذه الأجور القليلة أضعفت قوة أثينة وأفسدت أخلاق أهلها ، لأن هذا لو صح لقضى من وقت بعيد على كل دولة تؤثر قضاتها أو محلفيها . ويلوح أن بركليز قرر كذلك مكافأة قليلة لمن ينتخرون في سلك الخدمة العسكرية . وقد توج كرمه الذي يعيبه عليه بعض الناس بأن خصص من مال الدولة أبولين في العام لكل مواطن من مواطنيها يؤديهما أجراً لدخوله لمشاهدة ما يعرض من المسرحيات والألعاب في الأعياد العامة ، وحيثه في هذا أن هذه المسرحيات والألعاب يجب ألا تكون ترفاً تختص به الطبقات العليا والوسطى ، بل يجب أن تهدف إلى رفع مستوى الناخبين العقلي على بكرة أبيهم . على أننا يجب أن نذكر في هذا المقام أن أفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وفلوطرخس - وهم جيناً محافظون - مجمعون على أن هذه الأجور أضرت بأخلاق الأثينيين (١٤) .

وواصل بركليز عمل إيفليز فنقل إلى المحاكم الشعبية ما كان للأركونيز وكبار الموظفين من اختصاصات قضائية ، فأصبحت الأركونية من ذلك الحين منصباً إدارياً أكثر منها منصباً يوجه سياسة الدولة ، أو يفصل في القضايا أو يصدر الأحكام والأوامر . وفي عام ٤٥٧ وسع حق الانتخاب للأركونية حتى شمل الطبقة الثالثة من الأهلين ، الزوجتاي Zeugitai ، وكان من قبل مقصوراً على الطبقات الغنية ، ولم تلبث أحط الطبقات منزلة وهي طبقة الثيتيين أن حصلت على حق الانتخاب لهذا المنصب من غير حاجة إلى إجراءات شكلية ، وذلك بأن غالت في تقدير دخلها ، وتفاضت سائر الطبقات عن هذا الخداع والتزوير لما كان لهذه الطبقة الدنيا من شأن عظيم في الدفاع عن أثينة^(١٥) . ثم اختط بركليز إلى أجل قصير خطة مغايرة لخطة السالفة الذكر فأقنع الجمعية في عام ٤٥١ بأن تقصر حق الانتخاب على الأبناء الشرعيين الذين يولدون من آباء أثينيين وأمهات أثينيات . وحرّم عقد زواج شرعي بين مواطن وغير مواطن . وكان يقصد بهذا الإجراء عدم تشجيع الزواج بين الأثينيين والأجانب والإقلال من عدد الأبناء غير الشرعيين ، ولعله كان يريد أيضاً أن يحتفظ لأهل مدينة أثينة الحريصين على حقوقهم بما يعود عليهم من هذه الحقوق الوطنية والإمبراطورية من مزايا . ولكن بركليز لم يلبث أن وجد من الأسباب ما جعله يندم على هذا التشريع الضيق المانع .

وأدرك بركليز أن أي أنواع الحكم يبدو في أعين الناس صالحاً إذا عاد عليهم بالرخاء ، وأن أحسن أنواعه يبدو لهم سيئاً إذا لم يعد عليهم به ، فوجه عنايته إلى سياسة البلاد الاقتصادية بعهد أن ثبت دعائم مركزه السياسي ، فعمل على تقليل ضغط السكان على موارد أثينا الضئيلة . بإسكان جاليات من فقراء الموظفين الأثينيين في البلاد الأجنبية ، وهياً العمل للمتعتلين^(١٦) بأن جعل الدولة تستخدم من الأهلين عدداً كبيراً لم يكن له نظير في بلاد اليونان من قبل : فزاد

عدد سفن الأسطول ، وأنشأوا دور الصنعة ، وبنى في بيريه مصنعاً عظيماً لتجارة الحبوب .

وأراد أن يحمى أثينة حامية قوية من خطر الغزو عن طريق البر ، وأن يهيئ في الوقت نفسه عملاً جديداً للمتعطلين ، فأقنع الجمعية بأن توافق على صرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أميال سميت « الأسوار الطويلة » ، تصل أثينة ببيريه وفالروم Phalerum . وقد جعلت هذه الأسوار مدينة أثينة ومرافئها كنفاً واحداً حصيناً لا يتوصل إليه في وقت الحرب إلا من طريق البحر — الذى يسيطر عليه الأسطول . ونظرت اسبارطة غير المسورة إلى هذا البرنامج الواسع من برامج التسليح نظرة عدائية ، ورأى الحزب الأبحركى في هذا العداء فرصة تتيج له الاستيلاء على زمام السلطة السياسية ، فأرسل رسله إلى الاسبارطيين يدعونهم لغزو أتكا ، وتعهلوا لهم بأن يوقلوا في أثناء الغزو نار الفتنة في المدينة ، فيقضوا بذلك على الحكومة الديمقراطية ، كما تعهلوا أيضاً بهدم « الأسوار الطويلة » . ووافق الاسبارطيون على هذه الخطة ، وسيروا على أثينة جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا Tangara (٤٥٧) ، ولكن الأبحركيين عجزوا على القيام بثورتهم ، وعاد الاسبارطيون إلى البلوبونيز بحثى حين ، ينتظرون على مضض أن تتاح لهم فرصة أحسن من هذه الفرصة يقضون بها على منافستهم المزدهرة التى أخذت تنتزع منهم زعامتهم للتقليدية على بلاد اليونان :

وقاوم بركليز ما حدثته به نفسه من الانتقام من اسبارطة ، ووجه جهوده كلها بدلا من هذا إلى تجميل أثينة ، فوضع منهاجاً ضخماً يهدف إلى الانتفاع بجهود جميع عابرة الفن الأثينيين ومن بقى فيها من المتعطلين في تزيين الأكوروبوليس ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يجعل المدينة مركز هلاس الثقافى ، وأن يعيد بناء المياكل القديمة — التى خربها الإفرس — على نطاق واسع فخم يبعث الغزة والفخار في نفس كل مواطن في المدينة ويقول فلوطرخس في هذا : « ولقد كانت رغبته وغايته ألا يحرم جمهور الصناعات غير

المهلبين من نصيبهم في الأموال العامة على ألا ينالوا نصيبهم هذا وهم متعطلون لا يفعلون شيئاً ، ومن أجل هذا وضع البرنامج الضخم للمنشآت العامة» (١٧) : أما المال اللازم لهذه المشروعات فقد حصل عليه بأن اقترح نقل ما تجمع من الأموال في خزانة حلف ديلوس من هذه البلدة غير المأمونة بعد أن ظل فيها زمناً طويلاً لا ينتفع منه بشيء ، وأن يستخدم ما لا يحتاج إليه منه للدفاع المشترك عن البلاد اليونانية في تجميل المدينة التي يرى بركليز أنها هي العاصمة الشرعية للإمبراطورية الصالحة الخيرة .

وكان نقل خزانة حلف ديلوس إلى أثينة عملاً صالحاً في نظر الأثينيين جميعاً بما فيهم الأبحركيون . ولكن الناصحين ترددوا في السماح بإتفاق أى قدر كبير من الأموال لتجميل المدينة — وقد يكون الباعث لهم على هذا عدم ارتياح صهارثم إلى هذا العمل ، أو أنهم كان يخجلهم أمل خفى في أن يحصلوا بطريقة أقرب من طريقة بركليز وأيسر منها على هذه الأموال لينفقوها في قضاء حاجاتهم وفي ملذاتهم . وكان زعماء الحزب الأبحركى مهرة في الاستفادة من هذا الشعور . فلما أن اقترب اليوم الذي سيعرض فيه هذا الأمر على الجمعية لتتقرر عليه بدا أنها مترفضة لا محالة .

ويحدثنا فلوطرخس عن الطريقة الماكرة التي حول بها بركليز هذا التيار إلى صالحه فيقول : « وقال بركليز : حسن جداً ، فلتذهب نفقات هذه المنشآت إلى جيبى أنا لا إلى جيوبكم ، وليتمش عليها اسمى لا اسمكم ، فلما سمعوا قوله هذا ناهوه بأعلى أصواتهم أن يمتنحى المال . . . وألا يقف عن الإتفاق حتى ينعذ عن آخره ، ولستأ نعرف أكان هذا لأنهم دهشوا من عظمتهم النفسية أم لأنهم أرادوا أن يكون لهم فضل القيام بهذه الأعمال » .

وبنا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق ، وكان بركليز ييسر معونه وحياته لفدياس ، وإكتنوس Ictinus ، ونسكليز Mnesicles وغيرهم من الفنانين الذين كانوا يكسحون لتحقيق أحلامه ، كان هو يناصر الأدب والفلسفة ،

وبينا كان الشقاق بين الأحزاب في سائر المدن اليونانية يستنفد جهود المواطنين ، وغصن الأدب يلقى وبذبل ، كانت الثروة المتزايدة في أثينة والحرية الديمقراطية تتعاونان مع الزعامة الحكيمة المثقفة على خلق عصرها الذهبي المجيد . وبينما كان بركليز ، وأسبازيا ، وفدياس ، وأنكساغوراس ، وسقراط يشاهدون مسرحيات يورپديز في ملهى ديونيسس ، كان في وضع أثينة أن تشهد هي الأخرى ذروة مجد الحياة في بلاد اليونان وكمال وحدتها — من سياسة ، وفن ، وعلم ، وفلسفة ، وأدب ، ودين ، وأخلاق ، تشهد هذه كلها وليس لكل ناحية منها حياة منفصلة عن الأخرى في صحف المؤرخين ، بل تراها وقد اندمجت بعضها ببعض فتكون منها صرح متعدد الألوان هو مفخرة تاريخ هذه الأمة .

وترددت عواطف بركليز بين الفن والفلسفة ، ولعله كان يصعب عليه أن يقول أى الرجلين يحب أكثر من الآخر : فدياس أو أنكساغوراس ، ولعله أيضاً قد ولى وجهه شطر أسبازيا لكى يوفق بين رغبته في الجمال وفي الفلسفة معاً . ويقال لنا إنه « كان يكن لأنكساغوراس منتهى الإجلال والإعجاب » (١٨) . ويقول أفلاطون (١٩) إن الفيلسوف هو الذى دفع بركليز إلى شئون السياسة والحكم ، ويعتقد فلوطرخس أن اتصال بركليز الطويل الأمد بأنكساغوراس هو الذى أفاد منه سمو القصد وقوة اللغة التى سمت كثيراً فوق بلاغة الغوغاء وما فيها من ضعف حقير ذئب ، هذا فضلاً عما أفاده من هدوء واطمئنان ووقار في جميع حركاته ، وثبات لا يتزعزع قط مهما يحدث حوله في أثناء خطبه . ولما تقدمت بأنكساغوراس السن وانهمك بركليز في الشئون العامة نسي رجل الحكم رجل الفلسفة فلم يعد له مكان ما في حياته زمناً ما ، ولكنه لما سمع فيما بعد أن أنكساغوراس يعاني مرارة الجوع والحرمان بادر إلى معونته ، وقبل منه في تواضع ما وجهه إليه من اللوم يقول : « إن من يحتاجون يوماً ما إلى مصباح ، يمدونه بالزيت » (٢٠) .

وقد لا يصدق الإنسان لأول وهلة أن هذا « الأولي » الصبارم كلن مرهف

الحس بمفاتيح النساء ، وإن كان لا يرى بعد أن يعيد التفكير أن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا غبار عليها : ذلك أن سيطرته على نفسه كانت تدفعه إلى مقاومة حساسيته الرقيقة ، على حين أن متاعب المنصب قد قوت بلا ريب حنينه الشديد سوى إلى رقة الأنوثة . وكان حين التقى بأسباز قد مضى على زواجه زمن طويل ، وكانت هي من ذلك الطراز الذي كنت نحاول خلقه في بلاد اليونان ، طراز المؤسسات اللاتي أصبح هن بعد قليل شأن كبير في الحياة الأثينية . كانت أسبازيا امرأة تأبى العزلة التي يفرضها الزواج على النساء في أثينة ، وكانت تفضل أن تعيش معيشة الاختلاط الجنسي غير المشروع بل الاختلاط الجنسي المطلق إلى حد ما إذا كان هذا يمكنها من أن تستمتع بحرية الحركة وبالحرية الخلقية اللتين يستمتع بهما الرجال ، وأن تشترك معهم في الأعمال الثقافية . وليس لدينا من الأدلة ما نستند إليه إذا شئنا أن نقدر جمال أسبازيا ، وإن كان الكتاب القدامى يتحدثون عن « قدمها الصغيرة المقوسة إلى أعلى » وعن « صوتها الفضي » و« شعرها الذهبي » (٢١) ، وإن كان أرسطينز ، وهو عدو سياسي لدود لبركليز ، لا يؤنبه ضميره لتوجيه أية تهمة له ، يصفها بأنها عاهر من ميليطس ، أنشأت بيتاً فخماً للدعارة في مجارا ، ثم جاءت في ذلك الوقت ببعض فتياتها إلى أثينة . ويشير كاتب الملامى العظيم من طرف خفي إلى أن النزاع الذي قام بين أثينة ومجارا والذي جعل إشعال نار حرب الهلويونيز كان سببه أن أسبازيا أقنعت بركليز بأن يثار لها من المهاجرين الذين اختطفوا بعض فتياتها (٢٢) . لكن أرسطينز لم يكن مؤرخاً ، ولا يصح أن يوثق به إلا فيما لا يتصل بشخصه هو .

ولما وصلت أسبازيا إلى أثينة في عام ٤٥٠ افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة ، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن ، واختلاطهن بالرجال ، وتربيتهم تربية عالية . والتحقّت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا ، وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهم ليلسن معها (٢٣) .

وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ، ومن بينهم بركليز وسقراط ، وأكبر الظن أن أنكساغوراس نفسه ، ويورپديز ، وألسيديز ، وفدياس كانوا يستمعون إليها . ويقول سقراط إنه تعلم منها فن البلاغة^(٢٤) ، ويؤكد بعض قدماء النمامين الثرثارين أن رجل الحكم قد ورثها من الفيلسوف^(٢٥) (*) .

ووجد بركليز وقتئذ أن الفرصة الطيبة قد واثته إذ أحببت زوجته رجلاً آخر ، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته ، فرضيت بذلك ، واتخذت لها زوجاً ثالثاً^(٢٦) ، وجاء بركليز بأسبازيا إلى بيته . غير أن قانونه الذي سنه في عام ٤٥١ لم يكن يبيح له أن يتدخلها زوجة له لأنها من مواليد ميليطس ، وإذا ولد له منها طفل كان هذا الطفل بمقتضى هذا القانون نفسه طفلاً غير شرعى ، لا يستطيع أن ينال حق المواطنة الأثينية : ويلوح أنه كان شديد الحب والإخلاص لها ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يهيم بها هيماً شديداً ، فلا يغادر بيته ولا يعود إليه دون أن يقبلها ، ثم أوصى آخر الأمر بكل ما يملك إلى ولدها منه ، وانقطع من ذلك الوقت عن الحياة الاجتماعية كلها خارج بيته ، وقبلما كان يغادره إلى أى مكان غير ساحة المدينة ، أو قاعة المجلس ، حتى أخذ أهل أثينة يشكون بعده عنهم . أما أسبازيا نفسها فقد جعلت بيته أشبه بالندوات الفرنسية في عهد الاستنارة تناقش فيه الفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة ، وشئون الحكم والسياسة في أثينة ، مناقشة تجمع بين هذه النواحي المختلفة وتؤثر كل منها في الأخرى . وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدعش منها ، ويعزو إليها فضل إنشاء الخطبة الجنازية التي ألقاها بركليز بعد الحسائر الأولى في حرب الهالوبونيز . وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينة غير المتوجة ، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة « مُدُل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن لها والتي تثير حماسهن » ؛

وكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأهلين ، فأخذوا ينددون بـ بركليز لأنه يدفع اليونان لحرب اليونان كما حدث في إيجينا وساموس ، ثم اتهموه بأنه يبدد الأموال العامة ، ثم سلطوا عليه الممثلين الهزليين فأساءوا استخدام حرية الكلام التي سادت أثينا في عهده ، فاتهمه هؤلاء بأنه جعل داره بيتاً من بيوت الفساد السيئة السمعة ، وبأن بينه وبين زوجة ابنه علاقة غير شريفة^(٢٨) . وإذا كانوا لا يجرؤون على عرض تهمة من هذه التهم علناً أمام القضاء أخذوا يهاجمونه بالكيد لأصدقائه . فاتهموا فدياس باختلاس بعض الذي عهد إليه لصنع تمثال أثينا الذهبي العاجي ، ويلوح أنهم أفلحوا في إثبات التهمة عليه . ووجهوا إلى أنكساغوراس تهمة تتعلق بالدين ، ففر الفيلسوف إلى خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز . ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى أسبازيا مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين ، وأنها جهرت بعدم تعظيمها آلهة اليونان^(٢٩) . وهجأها الشعراء الهزليون هجاء قاسياً ووصفوها بأنها ديانيرا Deianeira التي أهلك بركليز^(*) وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهر ، واتهمها واحد منهم يدعى هرمبوس Hermippus بأنها تعمل لكسب المال من طريق غير شريف ، وذلك بأنها قوادة لبركليز ، تأتي إليه بالخرائر لينستمع^(٣٠) ؛ وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسة مائة من القضاة ، ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة ، بل إنه استخدم فيه ذمومه نفسها ، ورفضت الدعوى . وبدأ بركليز من ذلك الوقت (٤٣٢) يفقد سيطرته على الشعب الأثيني ، ولما وافته منيته بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كان قد أصبح رجلاً مهتماً كبير القلب والجسم .

(*) ديانيرا هي زوجة هرقل ، التي تسببت في موته بأن قدمت له ثوباً مسوماً . انظر رواية سفليرز « الدماء التراكيقيات » .

الفصل الثالث

الديمقراطية الأثينية

١ - المناقشات

حسبنا هذه التهم العجيبة شاهداً على أن الديمقراطية الضيقة التي كانت قائمة تحت سلعيلان دكتاتورية بركليز المزعومة كانت ديمقراطية حققة . ومن واجبنا أن ندرس هذه الديمقراطية بعناية لأنها تجربة من أبرز التجارب في تاريخ الحكم . ولقد كان يحد منها أولاً أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي التي تستطيع القراءة ، ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أئينة من المدن القاصية في أتكّا . هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصوراً على من ولد من أبوين أثينيين حريين ، وبالع الحادية والعشرين من العمر . وكان هؤلاء وأسرهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية . وفي داخل محيط هذه الدائرة التي تضم ٤٣٠٠٠ من الموظنين يحرصون على ألا تشمل غيرهم من سكان أتكّا البالغين ٣١٥٠٠٠ ، كانت السلطة السياسية في عصر بركليز موزعة من الناحية الشكلية توزيعاً متكافئاً ، فكان كل مواطن يستمتع ، ويصير على أن يستمتع ، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفي الجمعية الوطنية ، ولم يكن « المواطن » في نظر الأثينيين هو الذي يقترح فحسب ، بل كان هو الذي يشغل بالقرعة إذا جاء دوره على مر الأيام . منصب الحاكم أو القاضي ، ويجب أن يكون حراً ، مستعداً لخدمة الدولة حين تناديه ، وقادراً على خدمتها . ولا يخفى أنه ليس في مقدور إنسان خاضع لغيره ، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته ، أن يجد من الوقت أو من المقدرة ما يمكنه من

أداء هذه الخدمات ، ومن أجل هذا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذى يعمل يديه غير صالح لأن يكون مواطناً أثينياً ، وإن كانت هذه الكثرة تناقض نفسها فتعترف بهذا الحق للفلاح الذى يزرع أرضه . وكان أرقاء أتنكا جميعهم البالغ عددهم ١١٥٠٠٠ ، وجميع النساء ، وجميع العمال ، وجميع المستوطنين الغرباء البالغ عددهم ٢٨٠٠٠ ، وعدد كبير من طبقة التجار ، كان هؤلاء كلهم تبعاً لهذا محرومين من الحقوق السياسية(*) . أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون فى أحزاب سياسية ، بل كانوا يقسمون نفسياً غير دقيق إلى أنصار الأجركية أو أنصار الديمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضيقها ، ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية ، وإعانة الحكومة للفقراء . من أموال الأغنياء . وكان أنشط الأعضاء فى كلتا الجماعتين ينتظمون فى نواد تسمى مجتمعات الرفقاء *hetaireiai* وكان فى أثينة نواد من جميع الأنواع - نواد سياسية ، ونواد للأقرباء ، ونواد عسكرية ، ونواد للصناع ، ونواد للممثلين ، ونواد دينية ، ونواد تجهر بأن همها هو الأكل والشرب . وكانت أقوى هذه النوادر هى النوادر الأجركية التى يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضاً فى الشؤون السياسية والقانونية ، وتربطهم بعضهم ببعض رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التى نالت حقوقها السياسية ، والتى أخذت تنافس طبقتى الأشراف ملاك الأراضي والتجار أصحاب المال^(٣١) . وفى وجه هذا الحزب الأجركى يقف الحزب الديمقراطى إلى حد ما حزب صغار رجال الأعمال ، والمواطنى الذين أصبحوا أجزاء ، وأولئك الرجال الذين يعملون بحارة على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثينى . وكان

(*) هذه الأرقام منقولة عن كتاب ا . و . جيم « سكان أثينة فى القرنين الخامس والرابع

قبل الميلاد *The Population of Athens in the Fifth & Fourth Centuries B.C.*

ص ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ . وهى بلا ريب أرقام ظنية . ومجموع السكان يشمل زوجات

١١ اطين وأبنائهم .

هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم ، ويرفعون إلى مصاف الزعامة في أثينة رجالا من أمثال كليون Cleon دايع الجلود ، ولسكليز Lysicles بائع الأغنام ، ويكراتيز Eoerates بائع حبال السفن ، وكليوفون Cleopheon صانع القيثارات ، وهيربولس صانع المصابيح . وأفلح پركليز مدى جيل كامل في إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التي كانت مزيجا من الديمقراطية والأرستقراطية ، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع كل الاستمتاع بمستلزماته . وظل النزاع المريع قائما بين الأبركيين والديمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والافتراء والنفي والاعتقال والحرب الأهلية الداخلية .

وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضواً في الهيئة الحاكمة الأساسية — وهي الإكليزيا أو الجمعية . وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية . وإذا كان الانتقال فوق قلال أنكنا من أشق الأمور فلم يكن يحضر أى اجتماع من اجتماعاتها إلا عدد قليل من أعضائها ، قلما كان يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف ، وكان المواطنون الذين يعيشون في أثينة أو في ثغر پيرية يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية ؛ وكان الديمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة في مزارع أنكنا وضياعها . وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات في الشهر ، تعقد في المناسبات الهامة في السوق العامة ، أو في ملهى ديونيسس ، أو في ثغر پيرية . أما الجلسات العادية فكانت تعقد في مكان نصف دائري يدعى الپنيكس Pnyx على منحدر تل غرب الأريوبجوس ؛ وكان الأعضاء في هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع الفجر ، ويفتح كل دور اجتماع بالتضحية بنخزير إلى زيوس . وقد جرت العادة أن تؤجل الجلسات على الفور إذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت في رأيهم أدلة على غضب الآلهة . ولم يكن

(٢-٢ ج ٢ - ٢٠١٤)

يصح عرض تشريعات جديدة إلا في الجلسة الأولى في كل شهر ؛ وكان العضو الذى يقترحها هو الذى يعمل على قبولها . فإذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدة الضرر كان من حق أى عضو آخر أن يلجأ خلال عام من قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية *graphe paranomon* ، فيطلب أن تفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو يعدم . وكانت هذه هى الطريقة التى تتبعها أثينة لمنع العجلة في التشريع . وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعل من حق الجمعية أن تعرض أى تشريع جديد قبل البت فيه على إحدى المحاكم لتبحثه من الناحية الدستورية ، أى من ناحية اتفاهه مع القوانين القائمة المعمول بها في البلاد^(٣٢) . هذا إلى أنه كان على الجمعية قبل النظر في مشروع قانون أن تعرضه عن مجلس الخمسمائة لبحثه أولاً ، كما يعرض أى مشروع قانون يقدم إلى مجلس الأمة الأمريكى في هذه الأيام قبل بحثه في المجلس على لجنة يفترض فيها أنها ذات علم خاص بموضوع المشروع وكفاية خاصة لبحثه . ولم يكن من حق مجلس الخمسمائة أن يرفض الاقتراح رفضاً باتاً ، بل كان كل ما يستطيعه أن يقدم تقريراً عنه مصحوباً بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها .

وكان المعتاد أن يفتح رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها . وكانت الجمعية تستمع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم ؛ ولكن كان يجوز حرمان أى عضو من مخاطبة الجمعية إذا ثبت أنه لا يملك أرضاً ، أو أنه غير متزوج زواجاً شرعياً ، أو أهمل في القيام بواجبه نحو أبويه ، أو أساء إلى الأخلاق العامة ، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية ، أو ألقى درعه في إحدى المعارك الحربية ، أو أنه مدين للدولة بضرية أو غيرها من المال^(٣٣) . غير أن الخطباء المدربين وخدمهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل حمل الجمعية على الإصغاء للمتكلمين . فقد كانت تضحك من الخطأ في نطق الألفاظ ، وتحتج بصوت عال على الخروج

عن موضوع النقاش ، وتعبّر عن موافقتها بالصراخ الشديد ، والصغير ،
والتصفيق باليدين ، وعن عدم موافقتها التامة بإحداث جلبة شديدة لضطر
المتكلم إلى النزول عن المنصة^(٣٤) . وكان يحدد لكل متكلم وقت معين
لا يتجاوزه يقاس مداه بساعة مائة^(٣٥) . وكانت طريقة الاقتراع هي رفع
الأيدى : إلا إذا كان للاقتراح المعروض أثر خاص مباشر في شخص ما ،
وفي هذه الحال يكون الاقتراع سرياً . وكان من حق المقترح أن يؤيد تقرير
المجلس على المشروع المعروض أو يعارضه أو يطلب تعديله ، وكان قرار
الجمعية في هذا نهائياً . وكانت القرارات التي توجب العمل العاجل ، وهي
التي تختلف عن القوانين ، تمر أسرع من القوانين الجديدة ، ولكن هذه
القرارات كان يمكن أيضاً إلغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها ، فلا تتضمنها كتب
القوانين الأثينية .

وكانت هناك هيئة أعظم من الجمعية منزلة ولكنها أقل منها سلطاناً ، وهي
هيئة المجلس المعروف باسم البول Boule . وكان البول في أصله مجلساً أعلى
شبهاً بمجالس الشيوخ في الحكومات النيابية . ولكن منزلته انحطت قبل عصر
بركليز حتى أصبح لجنة تشريعية تابعة للإكليزيا . وكان أعضاؤه يختارون
بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين ، على أن يختار خمسون منهم عن كل
قبيلة من القبائل العشر ، وألا تطول مدة خدمتهم أكثر من ١٠ سنة ،
وكان العضو في القرن الرابع يتقاضى خمس أبولات في كل يوم من أيام انعقاد
المجلس . وإذا كان من المقرر ألا يعاد انتخاب أى عضو إلا بعد أن تتاح لكل
عضو آخر صالح للانتخاب فرصة العمل في المجلس ، فإن كل مواطن في
الظروف العادية ، كان يجلس في البول دورة على الأقل في أثناء حياته .
وكان يعقد جلساته في قاعة المجلس (البولتريون Boulouterion) في الجهة
الجنوبية من ساحة المدينة ، وكانت جلساته العادية علنية واختصاصاته
تشريعية ، وتنفيذية ، واستشارية . فكان يفحص عن مشروعات القوانين

المعروضة على الجمعية ويعدل صياغتها ، ويشرف على أعمال موظفي المدينة الدينين والإداريين ، ويراقب حساباتهم ، ويشرف على الأموال والمشروعات والمباني العامة ، ويصدر مراسيم تنفيذية حين يتطلب العمل لإصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة ، ويسيطر على شئون الدولة الخارجية ، على أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد .

ولكى يؤدي المجلس هذه الواجبات المختلفة كان يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها من خمسين عضواً ، ونرأس كل لجنة المجلس والجمعية شهراً طوله ستة وثلاثين يوماً . وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار في كل صباح عضواً من أعضائها ليكون رئيساً لها وللمجلس في ذلك اليوم ، ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب في الدولة مفتوحاً أمام كل مواطن حين يأتي دوره في القرعة ، وكان لأئينة ثلثائة من هؤلاء الرؤساء في العام ، وكانت القرعة هي التي تحدد في آخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس في أثناء الشهر ، وأى عضو في اللجنة يرأسه في أثناء اليوم . وكان الائثنيون الفاسدون المرتشون يرجون أن يستطيعوا بهذه الطريقة أن يقللوا طرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الأخلاق البشرية أن تصل إليه . وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الأعمال ، وتدعو المجلس إلى الانعقاد ، وتصوغ القرارات التي يصدرها المجلس في أثناء اليوم . وعلى هذا النحو كانت الديمقراطية الائثنية تؤدي وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة . أما الأريوبجوس فكانت اختصاصاته في القرن الخامس مقصورة على النظر في قضايا الحريق العمد ، والاختصاب المتعمد ، والتسميم والقتل مع سبق الإصرار . وتغيرت شرائع اليونان تغيراً بطيئاً من شرائع مفروضة إلى شرائع تعاقدية ، ومن هوى فرد واحد أو أمر طبقة من الناس ضيقة محدودة العدد إلى اتفاق بين مواطنين أحرار يسبقه جدل ونقاش .

٢ - القوانين

يبدو أن القوانين كانت في نظر اليونان الأقدمين عادات مقدسة ارتضتها الآلهة وأوحت بها ، وكانت لفظة ثيميس themis (*) في لغتهم تطلق على هذه العادات وعلى الآلهة التي يتمثل فيها نظام العالم الأخلاق واتتلافه (كما يتمثل في الدو أو التين الصينى ، وفي رينا الهندية) . وكان القانون عندهم جزءاً من الدين . وشاهد ذلك أن أقدم قوانين الملكية عند اليونان كانت بمنزلة بالطقوس الدينية بقوانين المعابد (٣٦) .

ولعل القواعد التي قررتها مراسيم شيوخ القبائل أو الملوك ، والتي بدأت بوصفها أوامر تفرضها القوة وانتهت بأن صارت على توالى الأيام تعاقداً وتراضياً بين الحاكمين والمحكومين ، نقول لعل هذه القواعد كانت هي الأخرى قديمة قدم هذه القوانين القديمة .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل تاريخ التشريع اليونانى هي جمع العادات المقدسة وتنسيقها على يد مشرعين thesmothetai أمثال زولوسوس zaleucus وكرونوداس chronodas وحراكون drako وصولون. ولما أن دون هؤلاء الرجال وأمثالهم قوانينهم الجديدة أصبحت العادات المقدسة thesmoi قوانين من وضع الإنسان nomoi (**). وفي هذه الكتب القانونية تحرر القانون من سيطرة الدين وازدادت على توالى الأيام صبغته الدنيوية ، وأصبحت نية الفاعل ذات شأن

(*) ومعناها « ما يوضع أو يقرر » وهي مشتقة من ti-themi أى أضع . قارن هذا أيضاً بكلمة doom الإنجليزية التي كان معناها في الأصل قانون وكلمة duma الروسية .

(**) وكان لفظ ثسميثاى Thesmothetai يطلق في أثينة أيام بركليز على الستة الأركونين الصغار الذين كانوا يسجلون القوانين ، ويفسرونها ، ويلزمون الناس باتباعها . وكانوا في أيام أرسطاطاليس يتولون رئاسة المحاكم الشعبية .

كبير في الحكم على فعله ، وحلت التبعة الفردية محل الالتزامات العائلية ، واستبدل بالانتقام الفردى العقاب القانونى على يد الدولة (٣٧) .

وكانت الخطوة الثالثة في تطور التشريع اليونانى هي نمو الشرائع المطرد وتجميعها . ذلك أن اليونانى إذا تحدث في أيام بركليز عن قوانين أثينة كان يقصد بهذه القوانين شرائع دراكون وصولون والقرارات التي أصدرتها الجمعية والمجلس ولم تبلغ بعد صدورهما ، وإذا تعارض قانون جديد مع قانون قديم ، استلزم هذا إلغاء القانون القديم . ولكن البحث عن هذا التناقض وتقصى القوانين المتعارضة قلما كانا بحثاً وتقصيأ كاملين ، ومن أجل هذا نجد في بعض الأحيان قانونين متعارضين تعارضاً مضحكاً . وكان يحدث في أوقات الارتباكات التشريعية الشاذة أن تختار بطريق القرعة من المحاكم الشعبية لجنة من مقررى القوانين nomethetai لتقرر أى القوانين يجب الإبقاء عليها وأياها يجب إلغاؤها . ويعين في هذه الحال محامون ليدافعوا عن القوانين القديمة ضد من يقترحون إلغاؤها . وقد نقشت شرائع أثينة بإشراف أولئك المقررين على ألواح من الحجارة في « باب الملك » بعد أن صيغت في عبارات بسيطة سهلة الفهم ، وبهذه الطريقة لم يكن يسمح لأى حاكم أن يفصل في مسألة بالاستناد إلى قانون غير مكتوب .

والتشريع الأثينى لا يفرق بين القانون المدنى والقانون الجنائى إلا في أنه يحتفظ للأريوبجوس بحق الفصل في جرائم القتل ، وفي أنه يترك للمدعى في القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرار المحكمة ، فلا تتقدم الدولة لمعونه إلا إذا لقي في هذا التنفيذ مقاومة (٣٨) . وكان القتل قليل الحدوث لأنه يعد خطيئة دينية وجريمة قانونية في وقت واحد ، ولأن الخوف من الانتقام يظل قائماً إذا عجز القانون عن الاقتصاص من القاتل . وقد بقى القصاص المباشر حتى القرن الخامس قبل الميلاد مباحاً في أحوال خاصة ، من ذلك أن الرجل إذا وجد أمه أو زوجته ، أو محظيته ، أو أخته أو ابنته ترتكب الفحشاء كان من حقه أن يقتل من

يرتكبها معها من الرجال على الفور^(٣٩) . وكان يجب التكفير عن جريمة القتل سواء ارتكبت بقصد أو بغير قصد لأنها عندهم تدنيس لأرض المدينة ؛ وكانت اسم التطهير معقدة صارمة صرامة مؤلة . وإذا ما عفا القتل بعد موته عن قاسه ، لم يكن يجوز تقديم القاتل للقضاء . وكانت هناك تحت الأريوبيجوس ثلاث محاكم للنظر في جرائم القتل ، تختلف باختلاف طبقة القتل وأصله ، واختلاف نوع الجريمة ، هل كانت متعمدة أو غير متعمدة ، وهل هي مما يجوز التسامح فيه أو لا يجوز . وكانت محكمة رابعة تنعقد في فريتس phreatts على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل خطأ ؛ ثم اتهموا بعدئذ بجريمة القتل المتعمد . ذلك أنهم وقد دُئسوا بارتكاب الجريمة الأولى لا يسمح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض أنكا ، ولهذا يدافع المدافعون عنهم وهم في قارب بجوار شاطئ البحر .

وقانون الملكية صارم لا هوادة فيه ، فالتعاقد واجب التنفيذ ؛ وكان يطلب إلى القضاة أن يقسموا بأنهم « لن يطلبوا إلغاء الديوان الخاصة ، أو توزيع الأراضي أو المساكن التي يملكها الأثينيون » . وكان كبير الأركونين حين يتولى منصبه في كل عام يكلف منادياً بأن يؤذن في الناس أن « كل مالك سيبقى له ما يملك وسيظل صاحبه المطلق التصرف فيه »^(٤٠) . وكان حق الوصية لا يزال مقيداً بقيود شديدة ، فإذا كان للمالك أبناء ذكور ؛ فإن الفكرة الدينية القديمة عن الملك ، والتي تربطها بتسلسل الأسرة وبالعناية بأرواح السلف ، تتطلب أن ينتقل هذا الملك من تلقاء نفسه إلى الأبناء الذكور ؛ ذاك أن الوالد إنما كان يحتفظ بالملك وديعة لديه للأموال من الأسرة والأحياء منها ولمن يولدون من أبنائها . وكان الملك في أثينة يقسم بين الورثة الذكور ، كما هي الحال في فرنسا إلى حد كبير ، وكان أكبرهم سنّاً ينال نصيباً أكبر بعض الشيء من سائر الورثة^(٤١) ، ولم يكن الأثينيون كالإسبارطيين القدماء والإنجليز في هذه الأيام يقفون الملك من غير تقسيم ويعطونه أكبر الأبناء الذكور . وترى الزارع من عهد هزيود وبعده يحدد

عدد أبنائه كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام حتى لا تنقسم أملاكه بين أبنائه انقساماً يقضى عليها آخر الأمر^(٣) ؛ ولم تكن للأرملة أن ترث ملك زوجها ، بل كان كل ما تناله من هذا الملك هو أن تسترد بائنتها . وكانت الوصايا معقدة في أيام پركليز تعقدها في أيامنا هذه ، وكانت تصاغ في لغة شبيهة إلى حد كبير بلغة هذه الأيام^(٤) ؛ والتشريع اليوناني في هذا كما هو غيره من المسائل ، أساس التشريع الروماني الذي أصبح فيما بعد الأساس القانوني للمجتمع الغربي .

٣ - القضاء

إصلاح القضاء آخر ما تفعله الديمقراطية ، ولقد كان أعظم إصلاح قام به إفيلتيز وپركليز هو نقل الحقوق القضائية التي كان يمارسها الأركونون والأريويجوس إلى الهيئية أى المحاكم الشعبية . وكان إنشاء هذه المحاكم هو الذي وهب أثينة ذلك النظام القضائي الذي أخذت عنه أوروبا نظام المحلفين والذي عاد عليها بالخير العميم . وكان الهيئية^(*) تتألف من ستة آلاف محلف يختارون بالقرعة من سجل المواطنين . وكان هؤلاء الآلاف الستة يوزعون على عشرة سجلات يحتوى كل سجل على خمسمائة اسم تقريباً ، ويترك الباقي للمناصب التي تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة . وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل فيها ثلاثون محلفاً يزورون مقاطعات أتكا في مواسم معينة . وإذا كان كل محلف لا يبقى في منصبه أكثر من عام واحد في كل مرة ، وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور ، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة في الغالب لأن يكون محلفاً مرة في كل ثلاث سنين : ولم يكن مفروضاً عليه أن يؤدي هذا العمل ، ولكن الأجر المقرر له وهو أولبتان - ثم ثلاث أولبات فيها بعد - كل يوم كان يجتذب

(*) الهيئية بمعناها الدقيق هي اسم المكان الذي كانت تجتمع فيه المحاكم ، وقد سميت بهذا الاسم (المشتق من هيلوس أى الشمس) لأن الجلسات كانت تعقد في الهواء الطلق .

نحو مائتي محلف أو ثلثمائة في كل دور . أما القضايا الهامة كفضية سقراط مثلاً ، فكانت تنظرها محاكم ضخمة مؤلفة من ألف ومائتي رجل . ولكي يتنص الأثينيون الرشوة والفساد في القضاء إلى الحد الأدنى كان أعضاء المحكمة الذين يوكل إليهم النظر في قضية ما يختارون بطريق القرعة في آخر لحظة ، وإذا كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها أكثر من يوم واحد ، فلماذا لا نسمع كثيراً عن الرشوة في المحاكم ، ذلك أن الأثينيين أنفسهم كانوا يجدون صعوبة في إرشاء ثلثمائة رجل في لحظة واحدة .

وكانت القضايا تتراكم في أثينة على الرغم من سرعة إجراءاتها ، شأنها في هذا شأن المحاكم في جميع أنحاء العالم ، وسبب ذلك أن الأثينيين كانوا كثيرى التقاضي ولكي يقللوا من هذه الحمى كانوا يختارون محكمين بطريق القرعة من بين سجلات أسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين ، وكانوا الطرفان المتنازعان يعرضان نزاعهما وأوجه دفاعهما على أحد هؤلاء المحكمين ، يختار كالقضاة بطريق القرعة في اللحظة الأخيرة : وكان كل طرف يؤدي إليه أجراً قليلاً ، فإذا عجز عن الصلح بينهما فصل في النزاع بعد أن يحلف اليمين . وكان لكلا الطرفين بعدئذ أن يستأنف الحكم إلى المحاكم ، ولكنها كانت ترفض عادة القضايا الصغرى التي عرضت للتحكيم . فإذا قبلت المحكمة أن تنظر في القضية كتب كلا الطرفين حجته وأقسم اليمين على صحتها ، وكتب الشهود شهادتهم وأقسموا بأنهم صادقون ، ثم تقدم كل هذه الأقوال مكتوبة إلى المحكمة . وكانت توضع في صندوق خاص وتختتم ، ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية ، وتصلر الحكم فيها هيئة تختار بالقرعة . ولم يكن عند الأثينيين مدع عمومي ، فقد كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة . ومن هنا نشأت طائفة من « النمامين » ديدنهم وعملهم اتهام الناس ، وقد تطورت مهنتهم هذه على أيديهم حتى أصبحت فناً من فنون اغتصاب أموال الناس لكف الأذى

عنهم . وكانوا في القرن الرابع يكسبون المال الكثير برفع القضايا - أو على الأصح بالتهديد برفعها - على الأغنياء لاعتقادهم أن المحاكم الشعبية لا تميل إلى تبرئة من يستطيعون أداء الغرامات الكبيرة (*) . وكانت نفقات المحاكم تغطيها في الغالب الغرامات التي تفرض على من يدانون من المتقاضين . كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن إثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم ؛ فلذا لم يتالوا خسة على الأقل من أصوات القضاة كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالضرب بالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ ألف درخمة (نحو ألف ريال أمريكي) . وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته ، وكان عليه أن يعرض بنفسه قضيته للمرة الأولى . فلما أن تعقدت الإجراءات القضائية ، وتبين المتقاضون تأثير القضاة بعض الشيء ببلاغة الألفاظ ، نشأت عادة استخدام خطيب أو رجل يبلغ متضلع في القانون ، يؤيد المدعى أو المدعى عليه ، أو يحضر باسم من يستخذه وبالنسبة عنه خطبة يستطيع المتقاضى نفسه أن يقرأها أمام المحكمة ومن هؤلاء المدافعين البلقاء نشأ المحامون . وفي وسعنا أن نتبين قدم المحاماة في بلاد اليونان من عبارة في أقوال ديوجين ليرتيوس Diogenes Laertius وهي أن باباس Bias ، حكيم بريني Priene كان محامياً بليغاً في القضايا ، وأله كان على اللوام يحتفظ بمواهبه لمن كان الحق في جانبه . وكانت المحاكم تستخدم بعض هؤلاء المحامين لشرحوا لها القانون exegetai ، وذلك لأن الكثيرين من القضاة لم يكونوا أكثر علماً بالقوانين من المتقاضين أنفسهم . وكانت الأدلة تقدم عادة مكتوبة ، ولكن كان على الشاهد أن يحضر بنفسه ويقسم بأن ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كتاب الجلسة أو الجراماتيوس

(*) اتد شيكاكريتو Crito أحد أصدقاء سقراط الأغنياء من أن الذي يرغب في أن يعيش حياة هادئة مملوءة في أثينا يلقى في ذلك عناء كبيراً ، ويقول : « يوجد في هذا الوقت بالذات أناس يرضون قسائياً على ، وليس ذلك لأنهم ظلمهم ، بل لأنهم يظنون أن أفضل أداء مبلغ من المال لم عن تحمل عناء الإجراءات القانونية » (٤٩٥) .

grammateus شهادته على القضاة : ولم يكن الشهود يناقشون ، وكانت شهادات الزور كثيرة إلى حد يجعل المحكمة في بعض الأحيان تقضى بما يناقض الشهادة التي أقسم الشاهد على صدقها . ولم تكن شهادة النساء والقاصرين تقبل إلا في قضايا القتل ، أما الأرقاء فلم تكن تقبل شهادتهم إلا إذا انتزعت منهم بالتعذيب ، فقد كان من المسلم به عند الأثينيين أنهم سيكذبون إذا نجوا من التعذيب : وتلك وصمة في جبين الشرائع اليونانية ووحشية شاعت. الأقدار أن تزداد قسوة في السجون الرومانية ، وفي حجرات محاكم التفتيش ، ولعلها لا تقل عما يحدث في الحجرات السرية التابعة لمحاكم الشرطة في وقتنا الحاضر، وكان تعذيب المواطنين محرماً في عصر بركليز ، وكان كثيرون من ملاك الرقيق لا يسمحون أن يستخدم أرقاؤهم شهوداً في القضايا ولو كانت قضاياهم هم أنفسهم ، وكان الحكم فيها لمصلحتهم موقوفاً على أداء شهادتهم . وكانوا يلزمون من يتسبب في إحداث عاهة مستديمة لأحد الأرقاء بتعويضه عنها^(٤٦) .

وكانت العقوبات المقررة هي الضرب ، والغرامة ، والحرمان من الحقوق السياسية ، والكي بالنار ، ومصادرة الأموال ، والنفي ، والإعدام ، وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن ، وكان من المبادئ المقررة في القانون اليوناني أن يعاقب العبد في جسده ، وأن يعاقب الحر في ماله . ونرى في رسم على إحدى المزهريات عبداً معلقاً من ذراعيه وساقيه بضرب بالسياط ضرباً خالياً من الرحمة^(٤٧) . وكانت الغرامات هي العقوبة التي تفرض عادة على المواطنين . وكانت تقدر بدرجات تعرض الديمقراطية الأثينية لأن تتهم بأنها كانت تملأ خزائنها بالمال عن طريق الأحكام الظالمة . على أنه كان يسمح في كثير من الحالات للمحكوم عليه هو وصاحب الحق أن يقدرا بأنفسهما الغرامة أو العقوبة اللتين يريان أنهما عادلتان ، ثم تختار المحكمة إحدى العقوبتين المقترحتين ؛ وكان القتل ، وانتهاك حرمة المعابد ، وخيانة الوطن ، وبعض الجرائم التي تبدو في نظرنا جرائم صغيرة ،

يعاقب عليها بمصادرة الأموال والإعدام معاً ؛ ولكن كان من المستطاع عادة تجنب الحكم بالإعدام قبل صدوره ، بالنقى الاختيارى وترك الأملاك . وإذا رأى المتهم أن الحرب يزرى به ، وكان مواطناً ، نفذ فيه الإعدام بأقل الوسائل لإيلا ما له ، وذلك بأن يقدم له عصير الشوكران ، وهو العقار الذى يخلد الجسم تدريجاً ابتداء من القدمين إلى أعلى أجزاء الجسم ، ثم يقضى على من يتعاطاه حين يصل إلى قلبه . أما الأرقاء فقد كانت عقوبة الإعدام تنفذ فيهم أحياناً بالضرب الوحشى^(١٨) . وكان يحدث أحياناً أن يلقى المحكوم عليه قبل إعدامه أو بعده من فوق صخرة عالية إلى حفرة تعرف عندهم باسم البرثرون barathron . وإذا ما صدر الحكم بإعدام قاتل نفذ بحضور أقارب المقتول استجابة لعادة الانتقام القديمة في مظهرها وروحها .

ولم تبلغ الشرائع الأثينية ما كنا نتوقعه لها من الاستنارة ، وهى لا تسمو كثيراً عن شرائع هورابى ؛ وعيبها الأساسى أنها تقصر الحقوق القانونية على الأحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سبع السكان ، وحتى النساء والأطفال كانوا خارجين عن نطاق المواطنين أصحاب الحقوق . ولم يكن فى وسع النزلاء ، أو الأجانب ، أو الأرقاء أن يرفعوا الدعاوى إلى المحاكم إلا عن طريق مواطن يأخذهم فى كنفه . وكان ابتزاز المال بطريق الإرهاب ، وتعذيب العبيد المتكرر ، والحكم بالإعدام فى كثير من الجرائم الصغرى ، والشتائم الشخصية فى المناقشات القضائية ، وتشئت التبعة القضائية وإضعافها بسبب هذا التشئت ، وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية ، وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بماضى القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة ، كان هذا كله وصمة لنظام أثينة القضائى ، الذى كانت تحسدها عليه سائر بلاد اليونان لئنه وعدالته إذا قيس إلى غيره من النظم القضائية ، والذى كان نظاماً عملياً موثقاً به إلى حد أمكنه أن يبسط حمايته على الحياة وعلى الأملاك ، وهى الحماية التى لا غنى عنها للنشاط الاقتصادى والرق الأخلاقى . وفى وسعنا أن نقول ما كان للقانون الأثينى من شأن عظيم إذا عرفنا

ما كان يشعر به كل أثيني تقريباً من احترام عظيم له ، فقد كان القانون في اعتقاده هو روح المدينة ، ومصدر سعادتها وقوتها . وخير ما نحكم به على شرائع أثينة هو تهافت غيرها من دول اليونان على استعارة الجزء الأكبر منها ، وفي ذلك يقول إيسقراط Isocrates : « ليس ثمة من ينكر أن شرائعنا مصدر كثير من الخير العظيم في حياة البشرية »^(٩٩) . ففى أثينة نجد للمرة الأولى في التاريخ حكم القوانين لا حكم الناس .

وقد ظل القانون الأثيني منتشرأ في جميع أنحاء الإمبراطورية الأثينية التي يبلغ عامرها مليونين من الأنفس ما دامت هذه الإمبراطورية قائمة ، أما في خارج دائرة هذه الإمبراطورية فلم يكن لبلاد اليونان نظام قضائي واحد تخضع بأله جميعها . وإن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن القانون الدولي في أثينة القرن الخامس لتبلغ من الضعف ما تبلغه صورة هذا القانون في عالم هذه الأيام . لكن التجارة الخارجية تتطلب بعض الأنظمة القانونية . ويقول ديمستين إن المعاهدات التجارية قد بلغت في أيامه درجة من الكثرة أصبحت معها القوانين التي تخضع لها المنازعات التجارية « واحدة في كل مكان »^(١٠٠) ، وكانت هذه المعاهدات تنص على التمثيل القنصلي ، وتضمن تنفيذ العقود ، وتجعل الأحكام الصادرة في إحدى الدول الموقعة على المعاهدة في سائر الدول الموقعة عليها^(١٠١) . على أن هذا لم يقض على القرصنة ، فقد كانت تنتشر إذا ما ضعف الأسطول المسيطر على البحار ، أو تراخى في مراقبتها . ولقد كانت هذه اليقظة الخارجية الثمن الذي يشتري به الأهلون الأمن والنظام والحرية جميعاً ؛ وكانت القوضى رابضة كالذئب حول كل دولة مستقرة ، تقربص بها ، وترقب ثغرة من الضعف تغذ منها إليها . وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة أن توجه الحملات لتنهب أملاك غيرها من المدن وأهلها ، إذا لم تكن ثمة معاهدة تنص صراحة عن تحريم هذه الحملات^(١٠٢) ، وقد أفلح الدين في تحريم الاعتداء على الهياكل ما لم تتخذ قواعد حرية ، وفي

نحاية الوفود والحجاج الداهبين إلى مشاهدة الأعياد اليونانية الجامعة ، وفي فرض صدور إعلان رسمي بالحرب قبل بدء القتال ، وفي قبول الهدنة إذا طلبها أحد الطرفين المتقاتلين لإعادة من يقتلون في المعارك إلى بلادهم ودفعهم . وكانت الأسلحة المسمومة لا تستعمل بحكم العادة المألوفة ، وكان الأسرى عادة يتبادلون أو يقتلون ، وكان القداء المعترف به ميناءين — ثم أصبح ميناء واحدة (نحو مائة ريال أمريكي) — لكل أسير^(٥٣) . وكانت المعاهدات كثيرة العدد ، وكان المتعاقدون يقسمون الأيمان المغلظة على احترام نصوصها ، ولكنها كانت تخرق على الدوام تقريباً . وكانت المحالفات كثيرة ، وكانت تؤدي أحياناً إلى إيجاد أحلاف دائمة كحلف دلفي الاثني عشرى (الأمفكتيونى) في القرن السادس وكالحلفين الآخى والإيتولى في القرن الثالث . وكانت مدينتان في بعض الأحيان تجامل كلتاهما الأخرى بأن تمنح أحرار أختها حقوق المواطنين فيها . وكان التحكيم الدولى يحدث أحياناً ، ولكن كان في وسع الطرفين المحتكين أن يرفضاً نتيجه أو يتجاهلها . ولم يكن اليونانى يشعر بأى التزام أدبى نحو الأجانب أو بأى التزام قانونى إلا إذا كان بلدهما مرتبطين بمعاهدة ، وكان هؤلاء في عرفه برابرة (barbaroi)^(*) . ولم يكن اليونان يقصدون بذلك أنهم « همج » barbarian بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذا اللفظ بالضبط ، بل كانوا يفهمون منه « الأجانب » — أو الغرباء الذين يتكلمون لغة غريبة غير مألوفة . ولم ترق بلاد اليونان الرقى الذى تترك به وجود قانون أخلاقى يشمل الجنس البشرى بأكمله إلا على يد الفلاسفة الرواقيين في العصر الذى اضطبغت فيه بلاد الشرق الأدنى بالصبغة اليونانية العالمية .

(٥) هذه الكلمة وثيقة الصلة بكلمة بربرة barbara السنسكريتية وكلمة بلبوس balbus اللاتينية ، وكلتاهما تعنى التهمة أو التلمذ في النطق . قارن أيضاً لفظ babble الإنجليزى . وكان اليونان يفهمون من لفظ بربروس barbaros غرابة الحديث أكثر مما يفهمون منه نقص الحضارة ، ويستعملون لفظ بربرزموس barbarismos في المعنى الذى نستعمل فيه نحن تعقيداً لهم لفظ barbarism أى تشويه الأجنبى أو نصف الأجنبى للمصاحبات اللغوية عند أحد الأمم .

٤ - النظام الإدارى

حلت القرعة منذ عام ٤٨٧ أو قبله محل الانتخاب فى اختيار الأركونين ، ذلك أنه كان لا بد من إيجاد طريقة ما لمنع الأغنياء من أن يجدوا سبلهم إلى هذا المنصب بالمال ؛ ومنع السفلة أن يصلوا إليه بالملق والدخان . وأرادوا مع هذا ألا يجعلوا الاختيار وليد المصادفة المحضة ، فكانوا يفرضون على جميع من تقع عليهم القرعة أن يجتازوا قبل القيام بواجباتهم اختباراً صارماً فى الأخلاق (Dokimasla) أمام المجلس أو الحاكم . فكان على الطالب أن يثبت أنه من أبوين أثنيين ، وأنه سليم من العيوب الجسمية والخلقية ، يكرم أسلافه ويقوم بواجباته العسكرية ، ويؤدى الضرائب كاملة . وكانت حياته كلها فى هذه المناسبة عرضة للاتهام من أى مواطن . وما من شك فى أن التعرض لهذين الفحوض والاتهام كان يرهب أذنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب . فإذا اجتاز الأركون هذا الاختبار كان عليه أن يقسم بأنه سيضطلع بأعباء منصبه على خير وجه ، وبأنه سيقدم للأمة تمثالا من الذهب بالحجم الطبيعى إذا قبل هدية أو رشوة^(٥) من أحد . على أن ما كان للمصادفة من أثر كبير فى اختيار الأركونين التسعة ليدل على ما آله إليه هذا المنصب من الصغار بعد أيام صولون ، فقد أصبحت اختصاصاته فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تعدو العمل الإدارى الرتيب ، ولم يكن الأركون ياصليوس الذى يحمل لقب الملك من غير أن يؤدى عمله أكثر من كبير الموظفين الدينيين فى المدينة . وكان على الأركون أن يحصل على اقتراع بالثقة من الجمعية ، وكان فى وسع أى إنسان أن يعرض أعماله ويستأنف أحكامه إلى البول أو الهيلية ؛ وكان فى مقدور أى مواطن أن يتهمه بسوء استخدام سلطته ، وإذا انتهت مدة توليه منصبه بحثت أعماله الرسمية ، وحساباته ، ووثائقه ، لجنة من المحاسبين مسئولة أمام المجلس ، وكان معرضاً لأشد العقاب ، الذى كان يصل

(٤ - ج ٢ ، مجلد ٢)

أحياناً إلى الإعدام ، إذا تبين أنه أساء العمل أيام توليه منصبه . أما إذا نجا من هذا الإرهاب الدمقراطي فإنه يصبح بعد انتهاء العام الذى تولى فيه منصبه عضواً فى الأريوبيجوس ، ولكن هذه العضوية أضحت فى القرن الخامس منصباً فخرياً عديم القيمة لأن هذه الهيئة فقدت وقتل كل ما كان لها من سلطان .

ولم يكن الأركونون إلا هيئة من هيئات كثيرة تشترك كلها فى تصريف شئون المدينة الإدارية تحت إشراف الجمعية والمجلس والمحاكم . ويذكر أرسطاليس خمساً وعشرين من هذه الهيئات المختلفة ، ويقدر عدد الموظفين الإداريين فى المدينة بسبعائة موظف . وكان هؤلاء كلهم تقريباً يختارون كل عام بطريق القرعة ، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يكون عضواً فى لجنة بعينها أكثر من مرة واحدة ، ولذلك كان كل مواطن يأمل أن يشغل منصباً كبيراً فى المدينة عاماً على الأقل فى أثناء حياته ، ذلك أن أثينة لم تكن تؤمن بطريقة الحكم على أبندى الخبراء الإحصائيين .

وكانت المناصب العسكرية أكثر أهمية فى نظرهم من المناصب المدنية ، ولذلك لم يكن القواد Strategoi العشرة يختارون بالقرعة بل كانوا ينتخبون انتخاباً علنياً فى الجمعية ، وإن كانوا هم أيضاً لا يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد وإن كانوا عرضة لأن يفحص عن أعمالهم وأن يعزلوا من مناصبهم فى أى وقت من الأوقات . وكانت الكفاية لاجب الشعب هى السبيل إلى التقدم والرقى فى هذه المناصب . وقد برهنت الإكليزيا فى القرن الرابع على حسن إدراكها للأمور باختيارها فوشيون Phocion قائداً خمساً وأربعين مرة ، على الرغم من أنه كان أبغض الناس للجمهور الأثينى ، وأنه لم يكن يخفى احتقاره للجاهل . وزادت مهام القواد بازدياد العلاقات الدولية ، حتى أصبحوا فى أوائل القرن الخامس لا يشرفون على شئون الجيش والأسطول فحسب ، بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الأجنبية ويشرفون على إيرادات المدينة ونفقاتها . ومن أجل هذا كان

القائد الأعلى المعروف باسم الاستراتيجوس أوتوكراتور Strategos Autokrator أقوى رجال الحكومة ؛ وإذا كان من المستطاع انتخابه لهذا المنصب أعماراً متتالية ، فقد كان في وسعه أن يخلع على سياسة الدولة استمراراً في الأهداف لم يكن دستوراً يمكنها منه لولا هذا المنصب الدائم . وبفضله استطاع بركليز أن يجعل أثينة مدى جيل كامل ملكية ديمقراطية ، حتى استطاع توكيديس أن يقول عن السياسة الأثينية إنها ديمقراطية بالاسم ولكنها حكومة يسيطر عليها أعظم مواطن في المدينة .

وكانت الخدمة في الجيش ملازمة لحق الانتخاب ، فقد كان على كل مواطن أن يعمل في الجيش ، وكان معرضاً حتى يبلغ الستين من عمره لأن يجند للقتال في أية حرب تستعر ناراها . ولكن الحياة الأثينية لم تكن حياة عسكرية ، فلم يكن هناك تدريب عسكري يستحق الذكر بعد الفترة الأولى التي يقضيها الشاب في هذا التدريب ، ولم يكن فيها اختيال بالحلل الرسمية أو تدخل من قبل الجند في أعمال السكان المدنيين . وكان الجيش في الميدان يتألف من فرق المشاة الخفيفة ، وكانت كثرتهم من المواطنين الفقراء يحملون الرماح والمقاليع ، وفرق المشاة الثقيلة أو المهبلية ، وتتألف من المواطنين الأغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والتروس والخرايا ؛ ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوي الدروع والخيول ، حملة الرماح والسيوف ، وكان اليونان يفوقون الأسبويين في النظام العسكري ، ولعل ما أحرزوه من انتصارات عسكرية مجيدة يرجع إلى أنهم جمعوا إلى الطاعة في الميدان محافظتهم الشديدة على استقلالهم في الشؤون المدنية . غير أنه لم يكن عندهم مثل إلاميننداس وفليب ما تستطيع أن تسميه علم حرب ، أو معرفة بفنونها وحركاتها العسكرية . وكانت مدنها مسورة في العادة ، وكان الدفاع عند اليونان — كما هو عندنا اليوم — أعظم أثراً من الهجوم ؛ ولولا هذا لما كانت للإنسان حضارة يستطيع تسجيلها . وكانت الجيوش المحاصرة تأتي بكل خشية ضخمة معلقة بسلاسل ، يشلون بها الكتل إلى وراء ثم يدفونها نحو

السور ، وهذا هو كل ما حدث من التطور في آلات الحصار قبل عصر أرميديدس . أما الأسطول فكانت طريقة الاحتفاظ به أن يختار في كل عام أربعمائة من الأغنياء امتيازهم الخاص أن يجندوا بحارة السفن ، ويهيئوا السفينة ذات الثلاثة صفوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة ، على أن يودعوا هم نفقات بنائها وإنزالها في البحر والحفاظة عليها من العطب . وهذه الطريقة كانت أثينة تحتفظ وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو مئتين سفينة^(٥٥) .

وكانت نفقات الجيش والأسطول تستنفد الجزء الأكبر من مصروفات الدولة . وكانت مصادر الإيراد هي المكوس ، وعوائد المرائي ، وضريبة مقدارها اثنان في المائة على الواردات والصادرات ، وضريبة الفرضة ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الأجانب ، ونصف درخمة على كل معتوق ورقيق ، وضريبة العاهرات ، وضريبة البيوع ، والرخص ، والغرامات ، والأملاك المصادرة ، والجزية التي تؤديها الولايات . وقد ألغت الديمقراطية الضريبة التي كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية والتي استمدت منها أثينة ، واردة في أيام بيستراتس لأنها رأت أن هذه الضريبة تحط من كرامة الزراعة . وكانت جناية معظم الضرائب يئاط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولة ويحفظون لأنفسهم بنصيب منها . وكانت الدولة تحصل على إيراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية . وكانت في أثناء الأزمات تجبى ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الأملاك . وقد جمع الأثينيون بهذه الطريقة في عام ٤٢٨ مثلامائتي وزنة (ثالث) تبلغ قيمتها بنقود هذه الأيام مليون ريال أمريكي ومائتي ألف ريال لتسد بها نفقات حصار متليني . كذلك كان الأغنياء يدعون لأداء بعض الخدمات العامة Lelturgiai كتقديم ما يلزم من المعدات للسفراء الداهبين في مهام إلى خارج البلاد ، وإعداد بعض السفن للأسطول ، أو أداء نفقات المسرحيات ، أو المياريات الموسيقية ، والألعاب ، وكان بعض الأغنياء يتطوعون لأداء هذه

« الخدمات » ، ويلزم الرأى العام غيرهم بأدائها . وكان مما يضاعف متاعب الأغنياء أن كان فى وسع أى مواطن يطلب إليه أداء إحدى هذه الخدمات العامة أن يفرضها هو نفسه على أى مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته إذا أثبت أن هذا المواطن الآخر أغنى منه . وكان الحزب الديمقراطى كلما قوى سلطانه يجد مناسبات وأسباباً مطردة لزيادة لاستخدام هذه الوسيلة ؛ وكان المالىون ، والتجار ، والصناع ، وملاك الأراضى فى أتكنا نظير هذا جادين فى البحث عن أحسن الطرق لإخفاء ثروتهم والوقوف فى وجه الحياة ، وتدير الثورات .

وقد بلغت إيرادات أثينة فى أيام بركليز نحو أربعائة وزنة (٢٠٠٠ ر ٤٠٠ ريال أمريكى) فى العام لا تدخل فيها هذه الهدايا والقروض ، ويضاف إليها ستمائة وزنة ترد من البلاد الخاضعة لها ومن أحلافها . وكان هذا الإيراد يتفق من غير أن توضع له ميزانية توزع بنوده وتخصصها لأبواب النفقات المختلفة . وقد زاد المتجمع فى خزانة الدولة من الفرق بين الإيرادات والنفقات فى أيام بركليز ، وبفضل إدارته الاقتصادية الحكيمة ، وبالرغم من نفقات الدولة الكثيرة التى لم يسبق لها مثيل ، زاد هذا المتجمع زيادة مطردة حتى بلغ فى عام ٤٤٠ ق م ٩٧٠٠ وزنة (نحو ١٠٠ و ٢٠٠ ر ٥٨ ريال أمريكى) وهو احتياطى يعد ضخماً فى أية مدينة فى أى عصر من العصور ؛ كما يعد وجوده فى بلاد اليونان نفسها أمراً عجبياً لأننا لا نكاد نجد فيها ولا نجد فى الهلوبيونيز كلها مدينة أخرى تزيد فيها إيراداتها على نفقاتها^(٥٦) .

وكانت المدن القليلة التى يتجمع فيها هذا الاحتياطى تودعه عادة فى هيكل إله المدينة ، فكانت أثينة بعد عام ٤٣٤ تودعه فى البارثنون . وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطى وبذهب التماثيل التى تقيمها لإلهها . وقد بلغ مقدار هذا الذهب فى تماثيل أثينة بربثوس أربعين وزنة (٢٠٠ ر ٤٢٠ ريال أمريكى) ؛ وقد وضع فى التماثيل بحيث يستطيع إزالته

عنه (٥٧) . وكانت المدينة تحفظ في الهيكل أيضاً بالمال الذي تؤديه للمواطنين ليشاهدوا به المسرحيات والألعاب المقلصة .

تلك هي الديمقراطية الأثينية — أضيق الديمقراطيات وأكملها في التاريخ . لقد كانت أضيقها لقلّة عدد من يشتركون في امتيازاتها ، وأكملها لأنها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشؤون الإدارية . وتتكشف عيوب هذا النظام واضحة على مر الأيام ، بل إن الناس قد أخذوا يتحدثون بها في أيام أرسطوفان . وكان من أظهر هذه العيوب التي كثرت عنها أثينة بخضوعها لاسبارطة ، وفيليب ، والإسكندر ، ورومة ، أن قامت فيها جمعية لا تسأل عما تفعل ، تدفعها عواطفها ، فتقرر أمراً ما في أحد الأيام ، لا يعوقها عائق من سابقة أو مراجعة ، ثم تعود في اليوم الثاني فتندم أشد الندم على ما فعلت ؛ وهي بئدما هذا لا تعاقب نفسها بل تعاقب من أضلّوها ؛ ومنها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الإكليزيا ، وتشجيع الزعماء المهرجين ، ونفى القادرين من الرجال نفياً أفقد المدينة عدداً كبيراً من خبرة كبارائها ، وملء المناصب العامة بالقرعة والدور ، وتغيير الموظفين في كل عام ، وإشاعة الفوضى في الأداة الحكومية ، ومنها نزاع الأحزاب الذي لم ينفك يحدث الارتباك في توجيه أعمال الدولة وشؤونها الإدارية .

ولكن ما من حكومة إلا وهي ناقصة ، منهكة ، مقضى عليها آخر الأمر . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الملكية أو الأرستقراطية كانت تستطيع أن تحكم أثينة خيراً من حكومتها هذه ، أو أن تحفظ عليها حياتها أطول مما حفظتها الديمقراطية ؛ ولعل هذه الديمقراطية المختلة النظام ، دون غيرها من أنواع الحكم ، هي التي استطاعت أن تطلق تلك الطاقة التي رفعت أثينة إلى أسمى مقام بلغته أمة أخرى في التاريخ . ذلك أن الحياة السياسية ، داخل نطاق المواطنة ، لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده ،

ما بلغته فيه من القوة والابتكار . وأقل ما يقال في هذه الديمقراطية الفاسدة العاجزة أنها كانت مدرسة : لقد كان المقترح في الجمعية يستمع إلى أقل الرجال في أثينة ، وكان ذهن القاضي في المحكمة يشحذ باطلاعه على الأدلة ووزنها واستخراج ثمينها من غشها ، وكان الموظف يصوغه ويشكله ما يلقي عليه من تبعة وما يكسبه من تجارب ، فينضج عقله وفهمه وقدرته على الحكم . وفي هذا يقول سمنيدس « إن المدينة معلمة الرجال » (٤٨) . ولعل هذه الأسباب هي التي جعلت أثينة تقدر رجالا من طراز إيسكلس ، ويورپديز ، وسقراط ، وأفلاطون . لقد كان تقديرها لرجل من هذا الطراز هو الذي أوجدتهم فيها : وفي الجمعية ودور القضاء تكون نظارة دور التمثيل ، وكانت هذه اللور على استعداد لاستقبال خبر هؤلاء النظارة . ولم تكن هذه الديمقراطية الأرستقراطية نظاما يفسح الطريق لكل إنسان ليفعل ما يحلو له كما أنها لم تكن رقباً عتيداً على الأملاك والنظام فحسب ، بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليونانية وتشيد البارثنون ، وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ، وتهيئ له الفرص التي لا تمكنه « من أن يعيش فحسب ، بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه » . ومن أجل هذا فإن التاريخ لا يجد حرجا من أن يصفح عن جميع خطاياها :

الباب الثاني عشر

العمل والثروة في أثينة

الفصل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذي يقوم عليه صرح هذه الديمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكسحون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الديمقراطية والثقافة في كل مكان .

وعمد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح في أتكيا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية ؛ ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التي يفلحونها ، وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك في أتكيا ، كما هي الآن في فرنسا وأيرلندا ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

في الديمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة - بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجوراً عالية أو أرباحاً كبيرة في مجال الصناعة - كانت نار هذه الحرب شديدة الاستعار في أتكأ بنوع خاص . وبينما كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التي تزرى بصاحبها في نظر المواطن الأثيني ، كانت الأعمال الزراعية في اعتقاده مشرفة للمشغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومي ، والخلق الشخصي القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء^(١) .

وتربة أتكأ غير خصيبة : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠,٠٠٠ فدان لإنجليزى غير صالح للزراعة ، والثلاثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانحباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الخصبة السطحية • ولم يكن الفلاحون في أتكأ يدخرون جهداً - يبذلونه هم أو أرقاؤهم - للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم في خزانات وقيعمون الجسور حول المجارى المائية للسيطرة على فيضانها ، ويجففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويجفرون الآلاف من قنوات الرى لتحمل إلى حقولهم الظمأى قطرات الماء من النهرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيئة إلى بيئة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بوراً مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كربونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين^(٢) . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التي كانت

تصب كلها في مجرى كبير متصل بخزان عام خارج ديليون Dipyion ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان في قناة مبنية بالآجر إلى وادي نهر سفسوس Cephissus^(٣) . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكي تتغذى منها التربة ، وكانت الأعمال المتصلة بحرث الأرض وتمهيدها ، ويلب البذور أو غرس النبات ، تجري كلها في فترة الخريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل في شهر مايو ، وأما فصل الصيف الخاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكنا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧ر١٠٠ بشل من الحبوب في كل عام لاتكاد تكفي ربع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أئينة بركليز جوعاً ، وكان هذا هو الذي دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعاض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول سوفور من الزيتون والعنب . فدرجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرض أغصان الكروم بأنيابها لتزيد بذلك ثمارها^(٤) . وكانت أشجار الزيتون تغطي كثيراً من الأراضي في بلاد اليونان في أيام بركليز ، ولكن الفضل في نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لاتؤتي أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراع من إعانات لما نمت تلك الشجرة في أرض أتكنا . ولقد كان إئتلاف بساتين الزيتون في حرب الهلوبيونيز من الأسباب التي أدت إلى اضمحلال أئينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليوناني ، فعصرته الأولى تمدّه بالزيت يأكله ، والثانية تمسده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضيء به بيته ؛ وما بقي منه بعدئذ يتخذ وقوداً^(٥) . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا في عصر بركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب :

وكانت تحرم تصدير التين تحريماً باتاً ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وترعرع حتى في التربة الجلباء ، وجلورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد في التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلاً عن هذا فإن زارع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المزرعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد في الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الحبوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعنب ، والنبيل ، أهم المواد الغذائية في أتكا . ولم تكن تربية الماشية مورداً للطعام خليقاً بالذكر ؛ وكانت الخيول تربي لتستخدم في السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز للبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربي بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله في عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا في أيام الأعياد ، وقد اختفت العهد الذي نتحدث عنه مآدب الأبطال التي كانت تقام في العصر الهومري . أما السمك فكان طعاماً عادياً وممتعة في آن واحد ؛ كان الفقير يبتاعه مملحاً ومجففاً ، والغنى يستمتع بلحم « القرش » و « ثعبان البحر » طازجاً^(٦) . وكانت الحبوب تطعم سليقة ، وخبزاً ، وكمكاً ، وكثيراً ما كانت تخلط بعسل النحل . وقلما كان الخبز والكعك يسويان في المنزل ؛ بل كان كلاهما يشتري من بائعات جائلات أو من حوانيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والخضر — وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس .

والخس ، والبصل ، والثوم . وكانت الفاكهة قليلة ، ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان النقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشتري به العيد من داخل البلاد ، وكانوا يصفون العبد الرخيص بأنه « ملح » والعبد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بتارزيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبترول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا في بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والجبن . وبلغ من حبهم للكعك المحشو بالجبن أن دبجوا كثيرا من الوسائل القيمة في وصف هذا الفن الخفي^(٧) . وكان الماء شراهم العادى ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيد ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنبهات . وكانوا يحتفظون في الأرض بالتلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيد في أشهر القيظ^(٨) ، وكانوا يعرفون الجمعة في عصر يوكليز ولكنهم كانوا يحترقونها . واليوناني بوجه عام مقتصد في طعامه يقتنع بوجبتين في اليوم ، ويقول أبقرات : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطبقوا ثلاث وجبات كاملة في اليوم إذا تعودوا هذا^(٩) » .

الفصل الثاني

الصناعة

كانت أرض أتكّا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهليون يضيفون بيوتهم بمصاييح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج - أو بالشموع . وكانوا يدفئون بالحشب الجاف أو الفحم الخشبي ، يحرقونه في مواقد متنقلة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أضحت البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الحشب الذي تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجري فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين في بلاد اليونان الحصول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكّا غنية بالرخام ، والحديد ، والخراسين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة ، لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل مات التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أى ٦٠٠٠ ريال أمريكي) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من غلتها في العام (١١) . ولما اكتشفت أولى العروق المربحة في لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا تلك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Niclaus التقي ، الذي ساعد بخرافاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالاً أمريكياً في اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغل المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة (بابل من الزبال الأمريكي) لكل منهم في اليوم ، وما أكثر الثروات التي جمعها الأثنيون بهذه الطريقة . أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد في المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون في نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل ينقطع ليلاً أو نهاراً ، فإذا ما تباطأ العبد أو استراح ألعب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وألقى القبض عليه كويت جبهته بالحديد المسمى (١٢) . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمنتقب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستقلون على ظهورهم (١٣) . وكانت الحلمات بعد تكسيرها تنقل في سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ، لأن الممرات لشدة ضيقها لا تسمع لاثنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التي تجني من هذه المناجم غاية في الضخامة . وحسبنا دليلاً على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت في عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) - وهي ثروة رزقتها أثينة من حيث لا تحسب واستطاعت أن تنشئ بها أسطولاً تنقل به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ، فلما أن استولى الإسبارطيون على لوريوم في حرب البلوينيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نصب معين المناجم في القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة في اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرضاً أنكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقديم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق في مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يحركها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدي الصلابة ، ثم تغربل ويؤخذ ما ينزل من ثقب الغربال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناضد مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رفيعة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شوئوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثني بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزيئات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى في أفران للصهر مجهزة بمنافخ ترفع حرارتها . وفي قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق بواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذلك للهواء . وهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال في عمليتي الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ في المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب في أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح قفراء جدداء يغطيها التراب والرماد (١٤) .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ، وفي أتنا الآن كثير من هذه الصناعات غير المجهدة ، وهي وإن كانت صغيرة في حجمها دقيقة شديدة التخصص في نوعها ، فقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجر ها ، وتصنع آلافاً من أشكال الآنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود في مدايغ كبيرة كالتى يمتلكها كليون منافس بركليز وأيتس الذى وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناء السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والخذاءون ، وكان من صانعى المروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الخذائين من اختصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء^(١٥) . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجلران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصايح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون — وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو الملمة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج فى المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأميرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعملن الأنوال ومن ينحنن أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشتري من المصانع أو تستورد من خارج البلاد — فالأقمشة التبيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارنتم ، والأقمشة الصوفية المصبوغة من مراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ، وتعلمت نساء كوس فى أواخر القرن الرابع حل شرائق دود القز وغزل خيوط الحرير^(١٦) . وأتقنت النساء فى بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكان يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين فى بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ، وكن يستعن بمن يساعدن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هى الخطوة الأولى فى سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل فى عصر پركليز ، وكان پركليز نفسه ، كما كان ألسبيديز ، يمتلك مصنعا^(١٧) ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان فى الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ، وكان رخص القوة العضلية سبباً فى انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة في أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن في أكبرها ، وهو حانوت صنع الدروع الذى يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملاً ، وكان فى دار صنع الأحذية التى يمتلكها تيماركوس Timarchus عشرة عمال ، وفى مصنع دمستين للأساس عشرون ؛ وفى مصنعه للعدد الحربية ثلاثون^(١٨) . ولم تكن هذه الحوانيت فى بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيما بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير فى آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن فى البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل فى كثير من الأحيان إلى جانب عييده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعنى الأثينيين من رعاية آبائهم فى شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها^(١٩) . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة فى وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم فى كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التي واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تغلث منه . وكانت أحسن طرقها البرية هي الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمروور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان البحر المألوف هو الثور وهو حيوان أوتي من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغني التاجر الذي يعتمد عليه في نقل متاجره . وكانت العربات هشة تنحطم على الدوام أو تتعطل عن السير في الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على جلي ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلاً ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترسل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل^(٢٠) . وكانت في أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مأوى محبة للصوُص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس في إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التي هي أقل من غيرها بقاءً »^(٢١) .

وكان النقل البحري أقل كلفة من النقل البري وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل في العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان في وسع الأسرة أن تنتقل من بيرييه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درختين (أى ريالين أمريكيين^(٢٣)) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شيء لنقل البضائع أو لشن الحرب أو لهذا الغرض أو ذاك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هي قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت في عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون : وأنزل أهل كورنثة في البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال في الساعة^(٢٣) .

وكانت ثانی مشاكل التجارة هي العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص في الموازين والمقاييس ، وعملتها التي لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد التخوم التي تكاد تبلغ المائة عدداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر في هذا التبديل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها^(٢٤) . وفي ذلك يقول يوناني لم يشأ أن يُعرف اسمه « كان التجار في معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن في وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لهم في أى مكان آخر (٢٥) . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، وينافس بعضها بعضاً في إنقاص ما في هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ اليوم إلى أثينة » هو المثل اليوناني المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى (*) نيوكاسل (٢٦) » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درختها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحمل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية في جزائر بحر إيجة ، وكان الذهب في هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار ؛ ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا في حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١ (٢٧) . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة - وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخة أى الحفنة ؛ والدرختان تكونان استاتر Statar والمائة درخة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخة في النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى في القرن (***) العشرين (٢٨) . ولم يكن في أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفق للأسهم والسندات .

(*) والمقابل للمثل العربى امثال « كبايع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة في هذا المجلد مساوية في قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءاً من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة في عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخة ريالاً بقيمة الزئفة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبي بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتفاع طوال اتاريخ اليوناني . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثينة كان فيها مصارف مالية لاقت صعباً شديداً في توطيد دعائمها لأن الذين لم تكن بهم حاجة إلى القروض ينددون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة في هذا الحكم . وكان الأثيني العادى في القرن الخامس ممن يكتزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه في المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نفلير فائدة تراوح بين ١٦ ، ١٨ في المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير وهون بفائدة إلى أصلقاتهم ، أو يودعونها في خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بفائدة معتدلة ، وكان هيككل أهلو في دلفى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقرض من الأفراد ، ولكن الدول كانت في بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفي القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منصته (طريزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد تراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ في المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنضدة trapezite) . وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوروبا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع ثمستكليز سبعين وزنة (٤٢٠.٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم في هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد في

(*) ليس الفلاسفة والذين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد في هذه الأيام يرون فيه أضرارا كثيرة تزيد على منافعه وهم يعدون برأهم هذا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتستينيز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التي أصبحت في عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التي يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسر راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذي قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثيني . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان في حاجة إلى وساطة السوق التي كانت وظيفتها شراء السلع وتخزينها حتى يستعد المستهلك لشراؤها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعي التجزئة يعرضون بضائعهم في شوارع المدن ، أو في مؤخرة الجيوش ، أو في الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع في حوانيت أو أكشاك في الأماكن المزدحمة أو غير المزدحمة في المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساموا التجار ويتاعوا ما يحتاجه البيوت . وكان من أقسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، في أثينة أن العادات لم تكن تبيح لهن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها في إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلاً لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية لطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه في حانوته ويبيع بها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي — الذي يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً - إلى الاقتصاد الحضري - الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما يحتاجه تقريباً - ثم إلى الاقتصاد الدولى - الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تؤدى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى بيمى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة بيرية ، ومخازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير : وسرعان ما أضحي هذا الثغر النشط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب . وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يتناع الإنسان فى أثينة جميع ما يصعب عليه أن يحده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »^(٣) . ويقول توكيديدس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »^(٤) . وكان التجار يحملون من بيرية ما تذجه حقول أثنكا وحوانيتها من الخمر ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والخزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى بيرية بالحبوب من بيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والحب من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسماك من البحر الأسود ؛ والنقل من بفلاجونيا ، والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر الهنتس ؛ والذهب من ثاسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصباغ من فينيقية ، والثوابل من قورينة ؛ والسيوف من خلقيديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز وميليطس ؛ والأحذية

والبرونز من إتروريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والعمود والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوديا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت في القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التي كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروبنتس وكاريا أيام الحرب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حللتا محلها وأصبحتا بلادهما ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفي وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجه الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة في المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية و وارداتها قد بلغت في عام ٤١٣ ألفاً ومائتي وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤ر١٠٠ر١٠٠ ريال أمريكي في ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حوصها على السيطرة على مضيق الهلسنت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة في طريقها إلى المضائق ، وحملتها المشثومة على مصر في عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية في عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذي أغراها بتحويل حلف ديلوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسبارطيون الأسطول الأثيني في مضيق الهلسنت عام ٤٠٥ ، كان لابد أن تعاني أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدمير . غير أن هذه التجارة هي التي جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطوريتها عماد رقيها الثقافي ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، ويقول متيقظة
متفتحة ؛ وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها
القيود القديمة والحمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من
طابع الأرستقراطية الرينية نزعة فردية تقدمية هى طابع الحضارة التجارية .
وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه
المألوفة العتيقة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد
الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحى أثينة أكثر مدن
زمانها حيوية ونشاطاً .

الفصل الرابع الأحرار والعبود

ومنذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنون : أسرهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لابد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والتنجت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة دنيسة »(*) . وهاهو ذا زنوفون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزدى بصاحبها وهى محقة فى نظرتها هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فهم العمال ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالاً أمام الأفران .

(*) « بركليز تأليف لوطرخس » ويرى زمرمان فى كتابه « مجموعة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ و« فرجسون Ferguson » فى كتاب « الاستعمار الهوناني » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيراً ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تمثل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفسي ، وفوق هذا وذلك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الخفيفة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه في مطالب الصداقة أو الدولة (٣) :

وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها ، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدّها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ، وهي في رأى هذا وذلك لا تثبغ خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراًوهاً رخيصة ويبيعها غالية ، ولهذا لما من مواطن خلق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليوناني إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما في ذلك ، إن استطاع ، العناية بأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذي يترك له الوقت الكافي للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليوناني ، ذوق راق ، ولن يكون في البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ، ذلك أن من يعمل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمديناً بحق .

وكان الغرباء الأحرار ، الذين ولدوا في بلاد أجنبية وانحلوا أثينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدّون في أثينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب المحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء في أثينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجوالهم في البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل

الجهود ، وهذه أهم في نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية — خارج نطاق التعدين — ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار ، فصناعة الخزف بأكملها كانت في أيديهم ، وكانوا يوجطون كلما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزمهم بأن يؤدوا خدمات شخصية للدولة ، وتخدمهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة القرصة ؛ ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم في حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنفذ لهم عقودهم ، وترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمي أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباهاة مبهجة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والقنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو ينشئون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفي المسرحيات الموزنية في القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا في القرن الثالث هم للناس المحتلى في آداب المجتمع الهلنستي . وكان حرمانهم من حقوق المواطنة يؤلمهم ويحز في نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أثينة ويفخرون بانتمائهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التي تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ، وكانت هي عماد الإمبراطورية الأثينية ، وبفضلها احتفظت أثينة بتفوقها التجاري على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغرباء في الحرمان من بعض الحقوق السياسية ، وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أي الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل في الحرية حافز اقتصادي قوى للعبد الشاب وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل في العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعقدهم . كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقائه كما حدث لأفلاطون ؛ أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها في الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يسخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، في الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلاً هو المشرف على مصنع الأسلحة الذي يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغني رجال المصارف في أثينة . وكان أهم الأعمال التي تظهر قيمة العبد المحرر هي الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذي نشأ في ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث - طبقات المواطنين والغرباء والمعائيق - عبيد أنكاء البالغ عددهم ١١٥٠٠٠ عبد (*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقلدوا وهم معرضون في العراء ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم في بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهليني يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى في استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

(*) ومرجعنا في هذا الرقم هو جم Gomme . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيراً : فسويداس Suidas يقدر عدد العبيد الذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفاً (٣٤) . معتمداً في تقديره هذا على خطبة معزوة إلى هيريدس ألفت في عام ٣٢٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه ، ووفقاً بصحتها . ويقول أثينوس ، وهو من لا يعتمد كثيراً على أرقامه ، إن تعداد سكان أنكاء قلنته أجزاء دمتريوس فاليريوس حوال عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفاً ، والغرباء بمائة ألف ، والمحربين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيمبوس حوال عام ٣٠٠ عبيد كورنتية بأربعمائة وستين ألفاً ، ويقدر أرسطو حوال عام ٣٤٠ عبيد لإيجينا بأربعمائة وسبعين ألفاً (٣٥) . ولعل السبب في ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد الذين كانوا معرضون للبيع عرضاً مؤقتاً في أسواق الرقيق القائمة في كورنتية ؛ وإيجينا وأثينة .

العقل ، لكنه كان يغضبه أن يُسرق يوناني . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، وعرضونهم للبيع ، في طشيوز ، وديلوس ، وكورنث ، ولجينا ، وأثينا ، وفي كل مكان يجدون فيه من يشتريهم . وكان النحاسون في أثينا من أغنى سكانها الغرباء ؛ ولم يكن من غير المألوف في ديلوس أن يباع ألف من العبيد في اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريملون عشرين ألفاً من الأسرى في سوق الرقيق^(٣٦) . وكان في أثينا سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم في أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالاً أمريكياً إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم في العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينا الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل في البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ في المائة^(٣٧) . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبيدين ؛ وبرهن إسكينز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم في بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين^(٣٨) ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم في الأعمال الكتابية وفي خدمة الموظفين ، وفي المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى «مكافأة» يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما في الريف فكان العبيد قليلي العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادِمات في البيوت . ولم يكن الأهليون في شمالي بلاد اليونان وفي معظم الباليونيز في حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد في كورنث ، ومجارا ، وأثينا ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون

بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية في الصناعة ،
والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التي تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم
بها الأحرار والمحرون ، والغرباء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى
فيما بعد في العصر الهلنستي وفي رومة ، وقلماً كان يسمح للعبد بأن يكون له
أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب
ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حر لم يكن له أن
يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد
الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ،
وكان يلتق من الضمانات ؛ ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون
عبيداً في بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ،
أو لم يجد عملاً يقوم به ، لا يلتقى به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر
في رعايته . وإذا كان وفياً عومل معاملة الخادم المخلص الأمين التي تكاد
تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن
يقوم بعمل خارجي على شريطة أن يؤدي لسيده بعض ما يكسب من هذا
العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شيء في
ثيابه يميزه من الحر في أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا
« الأبحركي القديم » يشكو في نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبد
لا يفسح الطريق في الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بحرية ، ويتصرف
في كل صغيرة وكبيرة كأنه كفء للمواطن^(٣٩) . واشتهرت أثينة بحسن
معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد في أثينة الديمقراطية أحسن
حالة من الأحرار الفقراء في الدويلات الأبحركية^(٤٠) ، وكانت ثورات
العبيد نادرة في أثينا وإن كانت مما يخشى وقوعه القاعون بالأمر فيها^(٤١) .

ومع هذا فإن ضوائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق في بلدهم ،
وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون في وضوح لا يكاد
(٦ ج - ٢ - مجلد ٢)

يقل عن وضوح من ينددون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاق قد جعلها أرق من نعمها الاجتماعية . فهاهو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة^(٤٢) . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى في صورة ما حتى يحل اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تلور بنفسها جميع الأعمال الحقةرة^(٤٣) . وليس لدى اليوناني العادي فكرة ما عن الطريقة التي يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع . المثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليوناني رجلاً بعيده ، فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً في آرائهم ، فالفلاسفة الكليون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم في هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً في حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يورپديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوسطائي بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو في ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس في العالم أحراراً ، ولم يجعل الطبيعة أحد الناس عبداً^(٤٤) » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله .

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان في أثينة وطيبة أقل قسوة منه في امبارطة ورومة ، ولكنه كان على أية حال استغلالاً يؤدي الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار في أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان في مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة في الحياة ، ولم يكن فيها تمييز ظائقي شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا في المناجم ، أما في غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التعارف الشخصي بين الاثنين يفل من حلة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصانع خميماً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل في كل يوم من أيام العمل^(١٥) ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات في اليوم (نصف ريال أمريكي^(١٦)) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان في وسع المفاوض أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات في اليوم^(١٧) . وفي وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان في بلاد اليونان بأمثالها في بلادنا^(*) ، لقد كان البيت والضيعة في عام ٤١٤ يباعان معاً بألف ومائتي درخمة ، وكان المنعموس Mendimmus أي البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة في القرن السادس ، وبخمس درخمت في أيام الإسكندر ، وكان الحروف يباع بدرخمة في أيام صولون ، وبعشر درخمت أو عشرين في القرن

(١٥) يريد في أمريكا . (المترجم)

الخامس^(٤٨) . وكانت النقود المتداولة في أثينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع في آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت في بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠^(٤٩) .

وكان في وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة^{١٢٠ ريال أمريكي} في الشهر^(٥٠) ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذي كان يكسب ثلاثين درخمة في الشهر ويعول أسرة . ولسنا نتكر أن الدولة كانت تبادر إلى معونته في الأزمات الشديدة فتمده بالحبوب بضمن اسمي ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة في أثينة كانت تمكن القوى من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى في ظلها^(*) فقيراً^(٥١) .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة ؛ ولذلك كان المهرة الحاذقون في أثينة ، كما كانوا في غيرها من الدول ، يحصلون من الروة كل ما يستطيعون تحصيله ؛ ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التي لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها في الأسواق ثم التحكم في أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند الهونان الأقدمين تمد متواضعة إذا درست بمعايير هذه الأيام ، فقد قيل إن كلياس أخى أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتي وزنة^{١٢٠٠٠ ريال أمريكي} وإن نيشياس كان يمتلك مائة وزنة^(٥٢) .

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التي يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترفون للفقراء ما في توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة في كفايتهم من الناحية الاقتصادية ، وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينه ثراء المثرين يحس بفقره ويطيل التفكير في ميزاته التي لا يحزى عليها الجزء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهي الحرب التي استعرت نارها في جميع الدول اليونانية ، والتي كانت أشد هولاً من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسبارطة .

وبدأت هذه الحرب في أتكاً بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضي الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها في ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها^(١) . (فلم يكن السيديز الثرى مثلاً يملك أكثر من سبعين فدناً) . وكان مالك الأرض في معظم الأحوال يعمل بنفسه في أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويتعد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التي كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة في النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت في المدينة لتستمتع بما في العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن في أن يعشن في أثينة ، لبتصيدن لهن أزواجاً أثرياء ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الحليلات وقيموا المآدب المرحية كما يفعل الأغنياء المحدثون . ولإذ لم يكن في مقدور الأشراف ملاك الأراضي أن ينافسوا التجار والصناع في ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين في أن يتسمنوا ذرى

المجذ مستعدين للذل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء بالملم وتكوين طبقة عليا أحركية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويفضونها الإفراط في الديمقراطية وتحشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذى أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب الطبقات — أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يهاون مثل السبيديز براثهم وإن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا « جمهرة الكادحين » بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى الفرص والمكانة السامية من دائرتهم الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالآراء الجديدة ويستهيهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم لإبهم^(٥٤) . ولم يكونوا يتنادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضي على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن الحركة المتطرفة التى قامت فى أئينة فى القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من لهم حق الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم فى هذه المرحلة بتحرير العبيد ، أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التى تطالب بإعادة توزيعها . وكان الزعماء يتحدثون عن الماضى الذهبى حين كان الناس جميعاً متساوين فيما يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تؤخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المرسومة فى أذهانهم صورة مجتمع اشتراكى أرستقراطى — لا ينطوى على تأميم الأرض بل ينطوى على توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة فى الحقوق السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية.

المطرودة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسى لحمل الجمعية على أن تضع فى جيوب المحتاجين — بالغرامات ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة^(٥٥) — بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء^(٥٦) . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين فى مستقبل الأيام^(٥٧) .

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألفوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون -- رغم نزعه الشيوعية -- « الوحش الضار » الكامن فى نفوس الغوغاء المستنفرين الجياع^(٥٨) . وانتظم العمال الأحرار أيضاً -- وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله -- فى نواد (إرانوى ، ثياسوى *eranoi, thiasoi*) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعمالين فى العاج أو الفخار ، والسماكين ، والممثلين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضواً فى نادى المثاليين^(٥٩) (*) . بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ، فكان أعضاؤها يجتمعون فى أماكن لم يسمونها بجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً فى حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة فى ميدانى الأدب والسياسة ، فشرع مصدرو النشرات أمثال « الأجرى القديم » يصيدون النشرات ينددون فيها بالديمقراطية أو يدافعون عنها . وإذا كانت مسرحيات الشعراء الهلليين تطالب أرباب الأغنياء

(٥) انتظم المثالون والمهندسون المعاريون فى بلاد اليونان و « دائرة لهم هى طائفة البنائين كانت لها شعائرها الدينية الخلفية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة الهناليين الأسرار (المسكون) التى قامت فى أوروبا فيما بعد .

لإخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوي المال ، وشرعوا يصبون
قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين وعلى دولهم المثالية . فترى
أرسطوفان يقدم لنا في مسرحية الإكلزيازوسى Ecclesiazusae (٣٩٢)
السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلقى خطبه تقول فيها : « أريد
أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شيء ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛
فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يحنى
محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع
لدفنه وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة بشارك
فيها جميع الناس على السواء وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال
وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين وستكون النساء
ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بليروس Bleepyros : « ولكن العمل من
يقوم به ، فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهاة أخرى هى ملهاة بلوتوس
Plutus (٤٠٨) يجيز أرسطوفان للملكية المهتدة بالانقراض أن تدافع عن
نفسها بقولها إنها هى الحافز الذى لا بد منه للكسب البشرى والمغامرة . « أنا
السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد على دون
غيرى ومنذا الذى يجب أن يطرق الحديد وينبى السفن ، ويخيط
الثياب ، ويخرط الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض التيل ،
ويدبغ الجلود ، ويشق الأرض بالمحراث ، ويحنى ثمار دمر إذا كان فى
وسعه أن يعيش بغير عمل محزرا من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق
نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيع أن تنأى فى سرير ، لأن الأسرة فى
هذه الحال لن يصنع منها شيء بعد ، ولن تفسج بسطاً ، وهل فى الناس
من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟ » (٦٠) .

وكانت إصلاحات إفيلىز وبركليزيا كورة ثمار الثورة بالمقراطية . وكان بركليز

رجلا منزلاً في أحكامه معتدلاً في أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم ويلقدهمهم على الأعمال النافعة بتخفيف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات في عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الديمقراطية الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الأبركري معه إلا أن يأتمر مرة أخرى مع اسبارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة في عام ٤١١ ومرة أخرى في عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة في أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سيئاً في وقف تيار ثورتهم إلى حين ، ولهذا كانت حرب الطبقات في أثينة أهدأ منها في غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات في أثينة أساساً صالحاً تقيم عليه أساس التراضي فيما بينهما . ففي ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم في عام ٤١٢ ، وأعدموا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم (٦٦) ، وأقاموا مجتمعاً آخر شبيهاً بالمجتمع الذي قضوا عليه . وفي ليونتين طرد العامة في عام ٤٢٢ الأقلية الثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفي كورسيرا اغتالت الأقلية الثرية الحاكمة ميتين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الديمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف في السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى المحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدموا الخمسين كلهم في التو والساعة ؛ ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم أنفسهم ، وحوصر الباقون منهم في هيكل المدينة الذي لجأوا إليه حتى هكأوا من الجوع . ويصف توكينديديس حرب الطبقات في بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات في جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كورسيرا سبعة أيام طوال يلذبون من مواطنهم من يرون أنهم

أعداء لهم ، ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الديمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية ، ومنهم من قتلهم المديونون لم ليتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا أنتشر الموت في البلد بجميع أشكاله ، وحدث في هذا الوقت ما يحدث في أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان اللاعنون بالهيكل يسحبون على وجوههم من فوق مديح القربان أو يقتلون وهكذا جرت الثورة في مجراها منتقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التي وصلت إليها في آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيما ارتكبتها من الفظائع في انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التي تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجري في هذه الأماكن السابقة . . . وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في تلك الجرائم ، . . . وفي حروب الانتقام التي لجأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا في حياتهم بالعدالة في المعاملة . . . بل لم يلاقوا من بحكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في الحقن الظالم الذي تنطوى عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلى صدورهم طمعاً فيما في أيدي جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذلك للإفراط في الوحشية والقسوة التي اندفع إليها بعواطفهم الثائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفة بل بروح حزبية . . . وفي غمار هذه الفوضى التي تردت فيها الحياة في المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التي تثور دائماً على القانون والتي أصبحت الآن سيادة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة علينا . . . وأصبحت المرأة والواقحة في نظر الناس شجاعة تُرتضى من حليف وفي ، كما أصبح التردد الحكيم جبناً مموماً ، وأضحى الاعتدال

في نظر الناس ستاراً يخفي وراءه خور العزيمة ؛ والقدرة على رؤية جميع نواحي مسألة من المسائل عجزاً عن العمل في واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الضرور كلها هو الجري وراء السلطان المنبثق من الشره والطمع . . . واندفع الزعماء في المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من المنافع العامة التي يتظاهرون بالحرص عليها مستعينين على ذلك بأجل العبارات التي يلقونها في الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ، وبضرورة قيام أرستقراطية معتدلة تارة أخرى : ولم يكن هؤلاء يترددون في استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع الجرائم . . . ولم تكن شائعة من الطائفتين المقتلتين توقر الدين ، وكان استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغليات الإجرامية هو الوسيلة المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التي كان للشرف فيها أكبر نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزميله . . . وقضى بين هذين المعسكرين على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك في الكفاح أو لأن الحسد كان يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم الهلني كله قد زلزلت قواعده وتصدعت أركانه (٦٤) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثيني كان في قرارة نفسه فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ؛ ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت في تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيماً معتدلاً طريقة عملية وسطاً بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لبائات العرائس ، ونفقات الجنائز ، وملابس النساء (٦٥) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخذت منها لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . ورغم ذلك الناس : اعاءة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تحدد من دناعة

الطبيعة البشرية^(٦٦) . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، ومنذ قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعايبتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ؛ وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم في الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشْلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن في عودتها حبواً إلى تفريرية ؛ وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتي بحمولتها إلى بيرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التي تصل إلى هذا الثغر^(٦٧) . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أثمان الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس لإثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب في مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأثمان ارتفاعاً سريعاً^(٦٨) . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذي تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمي حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفُرَص الكسب ، لاعتقادها أنها هي الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعي والتجاري ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدتها

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة في أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة في أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامي ٤٨٠ و ٤٣١ عدد الموظفين ذوى الدخل الذى يمكنهم من العيش الرضى^(٦٦) ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت في أى عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعى والتجارى ، والفنى ، والفكرى ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبى من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التى خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .

الباب الثالث عشر

أخلاق الآثينيين وآدابهم

الفصل الأول

الطفولة

كان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء ، وقد اجتمعت
تحتوى الدين ، والملكية ، والدولة ، كلها لمقاومة العقم . فإذا لم يكن للأسرة
أبناء من نسلها كان التبنى هو العادة المتبعة ، وكانت تؤدى مبالغ طائلة
للحصول على الأبناء الأيتام ، لكن القانون والرأى العام كانا فى الوقت
نفسه يبيحان قتل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة
النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية نفسها يؤدى إلى الفاقة ، فكان فى
وسع كل أب أن يعرض طفله للموت بحجة أنه يشك فى صحة التنسابة
إليه أو أنه ضعيف أو مشوه . وقلما كان يسمح لأبناء الأحرار أن
يعيشوا ، وكانت البنات أكثر تعريضاً للموت من الأولاد ؛ لأن البنت
يجب أن تعد لها بائنة ، ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت اللين وجوها ومن
خلفتهم إلى خلفة من لم تكن لهم فى تربيتها يد . وكانت الوسيلة للمتبعة لتعريض
الطفل للموت أن يترك فى إناء من الفخار بجوار هيكل أو مكان آخر حيث
يستطاع إنقاذه بعد وقت قليل من تركه إذا رغب أحد فى تبنيه . وكان حتى
الآباء فى تعريض أبنائهم للموت سبباً فى غلظة قلوب اليونان ، وكان هو
والانتخاب الطبيعى الصارم عن طريق المنافسة ومعاناة صعبات الحياة ، كان
هذا وذاك من الوسائل التى جعلت اليونان شعباً سليماً قوياً ؛ ويكاد فلاسفة

اليونان يجمعون على تحجيد تحديد النسل : فأفلاطون ينادى بتعريض جميع الأطفال الضعفاء ومن يولدون من أبوين منحطين أو طاعنين في السن^(١) إلى البحر القارسي ؛ وأرسطاطاليس يدافع عن الإجهاض بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يولدوا^(٢). ولم يكن قانون أبقرات الطبي يسمح للطبيب أن يجهض الحامل ، ولكن القابلة اليونانية كانت تخلق هذه العملية ، ولا نجد قانوناً يحول بينها وبين(*) ممارستها^(٣) .

وكان الطفل يقبل في دائرة الأسرة رسمياً في اليوم العاشر بعد مولده أو قبله ، ويقام لذلك احتفال ديني خاص في البيت حول موقد النار ، يتلقى فيه الهدايا ويسمى باسمه . ولم يكن لليوناني عادة إلا اسم واحد مثل سقراط أو أرخيدس ؛ ولكن كان من عادتهم أن يسموا أكبر الأبناء باسم جده لأبيه ، ولهذا كثر تكرار الأسماء ، واختلط التاريخ اليوناني لكثرة ما ورد فيه من أسماء زنوفون ، وإسكينز ، وتوكيديدز ، وديوجين ، وزينون ، فكانوا يحاولون التغلب على ما فيها من غموض بإضافة اسم الأب أو اسم مسقط الرأس إلى الشخص فيقولون « كيمون ملتبادو » أى كيمون بن ملتبادس ، أو ديودورس صقلوس Diodorus Siculus أى ديودور الصقلي ، أو يحلون المشكلة بإضافة أحد ألقاب السخرية المضحكة مثل كليمدون Callimedon أى السرطان .

فإذا ما قبل الشخص في الأسرة بهذه الطريقة لم يكن القانون يجد تعريضه للجو ، بل كان يربي محوطاً بكل ما يحيط به الآباء أبنائهم من العناية في جميع العصور ، فرى ثمستكلز مثلاً يصف ابنه بأنه حاكم أثينة الحقيقي ، لأنه (ثمستكلز) وهو أعظم رجال أثينة نفوذاً تحكمه زوجته ، وهذه الزوجة يحكمها ولدها^(٤) . وفي وسعنا أن نستدل على هذا الحب الأبوي من كثير من المقطوعات الشعرية ذات المغزى الأدبي في دواوين الشعراء .

و لقد بكيت حين ماتت ثيونو Theonoe ، ولكن الآمال التي كنت أعلقها

(٥) وليس لدينا شواهد على أن اليونان كانوا يلجأون إلى وسائل لمنع الحمل^(٦).

على طفلنا خفت أحراني ، ثم أبَت الأقدار الحسودة إلا أن تحرمني من هذا الوالد أيضاً ، فواحسرتا ! لقد سُلِّيت مني يا ولدي ، وأنت كل ما كان ياقياً لي من سلوى ، ألا فاستمعي يا پرسفوني إلى النداء المنبعث من قلب أب حزين ، وضعي الطفل فوق صدر أمه الميتة (٧) .

وكانت الألعاب كثيرة تخفف مآسى المراهقة ، وسوف تبقى هذه الألعاب بعد أن ينسى الناس بلاد اليونان ، فترى على وعاء عطر صنع لكى يوضع فى قبر طفل ، صورة ولد صغير يأخذ عربته الصغيرة معه إلى الدار الآخرة . وكان للأطفال الرضع خشائش من الطين المحروق فى داخلها عدد من الحصا ، وكان للنبات دى يحتفظن بها فى البيت ، وكان الغلمان بنزلون جنوداً وقواداً من الطين فى مواقع عظيمة ؛ وكانت المربيات يؤرجحن الأطفال على الأرجيح ؛ وكان الأولاد والبنات يدفعون الأطواق ، ويطيرون الطائرات ، ويدبرون الحلدروف الخشبي ، ويلعبون لعبة الاستخفاء أو الغميصاء ، أو شد الحبل ، أو يتبارون فى مئآت الأنواع من المباريات بالحصا . والبندق ، والنقود والكرات . أما « بلى » العصر الذهبي فكان هو الفول الجاف يدفع بالأصابع أو الحجارة الملساء تطلق مسافات بعيدة أو تقلد فى داخل دائرة لتزحزح حجارة العدو من أمامكها وتستقر فى أقرب وضع مستطاع إلى مركز الدائرة . فإذا اقترب من الأطفال من « من العقل » — أى السنة السابعة أو الثامنة من عمرهم — لعبوا لعبة الترد ولذلك برى الكعاب (Astragali) المربعة ، وتعد أعلى رمية لست كعاب أحسن لعبة (٨) . ألا إن ألعاب الصغار قديمة قدم عطلايا آبائهم .

الفصل الثاني

التعليم

أنشأت أثينة ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية ، وكان لها بعض الإشراف القليل على المدرسين ، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة ، بل ظل التعليم فيها في أيدي الأفراد ونادى أفلاطون بأن تنشئ الدولة مدارس^(١٠) ، ولكن يلوح أن أثينة كانت تعتمد أن المنافسة حتى في التعليم نفسه كفيلة بأن تثمر أحسن الثمرات . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة يرسل إليها أبناء الأحرار في سن السادسة . ولم يكن لفظ *Paidagogos* يطلق عندهم على المعلم ، بل كان يسمى به العبد الذي يصاحب الغلام كل يوم في ذهابه إلى المدرسة والعودة منها ، ولم نسمع قط عن وجود مدارس داخلية . وكان التلميذ يبقى في المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، وإلى ما بعد السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء^(١١) . ولم يكن في المدارس أدراج بل كان يكتفى فيها بالمقاعد ؛ فكان التلميذ يضع على ركبتيه الملف الذي يقرأ منه ، أو الصحيفة ، أيا كانت مادتها ، التي يكتب عليها ؛ وكانت بعض المدارس تزدان بتماثيل لأبطال اليونان وآلهتهم ، وهي عادة انتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً ؛ وكان عدد قليل منها يمتاز بأثاثه الظريف . وكان المدرس يدرس كل المواد ، ويعنى بالأخلاق كما يعنى بالعقول ويستعمل النعال للتأديب^{(*) (١٢)} .

(*) نرى في إحدى الصور المنقوشة على جدران ممهى ، ولعلها منقولة عن صورة يونانية ، تلميذاً محمولا على كتفي تلميذ آخر ، ويمسكه تلميذ ثالث من عقبه ، والمدرس ينال عليه ضرباً^(١٣) .

وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام - الكتابة ، والموسيقى ، والألعاب الرياضية ؛ وأضاف المجددون الحريصون على التجديد في أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير^(١٤) . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب ، وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة ، وكان الكثير من مواد الدراسة يصاغ في عبارات شعرية وموسيقية^(١٥) . ولم يكونوا يضيعون شيئاً من الوقت في تعليم أية لغة أجنبية ، بله اللغات الميتة ، ولكنهم كانوا شديدي العناية بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم في مدارس الألعاب ، ولم يكن أثني يعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع .

أما البنات فكان يدرسن في منازلهن وكان تعليمهن يقتصر في الغالب على علم « تدبير المنزل » ، ولم يكن للبنات في غير اسبارطة حظ من الألعاب الرياضية العامة . وكانت أمهاتهن يعلمنهن القراءة والكتابة والحساب ، والغزل والنسيج والتطريز ، والرقص والغناء ، والعزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليماً عالياً ، ولكنهن في الغالب من المؤنسات ، أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الابتدائية حتى أغرت أسبازيا Aspasia عدداً قليلاً منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . وكان الرجال يتعلمون التعليم العالي على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين ، يلقنونهم فن الخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة والتاريخ . وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية ، وكان يتألف منهم ومن قاعاتهم هذه في أثينة قبل أفلاطون جامعة متفرقة . وكان ذوو الثراء وحدهم هم الذين يتعلمون على أيديهم ، لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً عالية ، ولكن ذوي الطموح من الشبان غير ذوي اليسار كانوا يعملون ليلاً في المصانع أو الحقول حتى يستطيعوا أن يحضروا في النهار دروس هؤلاء المعلمين المتنقلين .

فإذا بلغ الأولاد السادسة عشرة من عمرهم ، كان ينتظر منهم أن يعتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التي تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية ، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه ، فقد كانوا يدرّبون على العدو ، والقفز ، والمصارعة ، والصيد ، وسوق المركبات ، وقذف الحراب . وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدءوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية (الطفولة ، والشباب ، والرجولة ، والكهولة Geron ، auer ، epebos ، pais) ، وفيها ينخرطون في صفوف شبان أثينة المجندين المعروفة بمنظمات الشباب epeboi (*) . وكانوا في هذه المرحلة يدرّبون مدى عامين على أيدي « مدربين » ، يختارهم لهم زعماء قبائلهم ، على القيام بالواجبات الوطنية والعسكرية . فكانوا يعيشون ويأكلون مجتمعين ، ويلبسون حلالاً رسمية ذات روعة وبهاء ، ويخضعون بالليل والنهار لرقابة خلقية . وكانوا ينظمون أنفسهم تنظيمًا ديمقراطيًا على نمط نظام المدينة ، فيجتمعون في جمعية وطنية ، ويصدرون قرارات ، ويسنون قوانين يتقيدون بها ، ويكون لهم منهم حكام ، وزعماء ، وقضاة (١٦) . وكانوا في السنة الأولى يخضعون لنظام صارم من التدريب الرياضي ، ويتلقون محاضرات في الآداب ، والموسيقى ، والهندسة النظرية ، وعلوم البلاغة (١٧) . وفي التاسعة عشرة من عمرهم يرسلون لحماية الحدود ويعهد إليهم مدى عامين حماية المدينة من الغزو الخارجي والاضطراب الداخلي . وكانوا في هذه المرحلة يقسمون أمام مجلس اللسائة ، وأبدسهم ممتدة فوق مذبح الهيكل في أرجولوس Argaulos ، يمينًا مغلظة هي يمين الشباب الأثيني :

« لن أجلل بالعار الأسلحة المقدسة ، ولن أتحلى عن الرجل الذي إلى جانبي

(٥) ليس في رسنا مع هذا ترجيح تاريخ هذه المنظمات إل ما قبل عام ٢٢٦ ق م

أيا كان ، وسأقدم المعونة إلى طقوس المدينة ، وإلى الواجبات المقدسة ، بمفردى ومع الكثيرين غيرى . ولن تكون بلادى حين أسلمها إلى من يأتى بعدى أقل مما كانت حين تسلمتها ، بل ستكون أكبر وأحسن مما كانت وقتئذ . وسأطيع من يتولون القضاء حيناً بعد حين ، وأخضع للقوانين المسنونة ، ولكل ما يضعه الأهليون من أنظمة ؛ وإذا ما حاول أحد أن يفسد هذه القوانين ، فلن أسمح له بذلك العمل ، بل أدفعه بمفردى وبمعونة الجميع ؛ وسأكرم دين السلف (١٨) .

وكان للشباب مكان خاص فى دار التمثيل ، وكان لهم شأن ظاهر فى مواكب المدينة الدينية ؛ ولعل هؤلاء الشبان هم الذين نرى صورهم الجميلة منقوشة على طنف البارثونو يمتطون صهوة الجياد . وكانوا فى أوقات معينة يعرضون ما يتحلون به من صفات فى مباريات عامة ، وبخاصة فى سباق التتابع بالمشاعل من يبريه إلى أثينة . وكانت المدينة على بكرة أبيها تخرج لمشاهدة هذا المنظر الجميل ، فيصطف أهلها على طول الطريق البالغ أربعة أميال ونصف ميل . ويجرى السباق ليلاً ، والطريق غير مضاء ، فلا يرى الناس من العدائين إلا أنوار المشاعل التى يحملونها وتقفز من يد إلى يد على طول الطريق . وبعد أن يتم تدريب الشباب فى الحادية والعشرين من عمرهم ، يتحررون من سلطان الآباء ، وينتظمون رسمياً فى سلك مواطنة المدينة الكاملة .

هذه هى التربية التى تنشئ المواطن الأثينى ، أساسها الدروس التى تلقاها فى المنزل وفى الطريق . وهى مزيج صالح جميل من التدريب الجسمى ، والعقلى ، يقوى فى الشاب حاسة الجمال ، ويفرض الرقابة فى سن الشباب ، ويعطيه حريته إذا ما نضج . وقد أخرجت فى أحسن عهودها شباناً لا يفوقهم شبان آخرون فى التاريخ كله . فلما انقضى عصر بركليز كثرت النظريات حتى طغت على الناحية العملية فى هذه التربية ، فاحتدم النقاش بين الفلاسفة حول

أهداف التربية ووسائلها ؛ هل يوجه المدارس أكبر همه إلى التربية العقلية أو الخليقة ، وهل يعنى أكبر العناية بتنمية الكفاية العملية ، أو بتعليم العلوم النظرية البحتة . لكنهم مجمعون على أن مكانة التربية هي أسمى مكانة في البلاد ، ولما أن سئل أرسطس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجموح » ؛ وأجاب أرسطاطاليس عن هذا السؤال نفسه بقوله : « يمتاز به الحى على الميت » ، ويضيف أرسطس إلى قوله السابق : « حسب التعليم فضلا على التلميذ أنه حين يشهد التمثيل لن يكون حجراً فوق حجر » (١٩) .

الفصل الثالث

المظهر الخارجى

كان مواطنو أثينة فى القرن الخامس رجالا متوسطى القامة ، أقوياء البنية ، ملتحمين ؛ ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فدياس فى فرسانه . وكانت النساء كما تراهن على المزهريات وشيقات الجسم ، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسنا ذوات وقار ، وهن فى التماثيل بارعات الجمال . أما نساء أثينة فى حقيقة أمرهن فكان يضارعن فى الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا يفقهن قط ، وقد كانت عزلتهن التى تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سببا فى نقص نموهن العقلى . واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم ، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه ، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال فى هذه الناحية ، ولهذا تراهن يزدن طولهن بنعال عالية من القلين ، ويصلحن ما فى أجسامهن من العيوب بالحشايا ، ويضغطن ما زاد فيها بالأربطة ، ويرفعن ثداءهن بحاملات من القماش(*) (٢٠).

وشعر اليونان أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب . وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبته هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن ، وكان بعض الرجال يحلون حذوهن فى هذا(٢١). وكانوا جميعاً رجالا ونساء يدهنون رؤوسهم بالزيت ، يستعينون به على نماء شعرهم ووقايته من تأثير الشمس ؛ وكانت النساء يخلطن الزيت ببعض العطور

(*) يقص فلوطرخس قصة طريفة يقول فيها إن موجة من الانتحار مرت بين نساء ميلطس ، ولكن هذه الموجة قضى عليها قضاء تاما فجأتها أمر أصدرته الحكومة يقضى بأن تحمل من تلتهج عارية الجسم إلى قبرها مارة بالسوق العامة (٢١) .

ويقلدهن في ذلك بعض الرجال^(٢٣) . وكانوا جميعاً رجالاً ونساء في القرن السادس قبل الميلاد يطيلون شعرهم ويبدلون غداث حول الرأس أو خلفها ، فلما كان القرن الخامس أخذت النساء يصففن شعرهن ويعقصنه وراء رقابهن ، أو يتركه ينوس على أكتافهن ، أو يطوينه حول الأعناق وفوق الصدور . وكان النساء يحبن ربط شعرهن بأشرطة رمادية اللون تزدان بجوهره فوق الجبهة^(٢٤) ثم أخذ الرجال بعد مرثون يقصون شعرهم ، كما أدخلوا بعد الإسكندر يحلقون شواربهم ولحاهم بأمواس من الحديد على شكل المنجل . ولم يكن اليوناني يطيل شاربه من غير أن يطيل لحيته ، وكان يعنى بتسوية لحيته حتى تنتهى عادة بطرف رفيع . ولم يكن عمل الحلاق مقصوراً على قص الشعر أو حلق اللحية أو تسويتها ، بل كان يعنى إلى ذلك بتدريم الأظافر وتجميل من يتقدم إليه في أعين الناس ، وكان إذا فرغ من عمله قدم إليه امرأة كما يفعل الحلاقون في هذه الأيام^(٢٥) . وكان للحلاق جانوته ، وكان هذا الحانوت « مجمعاً لغير المحموزين » (كما يسميهم ثيوفراستس) يتناقلون فيه أخبار الناس . ومعابهم ، ولكنه كان في كثير من الأحيان يقوم بعمله خارج حانوته في العراء . وكان الحلاق ثرثاراً بحكم مهنته ، ويروى أن حلاقاً سأل الملك أركلوس كيف يحب أن يقص شعره فأجابه الملك « في صمت »^(٢٦) . وكانت النساء أيضاً يحلقن الشعر من بعض أجزاء جسمهن ، ويستخدمن في هذا أمواساً أو أدهانا مصنوعة من الزرنيخ والجير .

وكانت العطور — المصنوعة من الأزهار مخلوطة بالزيت — تعد بالمئات ، ويشكو سقراط من كثرة استعمال الرجال لهذه العقاقير^(٢٧) . وكان لكل سيده راقية عدة كبيرة من المرايا ، والدبايس العادية والإنجليزية ، ودبايس الشعر ، والملاقط ، والأمشاط ، وقنينات العطور ، وأواني الأصباغ الحمراء ،

والأدهان . وكن يصبغون خدودهن ، وشفاههن بعضى من السلقون وجلون الشنجار (*) . أما الحواجب فكانت تصبغ بسنّاج المصابيح أو بمسحوق الإثمد ، وتلون الجفون بالإثمد ، وتسود الرموش ثم تطلّى بمزيج من زلال البيض والأشّقّ (**). وكانت الأدهان ومحاليل القسل تستخدم لإزالة التجاعيد والشمس والبقع من الوجه والجسم ، وكانت بعض الأدهان الملوّنة تبقى على الجسم ساعات طويلاً لكي تظهر المرأة في أعين الناس جميلة إن لم تكن جميلة بطبيعتها . وكان زيت المصطكي يستخدم لمنع العرق ، وكانت مراهم مبطرة خاصة توضع على أجزاء مختلفة من الجسم . وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبيها وشعرها بالبردقوش ، وعنتها ، وركبتها بخلاصة الصّعتر ، وذراعيها بخلاصة النعناع ، وساقها وقدميها بالمُر (٢٨) . وكان الرجال يحتجون على هذه الأسلحة المغرية ، ولكن احتجاجهم لم يكن له من النتائج أكثر من احتجاج أمثالهم في أي عصر من العصور . من ذلك أن إحدى الشخصيات في مسلاة أثينية تعبر سيدة بتعداد ما تستخدمه من الأدهان والأصبغ الكثيرة فتقول : « إذا خرجت في الصيف تحذر من عينيك خطان أسودان ، وجرى نهر أحمر من خديك إلى عنقك . وإذا مس شعرك وجهك أبيض من الرصاص الأبيض » (٢٩) . إن النساء كما هن لأن الرجال لا يتغيرون .

وكانت المياه قليلة فكانت النظافة تتطلب وسائل أخرى غير المياه ، فأما الأغنياء فكانوا يستحمون مرة أو مرتين في اليوم ، ويستخدمون في استحمامهم صابوناً مصنوعاً من زيت الزيتون معجوناً بمادة قلوية ، ثم يتعطرون .

(*) الشنجار بالكسر معرب شنكار وهو عس الحمار ويسمى الكحلاد ، والحيدرا ، ورجل الخدامة ، وهو نبات لاصق بالأرض مشوك له أصل في غلظ أصبع ، أحمر كالدم يصبغ اليد إذا مرس ، ينبت الأرض الطيبة التربة (المحيط) ، واسمه بالإنجليزية alkanet . (المترجم)

(**) الأشق كسكر ويقال : وشق وأشج صبغ نبات كالثاء شكلا gum Ammoniac عن المحيط . (المترجم)

وكان البيت الرأقي يشتمل على حمام مبلط ، به حوض كبير من الرخام يحمل إليه الماء عادة باليد ، وكانت المياه أحيانا تنقل في أنابيب وقنوات إلى البيت مخترقة جدران الحمام ، ثم تندفع من صنبور معدنى فى صورة رأس حيوان ، وتسقط على أرض الحمام الرشاش وتجرى بعدئذ إلى الحديقة (٣٠) .

وأما الكثيرون من الأهلين الذين لا تتوافر لديهم المياه للاستحمام فكانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ثم يزيلونه بمكشط هلالى الشكل كما نرى ذلك فى تمثال أبكسيمنس Apoxyomeon للمثال ليسبس Lysippus ولم يكن اليونانى شديد الحرص على النظافة ، ولم تكن أهم وسائله للمحافظة على صحته هى العناية بها داخل المنزل ، بل كان أهمها الاقتصاد فى المأكل والحياة الخارجية النشيطة . وكان يندر أن يجلس داخل الدور والملاهى والمعابد والأبهاء المغلقة الأبواب ، وقلما كان يعمل فى المصانع أو الحوانيت المغفلة . وكانت مسرحياته وعبادته ، وحتى حكومته فى ضوء الشمس ، وكان فى وسعه أن يخلع عن جسمه ملابسه البسيطة التى يصل منها الهواء إلى جميع أجزائه ، ولا يكلفه خلعها أكثر من التلويح بذرعه ، للقيام بجولة مصارعة ، أو التمتع بنجم شمس .

وكانت ملابس اليونانى تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين فى غير إحكام حول الجسم ، وقلما كانتا تفصلان لتوأما لا بساً بعينه . وكانتا تختلفان فى بعض تفاصيلهما الصبرى فى المدن المختلفة ، ولكنهما ظلتا بحالهما عدة أجيال . وكان أهم رداء للرجال فى أثينة هو القباء Tunica ، وأهمه للنساء هو المزور peplos ، المصنوعين من الصوف . فإذا كان البحر يتطلب التدفئة غلليا بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدل فى غير كلفة فى تلك الشايات الطبيعية التى تسر العين حين تقع عليها فى التماثيل اليونانية . وكانت الملابس فى القرن الخامس بيضاء اللون فى العادة ، غير أن النساء ، وأغنياء من الرجال ، والشبان المتأنقين ، كانوا يعمدون إلى تلوينها ، ولم يكونوا يستنكفون من لبس الثياب القرمزية أو الحمراء الداكنة ، أو ذات الخطوط

المختلفة الألوان والحواشى المطرزة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة . ولم تكن القبعات مرغوباً فيها لأنها كانت فى رأيهم تمنع رطوبة الجو عن الشعر فيشيب قبل الأوان^(٣١) ، ولم يكن الرأس يغطى إلا فى أثناء السفر ، والقتال ، أو العمل فى أشعة الشمس الحارة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل أو عصابات ملونة ، وكان العمال فى بعض الأوقات يغطون رؤوسهم بقلنسوات ويتركون سائر الجسم عارياً^(٣٢) . أما الأحذية فكانت أخفافاً (صنادل) ، ونغلا طويلة أو قصيرة تصنع عادة من الجلد ، سوداء اللون للرجال وملونة للنساء . ويقول ديساركس Dicaerchus إن نساء طيبة يمتددين أحذية قصيرة أرجوانية ذات شرائط تظهر منها القدم العارية^(٣٣) . وكان معظم الأطفال والعمال لا يمتدنون شيئاً مطلقاً ، ولم يكن أحد يعنى بلبس الجوارب^(٣٤) .

وكان الأهلون ، رجالاً ونساء ، يمتدنونهم أو يعلنونه للناس بالحلى والجواهر ، فكان الرجل يلبس عدة خواتم^(٣٥) . وكانت عصى الرجال تنتهى فى أعلاها بكرات من الفضة أو الذهب . وكانت النساء يتملكن بالأساور ، والقلائد والأكاليل من الجواهر ، والأقراط ، ودبابيس الصدر ، والعقود ، والمشابك ذات الجواهر ؛ وكان هن فى بعض الأحيان أربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن . وكانت الطبقات التى تسرف فى الترف فى هذه البلاد هى الحديثة الثراء كما تفعل أمثالها فى جميع البلاد التى تسودها الثقافات التجارية . وكانت أسوارته تحدد أنواع أغطية الرأس لنسائها ، كما كانت أثينة تحرم على النساء أن يأخذن معهن فى أسفارهن أكثر من ثلاث مجموعات من الثياب^(٣٦) . غير أن النساء كن يسخرن من هذه القيود ، ويتهربن منها دون أن يستعن على ذلك الهرب بالحامين . ذلك أنهن كن يعرفن أن قيمة المرأة عند معظم الرجال وعند النساء إنما تقدر بملابسها ؛ وكان مسلكهن فى هذه الناحية يكشف عن حكمة تجمعت لهم فى خلال آلاف من القرون الطوال .

الفصل الرابع

المبادئ الأخلاقية

لم يكن الأثينيون في القرن الخامس مثلاً طيباً في حسن الخلق ، وذلك لأن ارتقاء عقولهم قد أحل الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية ، وجعل منهم أفراداً يكادون يكونون لا خلاق لهم . نعم لأنهم قد اشتهروا بعلمهم القضائي ، ولكننا قلنا نراهم يوثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم ، وقلما يشعرون بوخز الضمير ، أو يفكرون قط في أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم . وتختلف آدابهم باختلاف طبقاتهم ، ففي محاورات أفلاطون نرى الحياة تجملها للركة الخلابة أما في ملاهى أرسطوفان فالآداب لا وجود لها قط ، وفي الخطب العامة نرى السباب الشخصي هو روح البلاغة . ولقد كان « البرابرة » الذين هذبهم الدهر في مصر وفارس وبابل أرقى من اليونان كثيراً في هذه الناحية . وكانت التحيات عند الالتقاء ودية قلبية ولكنها بسيطة ، فلم يكن فيها انحنايات لأن هذا كان يبدو للمواطنين بقية من بقايا الملكية البائدة . وكان السلام باليد مقصوراً على الحلف أو الوداع ؛ أما التحية العادية فلم تكن تزيد على قولهم « ابتهج » (Chaire) تتبعها كما تتبعها عند غيرهم إشارة طريقة إلى الجحود (٢٧) .

وقل لإكرام الضيوف بعد أيام هومر لأن الأسفار أصبحت آمن بعض الشيء مما كانت في ذلك الوقت ، ولأن التزل كانت تقدم الطعام والمأوى للمسافرين ؛ غير أن كرم الضيافة ظل مع ذلك من فضائل الأثينيين البارزة . وكانوا يرحبون بالغرباء ولو لم يقدمهم إليهم أحد ؛ فإذا جاء الغريب بخطاب من صديق له ولمن جاء إليه ، قدم له الطعام والمأوى ، وربما قدمت له عند رحيله بعض الهدايا . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصحب

معه ضعيفاً غير مدعو . وكانت حرية الدخول إلى منازل الغير سبباً في قيام طائفة من الطفيليين على مر الأيام . وكانت الكلمة المستعملة في هذا المعنى paraisitoi تطلق في الأصل على الكهنة الذين يأكلون « الحب الباقي » من مقررات المعابد . وكان الأغنياء استخياء في عطائهم الخاص والعام . وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة اليونان فعلاً واسماً ، واللفظ الذي يطلق عليها philanthropy من أصل يوناني . وكان التصديق - Charitas أى الحب - من طباعهم ، وكان لديهم هيئات للعتاية بالغرباء والمرضى ، والفقراء ، والطاعنين في السن (٣٨) . وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود وتربي أيتام الحرب على نفقة الدولة ؛ ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل (٣٩) . وكانت الدولة تدفع في أوقات الجذب والحرب ، وغيرهما من الأزمات إعانة يومية قنصرها أبولتان (٣٠٠ من الريال الأمريكي) للمحتاجين ؛ تضاف إلى ما كانت تعطيه كلا منهم لحضور جلسات الجمعية ، والحاكم ، ومشاهدة التمثيل . ولم تكن هذه الإعانات تخلو من الفضائح المعتادة ، فها هو ذا ليسيلاس يذكر في خطبة له رجلاً يتقاضى إعانة من الأموال العامة ، مع أن له أصدقاء من الأغنياء ، ويكسب مالا من عمله اليدوى ، ويركب الخيل للرياضة (٤٠) .

ولعلك كنت إذا سألت اليوناني قال لك : إن الأمانة أحسن سياسة ، ولكنه كان في حياته العملية يجرب كل الوسائل الأخرى أولاً . فترى المغنين في مسرحية فلكيتس Philoctetes لسفكل يظهران أعظم العطف على الجندي الجريح الذي تحلى عنه رفاقه ، ثم ينهبون فرصة غفوته فيشيرون على نيوبتلموس Neoptolemus أن يغدر به ويسرق سلاحه ، ويتركه بعدئله لمصيره . وكان كل الناس يشكون من أن بائع الأشتات الأثيني يغش بضاعته ، ويخسر الكيل والميزان ، وينقص ما بقى للمشتري من نقود على الرغم

من مفتشى الحكومة ، ويحول مرتكز الميزان نحو الكفة التي بها الموزون^(١٠) ،
ويكذب كلما سنحت له الفرصة ؛ وهو متهم بأخذ الودم^(*) من الكلاب^(١١) .
ويطلق كاتب مسرحى هزلى على بائعى السمك اسم « السفاحين » ويسمى بهم
كاتب أرحم بهم منه « لصوصا »^(١٢) . ولم يكن رجال السياسة خيرا من
هؤلاء كثيرا ؛ فلا نكاد نرى رجلا ذا شأن فى الحياة الأثينية العامة لم يتهم
بالالتواء^(١٣) ، وإذا وجد فيهم رجل شريف مثل أرسطيدس عد من خوارق
الطبيعة يكاد يبلغ حد البشاعة ، وحتى ديوجين نفسه بمصباحه الذى يسير به
فى النهار يعجز عن أن يعثر على رجل آخر شريف . ويقول توكيديدس إن
الرجال كانوا أكثر حرصاً على أن يوصفوا بالخلق من أن يوصفوا بالأمانة ،
ويظنون أن الأمانة هى السذاجة^(١٤) . وكان من أيسر الأمور أن نجد اليونان
يخونون وطنهم . وفى ذلك يقول هوزنياس : « لم يكن ينقص بلاد اليونان فى
أى وقت من الأوقات رجال مصابون بهذا الداء داء الخيانة^(١٥) » . وكانت
الرشوة هى السبيل المألوفة للرقى ، ولفرار المجرمين من العقاب ، ولتلبس المطالب
الدبلوماسى . وحصل بركليز على مبالغ طائلة من المال للخدمات السرية ،
وأكبر الظن أنه استخدمها لتيسير أسباب المفاوضات الدولية . وكانت المبادئ
الإخلاقية قبلية الطابع إلى أقصى حد ، وينصح زونوفون فى رساله له فى
التربية بالالتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة فى معاملة أعداء البلاد^(١٦) ..
ويدافع الرسل الأثينيون الذين وفدوا إلى إسبارطة فى عام ٤٣٢ عن
إمبراطوريتهم بتلك العبارات الصريحة : « لقد كان القانون السائد على
الدوام أن يخضع القوى للضعيف . . . ولم يسمح أحد بأن تقف المطالبة
بالعدالة فى سبيل المطامع إذا لاحت للتخلص فرصة كسب شئ ما قوة

(١٠) الودم الحزة من الكرش والمصارين المقطوعة تمقد وتلوى ثم ترمى فى انقدر والجسم
أودم وودوم ، وهى الودمة وجمها وذام . (المخصص) . وقد استعملنا هذا « اللفظ »
(السجق) . (الترجم) .

واقترح^(١٧) . ولا يبعد أن تكون هذه الفقرة هي وخطب الزعماء الأثينيين في ميلوس^(١٨) من خيال توكيديدز الفلسفي أثارها أقوال بعض السوفسطائيين الساخرة ؛ ومن أجل هذا فإن الحكم على اليونان من أخلاق جورجياس ، وكلكليز Callicles ، وثراسيماكوس Thrasymachus التي تخالف العرف المألوف لا يكون فيه من العدالة أكثر مما في وصف الأوريين المحدثين بالاستناد إلى أقوال مكيبلى ، ورشفوكول ، ومنتشة ، واسترنر Stirner الشاذة الغربية . ولستأحب أن نقول ماذا في هذا الحكم من عدالة . ومما يدل على أن اليونان يروون أنهم أرقى من أن يتقبلوا بهذه القيود الأخلاقية أن الاسبارطيين لا يترددون في موافقة الأثينيين على هذه الطائفة من نقط الخلاف الأخلاقية . ولما أن استولى فوبيداس Phoebidas اللاديمونى على قلعة طيبة غدرأ وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبين ، وسئل أجسلوس Agesilus ملك اسبارطة عما في هذا العمل من العدالة أجاب بقوله : « ليس لك إلا أن تسأل هل هو نافع أو غير نافع ، لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح » ، وكثيراً ما كانت تحرق شروط الهدنة ، وتنقض العهود الصريحة ، وتقتل الوفود^(١٩) . على أننا نعود فنقول : إن اليونان قد لا يختلفون عنا إلا في صراحتهم لا في مسلكهم ، ذلك أن تفوقنا عنهم في الرقة يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما نفعل .

ولم يكن للعادة والدين إلا أثر قليل في كبح جماح المتصرين في الحرب . لقد كان من الأمور المألوفة ، حتى الحروب الأهلية ، أن تهب المدن المفتوحة ، وأن يقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يقبض عليهم من غير المحاربين ، أو أن يتخذوا عبيداً إذا لم يقتلوا ، وأن تحرق البيوت ، وأشجار الفاكهة ، والمحصولات الزراعية ، وأن تباد الحيوانات ، وتتلغ البنور لكيلا تزرع في المستقبل^(٢٠) . وقد ذبح الاسبارطيون في بداية حرب البلوونيز كل من وجلوه من اليونان في البحر

وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينة أو من المحايدين^(٥١) ، وقتل الاسبارطيون في معركة إيجسبوتامى Aegospotami التي انتهت بها هذه الحرب ، ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين^(٥٢) — ويكاد هؤلاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . وكانت الحرب من نوع ما — حرب مدينة ضد مدينة ، أو طبقة ضد طبقة — هي الحالة المألوفة العادية في بلاد اليونان . وعلى هذا النحو أخذت هذه البلاد التي هزمت ملك الملوك يقاتل بعضها بعضاً ، فيلقى اليوناني في ألف موقعة ، ولم يكد يمضي قرن واحد على معركة مرثون حتى أخذت الحصار اليونانية ، وهي أزهى حضارات التاريخ على الإطلاق ، تنفى نفسها بهذا الانتحار القوي الطويل الأمد ؛

الفصل الخامس

الطبائع

إذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يخلبون عقولنا ويستندرون عطفنا ، فما ذلك إلا لأنهم يسترون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما طبعوا عليه من قوة المغامرة والذكاء التي تبعث البهجة في النفوس . لقد كان قرب البحر من الأثينيين ، وما أتاحه لهم هذا القرب من فرص تجارية نافذة ، وحرصهم على الحرية في حياتهم الاقتصادية والسياسية ، مما جعل الأثينيين إنساناً مرن العقل والطبع ، سريع التهيج والحساسية إلى أقصى حد . ألا ما أعظم ما يتبينه الإنسان من تغير الطبائع حين ينتقل من الشرق إلى أوروبا ، فهو ينتقل من الأصقاع الجنوبية الوسنانة إلى أقاليم وسطى في شتائها من البرودة ما يكفي لبعث النشاط دون ركود ، وفي صيفها من الدفء ما يطلق القوى دون أن يضعف الجسم والروح . هنا يكون الإيمان بالحياة وبالإنسان ، والتحمس للحياة تحمساً لا نجد له نظيراً قبل عصر النهضة .

من هذا الوسط المنبه المنشط تنبعث الشجاعة وتنبعث الثورة العاطفية البعيدة كل البعد عن فضيلة ضبط النفس (Saprosyne) التي يدعو إليها الفلاسفة دون جدوى ، وعن الرصانة التي يعزوها الشاب ونكلمان Winckelmann والشيخ جوته إلى اليونان العاطفيين القلقين . ليست المثل العليا لأمة من الأمم عادة إلا ستاراً يخفى عن الأعين الفاحصة حقيقة أمرها ، ولذلك فإن الواجب يقضى ألا تعد من الحقائق التاريخية . إن الشجاعة والاعتدال — أو الرجولة (Andreia) وعدم الإفراط في شيء ما (Meden agan) إذا شئت الألفاظ التي نقشت على جدران معبد دلفي — شعار اليوناني ، وهو يحقق أولها في كثير

من الأحوال أما ثانيهما فلا يحققه من اليونان إلا الفلاحون ، والفلاسفة ،
والقديسون . أما الأثيني العادى فهو رجل شهوانى ولكنه رجل ذو ضمير
حى ، ولا يرى خطيئة فى ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم
الذى ينجيم عليه فى فترات تفكيره ، وهو مغرم بالخمر ولا يستحى أن يسكر
منها بين الفينة والفينة ، ويجب النساء حباً جثائياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما ،
ولا يجد حرجاً فى أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنسي
الشاذ ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها . ولكنه
رغم هذا يخفف الخمر بإضافة ثلاثة أقداح من الماء لكل قلعين منها ، ويرى
أن تكرار السكر مخالف لمقتضيات اللوق السليم ، وهو يعظم الاعتدال بل
يعبده مخلصاً فى عبادته إياه ، ولكنه قلما يسر عليه فى حياته العملية ،
ويصوغ مبدأ السيطرة على النفس صياغة لا تجارها فى الوضوح صياغة أى
شعب آخر فى التاريخ لهذا المبدأ السامى .

إن الأثينيين أذكى من أن يكونوا صالحين ويسخرون من البلاء أكثر
مما يمتقون الرذيلة ، وليسوا كلهم حكماء ، وليس لنا أن نتصور أن نساءهم
كلهن حسان مثل نسكا Nausica ، أو أن فيهن من أسباب الحلال ما فى هلن ،
كما لا يحق لنا أن نتصور أن رجالهم يجمعون بين شجاعة أجاكس وحكمة
نسطور : لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان وغفل عن ذكر بلهائهم
(عدا نيشياس Nicias) ٤ وقد يبدو عصرنا نفسه عظيماً حين ينسى معظمنا ،
ولا ينجوا من هذا النسيان إلا الشوامخ منا . وإذا أخرجنا . من حسابنا ما يبعثه
قدم العهد فى القلوب من عطف وحنان على الأقدمين ، بقى أن نقول إن
الأثينى العادى لا يقل دهاء عن الشرق ، ولا يقل شغفاً بالحدة عن
الأمريكى ، متشوف طلعة على البوام ، لا ينقطع عن الحركة والانتقال ،
ولا ينفك ينادى بالهتواء البرميندى(*) ، ولكنه مضطرب مهتاج مثل
هرقليطس . ولم يكن لشعب قبل الأثينيين ما كان لهم من قوة الخيال أو

(*) نسبة إلى الفيلسوف برميندس الإيل (القرن السادس قبل الميلاد) . (المترجم)

فصاحة اللسان ؛ ولقد كان التفكير الواضح والتعبير الخالي من الغموض يبدوان للأثيني من الصفات القدسية ، فلم يكن يطبق التشويش والارتباك العلمى ، ويرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرق متع الحضارة . ولقد كان سبب ما امتاز به التفكير وما امتازت به الحياة من غزارة وقوة ، أن اليونانى كان يرى أن الإنسان هو المقياس الذى تقدر به الأشياء جميعها ؛ فالأثيني المتعلم يعشق العقل ، وقلما كان يشك فى قدرته على إدراك العالم وتصويره ؛ وكان حب المعرفة والرغبة فى الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتهاته ؛ وكان شغفه بهما شغفاً مسرفاً قوياً كشفه بغيرهما . ولقد كشف فيما بعد أن للعقل الإنسانى والجهود البشرية حدوداً يقفان عندها ولا يتخطيانها ، وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل المترتب على هذا للكشف أن تنابه حالة من التشاؤم عجيبة لا تتفق قط مع بهجته ومرحه ، وحتى فى العصر الذى بلغ فيه إنتاجه الفكرى غايته ، كانت آراء أعمق مفكريه - وهم كتاب المسرحيات لا الفلاسفة - تشوبها عقيدته بنى أن بهجة الحياة خداعة قصيرة الأجل ، وأن الموت رابض له متربص به .

وكانت روح البحث هى التى أنشأت علوم اليونان ، كما كان الحرص على الاستحواذ منشأ حياتهم الاقتصادية والعامل المسيطر عليها . وفى هذا المعنى الأخير يقول أفلاطون مبالغاً كمادة علماء الأخلاق : « إن حب الثراء يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال ، فلا يفكرون إلا فى أملاكهم الخاصة ، التى تتعلق بها نفس كل مواطن »^(٥٣) . فالأثينيون فى حقيقة أمرهم حيوانات متنافسة ، وبهذه المنافسة القاتلة التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، يحفز بعضهم هم بعض . وهم على جانب كبير من الذكاء ، ولا يقلون دهاء واحتيالا عن الساميين ، وهم صلاب الرأى صلابة العبرانيين كما وصفهم التوراة ، وهم مثلهم مشاكسون ، معاندون ، متكبرون ، كثيرو اللجاج والمساومة

في البيع والشراء ، لا يتركون نقطة في حديثهم من غير جدل ومناقشة ؛ إذا عجزوا عن محاربة غيرهم من الأمم تحاربوا فيما بينهم . وليسوا على جانب كبير من رقة العواطف ، يعيبون على يوربديز دموعه في مسرحياته ، يشفقون على الحيوان ويقسون على الإنسان : فهم يعذبون العبيد دون ذنب ، ويخيل إلى من يراهم أنهم ينامون ملء جفونهم بعد أن يلجأوا جميع من في المدينة من غير المحاربين ، ولكنهم مع ذلك يكرمون العاجز والفقير ، ودليلنا على ذلك أنه لما علمت الجمعية أن حفيدة أرسطجيتون Aristogeiton قاتل الطغاة تعيش في لمنوس فقيرة معذمة ، أمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل به على زوج لها . وكان المظلومون المضطهدون من المدن الأخرى يجدون في أثينة ملجأً يحصمهم ويعطف عليهم .

والحق أن الأثينيين لم يكن يفكر في الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن ، فهو لا يأمل أن يكون له ما للصالحين من أفراد الطبقة الوسطى من ضمير ، أو ما للأشراف من شعور بالشرف ، بل يرى أن أحسن الحياة هي الحياة الكاملة ، المليئة بالصحة ، والقوة ، والجمال ، والانفعال ، والثراء ، والمغامرة ، والتفكير . والفضيلة عنده هي الرجولة (Arete) — أو الحرية كما كان معنى اللفظ في بادئ الأمر — والتفوق (Ares أى المريخ) ، وهي تقابل بالضغط كلمة viritus عند الرومان ومعناها الرجولة . والرجل المثالي عند الأثينيين هو الكلوجاثوس Kalogathos أى الذى يجمع بين الجمال والعدالة في فن من فنون الغيش الراقية ، والذى يقدر في صراحة قيمة الكفاية ، والشهرة ، والثراء ، والصدقة ، كما يقدر الفضيلة وحب الإنسانية . ويرى الأثيني كما يرى جوته أن ترقية النفس هي كل شيء . ويختلظ بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور لا نستسيغه نحن لصراحته : فالليونان لا يملون الإعجاب بأنفسهم ، ويعلمون في كل مقام تفوقهم على غيرهم من المحاربين ، والكتاب ، والفنانين ، والشعوب بأسرها . وإذا شئنا أن نعزف الفرق بين اليونان والرومان فما علينا إلا أن نوازن بين الفرنسيين والإنجليز ، وإذا أحببنا أن نحس بالروح

الإسبارطية وندرك الفرق بينها وبين الروح الأثينية فما علينا إلا أن نفكر في روح الألمان وروح الفرنسيين .

وقد اجتمعت صفات الأثينيين كلها لتقيم دولة - المدينة ، ففيها ولدت قوتهم وشجاعتهم ، وحدة ذكائهم وألمعتهم ، وشغفهم لسانهم ، وشدة مراسهم ، ومحبتهم للكسب ، وشدة غرورهم ، ووطنيتهم ، وعبادتهم للجمال والحرية ، وفي دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات كلها وبلغت غايتها . وهم سريعو الانفعال ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى . ويجوزون التعصب الديني من آن إلى آن ، غير أنهم لا يتخذونه وسيلة للحد من حرية الفكر ، بل يتخذونه سلاحاً من أسلحة السياسة الحزبية ، ورباطاً لتجارهم الأخلاقية . أما فيما عدا هاتين الحالتين ، فهم يستمسكون بقدر من الحرية ، بندهش منه زوارهم الشرقيون ويبدو في نظرهم الفوضى بعينها ، ولكن حريتهم هذه ، وكون كل منصب من مناصب الدولة ميسراً لكل مواطن ، وكون كل مواطن محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى ، لكن هذه الأمور هي التي جعلتهم يخصصون نصف حياتهم لخدمة دولتهم . ولم يكن بينهم إلا المكان الذي يتأمون فيه ، أما حياتهم فكانوا يقضونها في السوق العامة ، وفي الجمعية ، والمجلس ، والمحاكم ، وساحات الأعياد الكبرى والمباريات ، وفي مشاهدة المسرحيات التي يعجلون بها مدينتهم وآلهتها . وهم يعرفون بحق الدولة في أن تجندهم وتستولي على أموالهم متى احتاجت إليهم وإليها . وهم يعفون عن إرهابها إليهم واستيلائها على أموالهم ، لأن عملها هذا يتيح لهم فرصة البناء الإنساني أكبر مما عرفه الإنسان في أي عصر من العصور السابقة ، وهم يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لأنها مهد حرياتهم وحارسها . وفي ذلك يقول هيرودوث : « وبهذا زاد الأثينيون قوتهم ، ويتضح كل الوضوح ، من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة ، أن الحرية من أعظم النعم ؛ أليس ترى أن الأثينيين ، وهم خاضعون لحكم الطغاة ، لم يكونوا يفوقون جيرانهم في الشجاعة أدنى تفوق ، ولكن لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى صاروا أشجع الشجعان بلامنازع » (٥٤) .

الفصل السادس

العلاقات الجنسية قبل الزواج

تبدو أثينة إبان مجدها شرقية أكثر منها أورية في أخلاق أهلها ، كما تبدو كذلك في حروفها الهجائية ، وفي مقاييسها وموازينها ، وسكتها . وملابسها ، وموسيقاها ، وفلكها ، وطقوسها الصوفية : ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافاً صريحاً بأن العلاقة الجنسية هي أساس الخب ، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذي تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض أفلاطونية خالصة . لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج ، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية ، بعد أن يبلغوا الحلم ، إلا القليل من القيود الخلقية . وقد كانت الأعياد الكبرى ، وهي دينية في أصلها ، صيامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة ؛ فكانوا في هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود في العلاقات الجنسية لاعتقادهم أن هذا ييسر لهم فيما يبق من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة . ولم يكن الأثينيون يرون أن في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار ، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات ، ولا يناهض لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة^(٥٨) . وكانت أثينة تعترف بالبغياء رسمياً وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر في أثينة ، كما أصبح في معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة الرواد ، ذات فروع مختلفة لكل فرع إخصائيات . وكانت السبيل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقي في هذه المهنة كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من

المهن في تلك المدينة . وكانت أسفل طبقة من العاهرات هي طبقة البرنای pornai ، ويسكن معظم افرادها في بيرية في مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب بريابوس المعلقة عليها . وكان رسم الدخول في هذه المواخير أوبلة واحدة ، وكان الداخل يجد فيها البنات في أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً ، ولذلك يسمين الجمناى (أى العاريات) ، وكن يجزن لمن يرون ابتياعهن أن يخبروهن كما تختبر الكلاب في بيوتها . وكان في وسع الرجل إن يعقد الصفقة التي يريد لها الزمن الذي يبتغيه ، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتا تعاشره أسبوعاً ، أو شهراً ، أو سنة . وكانت البنت أحياناً تؤجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين في وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردكم المالية^(١١) . وتلى هذه الطبقة عند الأثنيين طبقة العازقات على القيثارة ، وأولئك يستخدمن ، كما تستخدم المسامرات في اليابان ، في الليالى « الحمراء » يمرحن ويعزفن ، ويرقصن رقصاً فنياً أو خليعاً مثيراً للشهوات ، ثم يبتن مع من يريدهن من الرجال^(١٢) . وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن عن أنفسهن شر الفاقة بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازقات ، يعلمنهن كيف يحملن أنفسهن ، ويسرن عيوب أجسامهن ، ويسلبن الرجال بالعزف على الآلات الموسيقية ، كما يعلمنهن كيف يتصنعن الحب والدلال . وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلاً بعد جيل ، احتفاظ الإنسان بأثمن تراث ، بالطرق التي يلهن بها القلوب ، كالتظاهر بالحب بعقل وروية ، وإطالة أمدته بتصنع الدلال والإبباء ، والحصول به على أكبر أجر مستطاع^(١٣) . لكن بعض العازقات ، إذا صدقنا ما قاله عنهن لوشيان بعد ذلك العصر ، كانت لهن قلوب رحيمة رقيقة ، وكن يعرفن الحب الحقيقي ، ويضحجن بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضححت بنفسها كامي Camille . إن قصة العاهر الشريفه قصة قديمة شاب قرناها وخلع عليها طول الزمن شيئاً من الحلال والتبجيل .

وكانت ارقى طبقات العاهرات الأثنيات هي طبقة الهتايراي *hetairai* ومعناها الحرفى الرفيقيات . ولم تكن هؤلاء الرفيقات مثل طبقة الهورناى تكون فى الغالب من نساء شرقيات المولد ، بل كانت تتألف فى العادة من بنات المواطنين اللائى سقطن لسبب من الأسباب ، أو فررن من العزلة المفروضة على العذارى والنساء الأثنيات . وكن يعشن مستقلات بأنفسهن . ويستقبلن فى بيوتهن من يغوين من العشاق . وكانت كثرتن سمرات بطبيعتن ، ولكنهن كن يصبغن شعرهن باللون الأصفر لاعتقادهن أن الأثنيين يفضلون الشقراوات ، وكن يميزن أنفسهن بلبس أثواب منقوشة بالورد ، ولعل هذه الثياب كان يفرضها عليهن القانون^(٦٤) . وكان بعضهن يحصلن على قدر لا بأس به من التعليم بالقراءة المستقلة من حين إلى حين ، وبالاستماع إلى المحاضرات ، وكن يسلين روادهن المثقفين بحديثن المنطوى على قدر من العلم والثقافة . وقد اشتهرت منهن تاييس *Thais* وديوتيا *Diotima* وثارجليا *Thargelia* ، وليونتيوم *Leontium* ، كما اشتهرت أسبازيا ، بمناقشاتهن الفلسفية ، واشتهرن أحيانا بأساوتهن الأدبى المصقول^(٦٥) . وذاعت شهرة الكثيرات منهن بفكاهاتهن الحساسة ، وفى الآداب الأثنية لمن مجموعة من المقطوعات الشعرية الفكاهية^(٦٦) . وكانت العاهرات على اختلاف طبقاتهن محرومات من الحقوق المدنية ، لا يجوز لمن أن يدخلن هيكل من الهياكل عدا هيكل إلههن أفرديى بندموس *Aphrodite Pondenos* ، ولكن قلة مصطفاه من الهتايراي كانت لمن منزلة عالية فى مجالس الرجال الاجتماعية فى أثينة ، ولم يكن أحد من الرجال يستحى أن يرى فى صحبتن ، وكان الفلاسفة يتبارون فى كسب ودهن ، ومن المؤرخين من يروى تاريخهن بنفس الخشوع والإجلال الذى يرويه به فلم طرخس^(٦٧) .

وهذه الطرق خلدت بعضهن أسماءهن . فمن هؤلاء كلبسندرا التى سميت كذلك لأنها كانت تخرج مشاقها من عندها بعد ساعات محددة تحصيلها ساعة

رملية ؛ ومنهن ثرجيليا Thargelia منا هارى Maia Hari (*) زمانها ، التي
خدمت الفرس بأن ضاجعت أكبر عدد مستطاع من ساسة أثينة (٦٨) ؛
وثيوريس Theoris التي خففت عن سفكليز متاعب شيخونخه ، وأرشي
Archippe التي خلقتها في هذا العمل حوالى العقد التاسع من حياة هذا الكاتب
المسرحى (٦٩) ؛ ومنهن أركيانسا Archeanassa التي كانت تسلى أفلاطون (٧٠) ،
ودانى Danae وليونتيوم Leontium اللتين علمتا أبيقور فلسفة اللذة ؛ ومنهن
تمستونوى Themistonoe التي ظلت تمارس مهنتها حتى فقدت آخر سن
من أسنانها وآخر خصلة من شعرها ؛ ومنهن ناثينا Gnathena التي كانت
تطلب ألف درخمة (ألف ريال أمريكى) ثمتاً لمضاجعة ابنتها ليلة واحدة ،
لأنها قضت وقتاً طويلاً في تدريها وإعدادها لمهنتها (٧١) . وكان جمال فريفي
Phryne حيث أثينة كلها في القرن الرابع ، وذلك لأنها لم تكن تظهر أمام
الناس إلا وهى عجيبة من رأسها إلى قدمها ، واكنها في عيى لاوزيا
وبسدونيا تخلع ثيابها أمام الناس كلهم وتسدل شعرها على جسمها وتنزل
البحر لتستحم (٧٢) ، وقد عشقت بركستيليز المثال ، ووقفت أمامه لينحت
على صورتها تماثيل أفرديقى . وعلى صورتها أيضاً نحت أبليز تمثال أفرديقى
أناديومونى Aphrodite Andeyomone (٧٣) . وأثرت فريفي من عشاقها
إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق
الطيبيون على نقش اسمها على هذه الأسوار ، ولكنهم أصروا على رفض
هذا الغرض . ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس Euthias من أجر لها ، فثار
لنفسه منها باتهامها بالإلحاد ؛ واكن أحد أعضاء المحكمة كان من زبائنها ، كما
كان هيريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها ، ودافع عنها هيريدز ولم يستخدم
في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل شق أمام المحكمة جلبابها وكشف عن صدرها .
ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤها من تهمة الإلحاد في الدين (٧٤) . ويقول أثينيوس

« يبدو أن لئيس Laïs الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين » (٧٥) . وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل في عددها عن المدن التي تتنازع شرف انتساب هومر إليها . ويتوسل إليها المثالون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تماثيلها أو يصوروها ، ولكنها تمنع حياء وخجلاً ، ثم يتغلب عليها ميرون Myron العظيم في شيخوخته فتقبل طلبه ، حتى إذا خلعت ثيابها نسي وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ، وهزت كتفيها المستديرتين ، وتركته دون أن ينحت التمثال . وفي صباح اليوم الثاني اشتد به الوجد ، وعادت إليه نشوة المراهقة ، فصفف شعره ، وحلق لحيته ، وارتنى ثوباً رمزى اللون ، وتمنطق بمنطقة ذهبية ، وتقلد قلادة ذهبية ، وتحتم في جميع أصابعه ، وحر خديه ، وعطر ثيابه وجسمه ، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئيس ويعلن أنها متيم بها . فنظرت إلى صورته المسوخة وعرفت من هو ، ثم أجابته بقولها : « أيها الصديق المسكين ، إنك تطلب ما أبيته على أيك بالأمس » (٧٦) . وجمعت لئيس من مهنتها ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن تمنع نفسها عن فقراء العاشقين من ذوى الجمال ، وقد أعادت دمستين القبيح الصورة إلى الفضيلة ، بأن طابت إليه عشرة آلاف درخمة أجر ليلة واحدة (٧٧) . واكتسبت من أرسطبس الثرى من المال ما أفزع خادمه (٧٨) ، أما ديجين المعدم فكانت تسلم نفسها إليه بأقل أجر ، لأنها يسرها أن يبحث الفلاسفة أمام قدميها . وقد أنفقت ثروتها في سحاء في تشييد المعابد والمباني العامة ، وعلى الأصدقاء ، ثم عادت آخر الأمر ، كما يعود معظم من على شاكلتها ، فقيرة كما كانت أيام شبابها ، وأخذت تمارس مهنتها صابرة إلى آخر أيام حياتها ، فلما قصت نحبها أقيم لها قبر فخيم تكريماً لها ، لأنها كانت أعظم غازية ههنا عرفت اليونان طول تاريخهم (٧٩) .

الفصل السابع

الصدقة اليونانية

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين في غير حياء بالانحراف الجنسي . فلقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينة ، وكانت العاهرات اللاتي يسربلهن العار من قمة رءوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن ينددن بما في عشق الذكور للذكور من فساد خلقى شنيع . ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسنان ليبيعوهم لمن يدفع فيهم أعلى الأثمان ، وكان هؤلاء يستخدمونهم في أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء^(٨٠) . ولم يكن من بين الذكور في المدينة إلا أقلية ضئيلة تعتقد أن ثمة عيباً في أن يثير الشباب الحثثون أبناء الأشرف في المدينة شهوة شيوخها ويشبعوا هذه الشهوة . ولم تكن اسبارطة أقل استهتاراً من أثينة في هذا الشلوذ الجنسي ، وشاهد ذلك أن ألكمان حين أراد أن يثنى على بعض الفتيات سماهن « أصدقاءه — الغلمان الإناث^(٨١) » . وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية^(٨٢) ، ولكن الرأي العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويميزها وهو هازل فكه ؛ ولم يكن أهل اسبارطة أو كريت ينظرون إليها نظرة الاستنكار^(٨٣) . وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكرى . وكان هرمديوس وأرستجيتون ، وهما أعظم بطلين تعزز أثينة بذكراهما ، من قتلة الطغاة وعشاق الغلمان وكان ألسيديز أحب الناس إلى الشعب الأثيني في أيامه ، وكان يفتخر بكثرة من عشقه من الرجال . ولقد ظل « العشاق اليونان » إلى أيام أرسطاطاليس يعلنون ولاءهم لمعشوقهم عند قبر أيولوس رفيق هرقل^(٨٤) ، ويصف أرستس زنوفون قائد الجيوش الذى اشتهر

بأنه من أشد رجال العلم صلابة وعناداً ، بأنه مشغوف بحب الفتي
كلينياس Cleinias^(٨٥) . وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام
مثله في بلاد اليونان ، جميع مظاهر الغرام الروائي - من عاطفة
جياشة ، وحب عذري ، ونشوة ، وغيرة وعزف وغناء تحت نوافذ
المعشوقين ، وطول تفكير ، وتوجع وأنين ، وسهاد طويل^(٨٦) . وإذا تكلم
أفلاطون في الفلدروس Phaedrus عن الحب الإنساني ، وإنما يتكلم من الحب
الجنسي بين الذكران ، ويتفق المجادلون في محاوراته في نقطة واحدة - هي
أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة^(٨٧) .
ونرى هذا الشذوذ نفسه بين النساء ، ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل سوفو
Sopho ، وكثير بين العاهرات ؛ فالعاهرات المسامرات مثلاً يحب بعضهن
بعضاً أكثر من حبهن من يعشن في كنفهم من الرجال ، وعاهرات
المواخير تروى عنهن أعجب القصص في عشق بعضهن بعضاً^(٨٨) .

نرى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان ؟
فأما أرسطاطاليس فيفسره بخوفهم أن تزدحم بلادهم بالسكان^(٨٩) ، وقد
يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة ، ولكن لا جدال في أن ثمة علاقة
بين انتشار اللواط والدعارة في أثينة من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى ،
فقد كان الأولاد في أثينة في عصر بركليز يوثقون من أجنحة الحريم في
البيوت حيث تقضى النساء المحصنات حياتهن ، وينشئون عادة في صحبة أولاد
العلم أو رجال ، وقلما تتاح لهم فرصة في طور تكوينهم وفي الفترة التي لم
يشمروا فيها بعد برجولتهم ، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوي . كذلك كانت
حياة الغلمان الجاهمة في إسبارطة ، واشتراكهم في الطعام ، واجتماعهم في
الأسواق العامة ، والملاعب الرياضية ، وفي مدارس الألعاب في أثينة ، وحياة
منظمات الشباب ، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشباب إلا صور الذكور . وحتى
الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوي قبل عهد بركستليز . وقلما كان

الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية ، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموا أزواجهم من الحصول عليها . ولم يكن البيت للمواطن الأثيني حصنه وملجأه ، بل كان مكان نومه . وكان في كثير من الحالات يقضى النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها في المدينة ، وقل أن تكون بينه وبين النساء المحترمات عدا زوجه وبناته أية صلات اجتماعية . لهذا كان المجتمع اليوناني مقصوراً على أحد الجنسين ، يعوزه الحيوية ، والفطوف ، والمجاملة ، والاستشارة ، وهي الصفات التي اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا في عهد النهضة وفرنسا في عهد الا تنارة .

الفصل الثامن

الحب والزواج

الحب الرومانى موجود بين اليونان ولكنه قلما يكون سبب الزواج ؛
ولسنا نجد إلا القليل منه فى شعر هومر حيث يذكر أجمنون وأخيل
كريسيس Chryseis ، وبريسيس Briseis ، ويذكران أيضاً كسندرا
التي لا تستجيب لهما فى عبارات تنم عن الشهوة الجسمية ؛ لكن فى
قصة نسكا ما يحدونا من أن نعمم هذا الحكم ، ودليلنا على هذا ما نجده
من القصص التي لا تقل فى قدمها عن عصر هومر نفسه مثل قصة هرقليلط
وأبولا ، وقصة أورفيوس وبورديس . كذلك يتحدث الشعراء الغنائيون
حديثاً لمويلا عن الحب ، ويعنون به فى العادة الرغبة فى إشباع الشهوة ؛
والقصص التي تروى أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد ، كالقصة التي
يروها استسكورس ، نادرة أو تكاد تكون معلومة ، ولكننا حين نرى
ثينو Thyno زوجة فيثاغورس تصصف الحب بأنه « مرض النفس
المشتاقة^(٩١) » نحس بقوة الحب الرومانى الحقيقية . ولما زادت مشاعر اليونان
رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسم ، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة ،
وأصبح طول الفترة التي تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح
للخيال فرصة يتخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول . وقد ظل إيسكلس نفسه
هومرى النزعة فى معاملته للنساء ، ولكننا نستمتع فى سفكل عن « الحب الذى

يحكم الآلهة بإرادتها^(٩٢) ، وفي شعر يوربديز مقطوعات كثيرة في وصف قوة إيروس Eros إله الحب . وكثيراً ما يصف المتأخرون من كتاب المسرحيات شاباً يهيم بحب فتاة^(٩٣) ، ونستشف من أقوال أرسطاطاليس الصفة الحقيقية للعشق الروائي حين يقول « إن المحبين ينظرون إلى أعين أحبائهم ، حيث يستكن الخضر^(٩٤) » .

وكانت هذه الشئون وأمثالها في عصر اليونان الزاهر تؤدي إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدي إلى الزواج نفسه . ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائي صورة من « تقمص الشيطان للجسم » أو من الجنون ، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدى بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة^(٩٥) . وكان الزواج عادة يتفق عليه والدا الزوجين كما كان يحصل على الدوام في فرنسا القديمة ، أو بين خطاب محترفين^(٩٦) ، أكبر ما يهتمون به فيه البائئات لا الحب . فقد كان ينتظر من والد الفتاة أن يهيئ لابنته بائنة من المال ، والثياب ، والجواهر ، ومن العبيد في بعض الأحيان^(٩٧) .

(٩) قارن هذا بما ورد في أنتيجون :

إذا اشتبك الحب في نزاع

كسب المهكة لا محالة ،

والحب يسلب الأغنياء متاعهم !

وهو يبيت سهران طول الليل

بخديه الناعمين على وسادة اللذراء ،

يبحث عن قريسته على متن البحار ،

ويتقرب منها بين ملاجئ الرعاة ،

وليس في وسع الآلهة أن تفر من سلطانه ،

وهي التي وهبت الخلود ،

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم

فما أجن العقل إلا ينطوى عليه^(٩٨) !

حوكانت هذه البائنة تبقى على النوام ملكا للزوجة ، وتعود إليها إذا افترقت عن زوجها - وهو نظام يقلل من احتمال طلاقها منه . فإذا لم يكن للبنت بائنة فقلما تجد لها زوجا ، ومن أجل هذا كان أقاربها يجتمعون ليعلموها لها إذا عجز الوالد نفسه عن إعدادها . وبهذه الطريقة انقلب الزواج بالشراء الذي كان كثير الحدوث في أيام هومر ، فصارت المرأة في عهد بركليز هي التي تشتري زوجها ؛ ومن هذا الوضع تشكو ميديا في إحدى مسرحيات يورپديز . فلم يكن اليوناني إذن يتزوج لأنه يحب ، ولا لأنه يرغب في الزواج (فهو كثير التحدث عن متاعبه) ، بل ليحافظ على نفسه وعلى الدولة عن طريق زوج جاءته بيائنة مناسبة ، وأبناء يردون عن روحه الشرور التي تصيبها إذا لم تجد من يعنى بها . ولقد كان رغم هذه المغريات كلها يتجنب الزواج ما دام يستطيع تجنبه . ولقد كانت حرفة القانون تحرم عليه أن يبقى عزباً ، ولكن القانون لم يكن ينفذ دائماً في أيام بركليز ؛ ولما انقضى عهده زاد عدد العزاب حتى صار مشكلة من المشاكل الأساسية في أثينة^(٩٩) . ألا ما أكثر الأمور التي تدهش الإنسان في بلاد اليونان ! وكان الذين يرضون بالزواج من الرجال يتزوجون متأخرين ، في سن الثلاثين عادة ، ثم يضرون على الزواج من فتيات لا تزيد سنهن على خمسة عشر عاماً^(١٠٠) . وفي ذلك تقول إحدى الشخصيات في مسرحية ليورپديز : « إن زواج الشاب من زوجة شابة شر مستطير^(*) ، وسبب ذلك أن قوة الرجل تبقى طويلاً ، أما نضرة الجمال فسرعان ما تمارق صورة المرأة »^(١٠١) .

فإذا تم اختيار الزوجة ، وانفق على بائنتها ، تمت خطبتها رسمياً في بيت والدها ؛ ويجب أن يحضر هذه الخطبة شهود ، ولكن حضور الفتاة نفسها لم يكن ضرورياً . فإذا لم تتم هذه الخطبة الرسمية ، لم يعترف القانون الأثيني

(*) لعله لا يد أن الرجل يجب ألا يتزوج صغيراً . (المترجم)

بالزواج ، فكانت هذه الخطبة والحالة هذه هي العمل الأول في مراسم الزواج المعقد . وكانت الخطوة الثانية التي تتبع هذه الخطوة الأولى بعد أيام قلائل هي إقامة وليمة بهذه المناسبة في بيت الفتاة : وكان الزوج والزوجة قبل أن يحضرا هذه الوليمة يستحان كل منهما في بيته استحاما يتطهران به رسمياً ، ثم تقام الوليمة ويجلس رجال الأسرتين في جانب من جوانب الحجرة ، نسائهما في جانب آخر ، ثم يأكل الجميع كمكة العرس ويشربون الكثير من والخمر ، ثم يأخذ العريس بيد عروسه المحجبة ذات الثوب الأبيض — ولعله لم يكن قد رأى وجهها من قبل — ويسير بها إلى عربة تقلها معه إلى بيت أمه في موكب من الأصدقاء ومن الفتيات العازفات على القيثارة ، ويضاء لها الطريق بالمشاعل ، وتشد لها أناشيد الزواج . فلذا وصلا إلى البيت حملها وتخطى بها عتبة الدار ، كأنه يمثل بذلك أسرها في العهد القديم ، ويحيى أبوا الزوج الفتاة ، ويستقبلانها استقبالا دينياً وبدخلانها في دائرة الأسرة وفي عباد آلهتها ، ولم يكن للكاهن دور ما في مراسم الزواج كلها . ثم يرافق الضيوف الزوجين إلى حجرتهما ، وهم ينشدون أنشودة غرفة الزواج ، ويتكئون صاحبين عند بابها حتى يعلن لهم العريس أنه قد جنى ثمرة الزواج .

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له فضلا عن زوجته خلية يعاشرها معاشرة الأزواج . وفي ذلك يقول دمسطين : «إنا نتخذ العاهرات للذة ، والتحليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعين بيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص» (١٠٢) ، وفي هذه الحملة الواحدة العجيبة جمع دمسطين رأى اليونان في المرأة إبان عصرهم الذهبي . وتبيح قوانين دراكون الترسى ، ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التي سبوت على صقلية سنة ٤١٥ ق . م ، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجا هن ، أباح

القانون صراحة الزوج بائنين ، وكان سقراط وبورپديز من بين من استجابوا لهذا الواجب الوطنى^(١٠٣) . وكانت الزوجة عادة تقبل التسرى وتصبر عليه صبر الشرقيات ، لأنها تعرف أن « الزوجة الثانية » متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت فى واقع الأمر جارية فى المنزل ، وأن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين . ولم يكن الزنى يؤدى إلى الطلاق إلا إذا ارتكبه الزوجة ، وكان الزوج فى هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين Keroesses^(*) ، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته^(١٠٤) . وكان القانون يعاقب الزانية ، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة ، بالإعدام ، ولكن اليونان بلغوا من التساهل فى الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد فى تنفيذ حكم هذا القانون ، فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزانى بالطريقة التى يختارها -- فتارة يقتله فى حالة التلبس ، وتارة يرسل له عبداً يقتله ، وتارة يكتفى بأن يأخذ منه تعويضاً^(١٠٥) .

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان فى وسعه أن بطردها من بيته متى جاء من غير أن يبدى لذلك سبباً . وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الفرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء . أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يميز ، والرأى العام يحبل ، أن يستعين الزوج فى هذه المهمة بأحد أقربائه . وكان الطفل الذى يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه ، وعليه أن يعنى بروحه بعد وفاته . ولم يكن يباح للزوجة أن تترك زوجها متى شاءت ، ولكن كان فى وسعها أن تطلب إلى الأركان أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها أو

(*) وهذا المصطلح نفسه موجود فى اللغة العربية فالقرنان عندهم هو الدبوت ، وإن كانت المعاجم العربية تقول إن اللفظ مأخوذ من القرينة لا من القرن ، ويقولون فى الإنجليزية (المترجم) to grow horns

تجاوز حد الاعتدال في شتونه^(١٠٦) ، وكان الطلاق يباح أيضاً إذا تراضى الزوجان ؛ وكان هذا التراضى يعبر عنه عادة بإعلانه رسمياً إلى الأركون . وإذا اقترق الزوجان بقي الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه^(١٠٧) . وجملة القول أن العادات والشرعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال ، وهي تمثل النكوص عن المستوى الذى وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر هومر ، وتميل بالمجتمع الأثيني ناحية الشرق .

الفصل التاسع

المرأة

من الأمور التي لا تقل دهشة الإنسان منها عن دهشته من أى شيء آخر في هذه الحضارة ، أنها ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة . لقد قام عصر الأبطال ، بفضل معونة النساء ، بجلال الأعمال وبهذه المعونة أنتج عصر الطغاة روائع الشعر الغنائى ، ثم اختفت النساء المتزوجات من تاريخ اليونان بين يوم وليلة ، كأن الأقدار قد أرادت أن تدحض حجة القائلين بأن ثمة ارتباطاً بين مستوى الحضارة في بلد ما ومركز المرأة فيه . فبينما نرى المرأة في تاريخ هيرودوت في كل مكان ، إذ لا نراها في تاريخ توكيديلز في أى مكان ، وترى الأدب اليونانى من سميندز الأمرجوسى Semonides of Amorgos إلى لوشان يكرر أخطاء النساء تكريراً تشمئز منه النفس ، وفي آخر هذا العصر يكرر فلوطارخس الرحيم نفسه قول توكيديلز (١٠٨) : « يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة في البيت كما يحبس فيه جسمها (١٠٩) » .

وهذه العزلة النسائية لا وجود لها عند الدوريين ، وأكبر الظن أنها جاءت من الشرق الأدنى إلى أيونيا ، ثم انتقلت من أيونيا إلى أتكا ، فهي جزء من تقاليد آسية . ولعل لاختفاء نظام التوارث عن طريق الأم ، ونشأة الطبقات الوسطى ، وسيطرة النظرة التجارية إلى الحياة ، لعل لهذه الأمور أثرها في هذا التغير : ذلك أن الرجال في هذه الأحوال ينظرون إلى النساء نظرة نفعية ، فيجلون أكثر فائدة لهن في البيت . وتتفق الصبغة الشرقية التي اصطبغ بها الزواج اليونانى مع نظام العزلة الأتكية (Attic) ، فهذا الزواج

يقطع الصلة بين العروس وأقاربها ، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها ، تعبد فيه آلهة غير آلهتها . ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء أو أن تستدين أكثر من مبلغ تافه أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم . ومن شرائع صولون أن العمل الذي يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً^(١١٠) ؛ وإذا مات الزوج لم ترث زوجته شيئاً من ماله . وحتى العيب الفسيولوجي في أمور التناسل يعد سبباً مشروعاً لإخضاعها للرجل ؛ فبينما كان جهل الرجل في الأزمنة البدائية بدوره في 'أمور التناسل' يؤدي إلى رفع شأن المرأة ، نرى النظرية السائدة في عصر اليونان الزاهر ترفع من شأن الرجل بتقريرها أن قوة التناسل يختص بها الرجل وحده ، وأن المرأة لا تعدو أن تكون حاملاً للطفل ومرضعاً له^(١١١) . وكان كبير سن الرجل عن المرأة وقت الزواج من أسباب خضوع المرأة ، فقد كانت سنه في ذلك الوقت ضحفي سنها ، وكان في وسعه إلى حد ما أن يشكل عقلها حسب آرائه وفلسفته في الحياة . وما من شك في أن الرجل كان يعرف ما يتمتع به الرجال من حرية في المسائل الجنسية في أئينة معرفة تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان في وسعها إذا تحجبت الحجاب اللائق بها ، وصحبها من يوثق به ، أن تزور أقاربها وأخصاءها ، وأن تشترك في الاحتفالات الدينية ومنهم مشاهدة التمثيل ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان ينتظر منها أن تقبع في منزلها وألا تسمح لأحد أن يراها من النافذة . وكانت تقضي معظم وقتها في جنا النساء القائم في مؤخرة الدار ، ولم يكن يسمح لزائر من الرجال أن يدخ . كما لم يكن يسمح لها بالظهور إذا كان مع زوجها زائر .

وكانت وهي في البيت تكرم وتطاع في كل ما لا يتعارض مع سلطة زو الأبوية . فهي تدبر شئون البيت أو تشرف على تدبيرها ؛ وهي تـ

الطعام ، وتمشط الصوف وتغزله ، وتخبث ثياب الأسرة وتصنع فراشها .
ويكاد تعليمها أن يكون مقصوراً على الفنون المنزلية ، لأن اليونان كانوا
يعتقدون مثل يورپديز أن ذكاء المرأة يعوقها عن أداء واجباتها^(١١٢) . وكانت
نتيجة ذلك أن نساء أثينة المحصنات كن أكثر تواضعاً ، وأكثر « فتنة »
لأزواجهن من مثيلتهن في اسبارطة ، ولكنهن كن في الوقت نفسه أقل منهن
ظرفاً ونضوجاً ، عاجزات عن أن يكن رفيقات لأزواجهن ، لأن عقول
هؤلاء الأزواج قد امتلأت وانصقلت بتجارب الحياة المختلفة ، ومن أجل
هذا أفاد الأدب اليوناني كثيراً من اليونانيات في القرن السادس ولم يفد شيئاً
من نساء أثينة في عصر يركليز .

وقامت في أواخر هذا العصر حركة تهدف إلى تحرير المرأة . فرى يورپديز
يدافع عن النساء في خطب جريئة وعمزات خفيفة ، أما أرسطوفان فيسخر
منهن بالفاظ وقحة صاخبة . وتنزل النساء إلى الميدان في حركة التحرير ويختزن
أقوى سلاح فييدان ينافسن الهيتميراي ويحملن أنفسهن بكل ما يمدن به تقدم
الكيمياء من معونة . وشاهد ذلك سؤاله كليونيكا Cleonica في مسرحية
ليستراتا Lysistrata لأرسطوفان : « أى شيء معقول نستطيع أن نقوم به
نحن النساء ؟ إنا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نجلس جماعات بأدهائنا ،
وأصباغ شفاهنا ، وأثوابنا الشفافة وما إلى ذلك »^(١١٣) . وتصبح أدوار النساء
من عام ٤١١ أكثر شأنًا في المسرحيات الأثينية مما كانت من قبل ، وهي
تكشف عن خروج المرأة شيئاً فشيئاً من العزلة التي كانت مفروضة عليها ،
على أن سلطان المرأة الحقيقي على الرجل يظل قائماً في خلال هذا التغير كله ،
ويجعل خضوعها للرجل خضوعاً غير حقيقى إلى حد كبير . إن اشتياق الرجل
للمرأة أكثر من اشتياق المرأة للرجل يكسب المرأة في اليونان كما يكسبها في غيرها
من البلاد ميزة كبرى عليه . وفي ذلك يقول صمويل چنسن : « سيدى ؛ لقد
وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئاً »^(١١٤)

وقد يضاعف من هذه السيادة الطبيعية أحياناً باثنتها الكبيرة ، أو لسانها السليط ، أو حب زوجها لها حباً يجعله خاضعاً ذليلاً لها . وأكثر ما يقوم عليه سلطانها وجمالها ، أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم ، أو انصهار روحها وروح زوجها في بوتقة التجارب والواجبات المشتركة ، إلا أن عصرأ يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتجوني ، والسستيس ، وإفجينيا ، وأندرمكى ، ويصور بطلات مثل هكيا ، وكستندرا ، وميديا ، إن عصرأ يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهل أسمى ما في المرأة وأعمق ما فيها . لقد كان الأثيني العادى يحب زوجته ، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب ، وإن الألواح الجنائزية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهم في داخل جدران المنزل ، وهو في كلتا الحالين حنو يثير الدهشة . وفي دواوين الشعر اليونانية كثير من الشعر الغزلى الواضح الصريح ، ولكن فيه أيضاً كثيراً من المقطوعات الشعرية المؤثرة التي تخاطب بها الرقيقة المحبوبة ١ . انظر مثلاً إلى هذه القبرية : « في هذا الحجر وارى مرثونيز Marethonis نيقوبوليس Nieopolis ، وروى صنديقها الرخامى بعبراته ، ولكن هذا لم يجده نفعاً . وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقت زوجته ، وبقي هو وحيداً على ظهر الأرض ؟ » (١١٥)

الفصل العاشر

المنزل

وكانت الأسرة اليونانية ، كالأسر الهندوسية بوجه عام ، تتكون من الأب والأم ، « الزوجة الثانية » أحياناً ، ومن بناتهما غير المتزوجات ، وأبنائهما ، وعبيدهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم ، وعبيدهم . وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمة في الحضارة اليونانية ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى وأداته في الزراعة والصناعة على السواء . وكان للأب في أتكاسلطان واسع في أسرته ، ولكنه كان أقل من سلطان الأب في رومة ؛ فقد كان في وسعه أن يعرض الطفل للحديث الولادة للموت ، ويبيع عمل أبنائه القاصرين وبناته غير المتزوجات ، ويزوج بناته لمن يشاء ، ويختار زوجاً آخر لأرملته بعد وفاته في بعض الظروف المعينة^(١٦) . ولكن القانون الأثيني لم يكن يجيز له أن يبيع أبنائه أنفسهم ، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه ، وينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح عضواً مستقلاً في العشيرة :

ولم يكن البيت اليوناني على شيء من الفخامة . فقلما كان بناؤه الخارجى يزيد على سور سميك خال من الزينة ذى مدخل ضيق ، وهو شهادة صامتة على ما كان يكتنف الحياة اليونانية من أخطار . وكانت مادة البناء هي الستوك Stucco ، واللبن في معظم الأحيان . وكانت بيوت المدينة تتجمع في شوارع ضيقة ، وترتفع في الغالب طابقين ، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر ، ولكن كل مواطن كان يمتلك في الغالب بيتاً مستقلاً . وظلت المساكن صغيرة في أثينة حتى ضرب السيليز لأهلها مثلاً في الفخامة ؛ ذلك

أن النزعة الديمقراطية ، يقويها الحذر الأرستقراطي ، كانت تحول بين الأهلين وبين التفاهم والتظاهر ، وكان تعود الأثيني قضاء أكثر وقته في الهواء الطلق يصرفه عن أن يكون للبيت نفسه من المعنى ومن الإعزاز ما له في المناطق الباردة . وكان لبيت الأثيني الغنى في بعض الأحيان مدخل ذو عمد مواجه للشارع ، ولكن هذا كان من المظاهر الشاذة النادرة . كذلك كانت التوافذ ترفاً نادر الوجود ، وإذا وجدت اقتصر على الطابق الأعلى ، ولم تكن لها ألواح زجاجية ، ولكنها كانت تغلق بمصاريع خشبية ، أو تكون مشبكة لتحجب أشعة الشمس . وكان الباب الخارجي يتكون عادة من مصراعين يدوران على محورين ينفذان في إسكفة الباب وعنتبه . وكانت أبواب الكثير من بيوت الأغنياء مطرقة معدنية تتخذ في أغلب الأحيان صورة حلقة في قم أسد^(١١٧) . وكان يمتد من مدخل الدار — إلا في دور الفقراء — ممشي يؤدي إلى فناء مكشوف يسمى الأول Aule يرصف عادة بالحجارة ، ويحيط به أحياناً رواق وعمد ، وقد يكون في وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما ، مزدان أحياناً بالعمد ، ومرصوفة أرضيته بالفسيفساء . ويدخل أكثر الهواء وضوء الشمس إلى البيت من هذا الفناء ، لأن الأبواب جميع حجراته تفتح فيه ، وكان لا بد لمن يريد الدخول من حجرة إلى حجرة أن يدخل الرواق أو الفناء . وكانت الأسرة تقضي معظم حياتها ، وتقوم بأكثر أعمالها ، في ظلال الرواق والفناء وخلوتهما .

وكانت الحدائق نادرة في المدينة ، وتقتصر على مساحات صغيرة في فناء البيت أو خلفه ، أما حدائق الريف فكانت أكثر من حدائق المدينة عدداً وأوسع رقعة ؛ ولكن قلة الأمطار في الصيف وتكاليف الإرواء قد جعلها الحدائق في أتنكا ترفاً لا يستمتع به إلا القليلون . ولم يكن اليوناني العادي مرهف الحسى بالطبيعة كروسو Rousseau ، وكانت جبال بلاده لا تزال من أسباب متاعبه ، ولهذا لم تكن في نظره جناية جميلة ، وإن كان شعراء اليونان

ينظمون القصائد التي يتغنون فيها بجمال البحر رغم أخطاره الشديدة . ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه ، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية ، فهو يملأ الغابات ومجارى المياه فى بلاده بالآلهة والأشباح ، وإذا فكر فى الطبيعة لم يكن تفكيره فى جمال مناظرها ، بل فى أنها مكان تنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا فى الميدان . وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها ، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صوراً رمزية للآلهة التى تبعث فيها الحياة حسب ما تحدته ديانته الشعرية ، أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة . ولم يثنى اليونانى لنفسه حديقة أو « جنة » ينعم بها ، وظل كذلك حتى عادت إليه جيوش الإسكندر بأساليب الفرس وذهبهم . ومع هذا فقد كانت الأزهار محبوبة فى بلاد اليونان كما كانت محبوبة فى غيرها من البلاد ، وكانت الحدائق تنبت ، وبائعات الأزهار تدمم بها ، طوال العام . فكانت الفتيات البائعات ينتقلن من بيت إلى بيت يبعن الورد ، والبنفسج ، والزنبق والرجس ، والسوسن والآس ، والليلق ، والزعفران ، وشقائق النعمان . وكانت النساء يزين شعرهن بالأزهار ، والشبان المتأنفون يضعونها خلف آذانهم ؛ وكان الرجال والنساء يخرجون فى الأعياد وحول رقبهم عقود من الأزهار (١١٨) .

وكان البيت من داخله غاية فى البساطة . فأما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طيناً جف وتصلب ، فلما زاد دخل هؤلاء أخذوا يغطون هذه الطبقة الأرضية بالحصباء أو يرصفونها بحجارة مستوية ، أو بقطع منها صغيرة فى أرضية من الأسمنت . كما كان أهل الشرق الأدنى يفعلون من أقدم الأزمان . وكانوا أحياناً يغطون هذا بالحصر أو الأبسطة . وكانت الجدران المقامة من الآجر تطلّى بالحصص أو بالجير . وكانوا يدفنون أنفسهم على مواقد من نحاس يخرج دخانها من أبواب الحجرات إلى فناء الدار ، ولم يكونوا يحتاجون إلى هذه التدفئة أكثر من ثلاثة أشهر فى العام . وتكاد البيوت أن تكون خالية من

الزينة ، لكن الأغنياء في أواخر القرن الخامس أخذوا يزينون بيوتهم بالأبهاء ذات العمدة ، وجدرانهم بقطع من الرخام أو بطلاء يجعلها شبيهة بألواح الرخام ، ويلقبون على هذه الجدران صوراً ملونة أو قطعاً من القماش المزركش ، ويحلون سقفها بنقوش على الطراز العربي . وكان الأثاث قليلاً في البيوت العادية — فلم يكن يزيد على بضعة كراسي وصناديق ، وقليل من النضد ، وسرير . وكانت الوسائد توضع على الكراسي بدل المقاعد المنجدة ، ولكن كراسي الأغنياء كانت تزين في بعض الأحيان بنقوش محفورة فيها بعناية فائقة ، أو تطعم بالذهب أو بأصداق السلاحف ، أو العاج . وكانت الصناديق تتخذ أصونة ومقاعد معاً ، وكانت النضد صغيرة ، تقف عادة على ثلاث أرجل ، وهذا هو سبب تسميتها « بالطرايزات » أى ذات الأرجل الثلاث . وكان يوثق بها مع الطعام ثم ترفع بعده ، ولما كانت تستخدم في غير هذا الغرض ، فقد كانوا يكتبون على ركبهم . وكانت الأرائك والأسرة من وسائل الزينة المحبوبة ، وكانوا يعنون كثيراً بحفرها وتطعيمها وكانت لهم حشايا ووسائد وأغطية للفرش مطرزة ووسائد للرأس مرتفعة وكانت المصابيح تعلق من السقف أو توضع على قواعد ، أو تتخذ شكل مشاعل جميلة النقش .

وكان المطبخ مجهزاً بكثير من الأواني المختلفة المصنوعة من الحديد ، والبرنز ، والخزف . أما الزجاج فكان من مواد الترف النادرة . ولم يكن يصنع في بلاد اليونان . وكان الطعام يطهى فوق نار في أعراء ، أما المواقد فكانت بدعة اخترعت في البلاد التي اصططغت بالصبغة اليونانية . وكانت الوجبات الأثينية بسيطة . مثلها في ذلك مثل الوجبات الاسبارطية ، وتختلف كثيراً عن الوجبات البوئية ، والكورنثية ، والصقلية ، فإذا كان الأثينيون ينتظرون قدوم ضيف يريدون تكريمه استخدموا في العادة طاهياً محترفاً ، وكان دائماً من الرجال . وكان الطهوفناً راقياً ألفت فيه

كثير من الكتب واشتهر به كثير من الأبطال ، فن الطهارة اليونان من لا تقبل شهرتهم لدينا عن شهرة آخر الأبطال الفائزين في الألعاب الأولمبية . وكان الأثينيون يعدون من يأكل منهم بمفرده جلفا غير مهذب ، وكانت آداب المائدة عندهم دليلا على ارتقاء الحضارة . وكان الأولاد والنساء يجلسون حول موائد صغيرة ، أما الرجال فكانوا يتكثون على أرائك تتسع الواحدة لرجلين . وكانت الأسرة تأكل مجتمعة إذا لم يكن عندها غرباء ؛ فإذا كان لديها ضيوف من الرجال انسحبت نساء الأسرة إلى جناح الحريم . وكان الخدم يخلعون نعال الضيوف أو يغسلون لهم أقدامهم قبل أن يتكثوا على الأرائك ويقدمون لهم الماء ليغسلوا به أيديهم ؛ وكانوا في بعض الأحيان يدهنون لهم رؤوسهم بالزيت المعطرة ؛ ولم يكونوا يستخدمون السكاكين أو الشوك ، ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق ، ويتناولون الطعام بالأصابع . وكانوا في أثناء الطعام ينظفون أصابعهم بلفيات من الخبز ، ويغسلونها بعدئذ بالماء . وكان الخدم يملئون قدح كل ضيف قبل تناول الحلوى من آنية تحتوي على خمر مخفف بالماء . وكانت الصحاف من الخزف ، ثم ظهرت الصحاف الفضية في آخر القرن الرابع ؛ وبدأ المتأنقون في الطعام والشراب يزداد عددهم في القرن الرابع ؛ ومن هؤلاء رجل يدعى بيثلوس Pithyllus صنع للسانه وأصابعه أغطية يستطيع بها أن يأكل الطعام مهما كانت حرارته (١١٩) . وكان منهم بعض من يقتصرون على الخضر ، وكان ضيوف هؤلاء يسخرون منهم ويشكون كمادة الضيوف مع أمثالهم . من ذلك قول أحدهم : « إنه هرب من وليمة لا تقدم فيها إلا الخضر خشية أن تكون حلواها هي التريس » (١٢٠) .

ولم يكن الشراب أقل شأنا عندهم من الطعام ، فكان الغذاء (الدينيون deipnon) يتلوه الشراب الجماعي symposion . وكان في اسبارطة وأثينة

أندية للشراب تتوثق العلاقة بين أعضائها توثقا تصبح معه هذه الأندية أدوات سياسية عظيمة القوة .

وكانت الإجراءات التي تتبع في الولايم كثيرة التعقيد ، وكان الفلاسفة أمثال زنوكراتس Xenocrates وأرسطاطاليس يرون أنه يحسن بهم أن يضعوا لها قوانين (١٢١) .

وكانت الأرض التي يلقي عليها ما لا يؤكل من الطعام تنظف بعد الانتهاء من تناوله ، ويطوف عليهم الخدم بالروائح العطرة والخمر الكثير . ثم يرقص الضيوف إذا شاءوا ، ولكنهم لم يكونوا يرقصون أزواجاً أو مع النساء (لأن الرجال وحدهم هم الذين كانوا يدعون عادة إلى الولايم) بل جماعات ، أو كانوا يلعبون ألعاباً كالكتوموس (*) ، أو يتقارضون الشعر ، أو يتبادلون الملح ، أو الألفاظ ، أو يشاهدون ألعاباً يقوم بها رجال محترفون ونساء محترفات ، كالبهاوانة التي يحدثنا عنها زونوفون « مقالاته الدورية » ، والتي تقذف اثني عشر طوقاً دفعة واحدة ثم ترقص رقصة الانقلاب في الهواء في داخل طوق ، « أحيط من جميع جوانبه بالسيوف القائمة » (١٢٥) . وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمام الضيوف بنات يعزفن على القيثارات ، ويعنين ، ويرقصن ، ويغازلن غزلاً دبر أمره من قبل . وكان الأثينيون المتعلمون يفضلون عن هذا أن يجتمعوا ليتناقشوا نقاشاً ينظمه لهم رئيس منهم يختارونه بقذف النرد . وكان الضيوف يحرسون على ألا ينقسم المجلس إلى طوائف صغيرة . لأن معنى هذا الانقسام في العادة أن كل طائفة تتحدث مستقلة ، بل كانوا يحرسون على أن يكون الحديث عاماً ،

(*) وكانت هذه اللعبة تتكون من قذف السائل من قديم بحيث يصيب جسماً صغيراً فله

وكانوا يصفون إلى كل متحدث إذا جاء دوره بالأدب والعطف الذى يسمح به ما هم فيه من مرح . وما من شك فى أن الحديث الطريف الذى يقصه علينا أفلاطون من نسيج خيال هذا الفيلسوف النابه ؛ ولكن أكبر الظن أن أثينة قد شهدت محاورات لا تقل حيوية عن محاورات أفلاطون ، وسواء كان ذلك أولم يكن فإن المجتمع الأثينى هو الذى أوحى إلى أفلاطون بمحاوراته ، وهذا المجتمع هو مرجعها وموضوعها . وفى وسط هذا الجو المنعش المنبه جو النابهين الأحرار تكونت العقلية الأثينية .

الفصل الحادى عشر

الشيخوخة

لقد كان اليونانى يحب الحياة ويكره الشيخوخة ويندبها . على أن هذه الشيخوخة نفسها كان فيها ما يذهب ببعض أحزانها ، فقد كان يعزى الشيخ الهرم أن يرى قبل أن يبلى جسمه حياته الجديدة فى صورة أبنائه وأحفاده فيخدع نفسه ويظنه مخلداً ، كأنه درهم بال عاد إلى دار الضرب ليصهر ويسك من جديد . لسنا ننكر أن فى تاريخ اليونان أمثلة من إهمال الشباب للشيخ أو إساءة معاملتهم إهمالاً وإساءة مبغهما الأثرة المقوتة ، وسبب ذلك أن المجتمع الأثينى مجتمع تجارى ، فردى النزعة ، مجدد غير محافظ ؛ وكل هذه عوامل تجعله ينزع إلى عدم الشفقة على الشيخ ، لأن احترامهم من خصائص المجتمع الدينى المحافظ مثل مجتمع اسپارطة ؛ أما الديمقراطية فإن ما فيها من حرية يحل عرى الصلات ، ويركز اهتمام الناس بالشباب ، ويفضل الجديد على القديم . ولهذا نجد فى تاريخ الأثينيين أمثلة عدة لأبناء يستولون على ملك آبائهم فى حياتهم ، وإن لم يثبت العتة على هؤلاء الآباء^(١٢٣) ، ولكن سفكليز ينجى نفسه من هذا المصير ، ولا يكلفه هذا أكثر من أن يقرأ للمحكمة أن تنظر فى أمره فقرات من آخر مسرحية له . غير أن الشرائع الأثينية تأمر الأبناء أن يعولوا آباءهم العجزة أو الطاعنين فى السن^(١٢٤) ، والرأى العام ، الذى يخشاه الناس على اللوام أكثر مما يخشون القانون ، يفرض على الشباب أن ييجلوا الكبار ويتواضعوا أمامهم . ويروى أفلاطون أن من الأمور المسلم بها أن يظل الشباب الحسن التربية صامتاً فى حضرة الكبار إلا إذا طلب إليه الكلام^(١٢٥) : وفى الآداب الأثينية صور كثيرة للشباب المتواضع ، منها المحاورات الأولى لأفلاطون

ومنها مقالات زنفون الدورية ، وفي هذا الأدب قصص مؤثرة عن وفاء الأبناء للآباء ، كوفاء أرميتز لأبهم ووفاء أنتجوني لأوديب .

فلذا حانت منية الشيخ حرص الأحياء أشد الحرص على أن ينجبوا روحه بكل ما يستطيعون أن ينجبوها من الآلام . فالجسم يجب أن يدفن أو يحرق ، وإلا فإن الروح تهيم قلقه مضطربة حول العالم ، وتثار لنفسها من أبناء الشيخ المهملين . فقد تظهر مثلاً في صورة طيف ، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث . وكان إحراق الموتى أكثر انتشاراً في عصر الأبطال ودفنهم أكثر انتشاراً في العصر الذهبي . والدفن عادة مأخوذة عن المسيحيين وقد بقيت إلى العصر المسيحي ، ويبدو أن عادة إحراقهم جاءت إلى بلاد اليونان مع الأخيين والدورين . لأن عاداتهم البدوية لا تمكنهم من أن يعنوا العناية الواجبة بالقبور . وجملة القول أن الدفن أو الإحراق واجب يلزم به الأثينيون ، وقد بلغ من حرصهم عليه أن القواد المتصرين في أرجوس قد أعدوا مسرفة حالت بينهم وبين استعادة جثث موتاهم ودفنهم .

وأبقت عادات الدفن اليونانية الأساليب القديمة إلى ما بعد عصرها بزمز طويل . من ذلك أ ، الخنة كانت تغسل بالماء ، وتدهن بالخل ، وتكفل بالأزهار ، وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب ، ثم توضع أبله بين أسنانها لتؤذيها أجراً لكارون صاحب القارب الأسطوري الذي ينقل الموتى في نهر أستيكس إلى مقرهم الأخير (*) . وتوضع الخنة في تابوت من الفخار أو الخشب . وكان من أمثال اليونان الأقدمين قولهم « إن إحدى قدي الشخصية في التابوت » ويعنون بذلك ما نعينه نحن بهذا المثل

(*) لقد كان من عادة اليونان أن يحملوا اللثة في أفواههم .

نفسه(*) . ويتخذ الحزن على الموتى عدة مظاهر مقررة : منها لبس الثياب السود ، وقص الشعر كله أو بعضه ليقدم هدية للميت . وفي اليوم الثالث بعد الموت تحمل الجثة في نعش ويطوف موكب الجنازة بشوارع المدينة ، والنساء من خلف الجثة يبكين ، ويضربن صدورهن ، وقد تستأجر نادبات محترفات يندبن الميت : وتصب الخمر على التراب الذي يغطي القبر لتروى به روح الميت غليلها ، وقد تذبح بعض الحيوانات لتكون طعاماً لها . ويضع مشيعو الجنازة على القبر أكاليل من الأزهار أو ورق السرو(١٣٧) ، ثم يعودون إلى منزل الميت ليحتفلوا بالجنازة . وإذا كان من معتقداتهم أن روح الميت تشهد هذا الاحتفال ، فقد كان من عاداتهم المقدسة « ألا يذكروا عن الميت إلا الخير(**) » . وقد كانت هذه العادة منشأ قانون قديم يفرض على الأحياء ألا يذكروا إلا محاسن الموتى ، ولعلها هي أيضاً منشأ ما يكتب على شواهد القبور من مديح . وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم في مواسم معينة ، ويقدمون لهم الطعام والشراب ، وقد تعهد أهل بلاطية بعد المعركة المسماة باسم مدينتهم والتي قتل فيها عدد من اليونان من مختلف المدن ، تعهدوا أن يقيموا لجميع الأموات وليمة سنوية ، وكانوا لا يزالون يوفون بوعدهم هذا بعد أن مضت على المعركة ستة قرون كاملة .

وكانت الروح تنفصل من الجسم بعد الموت وتصبح طيفاً غير مادي يسكن في الجسم . ويستفاد من أقوال هومر أن الأرواح التي ارتكبت ذنباً شنيعاً أو مرتقت من الدين هي وحدها التي تعذب في تلك الدار ، أما سائر الأرواح

(*) ويقابل هذا قول عامة مصر « إن رجله في القبر » .

(**) قارن هذا بقولنا : « اذكروا محاسن موتاكم » . (المترجم)

بعثد ، سواء كانت أرواح قديسين أو مذنبين ، فكان مصيرها كلها أن تطوف إلى أبد الدهر حول مملكة بلوتو المظلمة . وقد نشأ في التاريخ اليوناني على تعاقب الأيام اعتقاد جديد بين الطبقات الفقيرة مضمونة أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم ؛ ويصور إسكلس زيوس وهو يحاسب الموتى في ذلك المكان ، فيعاقب المذنبين ، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثانة الصالحين (١٢٩) . ولسنا نسمع إلا القليل عن الجزائر المباركة أو الحقول الإليزية مواطن السعادة الأبدية التي ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال . فالتفكير فيما ينتظر جميع الأموات من مصير محزن نكد ينجم على الأدب اليوناني ويجعل الحياة اليونانية أقل بهجة وانشراحاً مما يجب أن تكون عليه الحياة تحت هذه السماء الصافية .

الباب الرابع عشر

الفن اليونانى فى عصر بركليز

الفصل الأول

زينة الحياة الدنيا

تقول إحدى الشخصيات فى كتاب « الاقتصاد » لزنوفون : « جميل أن ترى الأحذية مرتبة فى صف حسب أنواعها ؛ وجميل أن ترى الثياب والأغطية مقسمة حسب منافعها ؛ وجميل أيضاً أن ترى أواني الطبخ مرتبة بلوق وتنسيق ، وإن سخر من ذلك الثرثارون المتفهبون . أجب إن الأشياء جميعها بلا استثناء يزداد جمالها إذا نسقت وصفت بانتظام . فهذه الأواني كلها تبدو حينئذ كأنها مجموعة متناسقة يكمل بعضها بعضاً ومركزها المتكون منها جميعاً يخلق فيها جمالا يزيد به بعد القطع الأخرى من المجموعة .

هذه الفقرة التى كتبها قائد حربى تكشف عن مدى إحساس اليونان بالجمال ، وعن بساطة هذا الإحساس وقوته . وهذا الإحساس بأهمية الشكل والتناسق ، وبالذقة والوضوح ، وبالتناسب والنظام ، هو العامل الأساسى فى الثقافة اليونانية ؛ وتراه واضحاً فى شكل كل وعاء ومزهريّة ونقشهما ، وفى كل مؤلف يونانى فى العلم والفلسفة . إن الفن اليونانى هو العقل مجسماً واضحاً والتصوير اليونانى هو منطق الخطوط ، والنحت اليونانى هو عبادة التناسب ، والعمارة اليونانية هى الهندسة الرخامية . ليس فى الفن

البركليزي مغالاة في العواطف ، ولا شذوذ في الشكل أو محاولة تهدف إلى التجديد عن طريق الغريب غير المألوف(*) ؛ ولبس الغرض الذي يرمى إليه هو تمثيل ما في الحقائق الواقعية من الخلط وعدم التناسق ، بل الغرض من هذا الفن هو الاستحواز على جوهر الأشياء الذي ينيرها ، وتصوير إمكانيات الناس المثالية . ولقد استحوذ السعي للحصول على الثراء والجمال والمعرفة على عقول الاثنين فشغلهم عن التفكير في التقى والصلاح ، وفي ذلك يقول أحد المدعويين إلى ولعة عند زنوفون : « قسما بالآلهة جميعهم أنى لو أعطيت كل ما للملك الفرس من سلطان لفضلت عليه الجمال » (٣) .

ولم يكن اليوناني ، مهما تكن الصورة التي يرسمها له الروائيون في العصور التي هي أقل من عصره رجولة ، عابداً مخنثاً للجمال ، أو إنساناً يستخفه الطرب ويتغنى بأسرار الفن حباً في الفن ، بل كان يُخضع الفن في فكره للحياة ، ويفكر في الحياة على أنها أعظم الفنون على الإطلاق . وكان ذا نزعة نفعية تميل به عن الجمال الذي لا نفع فيه ، وكان النافع والجميل والطيب مرتبة كلها في تفكيره ارتباطها في فلسفة سقراط(**) ، وكان يرى أن الفن هو قبل كل شيء تجميل طرق الحياة ووسائلها . فكان يتطلب أن تكون آنيته ومصايحه ، وصناده ونضده ، وسرره وكراسيه نافعة وجميلة معاً ، وألا تبلغ من الرشاقة والجمال حداً يفقدها صلابتها . وكان وضوح إدراكه للدولة « يوحد بينه وبين قوة المدينة وعظمتها ، فاستخدم من ثم آلاف الفنانين لتجميل أماكنها العامة ، وتعظيم أعيادها ، وإحياء تاريخها . وأهم من هذا كله أنه كان يحرص على أن يكرم آلهته ، ويستجلب عطفهم ورضاهم ، ويعبر عن شكره لهم لما وهبوه من حياة أو نصر . وكان يهدي إليهم التلور من الصور والتماثيل ، ويهب الهياكل الشيء

(*) يقول توكيدنز على لسان بركليز : « نحب الجمال دون إسراف » (٢) .

(**) يقول استندال Stendhal : « ليس الشيء الجميل عند الأقدسين إلا سور رائحة

لشيء النافع » (٤) .

الكثير من ماله ، ويستأجر الفنانين لينحتوا صور آلهته أو موتاه في الحجارة . ومن أجل هذا لم ينشأ الفن اليوناني ليوضع في المتاحف فيتردد عليها الناس ليتأملوه في اللحظات القليلة التي يشعرون فيها بالرغبة في إشباع حاسة الجمال ، لكنه نشأ لكي يخدم مصالح الناس ومتروعيهم الحقيقية ، ولم يكن ما صاغه من تماثيل لأبطال أو قطعاً متينة من الرخام تصف في معرض للفن ، بل كانت صوراً تمثل أرباباً محبوبية ، ولم تكن المعابد أماكن يعجب بها الزائرون . بل كانت مواطن لهذه الأرباب الحية ، ولم يكن الفنان في المجتمع الأثيني ناسكاً يعتزل الناس مفلساً عاكفاً في مرجه ، يعبر عما في نفسه بلغة لا يفهمها المواطن العادي ، بل كان في حقيقة أمره صانعاً ماهراً ، يشتغل مع عمال من جميع الدرجات بعمل عام يفهمه جميع الناس . وقد جمعت أئينة من جميع أنحاء اليونان طائفة من الفنانين ، ومن الفلاسفة والشعراء ، أكبر مما جمعت أية مدينة أخرى في العالم إذا استثنينا رومة في عهد النهضة . وكان هؤلاء الناس يتنافسون أشد التنافس ويتعاونون فيما بينهم في ظل حكم مستنير ، ويفضل هذين التنافس والتعاون حققوا إلى حد كبير أحلام بركليز .

والفن يبدأ في المنزل وبشخص الفنان . فالناس يصورون أنفسهم قبل أن يصوروا شيئاً آخر ، ويزينون أجسامهم قبل أن يزينوا بيوتهم ، فالخلى ، كأدهان الزينة ، قديمة العهد قدم التاريخ نفسه . ولقد برع اليوناني في قطع الجواهر ونقشها ، وكان يستخدم في هذا العمل آلات بسيطة من البرنز ، كالمناقب البسيطة والأنبوبة ، وحجر الجليخ ، ومادة للصقل مكونة من (الصنفرة) والزيت^(٥) . ولكن عمله مع هذا كان يبلغ من الدقة والإتقان درجة يحتاج إنجاز دقائقها ، في أكبر الظن ، إلى منظار مكبر ، وإلى هذا المنظار بلاريب لتتبع هذه الدقائق^(٦) . ولم تكن النقود على درجة كبيرة من الجمال في أئينة حيث كانت صورة البومة الكثيرة هي التي تنقش على معظم النقود ،

وكانت إليس صاحبة الزعامة على جميع مدن اليونان الأصلية في هذا الميدان ، ثم أصدرت سرقة في أواخر القرن الخامس قطعة ذات عشر درخمت لم تنقحها قط قطعة أخرى في جمالها الفني . وقد احتفظ فنانو كلسيس بزعامة المدن اليونانية في النقش على المعادن ، وكانت كل مدينة في حوض البحر الأبيض المتوسط تعمل للحصول على أدواتها الحديدية ، والنحاسية ، والفضية . وكانت المرايا اليونانية أبعث لاسرور مما تستطيعه معظم المرايا بطبيعتها ؛ ذلك أن الإنسان وإن لم يكن في وسعه أن يرى خياله واضحاً كل الوضوح في سطح من البرنز المصقول ، فإن المرايا نفسها كانت على أشكال مختلفة جذابة ، وكثيراً ما كانت منقوشة نقشاً متقناً بديعاً ، وكانت تحملها تماثيل الأبطال ، أو النساء الحسنات ، أو الآلهة .

وظل الفخريون يمارسون صنع الأشكال ويتبعون الأساليب التي كانت لديهم في القرن السادس محتفظين بهزلهم ومنافساتهم التقليدية . وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها كلمة حب يوجهونها إلى غلام ؛ وقد جرى فدياس نفسه على هذه العادة حين حفر على لصبع الصورة التي صنعها لزيوس : « إن بنتاركس جميل » . وفي النصف الأول من القرن الخامس وصل طراز العصور الحمراء ذروته في مزهريّة أخيل وپنثيسيليا ، وكأس إيسوب والاعراب المحفوظ في متحف الفاتيكان ، وصورة أرفيوس بين التراقيين المحفوظة في متحف برلين . وأجمل من هذه كلها قوارير الدهن البيضاء التي صنعت في منتصف ذلك القرن . وتناوت هذه القوارير الرفيعة نصنع لاء في خاصية وتدفن معهم عادة ، أو تأتي فوق تكومة الحطب التي تعرق بها أجسامهم حتى يمزج ما فيها من الزيت المعطر بلهب الحطب . وحاول ناظمي المزهريات أن ينجحوا مستقلين فرديين في عملهم ، وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها موضوعات لو راها فنانو العصر القديم اغافلوا لأثار دهنهم . من ذلك أن مزهريّة رسمت عليها صورة شبان يمانعون بعض عشيقاتهم بلا حياء ، ورسم على مزهريّة أخرى

رجال يتقايئون وهم خارجون من وليمة ؛ وعلى مزهزلياته غير هذه . وتلك صور تمثل كل ما يستطيع عمله في شئون التربية الجنسية (٨) . وقد ترك صناع المزهريات في عصر بركليز - بريجوس Brygus . وسوتاڨيز ، وميدياس . - الأساطير القديمة واختاروا لهم مناظر من حياة الناس في عصرهم ، وأكثر ما كانوا يسرون منه حركات النساء الرشيقة ، ولعب الإله نمال الطيبي . وكانوا أصدق في رسمهم من سابقهم : فكانوا يظهرون من الجسم منظره الجانبي أو يظهرون ثلاثة أرباع منظره الكامل ؛ وكانوا يبينون الضوء والظل باستعمال محلول للطلاء الزجاجي خفيف أو غليظ ، ويرسمون الصور بحيث تبين الخطوط الخارجية والعمق وثنايا أنوابه السيدات . وكانت كورنثة وجيلا الصقلية مركزين لطلاء المزهريات الدقيقة التي كانت تصنع في ذلك العهد ، ولكن أحداً لم يكن يشك في تفوق الأثينيين على كل من عداهم في هذه الناحية . ولم يكن الذي أنتزع السيادة من فخرا في المرمكس (حتى الفخرايين في ضواحي أثينة) هو منافسة غيرهم من الفخرايين ، بل كان قيام فن النقش المنافس لفنهم هذا . وحاول رسامو المزهريات أن يردوا هذا الهجوم بتقليد موضوعات الناشرين على الجدران وطرزهم ، ولكن أذواق العصر لم تكن معهم ، وأخذ فن الفخرايين يتحول شيئاً فشيئاً في خلال القرن الرابع من فن جميل إلى صناعة تسد حاجة الناس .

الفصل الثاني

نشأة فن التصوير

اجتاز تاريخ التصوير اليوناني خمس مراحل ، ففي القرن السادس كان معظمه يهدف إلى تزيين الخزف وبخاصة المزهريات ؛ وفي القرن الخامس كان أهم ما يعنى به العمارة وبخاصة طلاء المباني العامة والفنايل بالألوان المختلفة ؛ وفي القرن الرابع كان يحوم حول المنازل والأفراد فيزين المسابكن ويرسم الصور ؛ وفي العصر الذي اصطبغت فيه البلاد الخارجية بالصبغة اليونانية كان معظمه فردياً يخرج صوراً تباع لمن يرغب فيها من الأفراد . وقد بدأ فن التصوير حين تفرع من الرسم العادي وبقي إلى آخر مراحل رسماً وتخطيطاً في أساسه وجوهره ؛ وقد استخدم في تطوره ثلاث طرق : طريقة المظلمات أو التصوير على الجص الطرى ، وطريقة الطلاء المائي أو التصوير على الأقمشة أو الألواح المبللة بألوان ممزوجة بزالال البيض ، وطريقة تثبيت الرسوم بالحرارة وذلك بمزج الألوان بالشمع المذاب ؛ وكانت هذه الطريقة الأخيرة أقرب ما صل إليه الأقدمون إلى طريقة التصوير بالزيت . ويؤكد لنا بلني — وهو الذي لا يقل أحياناً عن هيرودوت رغبة في تصديق كل ما يسمع — أن فن التصوير قد تقدم في القرن الثامن تقديماً جعل كندولس Candaules ملك ليدية يتتبع صورة من صنع بولاركس Bularchus بمثل وزنها ذهباً^(١) . لكن بداية كل الأشياء غامضة . وفي وسعنا أن ندرك ما كان لهذا الفن من الشهرة في بلاد اليونان إذا علمنا أن بلني قد خصه من صفحاته بأكثر مما نخص به النحت . ويبدو أن الرسوم الجيدة التي أنتجها عصر اليونان الذهبي كانت موضع النقاش من النقاد وموضع

الإجلال من الشعب وأنها لم تكن تقل في هذين عن أعظم نماذج فني العمارة والنحت (١٠) .

ولم يكن بولجنوتس Polygnous الثاسوى أقل شهرة في بلاد اليونان في القرن الخامس من إنكتينس Inctinus أو فدياس . ونجد هذا المصور في أثينة في عام ٤٧٢ ؛ ولعل سيمون الرى هو الذى توسط له فكلف بتزيين عدة مبان عامة ورسم صور على جدرانها (*) . وقد صور في ذلك العهد على الاستوا Stoa ، التى سميت من ذلك الحين الهوسبلى Boecile أو الرواق المصور ، التى اشتق منها بعد ثلاثة قرون اسم فلسفة زينون (**) ، صور عليها منظر نهب طروادة - ولم يكن ذلك المنظر منظر المذبحة الرهبة التى حدثت في ليلة النصر ، بل كان منظر السكون الرهيب الذى ساد المدينة في صباح اليوم الثانى ، والمتصرون قد هدا من سورتهم ما يحيط بهم من الخراب ، والمغلوبون ملقون على الأرض هادئين . وقد رسم على هيكل الديسكورين صورة اغتصاب اللوسبيديات . وكان تصويره النساء في أثواب شفافة سابقة احتداها من جاء بعده من الفنانين . ولم تثر هذه البدعة ثائرة المجلس الأمفكتيونى ، بل إن هذا المجلس دعا بولجنوتس إلى دلفى حيث صور في اللسكى Lesche أو ردهة الاستراحة صورة أوديسيوس في الجحيم وصورة أخرى لانتهاب طروادة . وكانت هذه الصور كلها مطلبات كبيرة خالية من المناظر الطبيعية أو الخلفيات ، مزدحمة بصور الأشخاص إلى حد كان لا بد معه أن يستعان بعدد كبير من المساعدين ليرسموا بالألوان ما بين الخطوط الخارجية التى خططها المصور بعناية فائقة . أما الصورة الجدارية التى تمثل طروادة فكان فيها بحارة متلوس على أهبة الإبحار عائدين إلى بلاد اليونان ؛ وكانت هلن تجلس في وسط الملاحين ، ومعها كثيرات غيرها من النساء ولكنهن كن جميعاً يهرهن جمالهن الفتان ،

(١) وقد جازى سيمون على عمله هذا بأن أحب اخته إفيثيس ورسم صورة لها تمثل لوديسيا بين الطرواديات (١١) .

(**) لفظة stoa أى رواق مشتقة من stoa كما اشتقت اللفظة العربية من رواق .

ووقفت أندرمكى فى إحدى الزوايا محتضنة أستياناكس ؛ ووقف فى زاوية أخرى غلام صغير يتعلق بمذبح من شدة الخوف ، وعلى بعد من البحارة كان جواد يتمرغ على رمال الشاطئ^{١٢٠} . فى هذه الصورة كانت مسرحية « الطرواديات » قبل أن يكتبها يورديدز بخمسين عاماً . وأبى بولخنوتس أن يتقاضى أجراً على عمله هذا ، ووهب الصور لأثينة ودلفى كرماء منه وثقة بقدرته ومواهبه . وأعجبت بلاد اليونان كلها بعمله ، ومنحته أثينة مواطنتها . وقرر المجلس الأمفكتيونى أن يحل ضيفاً على حساب الدولة فى كل مدينة يونانية ينزل بها (كما كان يريد سقراط لنفسه) ، ولم يبق من آثاره كلها إلا قطعة صغيرة من اللون على جدار فى دلفى تذكرنا بأن الخلود الفنى ليس إلا لحظة عابرة فى حساب الأزمنة الجيولوجية .

وفى عام ٤٧٠ ق . م أقامت دلفى وكورنثة مباريات دورية فى التصوير تعقد كل أربع سنين لتكون جزءاً من الألعاب البيثية والبرزخية . وتقدم الفن وقتئذ تقدماً أمكن بانينس شقيق فدياس (أو ابن أخيه) أن يرسم صوراً لقواد الأثينيين والفرس فى واقعة مرثون يمكن تمييز أشخاصهم فيها . ولكنه كان حتى ذلك الوقت لا يزال يضع الأشخاص المصوّرين جميعهم فى مستوى ويجعل طول قامتهم كلهم واحداً ، ولم يكن يمثل البعد بتصغير حجم الأشخاص شيئاً فشيئاً وتنظيم الضوء والظل ، بل كان يمثلهم بالخطوط المنحنية التى تمثل الأرض الواقفين عليها . ثم تقدم الفن فى عام ٤٤٠ خطوة هامة . ذلك أن أجاتارخوس Agatharchus الذى استخدمه إسكلس وسفكليز ليرسم مناظر مسرحياتهما تبين أن ثمة علاقة بين الضوء والظل من جهة والبعد من جهة أخرى . وكتب رسالة فى فن المنظور بوصفه وسيلة لإيجاد الخداع المسرحى . وعالج أنكساغوراس ودمقريطس النكرة من الناحية العلمية ، فلما أوشك القرن دلى نهايته اشتهر أبودورس Apollodorus الأثينى باسم اسكياغرافوس Skiagraphos أبى مصور الظلال ، لأنه رسم صوراً استخدم

فيها الضوء والظل ، ولذلك قال عنه بليني إنه كان « أول من رسم الأشياء كما تبدو حقاً » (١٤) .

على أن المصورين اليونان لم يفيدوا من هذه الاستكشافات فائدة تامة ؛ فكما أن صولون كان يسخر من الفن المسرحي ويعتقد أنه خداع ، فكذلك يبدو أن الفنانين كانوا يرون أنه لا يليق بهم وأنه يحط من كرامتهم أن يظهروا السطح المستوي بمظهر الجسم ذي الثلاثة الأبعاد . ولكن فن المنظور وتوزيع الضوء والظل هما اللذان رفعا من شأن زكسيس Zeuxis تلميذ أبلودورس وجعلاه أعظم المصورين في القرن الخامس . وقد قدم زكسيس من هرقلية (بونتيكا Pontica ؟) إلى أثينة حوالي ٤٢٤ ق . م ، وعد مجيؤه إليها حادثاً تاريخياً خطيراً رغم ضجيج الحرب القائمة وقتئذ . وكان « شخصاً » جريئاً مغروراً بنفسه ، يصور تصوير المغرورين . وكان في الألعاب الأولمبية يتبخر في قباء ذي مربعات طرز عليه اسمه بالذهب ؛ وكان في مقدوره أن يكون له مثل هذه القباء لأنه كان وقتئذ قد جمع « من عمله ثروة طائلة » (١٥) . ولكنه كان يعمل بعناية الفنان العظيم وإخلاصه ، ولما أن أخذ اجثاركس Agatharchus يزدهي بسرعه في التصوير رد عليه زكسيس في هدوء : « لني أحتاج إلى وقت طويل » . وتغلى عن عدد كبير من روائع صوره بحجة أنها لا تقدر بثمان مهما عظم ، وكان الملوك يعدون أنفسهم سعداء حين يحصلون عليها ، ولم تكن المدن أقل حرصاً على اقتنائها من الملوك .

ولم يكن في جيله إلا منافس واحد هو پرهسيوس Parrhassius الإفسوسى الذى لا يكاد يقل عنه في عظمته ، ولم يكن بالتأكيد أقل منه عجباً بنفسه . وكان پرهسيوس يضع على رأسه تاجاً من الذهب ويلقب نفسه « أمير المصورين » ، ويقول إنه أوصل الفن إلى درجة الكمال (١٧) . وكان يعمل هذا كله في مرج ومزاح ويغنى وهو يرسم (١٨) . وتقول الشائعات إنه اشترى عبداً وعذبه لكي يدرس عليه ما يبدو على وجهه من مظاهر الألم فيستطيع أن يرسم صورة پروميثيوس (١٩) . وما أكثر القصص متى يتناقلها الناس عن الفنانين . وكان

برهسيوس واقعياً مثل زكسيس . وقد بلغ من صدق صورة العداء وإتقانها أن الناظرين إليها كانوا يتوقعون أن يروا العرق يتصبب من الصورة ، وأن يروا العداء نفسه يسقط من فرط الإثنية . ومن صورته صورة كبرى على جدار ، هى صورة أهل أثينة يمثلهم فيها قساة ورحماء ، متكبرين وأذلاء ، متوحشين وجبناء ، متقلبين وكرمياء ، ويبلغ من أمانته فى هذه الصورة أن الجمهور الأثينى — على ما تقول الرواية — أدرك لأول مرة ما فى طباعه من تعقيد وتنافض (٢٠) .

وأدى التنافس الشديد بينه وبين زكسيس Zeuxis إلى اشتراك الرجلين فى مباراة عامة . ذلك أن زكسيس رسم بعض عناقيد العنب رسماً بلغ من إتقانه ومشابقتها للعنب الطبيعي أن الطيور حاولت أكله . وأعجب المحكون أشد الإعجاب بهذه الصورة ، ووثق زكسيس من الفوز وثوقاً جعله يأمر برهسيوس أن يزيع الستار الذى يحنى وراء الصورة التى رسمها الفنان الإفسوسى ، فلما تبين أن الستار جزء من الصورة ، وأن زكسيس نفسه قد خلد اعترف فى غير حقد بهزيمته . ولم يفقد زكسيس بهذا شيئاً من شهرته ، فقد اتفق فى كرتونا على أن يرسم صورة لهن توضع فى معبد هيرا اللسينية Lacinian Hera ، على شريطة أن تقف أمامه عاريات أجمل خمس نساء فى المدينة ، ليختار من كل واحدة منهن أجمل ما فيها ، ثم يجمع مما أخذه منهن صورة ثانية لربة الجمال (٢١) . وحيث بتلّى بفضل تصويره حياة جديدة ، ولكن أكثر ما كان يعجب به من صورته صورة رياضى كتب تحتها يقول إن الناس يمدون نقهه أيسر عليهم من مجاراته . وكانت بلاد اليونان كلها تسر من غروره وتتحدث عنه بقدر ما تتحدث عن أى كاتب مسرحى ، أو حاكم سياهى ، أو قائد بحرى . ولم يكن أحد أوسع منه شهرة إلا المتبارون لنيل الجوائز الرياضية .

الفصل الثالث

أساتذة النحت

١ - أساليهم

على أن التصوير بقى رغم هذا التفوق إغريباً على العبقريّة اليونانيّة التي كانت تحب الشكل أكثر مما تحب اللون ، والتي جعلت تصوير العصر الذهبي (إذا حكمنا عليه بأقوال الناس فيه) دراسة في الجهاد للخطوط والتصميم لا إداركاً حسيّاً لألوان الحياة . أما ما كان يولع به الرجل اليوناني ويسر منه فهو منتجات النحت ، ولذلك كان يملأ بيته ، وهياكله ، وقبوره ، بتمائيل صغيرة من الطين المحروق ، ويعبد آلهته بتصويرها في الحجارة ، ويقيم على قبور موتاه ألواحاً منقوشة تعد من أكثر منتجات الفن اليوناني وأوقعها في النفس . وكان العمال الذين ينقشون هذه الألواح من الصنّاع غير ذوي الخلق ، ينقشون ما حفظوه عن ظهر قلب ، ويكررون ألف مرة الموضوع المألوف ؛ موضوع فراق الأحياء للأموات فراقاً هادئاً وأبدى الأحياء مقبوضة . غير أننا نجد بنا أن نذكر أن في هذا الموضوع من النبل ما يحتمل التكرار . لأنه يظهر ما انصف به خلائق العصر الذهبي من ضبط للنفس في أحسن صورهِ ، ويعلم النفس المرفهة الحس أن الشعور يبلغ أقصى قوته حين يعبر عن نفسه بصوت هادئ منخفض . وتظهر هذه الألواح الموقى ، أكثر ما تظهرهم ؛ يعمّاون عملاً من أعمال الحياة الدتيا - كطفل يلعب بالطوق ، وبنت تحمل إبريقاً ؛ ومحارب يعجب بعدته الحربية ، وفتاة تفخر بجليها ، وغلّام يقرأ كتابه وكلبه راقد تحت مقعده .

راض بموضعه ولكنه يرقب سيده . وتظهر هذه الألواح الموت مظهر الحادث الطبيعي ، وهو لذلك عندهم شيء يمكن العفو عنه ، وعدم الحقد عليه . وأكثر من هذه الألواح تعقيداً ما خلفه هذا العصر من نقوش محفورة هي أرق ما وجد من نوعها ؛ ويمثل أحدها أرفيوس يلتقي نظرة وداع طويلة على يورديس Eurydice التي استردها هرمس إلى العالم السفلي (٢٢) . وفي نقش ثان نرى ديمتر تعطي تريتولوس الحية الذهبية التي يستحدث بها فن الزراعة في بلاد اليونان ؛ ولا يزال بعض الأون في هذا النقش لاصقا بالحجر ، يوحى بما كان عليه النقش اليوناني في العصر الذهبي من روعة وصدق تعبير (٢٣) . وأجل من هذين النقيشين مولد أفرديتي الذي حضره على أحد أوجه « عرش لدفيزي » (*) حصار غير معروف لعله تدرج على فته في أيونيا . وترى فيه إلهتان ترفعان أفرديتي من البحر ، وثوبها الرقيق المبلل ملتصق بجسمها ، يظهر كل ما فيه من روعة الأنوثة الناضجة . ورأسها شبيه بعض الشبه برعوس الأسبويات ، ولكن أثواب من يرافقها من الإلهات ووقفتهن الرشيقة الجميلة عليهما طابع العين واليد اليونانيتين الحساستين . وعلى جانب آخر من جوانب العرش نقشت فتاة عارية تعزف على القيثارة المزدوجة ، وعلى جانب ثالث امرأة مقنعة تعد مصباحها لتضيء به ظلمة المساء ؛ ولعل وجه هذه المرأة وأثوابها أقرب إلى الكمال مما على الجانب الرئيسي للعرش .

ويدهش الإنسان حين يرى رقى مثالي القرن الخامس عن أسلافهم . ففي هذا القرن لم يعد المثالون يظهرون المنظر الأمامي ، وفيه يصبح فن المنظور عظيم الأثر إذ يمثل الأشياء كأنها بارزة نحو الناظر إليها ، وتحمل فيه الحركة محل

(٥) هي كتلة من الرخام عثر عليها في رومة حين هدم قصر لدفيزي الصغير . والحجر الأصل في متحف ترمي Muse delle Terme برومة ، وتوجد نسخة جيدة منه في متحف الفن بفيوورك .
(١١ - ج ٢ - مجلد ٢)

السكون ، والحياة محل الحمد . والحق أن المثال اليوناني حين يخرج على العرف القديم ويصور الإنسان يتحرك إنما يحدث ثورة في الفن . ذلك أننا قلما نعر قبل ذلك العهد ، في مصر أو في الشرق الأدنى أو في بلاد اليونان نفسها قبل مرون ، على مثال ينحت إنساناً يتحرك . وكان من أهم أسباب هذا التطور ما أمتازت به الحياة اليونانية بعد سلاميس ، حيوية جديدة ونشاط لم يكن لها من قبل ، ولكن أكبر الفضل فيه إنما يرجع إلى دراسة الفنان وتلاميذه للتشريح الحركي في صبر وأناة أجيالا طويلا .

انظر إلى سؤال سقراط المثال الفيلسوف : « أليس الذي يجعلك تظهر تماثلك كأنها أشخاص حية هو أنك تنحتها على مثال الكائنات الحية نفسها ؟ . . . » وإذا كانت مواقفنا المختلفة تؤثر في بعض عضلات أجسامنا غير ترفع بعضها وتنخفض البعض الآخر ، وبذلك ينقبض بعضها وينبسط البعض ، وتلتوى هذه وترتخي تلك ، إذ كان هذا يحدث أليس تعبيرك عن هذه الجهود هو الذي يجعلك تظهر ما تنحته صادق التعبير عن الحقيقة » (٢٤) .

لقد كان المثال في عهد بركليز عظيم الاهتمام بكل جارية من جوارح الجسم لا تقل عنايته بالبطن عن عنايته بالوجه ، يعبر أدق تعبير عن حركات اللحم المرن على الهيكل العظمي المتحرك ، وعن انقباض العضلات ، والأوتار ، والأوعية ، وعمما في تركيب اليدين والأذنين والقدمين من عجائب تجل عن الحصر ، ويفتن بما يلقي من الصعاب في تمثيل أطراف الجسم . ولم يكن في غالب الأحيان يستخدم نماذج حية تقف أمامه في منبحة ، بل كان يكتفي في أكثر الأوقات بملاحظة الرجال عارين نشطين في مدارس الألعاب وميادينها ، وملاحظة النساء يمشين في وقار في المواكب الدينية أو ينهمن انهماكاً طبيعياً في أعمالهن المنزلية . ولهذا السبب ، لالحياة ، نراه يركز دراسته للتشريح على الرجال دون النساء ، ونراه في تصويره للنساء يستبدل بدقة التشريح الجسمي تمثيل دقائق الثياب أحسن

عثيل — وإن كان يجعل الملابس شفافة إلى أبعد حد تمكنه منه جرأته . وكان هذا الفنان قد مل رؤية أنصاف الثياب السفلى الجامدة التي يشاهدها على تماثيل مصر واليونان في عهدهم الأقدم ، فتاقت نفسه إلى إظهار ملابس النساء يلعب بها النسيم لأنه في هذا الوضع أيضاً قد أدرك خصائص الحركة والحياة .

وهو لا يكاد يترك أية مادة تقع في يده ويستطيع استخدامها في ذهنه إلا استخدمها — من خشب ، وعاج ، وطين محروق ، وحجر جبرى ، ورخام ، وفضة ، وذهب . وهو يستخدم أحياناً الذهب لصنع الثياب ، والعاج لصنع الجسم ، كما فعل فدياس في تماثيله الذهبية العاجية . وكان البرنز هو المادة المحببة لمثال الهلويونيز ، لأنه يعجب بألوانها القائمة التي تصلح كل الصلاحية لتمثيل أجسام الرجال الذين لوحتهم الشمس وهم عراة ، وكان لجله يجشع الإنسان يظن أنه أبقي على الدهر من الحجارة . أما في أبونيا وأتكا فكان يفضل الرخام ، لأن ما يلقاه فيه من صعوبة يستثير همته ، ولأن ما فيه من صلابة يمكنه من أن ينحته بإزميله وهو آمن ، وكان نعومته ونصف شفافته قد خلقا لتمثيل لون النساء الوردى ورقة أجسامهن . وقد كشف المثال بقرب أثينة رخام جبل بنتلكس Pentelicus ، ولاحظ أن ما فيه من حديد ينضجه طول الزمان والعوامل الجوية فيبدو للرائى وكأنه عرق من الذ . ، تلاماً وسط الحجر ، وأفلح بفضل ما وهب من الصبر ، وهو نصف العبقرية ، في أن ينحت على مهل من المهاجر تماثيل حية . ومثال القرن الخامس حين يعمل في البرنز يستخدم طريقة الصب الأجوف بالعملية المعروفة بعملية الشمع المفقود cire perdu ، وذلك بصنع نماذج من الجبس أو الصلصال للتمثال الذى يريد صبه ، ثم يغطيه بطبقة رقيقة من الشمع ، ويغطى هذا كله بعدئذ بقالب من الجبس أو الصلصال مسنن في عدة مواضع ، ويضعه في تنور تذيب حرارته الشمع فيخرج من الثقوب ، ثم يصب ذوب البرنز في القالب من أعلاه حتى يملأ المعدن جميع المسافة التي كان يشغلها الشمع قبل

أن يذوب : ثم يبرد الشكل كله ويزيل عنه القالب الخارجى ، ويردم ويصقله ، ثم يطل البرنز بالك أو يلونه أو يلدهبه حتى يتخذ صورته النهائية . فإذا فضل الرخام بدأ بالكتلة غير المشكلة ، غير مستعين بأى نظام من نظم التوجيه (*) ، ويعمل من غير قواعد موضوعة ، مسترشداً في أكثر الأحيان بعينه لا بالآلات (٢٠) ؛ ويزيل من الحجر بضرباته المتتالية ما لا حاجة له به ، ويوالى هذه الضربات حتى تتشكل من الحجر الفكرة الكاملة التى سورها لنفسه فى ذهنه ، وحتى تصبح المادة غير المنتظمة صورة وشكلا على حد قول أرسطاطاليس .

أما موضوعاته فتختلف من الآلهة إلى الحيوانات ، ولكن أيا كان الموضوع ، فإنه يجب أن يكون من حيث الجسم خليفاً بالإعجاب ، ولم يكن الضعفاء أو العقليون ، أو الأصناف الشاذة غير السنوية ، أو العجائز أو الشيوخ ، لم يكن هؤلاء يمدون لهم مكاناً عنده ؛ وكان يجيد تحت تماثيل الخيل ، ولكنه لم يكن شديد العناية بغيرها من الحيوان ، وكان أكثر إجابة فى تحت تماثيل النساء ؛ ومن آياته الفنية التى لا تمثل نساء بعينهن كتمثال الفتاة المستغرقة فى أفكارها والممسكة بثوبها فوق ثديها المحفوظ بمتحف أثينة ، ما يبلغ درجة من الجمال الهادئ تعجز اللغة عن وصفه . وخير ما يجيده على الإطلاق تماثيل اللاعبين الرياضيين ، لأنه يعجب هؤلاء إعجاباً لا حد له ، ولأنه لم يكن يحول بينه وبين مراقبتهم حائل . وكنت تراه من حين إلى حين يبالغ فى إظهار قوتهم ، ويصر على بطونهم عضلات لا وجود لها عليها ، ولكنه كان يسعه رغم هذا الخطأ أن يصب تماثيل من البرنز كالتماثيل الذى وجد فى البحر قرب أنتيسثرا Anticythera وللذى يقال إنه تمثال إلفوس Ephebos تارة وتارة يقال إنه تمثال پرسوس Perseus الذى أمسك

(*) المراد بالتوجيه هنا بيان المق الذى يجب أن يصل إليه النحات فى قطع الكتلة الحجرية التى يريد صنعها قبل أن يبدأ الفتلان عملها . : وكان يده استخدام هذه الطريقة فى التبريد التى اصطفت بالصيغة اليونانية (٢٥) .

بيده في وقت ما رأس مدوزا Medusa وشعره المكون من الأفاعى . وكان في بعض الأحيان يصوره شاباً أو فتاة منهمكة في عمل بسيط تقوم به من تلقاء نفسها ، كتمثال الغلام الذى يخرج شوكة من قدمه(*) ، غير أن أساطير بلاده كانت أهم ما يوحى إليه بموضوعات فنه . ولم يكن ذلك النزاع الرهيب الذى قام بين الفلاسفة والدين ، والذى يبدو في تفكير القرن الخامس كله ، نقول لم يكن ذلك النزاع قد بدا على الآثار بعد ، فهنا كانت الآلهة لا تزال صاحبة السيادة العليا ، وحتى لو كانت قد أخذت في الاضمحلال فقد كانت تنتقل أنبل انتقال وأعظمه إلى شعر الفن . ترى هل كان المثال الذى يشكل في البرنز زيوس أرتيميزوم القوى يعتقد بحق أن يصور شريعة العالم(**) ؟ وهل كان الفنان الذى ينحت تمثال ديونيسس الظريف الحزين المحفوظ في متحف دلفى ، هل كان هذا الفنان يعرف في أعماق إدراكه الذى لا تعبر عنه الألفاظ أن ديونيسس قد طعنته سهام الفلسفة طعنة نجلاء ، وأن الملامح المتواترة للمسيح خليفة ديونيسس قد وجدت في هذا الرأس من قبل أن يولد المسيح .

٢ - المدارس

إذا كان فن النحت اليونانى قد أخرج هذا القدر كله في القرن الخامس ، فقد كان من أسباب ذلك أن كل مثال كان ينتمى إلى مدرسة معينة ، وأن له مكاناً في ثبت طويل من الأساتذة والطلاب ، يتوارثون خلق فنهم هذا ، ويقاومون تطرف الفردية المستقلة ، ويشجعون مواهبهم الخاصة ، ويسيطرون عليها ويهذبونها بالتضلع في فنون الماضي وما أخرجته من بدائع ،

(*) في متحف المتروبولين برومة ، وأكبر الفن أنه صورة من تمثال يرياقا أصل نحت في القرن الخامس .

(**) في متحف أثينة ، وهناك صورة منه في المتحف اللوى بلوهروله .

وتشكيلها بتفاعل هذه الأعمال مع القواعد الجديدة حتى أصبحت فناً أعظم مما يتقدمه في العادة العبقريّة المنعزلة المتحررة من القواعد والقوانين : إن الفنانين العظام يكونون في الغالب نتاجاً لتسامي التقاليد الماضيّة وارتقاها إلى ذروتها أكثر مما يكونون نتيجة للخروج عليها . ومع أن التأثيرين على التقاليد الماضيّة يكونون بطبيعتهم منشقين على تاريخ الفن الطبعي ، فإن أسلوبهم المتجديد لا ينتج شخصيات فذة سامية إلا بعد أن تثبتت الوراثة ويظهره الزمن .

وقد قامت بهذا العمل خمس مدارس في بلاد اليونان في عهد بركليز : مدارس رجيوم ، وسكيون ، وأرجوس ، وإيجينا ، وأثينا . وفي عام ٤٩٦ أو حواليه استقر في رجيوم فيثاغورس آخر من ساموس وصب تماثلاً لفلكيتمس أذاع شهرته في بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أظهر في وجوه تماثيله من علامّ الانفعال ، والألم ، والشيخوخة ما هز مشاعر المثاليين اليونان بأجمعهم حتى قرر المثاليون في العصر الذي انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلادهم الأصليّة أن يحاكيوه في تماثيلهم . وفي سكيون واصل كيناكس Canachus وأخوه أرسطكليز Aristocles العمل الذي بدأه قبلهما بمائة عام ديونس Dipoenus وسليس Scilis من فثاني كريت . ورفع كلون Calloin وأناثس Onatas مقام إيجينا بين المدن اليونانية بما أظهرها من خلق في صب البرنز ، ولعلهما هما اللذان صنعا قواصر إيجينا . وفي أرجوس نظم أجلداس مراحل انتقال فن النحت في مدرسته وبلغت ذروة مجدها على يد بليكليتمس .

حاء بليكليتمس من أرجوس وذاعت شهرته فيها حين وضع حوالي عام ٤٧٢ تصميماً لتمثال من الذهب والعاج لهيرا إلهة المدينة ليوضع في معبدها : وكان العصر الذي صنع فيه يرى أنه لا يفوقه في دقته غير تماثيل فدياس الفصحمة العاجية الذهبية(*) .

(*) ولعلنا نجد صدقاً لمطمة التماثيل في رأس هيرنر العظيم المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي يقال عنه إنه مصنوع على مثال رؤوس تماثيل بليكليتمس .

واشترك في إفسوس في مباراة مع فدياس ، وكرسلاس Cresilas وفردمون Phradmen لصنع تمثال لامرأة محاربة يوضع في هيكل أرتميز . وعين الفنانون الأربعة قضاة للحكم في هذه المباراة . وتقول الرواية المتواترة إن كلا منهم حكم بأن تمثاله خير التماثيل جميعها ، وأن تمثال بليكليتس ثانيها ، وبناء على هذا الحكم منح الفنان السكيوني الجائزة (*) (٣٧) . لكن بليكليتس كان يجب الرياضيين أكثر مما يجب النساء أو الآلهة ؛ ولما أراد أن ينحت تمثاله الشهير لديادمنوس Diadumenos (وهو الذى توجد أحسن نسخة منه في متحف أثينة) مثل هذا الظاهر في اللحظة الذى كان يربط حول رأسه العصاة التى يضع القضاة فوقها إكليل الغار . ويرى الناظر إلى صدر التمثال وبطنه عضلات أكثر وأضخم مما يصدق العقل ، ولكن الجسم يركز ارتكازاً واضحاً على قدم واحدة ، وملامح التمثال تعبر عما امتاز به العصر الذهبى من تناسق أصدق تعبير . لقد كان بليكليتس يهيم بهذا التناسق بل يكاد يعبد ، وكان همه في حياته أن يضع قانوناً أو قاعدة لتحديد النسبة الصحيحة بين كل جزء وجزء في التمثال ، فكان والحالة هذه هر فيثاغورس النحت ، ينشد الرياضة القدسية في التناسب والشكل ؛ وكان يظن أن أبعاد أى جزء من أجزاء الجسم الكامل يجب أن تتناسب تناسباً محدداً معروفة مع أبعاد أى جزء آخر كالسبابة مثلاً . وكان قانون بليكليتس هذا يستدعى أن يكون الرأس مستديراً ، والكتفان عريضتين ، والجلع ممتلئاً قصيراً ، والعجيزتان واسعتين ، والساقان قصيرتين ، وكل هذه تجعل التمثال مظهراً للقوة لا للرشاقة . وأولع الفنان بقانونه ولما حمله على أن يؤلف رسالة يشرحه فيها وأن يوضحه بتمثال من صنعه : ولعل هذا التمثال هو تمثال الدوريفوروس Doryphoros أو حامل الرمح الذى توجد نسخة رومانية منه في متحف نابلى . وفيه يرى مرة أخرى الرأس القصير

(*) لعل تمثال المحاربة المحفوظ في الفاتيكان نسخة رومانية من هذا التمثال .

العريض الجمجمة ، والكضبان القويتان ، والجذع القصير ، والعضلات المتفصنة المسنولة على الحقو . وأجل من هذا تمثال إفيوس Ephebos المحفوظ في المتحف البريطاني ، وفيه تظهر أحابيس الغلام كما تظهر عضلاته ، ويبدو أنه منهمك في تفكير هادئ لطيف في شيء آخر غير قوته . وأضحت قواعد بليكليتس بفضل هذه التماثيل القانون الذي يتقيد به المثالون في البلوونيز ، وقد تأثر به فدياس نفسه ، وظلت له السيادة على النحاتين حتى قضى عليه بركسيتس وأحل محله ذلك القانون الآخر المناقض له والذي يجعل الجسم طويلاً ، نحيلاً ، رشيقاً ، وقد بقي هذا القانون الأخير ظاهر الأثر في التماثيل الرومانية في أوروبا المسيحية .

وكان ميرون Myron يمثل المرحلة الوسطى بين المدرستين البلوونيزية والأثينية . وقد ولد هذا المثال في إلوثيرا Eleuthera ، وعاش في أثينة ، ودرس وقتاً ما (كما يقول بلني^(٢٨)) مع أجلاذاس Ageladas ؛ فعلم كيف يجمع بين الرجولة البلوونيزية والرشاقة الأيونية . وكان ما أضافه إلى مدارس الفن جميعها هو الحركة : فهو لم ير اللاعب الرياضي كما يراه بليكليتس قبل المباراة أو بعدها ، بل يراه في أثنائها ، وقد حقق ما رآه في البرنز تحقيقاً فاق به كل مثال آخر حاول تصوير جسم الرجل في أثناء العمل . وصب حوالي عام ٤٧٠ أشهر تماثيل صنعها للاعبين وهي تماثيل رماة القرص (disocobolo)^(*) . وفيها بلغت عجائب أجسام الرجال غايتها ؛ فقد درس الجسم دراسة دقيقة في جميع حركات المفاصل ، والأوتار ، والعظام ، التي يتطلبها القيام بعمل ما ، وانحنت الساقان والذراعان وانحنى

(*) في متحف ترمي Musco del Terme جلع رخامي هو نسخة من هذا التمثال صنعته يد فنان روماني وفي معهد الأحياء المائية بميونخ نسخة برنزية من هذا التمثال صنعت في عصر متأخر ، وفي المعهد الفني بليوبورك نسخة تجمع بين جلع كاللي في متحف الفاتيكان ورأس كالرأس الذي في قصر لانسلي Lancelotti .

لجذع لكى تكسب الرمية أعظم قوتها ، ولم يتلو الوجه ويشوه بسبب ما يذله
الراى من جهد ، بل ظل منبسطاً ، والراى هادئ وأثق من قدرته ، وليس
الرأس ثقيلًا أو وحشياً ، بل هو رأس رجل من لحم ودم ورقة وتهذيب ، في
وسعه أن يولف الكتب إذا نزل إلى مستوى من يكتبونها . ولم تكن هذه
الآية الفنية إلا عملاً واحداً من أعمال ميرون الكثيرة ، وقد أعجب بها
مواطنوه ، ولكنهم أعجبوا أكثر من ذلك بتمثال أثينة ومزياس (*) وتمثال
لاداس . وتمثال أثينة هذا أجمل مما يتطلبه الغرض الذى صنع من أجله ،
فليس في مقدور أى إنسان ينظر إليه أن يظن أن هذه العنبراء المحتشمة ترتب
وهى هادئة راضية صاحب الناي يسليخ . أما تمثال مزياس فأشبه بتمثال
ليرنارد شو أدركه الفنان في وضع مغيب ولكنه مفصح بليغ . ويصور هذا
التمثال عازف القيثارة وقد عزف عليها آخر مرة ، وأدرك الموت ولكنه
يأبى أن يموت من غير أن يتكلم . ولم يكن لاداس لاعباً رياضياً خارت
قواه لأن النصر أنك جسمه ، بل إن ميرون قد صوره تصويراً بلغ من
واقعيته أن صاح يونانى قديم حين رآه : « لقد صاغك لاداس من النحاس
بالصورة التى كنت عليها في الحياة ، تخرج روحك اللاهية من صدرك
مع أنفاسك ، وأسبغ على جسمك كله حرصك على تاج النصر » ، وقال
اليونان عن عجلة ميرون إنها تستطيع أن تفعل كل شيء عدا الحوار (٣٠) .

وأضافت المدرسة الأتكية أو الأثينية إلى البلوونيزيين وإلى ميرون ما تهبه
النساء للرجال : جمالا ، ورقة ، ورشاقة ، وظرفاً ، وكانت وهى تفعل هذا
تحتفظ من عناصر الرجولة بالقوة . فقد وصلت إلى مستوى عال قد لا يصل
إليه المثلون مرة أخرى . وكان كلميس Calamis لا يزال وقتل محفظاً بعض
الشيء بطابعه العتيق ، ولم يكن نسيوتيز Nesiotis وكريتيوس Critius
وهما يصبان طائفة أخرى من تماثيل قتلة الطفلة قد تحررا من البساطة الجامدة

(*) في متحف نيويورك الفن نسخة جميلة من النسخة اللاتينية .

التي كانت تسود تماثيل القرن السادس . وقد حذر لوشان الخطباء من أن يكون مسلكهم كمسلك هذه التماثيل العديمة الحياة . فلما أن نحت بيونيوس Paeonius من أهل مندى Mende المقدونية للمسيحين تمثال النصر بعد أن درس فن النحت في أثينة أظهر فيه من الرقة والرشاقة والجمال ما لم يظهره أحد غيره من الفنانين اليونان إلى عهد پرکستيليز ؛ وحتى پرکستيليز نفسه لم يفقه في تمثيل طيات الثياب المنسدلة على الجسم أو في تمثيل نشوة هذه الحركة (*) .

٣ - فدياس

كان فدياس وأعوانه بين عامي ٤٤٧ ، ٤٣٨ منهمكين في نحت تماثيل الپرتون وحفر نقوشه . وكما كان أفلاطون كاتباً مسرحياً قبل أن يصير فيلسوفاً مسرحياً ، كذلك كان فدياس في أول الأمر مصوراً ، تتلمذ بعض الوقت على پوليخوتس . ويلوح أنه أخذ عنه أساليب التصميم والتأليف بين الوحدات المختلفة والجمع بين الأشكال لإحداث الأثر الكلي للصورة . ولعله أخذ عنه أيضاً ذلك « النمط العظيم » الذي جعله أعظم مثال في بلاد اليونان بأجمعها . ولكنه لم يجد في التصوير ما يشبع كفايته لأنه كان في حاجة إلى أبعاد أوسع ، فاتجه إلى النحت ، ولعله درس فن أجلاداس في صب البرنز وظل يمارسه في صبر وأناة حتى برع في كل فرع من فروعه .

وكان حين فرغ من نحت تمثال أثينة پارثون في عام ٤٣٨ قد أصبح شيخاً طاعناً في السن ؛ وشاهد ذلك أنه صور نفسه على دوعه شيخاً أصلع به طائف

(*) لقد غابت أجزاء هذا التمثال بعد أن عثر عليها الألمان في أولمپيا عام ١٨٩٠ ، وهو الآن في متحف أولمپيا . ولا تكاد تقل عنه جمالا تماثيل غور البهراني عثر عليها من غير دؤوس بين أنقاض أحد الأبنية القديمة في زنتوس الیثية Lycian Xanthos وهي الآن في المتحف البريطاني . لقد نفذت الروح اليونانية إلى آسية غير اليونانية .

الحزن . ولم يكن أحد ينتظر منه أن ينحت بيديه مئات التماثيل التي امتلأ بها فضاء البارثنون ، وإفريزه ، وقواصره ، وكان حسبه أن يشرف على جميع أبنية بركليز ويضع خططها يزينا من التماثيل ، ثم يعهد إلى تلاميذه ، وخاصة إلى الكيمينز ، أن يقوموا هم بتنفيذها . على أنه هو نفسه قد نحت ثلاثة تماثيل لإلهة المدينة تقام في الأكروبوليس . وقد كلفه بنحت واحد منها المستعمرون الأثينيون في المنوس ، وكان هذا التمثال من البرنز أكبر قليلا من الحجم الطبيعي ، وبلغ من دقته أن كان النقاد اليونان يعدون تماثيل أثينة اللمنوسية أجمل تماثيل فدياس كلها بلا استثناء(*) (٣٠) ، وثاني هذه التماثيل تماثيل أثينة يروماكوس وهو تماثيل برنزي ضخيم يمثل الإلهة في صورة المدافعة الحربية عن المدينة . وقد أقيم بين البروبليا Propylaea والإركيوم Erchtheum ، وكان ارتفاعه هو وقاعدته سبعين قدماً . وكان دليلا للملاحين وتحذيراً لأعداء المدينة(**) . وأشهر هذه التماثيل الثلاثة تماثيل أثينة بارثنوس ويبلغ ارتفاعه . ثمانى أقدام وثلاثين قدماً ، وكان مقاما في داخل البارثنون ويمثل أثينة العلراء إلهة الحكمة والعفة . وكان فدياس يريد أن ينحت هذا التمثال الأخير من الرخام ، ولكن الشعب أبى إلا أن يكون من العاج والذهب . فاستخدم الفنان العاج للأجزاء الظاهرة من الجسم كما استخدم أربعين وزنة (٢٥٤٥ رطلا) من الذهب لصنع الثياب (٣١) ، ثم زينته بالمعادن الثمينة والنقوش المتقنة البديعة على الخوذة ، والحلأين ، والدروع . وقد وضع هذا التمثال بحيث تقع أشعة الشمس مباشرة في يوم عيد أثينة على الثياب الجميلة وعلى وجه العلراء الشاحب بعد

(*) لم تبق منه نسخة صادقة .

(**) وقد نقل هذا التمثال إلى القسطنطينية حوالى عام ٣٢٠ م ؛ ويلوح أنه مرفق أثنته شعب قام فيها عام ١٢٠٣ (٣١) .

خولها من أبواب المعبد العظيمة(*) .

ولم يكن إتمام هذا التمثال من أسباب سعادة فدياس ، لأن بعض ما قدم له من الذهب والعاج لصنعه قد اختفى من مُحْتَرَفِهِ ولم تعرف أسباب اختفائه . واثتَز أعداء بركليز هذه القرصة الساخنة : فاتهموا فدياس بسرقة الذهب والعاج وأدانوه(**) . ولكن أهل أولمبيا شفَعوا له وأدوا الكفالة المطلوبة منه وقدرها أربعون ؟ وزنة على شريطة أن يذهب إلى أولمبيا ويصنع فيها تمثالا من الذهب والعاج لمعبد زيوس^(٢٤) . وصرهم أن يقدموا له من العاج والذهب أكثر مما قدم له قبل . وبنوا له ولمساعديه مصنعا خاصا بجوار حرم الهيكل ، وكلف أخوه پانينوس Panaenus أن يزين بالصور العرش الذى يجلس عليه التمثال وجدران الهيكل^(٢٥) . وإذا كان فدياس مولعا بالضخامة ، فقد جعل ارتفاع تمثال زيوس الجالس ستين قلما ، ولما أن وضع في مكانه في الهيكل شكوا النقاد من أن الإله سيخترق سقفه إذا ما بدا له أن يقوم واقفا . ووضع فدياس على « جينى » الإله الراعد « القائم » و « غداثره المعطرة » تاجا من الذهب في صورة أغصان شجر الزيتون وأوراقه . ووضع في يد الإله اليمنى تمثالا للنصر صغيرا مصنوعا من الذهب والعاج ، وفي يده اليسرى صولجانا مطعما بالأحجار الكريمة ، وألبسه ثوبا ذهبيا نقشت عليه الأزهار ، ووضع في قلميه خفين من الذهب المصمت . أما عرشه فكان من الذهب ، والأبنوس ، والعاج . وكان عند قاعدته تماثيل صغيرة للنصر ، لأبلو ، وآتميز ، ونپوبى ، ولصبيان من طيبة اختطفهم أبو الهول^(٢٦) . وكان الأثر الذى يبعثه في النفس هذا التمثال وتوابعه رائعا قويا

(*) لو أننا حكمنا على هذا التمثال من أنموذجى « لنورمانت » Lenormant و « فارفاكا » Varvaka المحفوظين في متحف أثينة لما عطينا كثيرا به . فأول هذين الأنموذجين ضخم متفخ الوجه ، وصدر الثانى تزحف عليه كثير من الأفاعى الخلسة .
 (**) حوالى ٤٢٨ ؛ وهذا التاريخ مشكوك فيه كثيرا . ومثل هذا يقال عن تعاقب الحوادث في السنين الأخيرة من حياة فدياس .

إلى حد جعل الناس ينسجون حوله كثيراً من الخرافات والأساطير . فن قائل إنه عندما أتمه فدياس طلب أن تطلع عليه السماء آية تدل على رضاها عن عمله ، فأرسلت صاعقة نزلت على الأرض غير بعيد عن قاعدة التمثال - وهي آية كعظم الآيات السماوية تقبل عدة تفاسير مختلفة(*) ، وعد التمثال من عجائب الدنيا السبع ، وكان يحج إليه كل من استطاع الحج ليشاهد الإله المتجسد فيه . ولما فتح إيميلوس پولس Aemilus Paulius القائد الروماني بلاد اليونان ورأى هذا التمثال الضخم استولى عليه الرعب ، واعترف أن ما شاهده بعينه قد فاق كل ما كان يصوره له خياله(٢٨) . ووصفه ديوكريسوتوم Dio Chrysotom بأنه أجمل تمثال على وجه الأرض ، وأضاف إلى قوله هذا ما قاله يتيهوفن في الموسيقى : « إذا وقف أمام هذا التمثال إنسان قد تراكت عليه الهموم ، وتجرع في حياته كأس المصائب والأحزان حتى الثمالة ، وطار النوم الحلو من أجفانه ، نسي كل ما يصيب الإنسان في حياته من متاعب وأحزان(٢٩) » . وقال فيه كونتليان Quintilian : « إن جمال التمثال قد أضاف بعض الشيء إلى دين البلاد ، ولقد كان جلاله خليقاً بالإله الذي يمثل(٤٠) » .

ولسنا نعرف عن أواخر أيام فدياس شيئاً موثقاً به . فن القصص ما يرى أنه عاد إلى أثينة حيث قضى نحبه في السجن(٤١) ، ومنها ما يقول إنه أقام في إليس Elis ، وإن هذه المدينة نفسها قد قتلته في عام ٤٣٢(٤٢) . وليست إحدى هاتين القصصين اللتين تتحدثان عن خاتمة فدياس أصلق من أختها ، وواصل تلاميذه عمله ، وبرهنوا على نجاحه معلماً بما أخرجوه من آيات فنية لا تكاد تقل روعة عن آياته هو . فقد تحت أجركريتس Agoracritus أحب تلاميذه إليه تمثالاً لنميسز Nemesis طبقت شهرته الآفاق

(*) لم يبق من تمثال زيوس هذا إلا قطع صغيرة من قاعدته .

ونحت الكمنيز تمثالا لأفرديني إلهة الحدائق كان لوشان يصفته في مصافه أرقى ما أخرجته المثالون من آيات (*) فنية (١٣). وكانت خاتمة مدرسة فدياس في نهاية القرن الخامس ، لكنها تركت فن النحت اليوناني أرقى كثيراً مما كان حين بدأت حياتها الفنية ؛ فقد أشرف الفن بفضل فدياس وأتباعه على الكمال في اللحظة التي بدأت فيها حرب الهلويونيز تنزل بأثينة الخراب . لقد أتقنت هذه المدرسة أصول الفن وقواعده ، وفهمت تشريح الجسم ، وصبت الحياة والحركة والرشاقة في البرنز والحجر صلباً ؛ ولكن العمل الجليل الذي يميز فدياس من غيره من المثاليين هو ما أخرجته من طراز في النحت جديد عجز عنه أصدق تعبير ، ذلك الطراز السامي أو « الطراز العظيم » كما يسميه ونكلمان . وهو طراز يجمع بين القوة والجمال ، والتهور والإحجام ، والحركة والسكون ، واللحم والعظم مع الروح والعقل . وفي هذا الطراز تمثل الفنانون عل الأقل بعدما بذلوا من جهود دامت خمسة قرون ذلك « الصفاء » الذائع الصيت الذي يعزوه المؤرخين بخيالهم إلى اليونان ، وكان في وسع الآثينيين ذوو العاطفة الثائرة الجياشة إذا ما تدبروا تماثيل فدياس أن يروا كيف يقترب الآدميون من الآلهة ، وإن يكن ذلك فيما أبدعوا من تماثيل فحسب .

(*) وقد يكون تمثال فينوس المكسورة المحفوظ في متحف القورنيسطة من هذا التشابه

الفصل الرابع

البناءون

١ - ارتقاء فن العمارة

تمت سيطرة الطراز الدورى فى العمارة على بلاد اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ولم يبق لى الآن من الهياكل اليونانية التى شيدت فى ذلك العصر الزاهر إلا قليل من الأضرحة الأيونية وأهمها الإركثيوم وهيكلى نيكى أڤيروس Nike Opteros المقام على الأكروپولس . وبقيت أتكافى ذلك العهد محافظة على الطراز الدورى ، فلم تخضع للطراز الأيونى إلا حين كانت تستخدمه فى العمدة الداخلىة للبروپيلىا ، وفى صنع إفريز حول التسيوم والپارثنون . ولعل ما يشاهد من نزعة ذلك العصر لى إطالة العمود وتقليل سمكه عما كان من قبل يدل على أثر آخر من آثار الطراز الأيونى .

وفى آسية الصغرى أشرب اليونان حب الشرقين للتحلية الدقيقة وعبروا عن هذا الحب بتنميق الدعامات الأيونية المرتكزة على العمدة تنميحاً فيه كثير من التعقيد ، وبإيجاد طراز جديد من هذه الدعامات أكثر زخرفاً من الطراز الأيونى يعرف بالطراز الكورنى . وحدث حوالى عام ٤٣٠ (حسب رواية ڤتروڤيوس Vitruvius) أن استلفتت نظر مثال أيونى يدعى كليمكس Callimachus ، سلة لتقديم الندور مغطاة بقرميدة ، تركتها مربية على قبر تسيدتها ؛ وقد نبتت شجيرة أكتنوس(*) حول السلة والقرميدة . وأعجب المثال بالصورة الطبيعية التى أوحى بها إليه السلة وما حولها فعدل

(*) جنس من الأعشاب الأوربية تعرف أيضاً بالكتكر ، وطابة الفوك ، وشوكة اليهود . (المترجم)

تيجان العمدة الأيونية في هيكل كان يشيده في كورنثة بأن أضاف أوراق الأكتوس إلى الحل اللولبية^(١٤) . ونحن نرجح أن هذه القصة خرافة لا أصل لها ، وأن سلة المربية كان أثرها في نشأة الطراز الكورنثي أقل من أثر تيجان العمدة المصرية المحلاة بسعف النخل وأوراق البردي . ولكننا نستطيع أن نقول واثقين إن الطراز الجديد لم ينتشر انتشاراً واسعاً في بلاد اليونان في عصرها الذهبي ، وإن كان لاكتيفس قد استخدمه في عمود منفرد في ساحة هيكل أيوني في فيجاليا Phigalea ، وإن كان قد استخدم أيضاً حوالي آخر القرن الرابع في هيكل أقيم تخليداً للدكري السكارتيز Lysicartes . ولم يبلغ هذا الطراز الدقيق أرقى صورة له إلا على يد الرومان المتأخرين في عهد الإمبراطورية .

وكان العالم اليوناني كله يشيد الهياكل في ذلك العهد ، وأوشكت المدن أن تقلص في تنافسها لإقامة أجمل التماثيل وأكبر الأضرحة ، وأضافت أيونيا إلى مبانيها الضخمة في ساموس وإفسوس هياكل أيونية جديدة في مجيزيا ، وثيوس وپريني ، وأقام المستعمرون اليونان في أسوس Assus من أعمال بلاد اليونان الطروادية مزاراً لأثينة لا يكاد طرازه يختلف في شيء عن الطراز الدوري العتيق ، وشادت كروتونا في الطرف الآخر من بلاد هلامى حوالي عام ٤٨٠ ق . م بيتاً دورياً واسعاً لم يرا ظل باقياً إلى عام ١٦٠٠ م حين ظن أخذ الأساقفة أن في مقلوره أن يستخدم حجراته في غرض أنفع من الغرض الذي كانت تستخدمه فيه^(١٥) . وأقيمت في القرن الخامس أعظم هياكل بسلونيا (بسم Paestum) ، وسجستا Segesta ، وسيلنس ، وأكرجاس ، وفيه أيضاً أقيم معبد أسكليبيوس Asclepius في إيلورس . ولا تزال تشهد في سرقوسة عمدة هيكل شاده جيلون الأول Gelon I لأثينة ، وقد بقي بعض هذا الهيكل لأنه حول إلى كنيسة مسيحية ؛

واختط إكثيتس في باسيا بالقرب من فيجاليا من أعمال الهلروپونيز هيكلًا لأبلو يختلف اختلافاً عجيباً عن البارثون آيته الفنية الأخرى . ذلك أن صفوف الأعمدة الدورية تحيط بفضاء يشغله محراب صغير وهو مكشوف كبير تحيط به أعمدة أيونية . وحول هذا البهو الداخلى فى مقابل الوجه الداخلى للعمد الأيونية يمتد لإفريز لا يقل فى رشاقتة عن إفريز البارثون نفسه ، ويمتاز عنه فى أنه ظاهر تراه العين(*) :

وشاد ليون Libon المهندس الإيلى فى أولمبيا قبل أن يشاد البارثون بحيل من الزمان مزاراً لزيوس دورى الطراز يضارع البارثون نفسه . وقد أقيمت فى كل طرف من أطرافه ستة أعمدة ، وثلاثة عشر عموداً فى كل جانب من جانبيه ، ولعلها قد بلغت من الضخامة حداً لا يتفق مع جمال الشكل ، كما أن المادة التى صنعت منها كانت غير خليقة بهذا الأثر الجليل - فهى من الحجر الخشن المطلى بالمصيص ؛ أما السقف فقد صنع من القرميد البنتلى Pentalie (**). ويحدثنا پوسنياس(٤٦) أن بيونيوس Paeonius والكميز قد نحتا للقواصر أشكالا قوية(+) تمثل على الجانب الشرقى من السقف سباق المركبات بين بليس وإينوماؤوس Aenomaus ، وعلى الجانب الغربى منه صراع الليثيين والقناطرة(++) . والليثيون ، كما تروى الخرافات اليونانية قبيلة جبلية تقيم فى تساليا ؛ ولما أن تزوج ملكها پريثوس Pirithous بهوداميا Hippodameia ابنة إينوماؤوس ملك يزا إحدى مدائن إليس Elis ، دعا القنطرة إلى وليمة العرس . وكانت القناطرة تسكن الجبال المحيطة بيليون ويصورها الفن اليونانى مخلوقات نصفها خيل ونصفها آدميون ، ولعلمهم

(*) ولا تزال ثمانية وثلاثون عموداً من أعمدته وجدران محرابه وأجزاء من العمدة الداخلية باقية إلى الآن . وفى المتحف البريطانى قطع من الإفريز .

(**) وصف لرخام وجد فى هيل بثلوكس Pentalicus بالقرب من أثينة .

(+) وهى الآن فى متحف أولمبيا .

(++) جمع قنطروس Centaur وهو حيوان خرافى يونانى نصفه حصان ونصفه ثور .

أراحوا بهذا أن يدلوا الناس على طبيعة أولئك الأقوام الوحشية غير المروضة أو يوحوا بأن القنطرة كانوا فرساناً مهرة إلى حد يخيل معه إلى من رآهم أن الفارس هو وفرسه حيوان واحد . وسكر أولئك الفرسان في أثناء الوليمة وحاولوا أن يختطفوا النساء الليثيات ، لكن الليثيين دافعوا عن نساتهم دفاع الأبطال وهزموا القنطرة (ولم يمل الفنانون اليونان تصوير هذه القصة ، ولعلهم كانوا يرمزون بها إلى تنظيف الغابات من الحيوانات البرية وإلى الكفاح القائم بين طبيعتي البشر الإنسانية والحيوانية) . والأشكال المصورة على القوصرة الشرقية عتيقة الطراز جامدة ساكنة أما التي على القوصرة الغربية فإن من أصعب الأمور أن يعتقد الإنسان أنها عملت في نفس هذا العصر ، ذلك بأنها نشيطة تنبض بالحياة ، وتدل على تمكن ناضج من التأليف بين المجاميع . وإن كان بعضها فجاً ، وإن كان الشعر قد مثل على النمط الذي جرى به العرف في الزمن القديم . أما العروس فذات جمال بارع يثير الدهشة ، فهي امرأة نحيفة في غير ضعف ، كاملة النمو ، جميلة الحميا ، جمالا لا نعجب إذا قامت بسببه الحرب بين الطائفتين المتقاتلتين . ونرى قنطروساً ملتجئاً يطوق خصرها بذرعه ، ويضع إحدى يديه على صدرها ، ويوشك أن يختطفها من دار عرسها ، ولكن الفنان مع هذا يصورها هادئة الملامح ساكنة سكوتاً يظن الإنسان معه أنه قد قرأ لسنج Lessing أو ونكلمان ، أو أنها تكتل الغواني بفرها الثناء عليها والرغبة فيها . وأقل من هذه الصور شائناً وأصغر منها حجماً ، وإن كانت أحسن منها صقلاً ، الأجزاء الباقية من جنبه الهيكل ، وهي التي تروى بعض أعمال هرقل الأسطوري ، فتصور بعضها هرقل يرفع العالم الأطلس . وقد أجاد الفنان في هذا كل الإجادة ، فليس هرقل هنا جباراً شاذاً مخالفاً للمألوف ، مفتول العضلات المحيطة بجسمه كأنها قدت من الحجر الصلد ، بل هو رجل كامل النمو ، متناسق الجسم ، وقد وقف أمامه أطلس له رأس لو أنه وضع على كفي أفلاطون لزانهما .

وإلى يسارها وقفت إحدى بنات أطلس مكتملة النمو بارة الجمال الطبيعي
الذى أكسبتها إياه مصنها وكمال أنوثتها .

ولعل المصور كان يرمز إلى صورة مرسومة في ذهنه حين صورها تساعد
في رقة وظرف الرجل القوى على حمل العالم . إن في مقدور الفنان الإخصائي
أن يعثر على بعض أغلاط في التنفيذ وفي التفاصيل الدقيقة عندما يتأمل هذه
الجهة نصف المخربة ، لكن الملاحظ الهوى إذا نظر إلى العروس . وإلى
هرقل ، وابنة أطلس ، يرى أن هذه المجموعة تقرب من الكمال قرب أية
مجموعة أخرى في تاريخ النحت البارز .

٢٠ - إعادة بناء أثينة

تفوق أتكنا سائر بلاد اليونان في كثرة ما أقيم فيها من أبنية في القرن
الخامس ، وفي حسن هذه الأبنية . فهنا نرى الطراز الدوري ، الذى يبدو
في غيرها متنفخاً ضخماً ، قد اكتسب الكثير من الرشاقة والانسجام
الأيونيين ، وأضيف اللون إلى الخطوط ، والتحلية إلى التناسب . ولقد أقام
الذين خاطروا بركوب البحر معبد الإسيدين على رأس شديد الخطر عند
Sunium ، بقى منه الآن أحد عشر عموداً . واختط لإكتينس في
إلوسيس هيكلًا رحباً لدمر وقدمت أثينة بناء على نصيحة بركليز ما يلزمه
من المال لجعل هذا المعبد خليقاً بالحفلات الإلوسيسية . وفي أثينة نفسها شجع
الفنانين على مواصلة عملهم وجود الرخام الجيد بالقرب منها في جبل بنتلكس
وفي پاروس ، لأنه أجمل مواد البناء على الإطلاق . وقاما استطاعت الديمقراطية
أو رغبت في عهد من العهود ، قبل حلول الكارثات الاقتصادية في أيامنا
هذه أن تنفق المال بمثل هذا السخاء على إقامة المباني العامة . فلقد تكلف
البارثون سبعمائة وزنة (٢٠٠,٠٠٠ رyal أمريكي) ، وتكلف تمثال أثينة
پارثنوس (وقد كان تمثالاً ومستودعاً للذهب في آن واحد) ما قيمته

٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠٠ ريال، وتكلف هيكل البروبليا ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤٠٠ ريال، وأنفقت. ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٠٠٠ ريال على مباني أصغر من هذه أقامها بركليز في أثينة وبيرية، و٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٢٠٠ ريال في إقامة تماثيل وما إليها من أسباب الزينة. رجلة القول أن أثينة خصت من مواردها في الستة عشر عاماً الواقعة بين ٤٤٧، ٤٣١ نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٧ ريال أمريكي للمنشآت العامة والتماثيل والتصوير^(٢٧)، وكان توزيع هذا المبلغ الضخم بين الصناع، والفنانين، والمنفذين لأعمالهم، والأرقاء، أثر كبير في الرخاء الذي عم أثينة في عهد بركليز.

وفي وسعنا أن نرسم في خيلتنا صورة غامضة للعوامل التي كانت تستند إليها هذه المغامرة الفنية الجريئة. ذلك أن الأثينيين، بعد أن عادوا من سلاميس، وجدوا أن الفرس لم يكادوا يبقون على شيء من المدينة في أثناء احتلالهم لها، فقد أحرقوا كل بناء ذي قيمة فيها، وتلك كارثة، إذ لم تقبض على السكان كما تقضى على المدينة، تزيد السكان قوة وصلابة، كما أن هذه النيران تطهر المدينة من الأحياء القذرة والمباني غير الصالحة للسكنى، وبذلك تعمل المصادفات ما يحول عناد الإنسان دون عمله؛ وإذا ما وجد الأهليون الطعام في خلال هذه الأزمة استطاعوا بمجهودهم وعبقريتهم أن ينشئوا مدينة أجمل من المدينة المخربة. ولقد كان الأثينيون بعد الحرب الفارسية أغنياء بمجهودهم وعبقريتهم، وضاعفت روح النصر من قوة إرادتهم ومن رغبتهم في الإقدام على جلائل الأعمال، فلم يمتص جيل واحد حتى أعيد بناء أثينة، فأقيم فيها بناء جديد لمجلسها، وشيدت فيها دار جديدة للبلدية، ومنازل جديدة، وأروقة جديدة ذات أعمدة، وأسوار جديدة لصدد المغيرين، وأقيمت أرصفة ومخازن في مرفأها جديد. ذلك أن هيبودامس Hippodamus الملطي أشهر من خططوا المدائن في الزمن القديم وضع أساس فرضة جديدة مكان بيرية، ووضع هذا الأساس على طراز جديد، فقد استبدل بالحواضر القديمة وبالأزقة الملتوية التي كانت تشق في المدينة على

غير نظام شوارع واسعة مستقيمة تتقاطع متعامدة . وشاد فنانون مجهولون على ربوة تبعد عن الأكروبوليس بميل واحد ذلك البارثون الأصغر المعروف بالثييوم أو هيكل ثسيوس(*) . وملاً المثلون قواصر البناء ووجهاته بالنقوش المحفورة . وأنشئوا له إفريزاً فوق الأعمدة الداخلية القائمة على جانبيه . وطلّى الرسامون (الكرانيش) والحزوز ، والواجهات والإفريز ، كما طلّوا بالألوان الزاهية الجدران من الداخل التي لا يدخل إليها إلا قليل من الضوء يتنفلد في المربعات الرخامية(**) .

وكان خير ما قام به البناؤون في عصر پركليز هو الأكروبوليس ، الحاضرة القديمة لحكومة المدينة ودينها ، وقد بدأ ثمستكليز تجديده ، فاخبط هيكلًا طوله مائة قدم سمي لهذا السبب « ذا المائة قدم » Hecatompedon . فلما سقط ثمستكليز وقف العمل في بنائه لمعارضة الحزب الأبحركي في ذلك ، بحجة أنه إذا أريد إقامة بيت للإلهة أثينة لا يكون شؤماً على المدينة وجب أن يقام هذا البيت في موضع الهيكل القديم هيكل أثينة بولياس (أثينة المدينة) الذي دمره الفرس . لكن پركليز ، الذي لم يكن من طبعه أن يعنى بهذه الأوهام ، رأى أن يقيم البارثون في موضع الهكتمپدون وسار في العمل وفقاً لهذه الخطة رغم احتجاج الكهنة . وشاد فنانونه على منحدر تل الأكروبوليس الجنوبي الغربي بهواً للموسيقى (أوديوم Odeum) يمتاز عن جميع أبهاء أثينة

(*) وهذه التسمية خاطئة لأن هذا الهيكل الذي أقيم في عام ٤٢٥ ؛ لا يمكن أن يكون هو الثييوم الذي جاء إليه سيمون في عام ٤٦٩ ؛ بنظام ثستوس المزهومة ؛ لكن الزمن يفسد القداسة على الخطأ كما يفسدها على السرقة ، ولهذا بقيت هذه التسمية التقليدية متداولة لأننا نعوّزنا بالتسمية المؤكدة الصحيحة .

(**) والثييوم هو خير ما احتفظ به من المباني اليونانية القديمة ، ولكنه رغم العناية به تنقصه مرهماته الرخامية ، وما كان على جدرانه من الصور وبداخله من التماثيل ، وعلى قواصره من نقوش ، كما تنقصه جميع ألوانه الخارجية تقريباً . وقد لحقت أضرار كبيرة بواجهاته جعلت تمييز النقوش في حكم المستحيل .

بقية المخروطية الشكل . وقد أتاح هذا البناء لهجائي بركليز المستمسكين بالقديم فرصة اغتنموها فأدخلوا من ذلك الحين يسمون رأس بركليز المخروطي « أوديته Odeion أى بهو غناؤه » وأقيم معظم الأوديوم من الخشب فلم يلبث إلا قليلا حتى عدا عليه الدهر . وكانت تقام فيه الحفلات الموسيقية ، ويتلرب فيه الممثلون على تمثيل مسرحيات ديونيسس ، وتجري فيه كل عام المباريات التى أنشأها بركليز فى الموسيقى الصوتية والوترية . وكثيراً ما كان هذا السياسى الذى نبغ فى كثير من الأعمال يقوم بالحكم فى هذه المباريات .

وكان الطريق الموصل إلى قمة التل فى الأيام القديمة ملتزماً متدرجاً ، على جانبيه تماثيل وقرايين الشكر للآلهة . وكان بالقرب من قمة التل مجموعة من الدرج الرخامية العريضة الفخمة تستند إلى بروج على كلا الجانبين . وشاد كلكراتيز فوق البرج الجنوبي أنموذجاً مصغراً لهيكل أبوني لأثينة فى صورة نيكى أبتروس Nike Apteros أو النصر غير ذى الجناح (*) . وكانت نقوش جميلة (لايزال بعضها محفوظاً فى متحف أثينة) تزين الحاجز ذا العمدة الصغيرة هى وطائفة من التماثيل تمثل النصر المجنح وتحمل لأثينة الغنائم التى جاءت بها من أماكن قاصية . وقد صنعت هذه التماثيل على صورة أجمل تماثيل فدياس ، وهى أقل قوة وعنفاً من تماثيل الإلهيات الضخمة التى فى البارثنون ، ولكنها أكثر منها رشاقة فى حركتها ، وأرق أحنها وأقرب إلى الطبيعة فى شكل ملابسها ؛ وتمثال النصر الذى يربط خفيه خليقاً باسمه لأنه نصر حق للفن اليونانى .

وأقام نيسكليز Mnesicles فى أعلى سلم الأكربوليس مدخلا ذا خمس

(٥) كثيراً ما كانت تماثيل نصر تصنع من غير أجنحة حتى لا تستطيع مدبرة المدينة . وقد هدم الأتراك هذا المعبد فى عام ١٦٨٧ م ليقوموا بمكانه حصناً . واستطاع لورد إلجين Lord Elgin أن ينقل من المطبخ بعض قطع من الإفريز ويرسلها إلى المتحف البريطاني . وفى عام ١٨٢٥ أعيدت أحجار الهيكل وأعيد بناؤه فى مكانه الأصل ، ووضعت قوالب من الصلصال المحروق فى موضع الأماكن المفقودة من الإفريز التى أصابها كثير من الدمار .

فتحات أمام كل واحدة منها رواق ذو عمد دورية من طراز الأبواب الميسينية ، ولكنها أكثر منها إحكاماً . ومن هذه العمد أخذ الاسم الذى أطلق على البناء كله فيما بعد وهو البروبليا Propylaea أى ما أمام الأبواب . وكان لكل رواق إفريز ذو واجهة مخززة ، من فوقه قوصرة . وكان فى داخل الممشى طائفة من العمد الأيونية لم يتحرج من شادوها أن يضعوها داخل هذا المحيط الدورى . وزين داخل الجناح الشمالى برسوم من صنع بولجنوتس وغيره من الفنانين ، ووضعت فيه لوحات نذور من الأحمر أو الرخام ؛ ومن أجل ذلك سميت الهناكثكا Pinakotheka أى بهو الرخام . وبقى جناح صغير فى الجهة الجنوبية ناقصاً ، فقد تعطل العمل فيه بسبب الحرب أو بسبب الانتقاص على بركليز ، فترك مدخل البارثنون مجموعة مشوهة من القطع الصغيرة المتفرقة الحميلة .

وكان إلى يسار الداخل من هذه الأبواب مزار الإركثيوم ذو الطراز الشرقى العجيب . وهذا أيضاً قد أدرسته الحرب فلم يتم أكثر من نصفه حين وقعت أثينة فى محال الفوضى والفاقة على أثر نكبة إيجسپتامى Aegospotamai . وقد بدئ العمل فيه بعد موت بركليز بإيعاز المحافظين الذين كانوا يخشون أن يعاقب البطلان القديمان إركثيوس Erectheus وسكرپس Cecrops هما وأثينة ساكنة الضريح القديم ، والأفاعى المقلصة التى كانت تأوى إلى هذا المكان ، نقول كانوا يخشون أن تعاقب هذه كلها مدينة أثينة لأنها شادت البارثنون فى مكان غير مكانه الأول . وكانت الأغراض المختلفة التى شيد من أجلها البناء هى التى عينت شكله ، وقضت على وحدته . فقد خصص أحد أجنحته لأثينة پولياس (أثينة المدينة) ، ووضعت فيه صورتها القديمة ، وخصص جناح آخر لإركثيوس وپسيلدن ، ولم يكن يحيط بالمحراب أو جسم المعبد رواق بين أعمدة بضم أجزاءه المتفرقة ، بل كان يستند إلى ثلاثة أرواق متفرقة . وكان المدخلان الشمالى والشرقى تسندهما عمد أيونية رفيعة لا تفوقها

في جمالها أية عمد أخرى من نوعها(*) . وكان المدخل الشمالى بابا كامل البناء مزينا بأزهار مجفورة في الرخام . ووضع في المحراب تمثال أثينة الخشبي البدائي الذي هبط ، في اعتقاد الصالحين ، من السماء . وهناك أيضاً كان المصباح العظيم الذي لا تنطفئ ناره أبداً ، والذي صاغه كلمكس ، سلفى Cellinus زمانه ، من الذهب المصفى وزينه بأوراق الأكتئوس كتيجان الأعمدة الكورثية . وكان المدخل الجنوبي هو باب القدارى أو الكرّيتيدات Caryatide(**) الدائع الصيت . وأكبر الظن أن تلك النساء الصابرات كن من نسل حاملات السلال الشرقيات . وفي تراليس Tralles من أعمال أسية الصغرى عمود قديم في صورة امرأة لا يترك مجالاً للشك في أن هذا الطراز من العمود شرقى الأصل ، وأكبر الظن أنه بابلى . والثياب التي تغطي أجسام العذارى فاخرة ، ويدل انحناء الركبة عن أنهن مستريحات في وقفتن ، ولكن أولئك الفتيات أنفسهن لا يشعرن الإنسان بأن فيهن من القوة ما يعينهن على حمل ذلك البناء ، كما يشعر الإنسان حين ينظر إلى أجمل أنواع الأبنية . لقد كان هذا انحرافاً في الذوق أكبر ظننا أن فدياس لم يكن يجيزه قط .

(*) لقد كانت هذه العمود ، لا عمد البارثون ، هي التي أقيمت على مثالها المد التي أنشئت فيما بعد . وكان أسفل كل عمود يتصل بصف الأعمدة « بقاعدة أنكية » مكونة من ثلاثة أجزاء مربوطة بمسامات شبكية أو أربطة . ويتدرج أعلى العمود حتى يصل إلى تاجه العلوى برباط من الأزهار . وكان للدعامة المرتكزة على العمود حلقة عليها نقوش ، وإفريز من الحجر الأسود ، ومن تحت الطنف طائفة من النقوش البارزة . ولم تكن عناية الفنانين بحفر الحليات المكونة من أزهار اليباضية ، والقنان ، والياسمين البرى ، أقل من عنايتهم بالتأثيل نفسها . وقد نال الفنانون على كل قدم من هذه الحليات مثل ما نالوه من الأجر على كل صورة في الإفريز .

(**) كان المهندس الرومانى قرونوريوس Vitruvius هو الذى أطلق هذا الاسم على هذه الأشكال ، وقد أخذ من الاسم الذى كان يطلق على كاهنات أرتيميس في مدينة كرية Caryae من أعمال لكونيا Loconia . أما الأثينيون فلم يسموهم بأكثر من كوراي Karai أى العذارى .

٣ - البارثنون

في عام ٤٤٧ بدأ إكتنوس بنشئ هيكلًا جديدًا. لأثينة بارثنوس يساعده ذلك العمل كلكراتيز Callicrates ويشرف عليها فدياس وبركليز لإشرافاً عاماً . وأنشأ في الطرف الغربي من البناء حجرة لكاهناتها العذارى سماها حجرة « العذارى » ton parthenos ، ثم استعير هذا الاسم على توالى الزمن فأطلق على البناء كله : واختار إكتنوس لبناء الهيكل رخام جبل بنتكلوس الأبيض المشوب بحبيبات حديدية ، ولم يستخدم في بنائه ملاطاً ، بل نحت كتل الحجارة وصقلت بحيث تملك كل كتلة في التي تليها كأن الاثنتين كتلة واحدة ، وثقبت صفحات الأعمدة ووضعت في ثقب الصفحة قطعة من خشب الزيتون تصل كلا منها بالأخرى وتدور على التي تحتها حتى سوى السطحان المتقابلان ويصقلان فلا يكاد يرى فارق بينهما^(٤٩) . وكان طراز البناء دورياً خالصاً وبسيطاً بسلطة أبنية العصر الذهبي ؛ أما شكله فكان رباعياً لأن اليونان لم تكن تعجبهم الأشكال المستديرة أو المخروطية ، ومن أجل هذا لم تكن في العمارة اليونانية عقود وإن يكن المهندسون اليونان على علم بها من غير شك . ولم تكن أبعاد البناء كبيرة فهي ٢٢٨ × ١٠١ × ٦٥ قدماً ، وأكبر الظن أنه كان يسود البناء كله تناسب معين كالتناسب التي يفرضه قانون بليكليتس ، فكانت جميع مقاييسه تتناسب تناسباً معيناً مع قطر العمود^(٥٠) . ففي بسدونيا كان ارتفاع العمود أربعة أمثال قطره ، أما هنا فكان الارتفاع خمسة أمثال القطر ، وكان هذا الطراز الحديد وسطاً بين المثانة الاسبارطية والرشاقة الأتكية . وكان قطر كل عمود يزداد قليلاً من قاعدته إلى وسطه (نحو ثلاثة أرباع البوصة) ثم ينقص كلما علا ، ويميل نحو مركز هو الأعمدة . وكان سمك كل عمود في ركن البناء يزيد قليلاً على سمك سائر الأعمدة ، وكل خط أفقى من قاعدة كل صف ومن الدخامة

المرتكزة عاياه ينحى إلى أعلى نحو وسط حتى إذا نظر إليه الإنسان من أحد طرفي هذا الخط الأي يظنه مستقيماً لم يستطع رؤية طرفه الثاني البعيد عنه . ولم تكن واجهات البناء كاملة التزييع ، ولكنها خططت بحيث تظهر لمن ينظر إليها من أسفل كأنها مربعة . ولم تكن هذه الانحناءات كلها إلا تصحيحاً دقيقاً للخداع البصرى ، وأولاًها لبدت قواعد صفوف الأعمدة منخفضة في وسطها مائلة نحو الخارج . وما من شك في أن هذا الضبط يتطلب قلباً كبيراً من العلم بالرياضيات والبصريات ، وأنه كان من المظاهر الهندسية الآلية التي جعلت الهيكل صرحاً يجمع بين العلم والفن . فقد كان كل خط مستقيم في البارثون ، كما هو في علم الطبيعة ، خطاً منحنيّاً ، وكان كل جزء من البناء ينسحب نحو الوسط ، كما هو الشأن في التصوير ، انسحاباً دقيقاً بارعاً . وقد نشأ من هذا كله نوع من المرونة والرشاقة ينحى إلى الإنسان معه أنه ينحلى على الحجارة نفسها حياة وحرية .

وكان فوق العارضة البسيطة (العارضة الراكزة على الأعمدة) سلسلة من الحزوز والأجنبة (ما بين الحزوز) تلى كلتاهما الأخرى . وقد نقشت على الأجنبة الاثنين والتسعين نقوش بارزة تقص مرة أخرى كفاح « الحضارة » و « الوحشية » في حروب اليونان والطرواديين ، واليونان والأزونيّات ، والليثيين والقناطر (Centaurs) ، والجبابة والآلهة . ولا شك في أن هذه الألواح من صنع فنانين كبيرين يتفانون في مهارتهم ، فهم لا تعادل النقوش البديعة التي على إفريز المدراب وإن كانت بعض رؤوس القنطرة لا تقل دقة وجمالاً عن صور رمبرانت Rembrandt ، وإن كانت هذه الرؤوس قد صنعت من الحجارة . وكان في قواصر السقف المرمى طائفة من التماثيل المقامة من حجارة منحوتة كبيرة الحجم ، وفي القوصرة الشرقية المقامة فوق المدخل . كان يسمح للزائر أن يشهد مولد أثينة

من وآس زيوس . وفي هذا المكان يشاهد تماثلاً متكثراً لثيسوس (*) قوى
الجسم جباراً ، قادراً على تفكير الفلاسفة وسكون المنحصرين ، وتماثلاً جميلاً
للإيريس Iris (وهى هرمس فى صورة نسوية) فى ثياب ملتصقة بجسمه
ولكنها تلعب بها الريح ، لأن فدياس كان يرى أن الريح التى لا تلعب
بالثياب تلبس سوء .

وهناك أيضاً كان تماثل فخم لهيبي Hebe إلهة الشباب التى كانت تصب .
الرحيق فى كؤوس الآلهة الأولمبية ، وثلاثة تماثيل رائعة « للأقدار » . وكان
فى الركن الأيسر أربعة رؤوس جياذ - تشرق أعينها ، وتنخر مناخيرها ،
وتزيد أفواهاها وهى مسرعة فى علوها ، تعلن شروق الشمس . وكان الركن
الأيمن يسوق القمر للمغيب عربته ذات الجياذ الأربعة والرؤوس الثمانية أجمل
رؤوس للتحيل . فى تاريخ النحت كله . وفى القوصرة الغربية نرى أثينة تنازع
بسيلدن السيادة على أتكا . وهناك أيضاً كانت خيول ، كأنها وضعت لتكفر
عن سخافات الإنسان الكثيرة ، وكانت هناك تماثيل لأناس متكئين تمثل فى
فخامتها غير الواقعية نهيرات أثينة الصغيرة . ولعل تماثيل الرجال كانت
كثيرة العضلات فوق ما يجب ، ولعل تماثيل النساء كانت أكبر مما ينبغى ،
ولكننا نشاهد تماثيل قد تجمعت بحالتها الطبيعية التى تجمعت بها هنا ، وقلما
نرى تماثيل بهذه الكثرة قد نسقت فى ذلك المكان الضيق من قوصرة البناء .
ويصفها كتوتا Canova وصفاً لا نشك أنه قد غالى فيه فيقول : « إن سائر
التماثيل من حجارة أما هذه فمن لحم ودم » .

وأجمل من هذه وأكثر منها جاذبية صور الرجال والنساء التى فى الإفريز ،
فهنا نشاهد أشهر النقوش كلها على الإطلاق تمتد إلى مدى ٥٢٥ قدما فى أحد
الجدران الخارجية للمحراب ، وفى داخل الرواق . وأكبر الظن أن هذه

(*) إن الأسماء التى نلقتها على التماثيل القائمة فى البارثنون غلبة فى أكثر الأحيان .

النقوش تمثل فتيان أتكأ وفتياتها يقدمن الهدايا وفروض الطاعة للإلهة أثينة
فى يوم الاحتفال بألعاب الجامعة الأثينية ، فترى جزءاً من الموكب يتحرك
بمحاذاة الجانبين الغربى والشمالى ، وجزءاً آخر يتحرك بمحاذاة الجانب
الجنوبى ، ثم يلتقيان فى الواجهة الشرقية أمام الآلهة ، وهى تقدم فى فخر
وكبرياء هدايا المدينة وجزءاً من مغانمها لى زيوس وغيره من الآلهة الأولمبية .
وهناك أيضاً فرسان حسان تتمثل فيهم المهابة والرشاقة فوق خيول أجمل
منهم ، وعربات تقل طائفة من كبراء المدينة تتبعهم جماعات من العامة تلبو
عليهم مظاهر السعادة وهم يسرون فى الموكب رجالاً . ونرى فتيات حسناً ،
وشيوخاً هادئين يحملون أغصان الزيتون وصحاف الكعك ، ونرى الخدم
وعلى أكتافهم أباريق من الخمر المقدسة . ونساء موقرات يحملن لى الإلهة
الأثواب الخارجية التى نسجها وطرزنها استعداداً لهذا اليوم المقدس وقبل أن
يحل بزمن طويل . وترى الأضحية تمشى لتتلاقى مصبرها وهى صابرة
كالأنوار أو غاضبة عارفة بما ينتظرها من بلاء ، وعذارى الطبقات الراقية
يأتين بآنية الطقوس والتضحية ، وموسيقيين يعزفون على القيثارات أناشيد
خالدة لا تسمع لها نغما . ولما نرى حيوانات أو أناسى قد بذل فى تكريمها
من الفن مثل ما بذل فى هذه النقوش ؛ فقد استطاع المثلون بما رسموا وظللوا
فيما لا يزيد على بوصتين ونصف بوصة من النقش البارز أن يحددوا العين
فيخيل لىها أن جواداً أو فارساً بعيداً عن آخر ، وإن كان أقربها لا يرتفع
عن خلفية الصورة أكثر من سائر النقوش (٥١) . ولربما كان من الخطأ أن
يكون هذا النقش البديع عاليا لا يستطيع الناظر لىه أن يتأمله فى يسر وراحة
ويستوعب كل ما فيه من رونق وجمال ، وما من شك فى أن قدياس كان
يتعذر عن هذا وهو يغمز بعينه بحجة أن الآلهة كانت تستطيع رؤيته ،
ولكن الآلهة كانت تحتضر وهو ينقش هذه النقوش .

وكان مدخل الهيكل الداخلى تحت الآلهة الجالسة المنقوشة فى الإفريز . وكان داخل هذا الهيكل صغيراً نسبياً لأن معظم الفراغ كانت تشغله صفوف من الأعمدة الدورية التى تحمل السقف وتقسّم المحراب إلى صحن ومسيين ، وفى الطرف الغربى كان سنا أثواب أثينة الذهبية يذهب بأبصار عبادها ، وكان رجعها ودروعها وأفاعيها توقع الرعب فى قلوبهم . وكان من خلفها حجرة العذارى تزينها أربعة أعمدة دورية الطراز . وكان فى الألواح الرخامية التى تغطى السقف من الصفاء ما يسمح بنفاذ بعض الضوء إلى صحن المحراب ، ومن العتمة ما يكفى لمنع الحرارة عنه ؛ هذا إلى أن التقي ، كالحب ، يضد عن المتقين حر الشمس . وكانت الطنف منقوشة نقشاً دقيقاً بذل فيه كثير من العناية ، وكانت تعلوها وقايات من الآجر ركبت فيها ميازيب لإزالة مياه الأمطار . وكانت أجزاء كثيرة من الهيكل مظلية بالألوان الزاهية الصفراء والزرقاء والحمراء . فأما الرخام فقد طلى باللونين الزعفرانى واللبنى ، وكانت الخروز وبعض النقوش زرقاء ، وكذلك كانت أرضية الإفريز . أما الواجهة فكانت حمراء ، وكان كل ما فيها من الصور ملوناً (٥٢) . وقد فضل اليونان الألوان الناصعة على الألوان الهادئة لأنهم شعب اعتاد جو البحر الأبيض المتوسط ولأن فى طاقته أن يتحمل الألوان البراقة ، بل هو يفضلها عن الألوان الخفيفة الهادئة التى توأمت جو شمال أوربا القاتم . والآن وقد تجرد البارثنون من ألوانه فإنه يبدو أجمل ما يكون فى الليل حين تظهر من الفراغ الذى بين العمود مناظر السماء المتغيرة ، أو منظر القمر معبود الأقدمين ، أو أضواء المدينة النائمة مختلطة بتلألأ النجوم (*) .

(*) لقد كان الذى أبقي على البارثنون ، كما أبقي على الإركثيوم والتسيوم ، هو أن هذه الهياكل حولت إلى كنائس ؛ ولم تكن هذه المياني تحتاج فى هذا التحويل إلى تغيير كبير فى أسماؤها . لأنها فى كلتا الحالتين مخصصة للدرء . وحول البارثنون بعد أن احتل الترك البلاد فى عام ١٤٥٩ إلى مسجد وأقيمت فيه مثناة . ولما حاصر البنادقة مدينة أثينة فى عام ١٦٨٧ استخدم الأتراك الهيكل لمخزنوا فيه كل يوم ما تحتاجه مدفعيهم من البارود . ولما أبلغ هذا =

لقد كان الفن اليوناني أعظم ما أبدعه اليونان ؛ ذلك أن روائعه ، وإن لم تقو على مقاومة عواذى الأيام ، قد بقي من صورتها وروحها ما يكفي لأن يجعلها نبراساً تهتدى به كثير من الفنون ، ووحياً يلهمها مدى كثير من الأجيال وفي كثير من البلدان . ولقد كان في هذا الفن أخطاء ، شأنه في هذا شأن كل عمل يعمل الإنسان ؛ ولقد كانت التماثيل تعنى بالجسم فوق ما يجب أن تعنى به ، وقلما كانت تنفذ إلى الروح ؛ فهي تحملنا على الإعجاب بكمالها ، لا بالشعور بما فيها من حياة . وكان شكل المباني وطرازها محصورين في حدود ضيقة ، وظلت هذه المباني مدى ألف شكل متشبثة بالشكل الرباعي البسيط الذي أخذته عن المباني الميسينية(*) ، ولم تكن تبتعد شيئاً في غير ميدان الدين ؛ ولم تحاول إلا طرق البناء السهلة ، وتجنبنا الأساليب الصعبة كالأقواس والقباب ، ولعلمهم لو أقدموا عليها لوجدوا فيها

= الخبير لقائد البناقة أمر بأن تطلق ليران مدافعه على البارثون ، واختزلت قلعة سقف الهيكل ونسف البارود وغرقت نصف البناء . ولما استولى مروسيني Morosini على المدينة حاول أن يهب تماثيل اقواس ، ولكنها سقطت من عماله وهم ينزلونها من أماكنها وتحملت . وفي عام ١٨٠٠ م حصل لورد إلجين ، سفير بريطانيا في تركيا ، على إذن من الباب العالي وأن يتنقل بمس التماثيل والنقوش إلى المتحف البريطاني حيث تكون ، على حد قوله ، أكثر أماناً من تقلبات الجو وخطر الحروب . وكان من بين ما شغله هذه الطريقة اثنا عشر تمثالاً ، وخمسون لوحة من لوحات الواجهة ، وست وخمسون قطعة من الإفريز . وأشار خبير الفنون في المتحف البريطاني بعدم ذراع هذه الآثار ، ولم يوافق المتحف على أداء ١٧٥٠٠٠ ريال أمريكي ثمناً لما إلا بعد مفاوضات دامت عشرين . وكان هذا المبلغ أقل من نصف ما أنفقه لورد إلجين في الحصول عليها ونقلها (٥٣) . إلى إنجلترا وأطلقت المدافع مرتين على الأكر بوليس في أثناء حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ - ١٨٣٠) بعد بضعة سنين من ذلك الوقت ودمر بذلك جزء كبير من هيكل الإركثيوم (٥٤) . ولا تزال بعض أجزاء من جهة البارثون في أماكنها ، وبعض الألواح من الإفريز في متحف أثينا ، وعد قابل ذيرها في متحف اللوفر . ولقد شاد سكان ناثيل ، وتندى ، نماذج البارثون بأبعاده الأصلية ومن نفس المواد التي استخدمت في بنائه ؛ ومبالغ علمنا أنها زينت ولونت بنفس الزينات والألوان . ويحتوى المتحف الفنى فينيورك على نموذج على الداخل الهيكل .

(*) وفي مقدور الإنسان أن يلحظ أيضاً عدم النظام في الإبنية القائمة على الأكر بوليس وفي الأبنية القائمة بالأسيا . ولكن يصعب عليه أن يحكم هل كان عدم النظام هذا ناشئاً من فساد في اللوح أو أنه كان مصادفة من مصادفات التاريخ .

حيادين للعمل واسعة . وكانوا يقيمون سقفهم بالطريقة غير الحميلة طريقة
العمد الداخلية المقامة بعضها فوق بعض . وكانوا يزحون داخل هياكلهم
بالتماثيل التي لا يتناسب حجمها مع حجم البناء الكلى ، وكانت زينتها تنقصها
البساطة والتحفظ اللذين يتوقع الإنسان وجودهما في طراز أبنية العصر الذهبي .
على أنه مهما تكن أغلاط ذلك الفن فإنها لا ترجح تلك الحقيقة الماثلة في
الأذهان ، وهي أن الفن اليوناني قد خلق على طراز أبنية العصر الذهبي .
وجوهر هذا الطراز — إذا سمح لنا أن نذكر مرة أخرى موضوع هذا الفصل
قبل أن نختمه. — من حيث نظامه وشكله هو : التوسط والاعتدال في
التخطيط والتصميم والتغيير . والتزيين ، والتناسب بين الأجزاء ، والوحدة
التي تشملها كله ، وعلو سلطان العقل دون أن يفضى بذلك على الشعور ،
والكمال الهادى الذى يقنع بالبساطة ، والسمو الذى لا يدين بشئ إلى
انضمامه . ولم يكن لطرارز من الأبنية اللهم إلا الطراز القوطى ، من الأثر
مثل ما كان لهذا الطراز ، والحق أن التماثيل اليونانية لاتزال هى المثل الأعلى
في فنها ، وقد ظلت العمدة اليونانية حتى الأمس القريب هى المسيطرة على
فنون العمارة تحول دون قيام طرز أخرى أجمل منها وأوقع في النفس . وإن
من الخير أنأ قد أخذنا نتحرر من سيطرة الفن اليوناني لأن كل شئ ، حتى
الكمال نفسه ، يصبح ثقيلابغيضاً إذا لم يتغير . ولكننا بعد أن يتم تحررنا
بزمن طويل سنجد علما وحافزاً في هذا الفن الذى كان حياة العقل ممثلة في
ذلك الطراز ، وهو خير ما أهده بلاد اليونان إلى بنى الإنسان .

الباب الخامس عشر

تقدم العلوم

لقد ظهر النشاط الثقافي في عصر بركليز في ثلاثة أشكال رئيسية — هي الفن والتمثيل والفلسفة : وكان الدين الملهم لأولها ، وميدان القتال الملهم لثانيها ، والنضحية هي الملهمة لثالثها . وإذا كان تنظيم الجماعة الدينية يتطلب وجود عقيدة مشتركة . مستقرة ، لأن كل دين لا بد أن يتعارض عاجلاً أو آجلاً مع تيار التفكير الديني السائد المتبدل الذي نطلق عليه بحق اسم تقدم المعرفة . ولم يكن هذا التعارض في أثينة ظاهراً للعين على الدوام ، ولم يؤثر في جمهرة الشعب تأثيراً مباشراً ، فقد كان العلماء والفلاسفة يواصلون عملهم دون أن يهاجموا العقائد الدينية للشعب مهاجمة صريحة ، وكثيراً ما كانوا يخفون من حدة النزاع باتخاذ المصطلحات الدينية القديمة رموزاً أو استعارات لعقائدهم الجديدة ، ولم يظهر هذا النزاع سافراً ويصبح مسألة حياة أو موت إلا في فترات متفرقة كما حدث حين وجهت التهم إلى أنكساغوراس ، وأسبازيا ، وديجوراس الميلوسى Diogaras of Melos ويوربديز ، وسقراط . ولكن النزاع رغم خفائه كان موجحاً بحق ، وكان تياره يسرى في عصر بركليز ، وكان من الموضوعات الكبرى التي تشغل الأذهان ، كما كان يظهر في صور وأشكال مختلفة قوياً تارة وضعيفاً تارة أخرى . وأوضح ما كان يسمع في أحاديث السوفسطائيين المتشككة ، وفي آراء دمقريطس المادية ، وكانت أصداؤه الخفية تتردد في آراء إسكلس الصالحة التقية ، وفي زندقة يوربديز وحتى في أقوال أرسطوفان المحافظ المليئة بالهزل وقلة الاحتشام . وظهرت مرة أخرى قوية في محاكمة سقراط وموته . ذلك هو الموضوع الذي تلور حوله الحياة العقلية لأثينة في عصر بركليز .

الفصل الأول

علماء الرياضة

كان العلم الخالص في بلاد اليونان في القرن الخامس لا يزال يسير في ركاب الفلسفة ، وكان يدرسه ويعمل على ترقيته رجال فلاسفة أكثر منهم علماء . ولم تكن علوم الرياضة العليا في نظر اليونان أداة عملية بل كانت منطقية ، تهدف إلى التركيب الذهني للعالم المعنوي أكثر مما تهدف إلى السيطرة على البيئة المادية الطبيعية .

ويكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكون علماً بدائياً لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهديب(*) ، فكان يرمز لرقم ١ بشرطة عمودية ولرقم ٢ بشرطتين ، وبثلاث شرط لرقم ٣ وبأربع لرقم ٤ ، وكانت الأعداد ٥ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التي تسمى بها هذه الأعداد وهي : بنتي ، وديكا ، هكتون ، وكليوي ، ميريوي . ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزاً للصفر . ومما يدل على أن علم الحساب اليوناني كعلم الحساب عندنا ، مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشري فكان اليونان يعدون بالعشرات ، وأنه أخذ عن البابليين في علمي الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثني عشرية والسينية فكانوا يعدون في هذين العلمين بالاثني عشرات والستينات ، ولا نزال نحن نستخدم هذه الطريقة في الساعات وعلى الكرات الأرضية وانحرائط

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هي كتابة الأرقام الحسابية بعد ذلك العهد لليقر الفصل الأول من الباب الثامن والعشرين (ولعل ما جاء به ينطبق على عصر بركليز أيضاً)

الجغرافية . ولعل العامة كانوا يستعينون بمعداد لإجراء عمليات الحساب السهلة . أما الكسور الاعتيادية فكانت تسبب لهم عناء شديداً ، فكانوا إذا أجروا عملية حسابية تتعدى على كسر اعتيادي بسطه أكبر من ١ حولوا هذا الكسر إلى عدة كسور بسطها كلها ١ فالكسر الاعتيادي $\frac{2}{3}$ مثلاً كان يقسم

$$\frac{2}{3} = \frac{1}{3} + \frac{1}{3} + \frac{1}{3} + \frac{1}{3} \quad (*)$$

أبولونيوس الهرجى Appolonius of Perga في القطاعات المخروطية ، وهو المؤلف الذي كان عظيم الشأن في تاريخ العلوم الرياضية^(٢). وفي عام ٤٤٠ ق.م. نشر أبقرات الطشيوزى (وهو غير أبقرات الطيب) أول كتاب معروف في الهندسة النظرية وحل مشكلة تربييع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين^(*). وفي عام ٤٢٠ أفلح هيلياس الإليانى Hippias sf Elia في تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى ، وحوالى عام ٤١٠ أعلن دمقريطس الأبدري على الملأ قوله : « لم يفق أحد قط ولا المصريون أنفسهم في رسم خطوط حسب شروط معلومة »^(٤) ؛ وكاد يفلح في تبرير هذا الازدهاء بتأليف أربعة كتب في الهندسة النظرية ، ووضع قوانين لمعرفة مساحى المخروط والمهرم^(٥). وملاك القول أن براعة اليونان في الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضعفهم في الحساب . وكان للهندسة شأن عظيم في جميع نواحي نشاطهم ، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالا كثيرة للحلى المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم ، وحددت النسب بين أجزاء البارثنون ومنحنياته .

(*) هو شكل هلال يحدث من تقاطع قوسى دائرتين .

الفصل الثاني

أنكساغوراس

كان من مظاهر النزاع القائم بين الدين والعلم أن حرمت الشرائع الأثينية دراسة علم الفلك في الوقت الذي بلغ فيه عصر بركليز أعلى درجاته^(٦) . وكان هذا العلم قد خطا خطواته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن أنبادوقليس في أكرجاس أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى^(٧) . ثم خطا خطوة ثانية حين أعلن بارمنيدس في إيليا Elea أن الأرض كرية الشكل ، ثم قسم هذا الكوكب الأرضي إلى خمس مناطق ، وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام^(٨) . ثم قام فيلولوس Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزله منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التي تطوف حول « نار تتوسطها » جميعاً^(٩) : وجاء لوقيبوس Leucippus تلميذ فيلولوس . فقال إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد « تندفع في مجرى الحركة العالمية للدوامة الدائرية » ومن تجمع هذه المواد وتركزها^(١٠) . وقام في أبلرا دمقريطس تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية ، فوصف الحجرة بأنها مبنية من عدد لا يحصى من النجوم الصغرى ، ولخص التاريخ الفلكي بقوله إنه تصادم دوري وتحطيم لعدد لا يحصى من العوالم^(١١) . وفي طشيوز كشف إينويدز انحراف منطقة البروج^(١٢) وجملة القول أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكاد يكون خلواً من الآلات العلمية .

فلما حاول أنكساغوراس أن يقوم بمثل هذه الأعمال في أثينة وجد أن مزاج الأهلين ومزاج الجمعية معاديان للبحث الحر بقدر ما كانت صداقة بركليز

مشجعه له . وكان أنكساغوراس قد أقبل على أثينة من كلزميني *Chlazomenae* حوالى عام ٤٨٠ ق . م . وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وحجب إليه أنكسيانس *Anaximenes* دراسة النجوم إلى حد جعله يقول جواباً عن سؤال وجهه إليه بعضهم عن الغرض من الحياة : « هو البحث عن حقيقة الشمس والقمر والسماء » (١٢) . وأهل العناية بالثروة التى خلفها له والده وصرف وقته فى رسم خريطة للأرض والسماء ، وحلت به الفاقة فى الوقت الذى رحبت فيه الطبقات فى أثينة بكتابه فى الطبيعة وعدته أعظم الكتب العلمية التى ظهرت فى ذلك القرن .

وكان هذا الكتاب حلقة من سلسلة البحوث العلمية التى قامت بها المدرسة الأيونية ، وفيه يقول أنكساغوراس إن العالم كان فى بادئ الأمر فوضى أوعماء مكونا من بذور مختلفة الأنواع (*spermata*) ، يسرى فيها فكر (*nous*) أو عقل مادى ، لطيف ، قوى الصلة بأصل الحياة والحركة فى الآدميين ، وكما أن العقل يصدر الأوامر إلى الفوضى التى تسود أعمالنا ، فكللك أصدر العقل العالمى أمره إلى البذور الأولية فبعث فيها دوامة روحية (*) ، وهداها إلى طريق نشأة الأشكال العضوية (١٣) . وقسم هذا الدوران البذور إلى الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والهواء ، والماء ، والأرض — وقسم العالم طبقتين دوارتين طبقة خارجية مكونة من « الأثير » وأخرى داخلية مكونة من الهواء . وبسبب هذه الحركة الدوامة العنيفة انتزع الأثير النارى الملتف حول الأرض حجارة من الأرض وأضاءها فكانت نجوماً (١٤) . والشمس والنجوم فى رأيه كتلة من الصخور حمراء متوهجة أكبر من الهلويونيز مراراً كثيرة (١٥) . وحين تضعف حركتها الدائرية تسقط أحجار الطبقة الخارجية على الأرض فتكون شهاباً (١٦) .

(*) هذه هى الدوامة الذى يسخر منها أرسطوفان فى كتابه « السحب » سفيرة لاذعة ويقول إن سقراط قد استبدل بها زيوس .

والقمر جسم صلب متوهج ، في طلحه سهول وجبال وأخاديد^(١٧) ، يستمد ضوءه من الشمس ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض^(١٨) .
 « وينحسف القمر إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس كما تكشف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين كالأرض^(١٩) » . وربما كانت بعض الأجرام السماوية مسكونة عليها خلائق الأرض ، وعليها « يتكون أناس وتتكون حيوانات أخرى ذات حياة ، ويسكن الناس المدن ، ويزرعون الأرض كما نزرعها نحن^(٢٠) » . وقد نشأ من التكتف المتتابع للطبقة الداخلية أو الغازية من طبقتي كوكبنا سحب ، وماء ، وتراب ، وحجارة . وتنشأ الرياح من رقة الجوالناشئة من حرارة الشمس كما « ينشأ الرعد من تصادم السحب والبرق من احتكاكها^(٢١) » . وكمية المادة ثابتة لا تتغير ، ولكن الأشكال جميعها تبدأ ثم تزول ، ومستصبح الجبال في مستقبل الأيام بحاراً^(٢٢) .
 وينشأ كل ما في العالم من أشياء وأشكال يتجمع أجزاء متماثلة homoimeria وفقاً للنظام يزداد تحديداً على مدى الأيام^(٢٣) . وقد ولدت جميع الكائنات العضوية في بادئ الأمر من التراب ، والرطوبة ، والحرارة ، وبذلك نشأ بعضها من البعض الآخر^(٢٤) . وقد تطور الإنسان أكثر مما تطورت سائر الحيوانات لأن قامته المعتدلة أطلقت يديه فاستطاع بهما أن يمسك الأشياء^(٢٥) ..

وأصبح أنكساغوراس بفضل ما حققه من النتائج وهي وصفه أساس علم الظواهر الجوية ، وتفسير الكسوف والخسوف تفسيراً علمياً صحيحاً ، ووضع فرض معقول لتكوين الكواكب السيارة ، وإدراكه أن القمر يستمد نوره من الشمس ، وقوله بتطور الحياة الحيوانية والبشرية — أصبح بفضل هذه النتائج كوبرنيق ذلك العصر ودارونه معاً . ولعل الأثينيين كانوا يعفون عن هذه الآراء لو أن أنكساغوراس لم يهمل تفسير منشأ عقله ومواهبه فيما فسر من حادثات طبيعية وتاريخية ، ولعلهم ظنوا أنه

بلحاً إلى هذا الصمت ، كما :-^{٢٩} . يديز في إحدى تمثيلياته إلى « آلة إسقاط الآلهة من السماء » لينجو بها من غضب مواطنيه . ويقول عنه أرسطاطاليس إنه كان يبحث عن العلل الطبيعية لكل شيء . من ذلك أنه جرى لبركليز بكبش ذى قرن واحد في وسط جبهته وقال أحد العرافين إنه نذير من نذر الآلهة ، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان وأظهر للحاضرين أن مخه قد نما في مقدم الجبهة بدل أن يملأ جانبي الجمجمة كلها ، فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد^(٢٧) . وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب على أساس القوانين الطبيعية ، وأرجع كثيراً من الشخوص الأسطورية إلى تجسيم المجرذات العقلية^(٢٨) .

وصبر عليه الأثينيون وداروه إلى حين ، وكل ما فعلوه به أن أطلقوا عليه لفظ nous (الفكر - العقل)^(٢٩) . فلما لم يجد كليون Cleon الذى كان يناقش بركليز في تزعم الشعب وسيلة أخرى يضعف بها خصمه اتهم أنكساغوراس بالإلحاد لأنه وصف الشمس (وكانت لا تزال في نظر الشعب إلهاً من الآلهة) بأنها كتلة من الحجارة المحترقة ، ولم يترك وسيلة يستعين بها على تأييد دعواه إلا اتبعها . وأدين أنكساغوراس رغم دفاع بركليز المجيد عنه^(*) . ولم يكن أنكساغوراس راغباً في تعاطى عصير الشوكران السام ، ففر إلى لمبسكوس Lampasacus على مضيق الملسينت ، وأخذ يكسب عيشه بتدريس الفلسفة^(**) . ولما تراءى إليه أن الأثينيين حكموا عليه بالإعدام قال : « لقد قضت الطبيعة عليهم وعلى هذا الحكم من زمن بعيد^(٣٣) » . ومات بعد بضع سنين من ذلك الوقت في الثالثة والسبعين من عمره .

(*) حوالى ٤٣٤ ، (٣٠) . وفي رواية أخرى أن المحاكمة حدثت في عام ٤٥٠ (٣١) .

(**) وفي رواية أخرى أنه سجن في أثينة ، وظل ينتظر أن يسق كاس السم ولكن بركليز دبر له أمر هروبه

ويُرى تأخر الأثينيين في علم الفلك واضحاً في تقويمهم ؛ ذلك أنه لم يكن لليونان تقويم عام بل كان لكل دولة تقويم خاص بها ، وكانت كل نقطة من النقاط الأربع التي يصح اتخاذها بداية للسنة الجديدة متبعة في مكان ما من بلاد اليونان ؛ وحتى الشهور نفسها كانت تتغير أسماؤها في الدويلات المختلفة ، فكان تقويم أتكنا يحسب الشهور بمنازل القمر والسنين بأبراج الشمس (٣٤) . وإذا كان في كل اثني عشر شهراً قمرياً ٣٦٠ يوماً (**) فقط ، فقد كانوا يزيدون شهراً على كل سنتين لكي يتفق حساب السنة مع حساب الشمس والفصول (٣٥) . وهذا الحساب نفسه يجعل السنة تطول عشرة أيام فوق ما يجب أن تكون ، ولذلك وضع صولون النظام الذي يقضى بأن تكون أيام الشهور القمرية ٣٠ يوماً و ٢٩ بالتناوب مقسمة إلى ثلاثة أسابيع (ديكادوى) في كل أسبوع عشرة أيام (أو تسعة في بعض الأحيان) (٣٦) . وتبقى بعد هذا أربعة أيام صححها اليونان بحذف شهر من كل ثمان سنين ؛ وهذه الطريقة الملتوية التي لا يكاد يدركها العقل وصل اليونان آخر الأمر إلى اجتساب السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم (***) .

وحدث في هذه الأثناء تقدم قليل في علم الجغرافية . فقد فسر أنكساغوراس فيضان النيل السنوي تفسيراً صحيحاً بقوله إنه ينشأ من ذوبان جليد بلاد الحبشة في فصل الربيع ومن سقوط الأمطار فيها (٣٨) . وفسر علماء طبقات الأرض اليونان وجود مضيق جبل طارق بأنه نتيجة لتشقق الأرض من أثر زلزال ، كما فسروا وجود جزائر بحر إيجه بأنه ناشئ من انخفاض قاع البحر (٩) . وقال زثنوس الليدي Zainhus of Lydia حوالى ٤٩٥ إن البحرين الأبيض المتوسط والأحمر كانا في الزمن القديم متصلين أحدهما بالآخر عند السويس ، وسجل إسكلس ما كان

(*) ليست السنة القمرية ٣٦٠ يوماً بل هي حوالى ٣٥٤ . (المترجم) .
 (**) يشتر هيرودوت إلى فصل التقويم المصرى على التقويم اليونانى . وقد أخذ اليونان من المصريين المذولة وأخذوا من آسية الساعة المائية وأخذوها وساهل حساب الزمن .

بمتقدمه أهل زمانه من أن صقلية قد انفصلت من إيطاليا نتيجة لاضطراب
في القشرة الأرضية^(٤٠) . وارتاد إسكيلاكس الكارى Scylax of Caria
(٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود .
ويبدو أن أحداً من اليونان لم يجازف بالقيام برحلة استكشافية كالرحلة التي
قام بها هنر Hanno القرطاجي بأسطول مؤلف من ستين سفينة ، اخترق به
مضيق جبل طارق وسار به نحو ٢٦٠٠ ميل بإزاء الساحل الغربى لإفريقية
(حوالى ٤٩٠ ق . م) . وكانت خرائط عالم البحر الأبيض المتوسط منتشرة
في أثينة في أواخر القرن الخامس . أما الطبيعة فبلغ علمنا أنها لم تتقدم على
أيدى اليونان وإن كانت منحنيات البرثنون تدل على أنهم كانوا يعرفون
الكثير عن البصریات . غير أن الفيثاغوريين أعلنوا حوالى عام ٤٥٠ أبق
القروض العلمية اليونانية ، وهو التركيب الذى للمادة . كذلك وضع
أنبادوقليس وغيره من العلماء نظرية نشوء الإنسان وارتقائه من صور للحياة
أدنى منه ، ووصفوا رقيه البطيء من الهمجية إلى الحضارة^(٤١) .

الفصل الثالث

أبقراط

لقد كان أهم الحوادث في تاريخ العلوم اليونانية في عصر پركايز نهضة الطب القائم على العقل لاعلى الخرافة . ذلك أن الطب اليوناني قبل ذلك الوقت حتى في القرن الخامس نفسه كان وثيق الارتباط بالدين إلى حد كبير ، وكان كهنة هيكل أسكليبيوس Asclepius لايزالون يقومون بعلاج المرضى . وكان العلاج في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية ، والطقوس المؤثرة الرهيبة ، والرقى السحرية التي تؤثر في خيال المريض وتطلقه من عقاله ، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضاً إلى التنويم المغنطيسي وإلى بعض المخدرات^(٤٢) . وكان الطب الديني ينافس الطب الديني ويحاول أن يتغلب عليه . وكان أنصار هذا وذلك يعززون منشأ علمهم إلى أسكليبيوس ، ولكن الأسكليبيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين في عملهم ، ولا يدعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات ، وقد أفلحوا شيئاً فشيئاً في إقامة الطب على قواعد العقل .

وتطور الطب الديني في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس في أربع مدارس كبرى : في كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى ؛ وفي كرتونا بإيطاليا ، وفي صقلية . وفي أكرجاس اقتسم أنبادوقليس — وهو نصف فيلسوف ونصف رجل معجزات — مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقي^(٤٣) . وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى دمسديز Democedes ولد في كرتونا ، ومارس مهنة الطب في إيجينا ، وساموس ، وسوسة ، وعالج دارا والملكة أتسا Atossa ، ثم عاد ليقضي آخر أيامه في مسقط رأسه^(٤٤) . وفي كرتونا أيضاً أخرجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرة قبل أبقراط ،

ونعني به ألقميون Alcmaeon الذى يلقبونه الأب الحق للطب اليونانى^(٤٥) . ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا اسماً متأخراً فى ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الدينيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ . وقد نشر هذا الطبيب فى أوائل القرن الخامس كتاباً فى الطبيعة Peri physeos — وكان ذلك هو العنوان المألوف فى بلاد اليونان لأى بحث عام فى العلوم الطبيعية . ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدد من اليونان موضع العصب البصرى وقتاة استأخيو^(٤٦) ، وشرح الحيوانات ، وفسر فسلجة النوم ، وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عملية التفكير ، وعرف الصحة تعريفاً فيثاغوريا فقال إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة^(٤٧) . وكان أكبر رجال الطب فى نيدس هو يوريفرون Euryphron الذى كتب فى الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences ، وقال عن التهاب البلور^(٤٨) إنه مرض من أمراض الرئتين ، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض ؛ وذاع صيته لنجاحه فى عمليات التوليد^(٤٩) . وقامت حرب مشتومة بين ملوسقى كوس ونيدس لأن النيديين لم يكونوا يحبون ولع أبقرات فى أن يقوم « التشخيص » على معرفة طبائع الأمراض ، ومن ثم أصروا على وجوب العناية بتصنيف الأمراض كلها تصنيفاً دقيقاً ، وعلاج كل مرض منها بطريقته الخاصة . وتسرب فى آخر الأمر ، بنوع من العدالة الفلسفية ، كثير من الكتابات النيدية إلى المجموعات الطبية الأبقراطية .

ويبدو أبقرات ، كما تراه فى سيرته الموجزة التى كتبها سويداس Suidas ، أعظم أطباء زمانه بلا منازع . وقد ولد فى جزيرة كوس فى السنة التى ولد فيها ديمقريطس ، وأصبح الرجلان صديقين حميمين بالرغم من بعد موطنيهما ، ولربما كان « للفيلسوف الضاحك » نصيب فى توجيه الطب وجهة دنيوية . وكان

(*) المؤصلة من الطبلة إلى العلوم . (المترجم)

أبقراط ابن طيب ونشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس « لأخذ الماء من عيونها الساخنة » . ووضع له معلمه هيرودكس السلمبري Herodicus of Selymbria الأساس الذى بنى عليه فنه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية . وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل بردكاس Perdiccas ملك مقدونية ؛ وأردشير الأول ملك الفرس ؛ وفى عام ٤٣٠ ق . م . استدعته أثينة ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها وأخجله صديقه دمقريطس بأن عاش من العمر مائة عام كاملة ، على حين أن الطبيب العظيم مات فى الثالثة والثمانين من عمره .

وليس فى كل ما كتب فى الطب وفى كل ما يمكن أن يكتب فيه . ما هو أكثر اختلافاً وأقل تجانساً من مجموعة الرسائل التى كانت تعزى فى القديم إلى أبقراط . ففيها كتب مدرسية للأطباء ، ونصائح لغير رجال الطب ، ومحاضرات للطلبة ، وتقارير ، وبحوث ، وملاحظات ، وتسجيلات سريرية (كلىنيكية) (*) لحالات طريفة ، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيتين العلمية والفلسفية فى الطب . وكانت الاثنان والأربعون مجلداً سريرياً هى السجلات الوحيدة من نوعها فى السبعة عشر قرناً التى أعقبت ذلك العهد ، وكانت أعلى الأمثلة فى الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت فى ستين فى المائة من الحالات (٤٨) . وأربعة لا أكثر من هذه المؤلفات هى التى انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط : وهى « الحكم » و « الأدلة » و « تنظيم التغذية والعوائد فى الأمراض الحادة » ، ورسالته « فى جروح الرأس » أما ما عدا هذه الأربعة من المؤلفات المعزوة إلى أبقراط فن وضع مؤلفين مختلفين عاشوا فى

(*) مأخوذة على سرير المريض . (المترجم)

أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد^(١٩). وفي هذه المجموعة قدر غير قليل من السخف والهذيان ، ولكن أكبر الظن أنه ليس أكثر مما سيجده علماء المستقبل في رسائل هذه الأيام وتواريخها . وكثير من المعلومات التي في هذه الكتب والرسائل شذرات متفرقة ، موضوعة في صورة حكم وقواعد مفككة تقترب بين الفينة والفينة من الغموض الذي يلزم كتابات الفيلسوف هرقلطس . ومن بين « حكم أبقرات » تلك العبارة الدائعة الصيت : « الفن طويل ، ولكن الوقت يمر مر السحاب »^(٢٠).

وأكبر فضل لأبقرات وخلفائه أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة . نعم إنهم يشيرون في بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك في كتاب « التنظيم » ولكن النعمة السارية في صفحات المجموعة كلها هي وجوب الاعتماد الكلي على العلاج الطبي . وتهاجم رسالة « المرض المقدس » صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الآلهة ، ويقول مؤلفها إن للأمراض جميعها عللا طبيعية بما في ذلك الصراع نفسه الذي يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض : « وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الآلهة ، لعجزهم عن فهمه . . . ويتورى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجحاً لهذا الداء ، ومن أجل هذا يطلقون عليه اسم المريض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح »^(٢١) . وكانت روح العصر البركليزي تتمثل أوضح تمثيل في عقلية أبقرات . فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعي ، يكره الخفاء ، ولا يطبق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق . وإنا لنحس بأثر السوفسطائيين في الحركة التي تهدف إلى تحرير الطب ، والحق أن الفلسفة قد أثرت في طرق العلاج اليونانية تأثيراً بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التي يضعها الدين في سبيله . ويقول أبقرات ، ويصر

على قوله ، إن النظريات سفسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وإن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة^(٢٥) وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلاً دقيقاً ، ولنا ننكر أنه لم يدرك كل الإدراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى في جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية .

وفي وسعنا أن نتبين ما تلوث به الطب الأبقراطي في منشئه من عدوى الفلسفة بالنظر إلى عقيدة « الأخلاط » المشهورة . يقول أبقراط : إن البدن يتكون من الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ، وإن الإنسان يستمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت فيه هذه الأركان (العناصر) بنسبها الصحيحة ، وإن الألم ينشأ من نقص بعض هذه « الأخلاط » أو زيادتها أو انفصالها عن الأخلاط الأخرى^(٢٦) . وقد بقيت هذه النظرية وعاشت بعد زوال جميع الفروض الطبية القديمة ، ولم يتخلى عنها الناس إلا في القرن الماضي ، ولعلها لا تزال باقية في صورة أخرى هي عقيدة الأتوار (الهرمونات) أو إفراز الغدد ، التي يقول بها الأطباء في هذه الأيام . إذ كان اليونان يعتقدون أن سبب هذه الأخلاط يتأثر بالجو والطعام ، وإذا كانت أكثر الأمراض انتشاراً في بلاد اليونان هي أمراض البرد ، وذات الرئة ، والملاريا ، فقد كتب أبقراط (؟) رسالة موجزة في « الأهوية ، والمياه ، والأماكن » وعلاقتها بالصحة ، وفيها يقول « في وسع الإنسان أن يعرض نفسه للبرد وهو واثق من أنه لن يصيبه منه سوء ، إلا إذا فعل ذلك بعد الأكل أو الرياضة . . وليس من الخير للجسم ألا يتعرض لبرد الشتاء^(٢٧) » . وليس لنا أن نستخف بأقوال أبقراط وأتباعه هذه لأن من واجب الطبيب العلمي ، أياً كان مستقره ، أن يدرس الرياح والفصول ، وموارد ماء الشرب ، وطبيعة الأرض ، وأثر هذه العوامل كلها في السكان .

والتشخيص أضعف التقط في طب أبقراط . فقد يبدو أنه لم يكن يعنى

بقياس النبض ، وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة . وكان يؤمن بالعدوى في أحوال الحرب ، والرمد ، والسل^(٥٥) وفي كتابه عن (الجسم Corpus) صور لإكلينيكية كثيرة للصرع ، والتهاب الغدة النكفية الوبائي ، وحمى النفاس ، والحمى اليومية ، وحمى الثلث ، وحمى الربع . ولم يرد في المجموعة ذكر للجدرى أو الحصباء ، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهري ، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود^(٥٦) . وتوزع رسائل : « التنظيم » نحو الطب الوقائي بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره — وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل^(٥٧) . وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب في الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى . ويقول إن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إما عليها وإما على المريض ذاته ، وإن تقديره الحسابي — الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيشاغورى — الذى يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية . وهو يقول في هذا المعنى إنه إذا استطاعت حرارة الجسم في هذه الأزمان أن تغلب على سبب العلة وتطرده من الجسم شفى المريض . ويقول إن الطبيعة — أى قوى الجسم وبنيته — هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة في طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين . ولهذا فإن الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير في العلاج إلا قليلا ، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقي ، والمقيثات ، والأقناع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والإدعاء ، والكمامات ، والمراهم ، والتدليك ، والمياه المعدنية . ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليوناني جد صغير يتكون معظمه من المسهلات . وكانت أمراض الجحاد تعالج بالحمامات الكبريتية ، وبالتدليك يدهن كبد

الدلفين^(٥٨) ويسدى أبقرات للناس هذه النصيحة : « عش عيشة صحية تنج من الأمراض إلا إذا انتشر في البلد وباء أو أصابك حادثة . وإذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء^(٥٩) » . وكثيراً ما كان يوحى بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأننا « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى^(٦٠) » . ويمكن القول بوجه عام إن « الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إذا كانت معدته شديدة الخفاف^(٦١) » .

وكان تقدم علمى التشريح ووظائف الأعضاء في بلاد اليونان بطيئاً ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات في عمليات العرافة . وفي المجموعة الأبقراطية كراسة صغيرة « في القلب » تصف البطنيين ، والأوعية الكبرى ، وصماماتها . وكتب سينيس Syennesis القبرصى ودبوجين الكريتي يصفان الجهاز الدموى ، وعرف دبوجين أهمية النبض^(٦٢) . كذلك عرف أنبادوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموى ، ووصفه بأنه العضو الذى « يحمل النيوما Pneuma أو الهواء الحيوى (الأكسجين ؟) من الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم^(٦٣) » . وفي كتاب الجسم Corpus يحدو أبقرات حلو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ، ونسمع ، ونميز القبيح من الجميل والغث من الثمين^(٦٤) » .

أما الجراحة فكانت لا تزال في معظم الأحوال عملاً لا يتخصص فيه الطلاب ، ويشغل به كبار الأطباء ، وإن كان من الموظفين في الجيوش جراحو^(٦٥) . ونصف مؤلفات أبقرات عمليات الترتبة ، والطريقة التى تصفها لعلاج انحلاع الكتف أو الفك « حديثة » في كل شيء عدا استخدام المخدرات^(٦٦) .

وقد وجدت في هيكل إسكليبيوس بأثينة لوحة نلور نقشت عليها علبة تحتوى مباحم ذات أشكال مختلفة^(٦٧) . ويحتفظ متحف أثينة الصغير بعدد من

الملاقط ، والمسابير ، والمباضع والقناطر ، والنظارات الطبية القديمة لا تختلف في جوهرها عن أمثالها المستحدثة في هذه الأيام . ويبدو أن بعض ما هنالك من تماثيل هي نماذج أعدت لشرح الوسائل التي تتبع لرد الخلع في مفاصل العجز^(٧٨) . وفي رسالة أبقراط « في الطب » تعليمات مفصلة لتحضير حجرة العمليات الجراحية وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعي وصناعي ، وتنظيف اليدين ، والعناية بآلات الجراحة وطريقة استخدامها ، وموضع المريض ، وتضميد الجروح وما إلى ذلك^(٧٩) .

ويتضح من هذه الفقرات وغيرها أن الطب اليوناني في عهد أبقراط قد تقدم تقدماً عظيماً من الناحيتين الفنية والاجتماعية . لقد كان الأطباء اليونان قبل أيامه ينتقلون من مدينة إلى أخرى كلما دعيتهم الحاجة إلى هذا الانتقال ، شأنهم في هذا شأن السوفسطائيين في أيامهم والوعاظ في أيامنا نحن . أما في عهده فقد استقروا في مدنهم وافتتحوا مكاتب أو « أمكنة للعلاج iatρεία » يعالجون فيها المرضى تارة ويعالجونهم في منازلهم^(٨٠) تارة أخرى . وكثرت عندهم الطبييات ، وكن يستخدمن عادة في علاج أمراض النساء ؛ وقد كتب بعضهن رسائل في العناية بالجلد والشعر تعد حجة في موضوعاتها^(٨١) . ولم تكن الدولة تحم على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحاناً عاماً ؛ ولكنها كانت تطلب إليه أن يقدم لها أدلة مقنعة على أنه قد تمرن أو تتلمذ على طبيب معترف به^(٨٢) . ووقفت حكومات المدن بين الطب المأمم والطب الخاص باستخدام أطباء للعناية بالصحة العامة ، ولعلاج الفقراء . وكان أكبر أطباء الدولة هؤلاء ، أمثال ديموسيدز Democedes يتقاضون وزنتين (١٢٠٠٠ ريال أمريكي) في العام^(٨٣) . وكان عندهم بطبيعة الحال دجالون كثيرون ، كما كان عندهم عدد لا يحصى من الهواة الذين يدعون العلم بكل شيء في الطب ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان . ولقد قاست المهنة في تلك الأيام ، كما تقاسى في كل جيل من الأجيال ، الأمرين من أعمال أقلية فيها خبرة اللمة ، عاجزة عن القيام

يواجبها (٧٤) ، وثار اليونان لأنفسهم ، كما ثار غيرهم من الأمم ، من علم عدم وثوقهم بأطبائهم بما كالوه لهم من السخرية والفكاهة اللاذعة ، التي لا تقل عن سخرياتهم من الزواج .

وقد رفع أبقرات من شأن هذه المهنة بتوكيده شأن الأخلاق في الطب ، ذلك أنه لم يكن طبيباً فحسب بل كان طبيباً ومدرساً معاً ، وربما كان القسم الشهير الذي يعزى إليه قد وضع لضمان ولاء طالب الطب لأستاذه (٥٧) .

قسم أبقرات

أقسم بأبلو الطيب ، وبأسكليبيوس ، وبهيجايا Hygiea وپاناسيا Panacea وبجميع الآلهة والإلهات ، وأشهدا جميعاً على ، أن أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تنسع له قدرتي وحكمتي ، وأن أضع معلمي في هذا الفن في منزلة مساوية لأبوي ، وأن أشركه في مالي الذي أعيش منه ؛ فإذا احتاج إلى المال أقتسمت مالي معه ، وأقسم أن أعد أسرته إخوة لي ، وأن أعلمهم هذا الفن إذا رغبوا في تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجراً أو ألزمهم باتفاق ، وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائي ، ولأبناء أستاذي ، وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا بمن الطيب ، ولا ألقنها لأحد سواهم . وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتي وحكمتي ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر . ولن أسقى أحداً السم إذا طلب إليّ أن أفعل هذا ، أو أشير بسلوك هذه السبل ، كذلك لن أعطي امرأة صوفة لإسقاط جنينها ، ولكني سأحفظ بحياتي وفني كليهما طاهرين مقدسين ؛ ولن أستعمل الموضع ولو كنت محقاً في استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أنحلي عن مكاني لمن يخلقون

(٥) يقولون القسم من وضع المدرسة الأبقراطية لا من وضع أبقرات نفسه ؛ ولكن إروديان Erotian الذي كتب في القرن الأول بعد الميلاد يعزوه إلى أبقرات (٥٧) .

هذا الفن . وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد ، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء . ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، إذا كان مما لا تجب إذاعته ، فلن أفضيه ، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقلصة . فإذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فلن أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعاً بحياتى وبمهنى ؛ أما إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا ، (٧٦) .

ويضيف أبقراط إلى هذا أن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه . ويجب عليه أن يكون هادئاً على اللوام ، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض (٧٧) ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و وألا يقول إلا ما هو ضرورى . . . »
وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظاً فى كلامك ، معتنياً بهندامك ، صريحاً حاسماً فى أقوالك ، موجزاً فى حديثك ، هادئاً . . . »
ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقلك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يفعل وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضاً أن تقدم خدماذك من غير أجر ، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ، ذلك أنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الفن » (٧٨) .

وإذا أضاف الطبيب إلى هذا دراسة الفلسفة والعمل بها ، كان هو المثل الأعلى لأبناء مهنته لأن « الطبيب الذى يجب الحكمة لا يقل عن الآلهة فى شيء » (٧٩) .

وبعد فإن الطب اليونانى لا يرقى رقىاً جوهرياً عما كانت تعرفه مصر عن الطب وعن الجراحة قبل عصر آباء الطب المختلفين بألف عام ، وإذا ما نظرنا إلى التخصص بدا لنا أن ما وصل إليه اليونان فيه أقل مما وصل إليه المصريون . على أننا يجب من الناحية الأخرى أن نبجل اليونان ولا نبخسهم حقهم ، لأن الطب من ناحيته النظرية والعملية قد بقى نخبى القرن التاسع عشر عند الحد الذى أوصله إليه اليونان . وجملة القول أن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التى ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة ، ومن غير التجارب العلمية . ولولا العقبات التى أقامها فى طريقه الدين والفلسفة لكان له شأن أعظم من شأنه هذا ، فقد حدث فى الوقت الذى كان فيه كثيرون من الشبان فى أثينة يتحمسون لدراسة الفلك والتشريح المقارن ، أن حالت التشريعات الرجعية الجاهلة دون تقدم العلوم ، وكانت سبباً فى اضطهاد أنكساغوراس ، وأسبازيا ، وسقراط . وكذلك كان «نحول» سقراط والسوفسطائيين عن دراسة العالم الخارجى إلى دراسة العالم الداخلى ، ومن الطبيعة إلى علم الأخلاق ، كان هذا التحول سبباً فى تحويل التفكير اليونانى من مشاكل الطبيعة والنشوء والتطور إلى مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق . وظل العلم واقفاً لا يتحرك مائة عام كاملة خضج فيها اليونان لسحر الفلسفة ومفاتها .

الباب السادس عشر

النزاع بين الفلسفة والدين

الفصل الأول

المثاليون

كان عصر بركليز شبيهاً بعصرنا هذا في تنوع أفكاره واضطرابها ، وفي تحديه لجميع المعايير والعقائد التقليدية القديمة ، ولكن ما من عصر من العصور يضارع عصر بركليز في كثرة آرائه الفلسفية وعظمتها أو في غزاراتها وفي القوة التي كانت تناقش بها . فقد كانت كل المسائل التي يضطرب بها العالم اليوم تدور على ألسنة الناس في أثينة القديمة ، يناقشها الناس بحماسة وحماسة روعت جميع اليونان ما عدا شبابهم . وقد حرمت كثير من المدن — وخاصة اسبارطة — أن يبحث الجمهور المسائل الفلسفية بسبب ما كانت تثيره من « حقد ، ونزاع ، وجدل عقيم » ، على حد قول أثينوس . ولكن « بهجة » الفلسفة « العريضة » كانت تستحوز على خيال الطبقات المتعلمة في أثينة ، فكان أغنياء المدينة يفتحون أبواب بيوتهم وأبائهم للباحثين كما كان يحدث في عهد الاستنارة في فرنسا ، وكانت الولايم تولم للفلاسفة ، والبحوث الطريفة يصعق لها كما يصفق للضربات القوية في الألعاب الأولمبية .

ولما أن أضيفت حرب السيوف إلى حرب الألفاظ في عام ٤٣٢ ، استحال هياج العقول الأثينية إلى حمى احترق فيها كل ما كانت تتصف به تلك العقول من اعتدال وحكمة . وخبت نار هذه الحمى بعض الوقت بعد استشهاد سقراط

أوبالآخرى توزعت من أثينة على غيرها من مراكز الحياة اليونانية . وحتى أفلاطون نفسه الذى عرف ما بلغته هذه الحمى وما أدت إليه من أزمات استنفدت قواه بعد أن دامت هذه الحال الجديدة ستين عاماً كاملة ، وكان يحسد مصر على إيمانها الدينى واستقرار أفكارها وهدوئها . ولم يشهد عصر من العصور المقبلة إلى أن حل عصر النهضة ما شهدته هذا العصر من حماسة فى التفكير وقوة فى النقاش .

وكان أفلاطون يمثل أعلى منزلة وصات إليها الحركة التى بدأت ببارمنيدس ، وكان لها بمثابة هجل Hegel لكانت Kant ؛ ومع أنه لم يكن يتورع عن التنديد بآراء الفلاسفة ؛ فإنه لم ينقطع يوماً عن تعظيم أبيه الميتافيزيقى . وفى بلدة إيليا الصغيرة القائمة على ساحل إيطاليا الغربى نشأت فى عام ٤٥٠ ق . م . الفلسفة المثالية التى أثارت فى كل قرن من القرون المقبلة حرباً شعواء على المادية (*) ؛ وقلدت فى بوتقة التفكير الأوروبى مشكلة المعرفة الغامضة العجيبة ، ومشكلة الفرق بين الظاهر من جهة وما لا يعرف ولا يمكن أن يعرف من جهة أخرى ؛ وبين الحقيقى غير المنظور والمنظور غير الحقيقى ، وظلت هذه الأفكار تغلى أو تغطمط طوال تاريخ اليونان القديم وفى أثناء العصور الوسطى حتى انفجرت مرة أخرى فى عصر «كانت» وعلى يديه وأضحى ثورة فكرية عارمة . وكما أن هيوم Hume «أيقظ» كانت كذلك كان أكسانوفان Xenophanes هو الذى دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة ؛ ولعل عقل بارمنيدس كان واحداً من عقول كثيرة أثارها قول أكسانوفان إن الآلهة ليست إلا أساطير ، وإنه لا توجد لإحقيقة واحدة هى العالم والله جميعاً . كذلك درس بارمنيدس مع الفيثاغوريين وسرى فيه شغفهم بعلم الفلك ، ولكنه لم يفضل فى بيداء النجوم ،

(*) ولقد راجع المنود هذه المشكلة قبل ذلك بزمان طويل ، وبقوا بارمنيديين إل آخر عهدهم ، ولعل لزعة أليوبانثاد Upanishads المفادة لمخالفة قد تسربت إل بارمنيدس من طريق أيلولها أو فيثاغورس .

بل كان كمعظم فلاسفة اليونان يهتم بالشئون الحية ومنها شئون الدولة . وقد كلفته إيليا أن يضع لها قوانينها ، فلما وضعها أعجبت به إعجابا جعلها تطلب إلى جميع قضاتها أن يحكموا في جميع القضايا بمقتضاها^(٣) . ولعله أراد أن يرفه عن نفسه في حياته المفعمة بالعمل فأنشأ قصيدة فلسفية في الطبيعة بقى منها إلى الآن نحو مائة وستين بيتاً تكفى لأن تجعلنا نأسف لأن پارمنيدس لم يكتب نثرا . وفي القصيدة يعلن الشاعر ، وهو يغمز بعينه ، أن إلهة قد أوحى إليه أن الأشياء جميعها وحدة ، وأن الحركة ، والتغير ، والنمو ، أشياء غير حقيقية ، فهي خيالات لمشاعر سطحية ، متعارضة ذاتها ، وأن من وراء هذه المظاهر وحدة ، متجانسة لا تتبدل ، ولا تنقسم ، ولا تتحلل ولا تتحرك ، وهى وحدة الكائنات ، والحقيقة التى لا حقيقة سواها ، والإله الذى لا إله غيره . لقد كان هرقليطس يقول إن كل شيء يتغير *Panta rei* أما پارمنيدس فيقول إن الأشياء بأجمعها كل واحد أبدا *Hen ta, panta* . وهو في بعض الأحيان يقول كما يقول أكسانوفان إن هذا الواحد هو الكون ، ويصفه بأنه شبه كرى ومحدود ، وكان في بعض الأحيان حين ينظر إليه نظرة فكرية مجردة يرى أن هذا الكائن هو الفكر ويقول : « إن الفكر والكون شيء واحد^(٤) » . وكأنه يريد بهذا أن يفهمنا أن الأشياء لا وجود لها في إدراكنا ، وأن البداية والنهاية ، والمولد والموت ، والتكوين والتدمير ، لا تصيب إلا الأشكال والصور ، أما الواحد الحق فلا بداية له ولا نهاية ، وليس ثمة صيرورة ، وليس ثمة إلا وجود ، وأن الحركة أيضاً غير حقيقية لأنها تفترض انتقال شيء من المكان الذى هو فيه إلى مكان لا يوجد فيه شيء أى إلى الفراغ ، ولكن الفراغ الذى هو غير كائن لا يمكن أن يكون ، إذ ليس ثمة فراغ قط ، لأن الواحد يملأ كل ركن وكل شق في العالم ، وهو ساكن سكونا سمردياً^(٥) .

(*) إن هذه الأقوال مجعدة الخيال ، ولكننا نكاد نفعل ما فعله پارمنيدس حين تقل
إن منفردة ما في حالة سكون مع أنها (كما يقولون) تتكون من « كهارب » (الكترولونات) =

ولم يكن ينتظر بطبيعة الحال أن يستمع الناس إلى هذه الأقوال كلها وهم صابرون ، ويبدو أن السكون البارميندى كان الهدف الذى صوبت إليه مئات من الهجمات الميتافيزيقية . وترجع أهمية زينون الإليائى الحضيف تلميذ بارميندس إلى محاولته لإثبات أن فكرتى التعدد والحركة كانتا من الوجهة النظرية على الأقل مستحيلتين كاستحالة واحد بارميندس الثابت القديم الحركية - وأراد زينون أن يدرّب نفسه على الضلال والمشاكسة ، وأن يسلى شبابه فى الوقت نفسه ، فألف كتاباً فى المتناقضات وصلت إلينا تسع منها ، حسبنا أن نورد منها ثلاثاً : وأولى هذه المتناقضات كما يقول زينون أن الجسم الحى يتحرك إلى نقطة أ لا بد أن يصل إلى ب وهى منتصف طريقه إلى أ ، ولكى يصل إلى ب يجب أن يصل أولاً إلى ج منتصف طريقه إلى ب ، وهكذا إلى ما لا نهاية . وإذا كانت هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الحركات تتطلب قدراً لا نهاية له من الزمن ، فإن تحرك أى جسم إلى أية نقطة فى زمن محدد أمر مستحيل . والثانية وهى صورة أخرى من الأولى أن أخيل السريع العدو لا يستطيع أن يدرك السلحفاة البطيئة . وذلك لأنه كلما وصل إلى النقطة التى كانت فيها السلحفاة ، تكون السلحفاة فى هذه اللحظة نفسها قد انتقلت من هذه النقطة . والثالثة أن السهم الطائر فى الهواء هو فى الحقيقة ساكن غير متحرك ، لأن فى كل لحظة من طيرانه لا يكون إلا فى نقطة واحدة فى الفضاء ، أى أنه يكون ساكناً ، وحركته منطقياً وميتافيزيقياً غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها واقعة فعلاً (٥٠) (٥) .

دائمة الحركة . وقد كان بارميندس يرى العالم كما نرى نحن المنضدة ، ولم تدر لتذهب أن يرى العالم لرآه كما نراها نحن .

(*) وقد انقل البحث فى هذه المتناقضات من أفلاطون (٦) إلى برتراند رسل (٧) ، وقد يستمر مادام الناس يمتقنون خطأ أن الأسماء هى المسمايات . والذى تجعل هذه الألفاظ عديمة القيمة هى التراض واصفها أن « غير محدود » شىء وليس كلمة تدل على عجز عقل من أن يدرك النهاية المطلقة ، وأن الزمان والمكان والحركة كلها أشياء غير متصلة أى أنها تتكون من نقط أو أجزاء متصلة بعضها عن بعض .

وجاء زينون إلى أثينة حوالى عام ٤٥٠ ق . م . ولعله جاء إليها مع پارميندس وأثار ثائرة المدينة السريعة التأثير بقدرته على تحويل أى نوع من أنواع النظريات الفلسفية إلى سخافات غير معقولة . وقد وصف تيمون الفليبوس Timon of Phlius « لسان زينون ذى الحدين الذى يستطيع أن يبرهن على أن كل قوله يقول الإنسان غير حقيقى » (٨) .

ومن هذه الثعرة قبل السقراطية (ونحن نسميها نعرة لأن جهلنا بالماضى يضطرنا إلى تسمية هذه المعانى بتلك الأسماء) كانت بداية علم المنطق كما كان پارميندس بالنسبة لأوروبا هو واضح علم ما وراء الطبيعة . ولقد حاكى سقراط طريقة زينون الجدلية (٩) محاكاة شديدة وإن كان قد ندد بها وشنع عليها ، وبلغ من تحمسه لهذه الطريقة أن اضطّر قومه إلى قتله لكى يريحوا عقولهم من جدله . ولقد كان أثر زينون فى السوفسطائيين المتشككين حاسماً قوياً ، وكان لتشككه آخر الأمر الغلبة فى بيرون Puroho وقرنيادس Carneades . وقد أصبح فى شيخوخته رجلاً « ذا حكمة عظيمة وعلم غزير » (١٠) فأخذ يشكو من أن الفلاسفة قد حملوا مزاحه العقل فى أيام شبابه حمل الجدد . وكان انقلابه الأخير سبب القضاء عليه . ذلك أنه اشترك فى حركة تهدف إلى نخلع الطلاعية نيارقيس Nearches فى إيليا ولكنه أخفق فى محاولته ، وقبض عليه ، وعذب ، وقتل (١١) ، وصبر الفيلسوف على عذابه صبر الأبطال ، وكأنما أراد بذلك أن ينضم اسمه بعد قليل من الزمن إلى أسماء أصحاب الفلسفة الرواقية .

الفصل الثاني

الماديون

لقد كان إنكار پارمنيدس للحركة والتغير بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس المائعة المزعزعة ، وكذلك كانت عقيدة وحدة الكون ثورة عنيفة على عقائد الفيثاغورين المتأخرين . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة قد حاولوا نظرية الأعداد التي قال بها كبيرهم إلى المبدأ القائل بأن الأشياء جميعها تتكون من أعداد أى من وحدات غير قابلة للانقسام^(١٢) . ولما أن أضاف فيلولوس العليبي إلى هذا المبدأ أن « الأشياء جميعها تحدث بالضرورة والتوافق »^(١٣) كان كل شيء قد أعد لظهور المذهب اللرى أو مذهب الجوهر الفرد في الفلسفة اليونانية .

ففى عام ٤٣٥ جاء لوقيبوس الملطى إلى إيليا وتلقى العلم على زينون ، ولعله قد سمع هناك بالذرية العددية التي يقول بها الفيثاغوريون ، ذلك أن زينون كان قد وجه بعض متناقضاته الدقيقة إلى عقيدة التعدد^(١٤) . واستقر لوقيبوس آخر الأمر في أبدرأ وهي مستعمرة أيونية مزدهرة في تراقية . وقد ضاعت تعاليمه المباشرة فلم يبق منها إلا هتامة صغيرة هي قوله : « لا شيء يحدث من غير حلة ، بل إن الأشياء كلها تحدث لعل ، وبالضرورة »^(١٥) .

ولعل لوقيبوس قد أوجد فكرة الفراغ ليرد بها على أقوال زينون وپارمنيدس ، وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجعل الحركة مستطاعة من الوجهة النظرية كما هي واقعية من الناحية الحسية . ويقول : إن العالم يحتوى على جواهر فردية وعلى فراغ ولا شيء غيرهما ، وإن هذه الجواهر التي تتساقط في دوامة كبرى تسقط بالضرورة إلى الصور الأولية الأشياء جميعها ، وينضم كل شيء

إلى مثيله ؛ وبهذه الطريقة وجدت الكواكب والنجوم^(١٦) ؛ والأشياء جميعها بما فيها النفس البشرية مكونة من جواهر فردية (ذرات) .

وكان دمقريطس تلميذ لوقيوس أو زميله في تحويل فلسفة الجواهر الفرد إلى نظرية مادية كاملة . وكان والده من ذوى المكانة الملحوظة والثراء العظيم في أثينة^(١٧) ؛ ويقال إنه ورث منه مائة وزنة من المال (٨٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) أنفق معظمها في الأسفار^(١٨) . وتقول بعض الروايات التي لا نجد ما يؤيدها إنه سافر إلى مصر وبلاد الحبشة وبابل وفارس والهند^(١٩) ، ويقول هو نفسه في ذلك : « لقد طفت بين معاصرى في أكبر جزء من الأرض للبحث عن أبعد الأشياء ، ورأيت أكثر الجواهر والأقطار ، وسمعت إلى أكبر عدد من المفكرين^(٢٠) » . وأقام في بوثوية الطبيعية زمنا يكتفى لتشبعه بنظرية فيلولوس في الذرية العددية^(٢١) ؛ ولما فرغت منه نقوده لحأ إلى الفلسفة ، واخشوشن في معيشته ، ووجه جهوده كلها إلى الدرس والتفكير ، وقال : « إن الكشف عن برهان واحد (في الهندسة) خير لى من الحصول على عرش فارس^(٢٢) » . وكان على شيء من التواضع لأنه كان يبتعد عن الجدل والنقاش ، ولم يوجد مدرسة خاصة ، وأقام في أثينة من غير أن يتعرف إلى أحد من فلاسفتها^(٢٣) .

وقد ذكر ديوجين ليرتيوس Diogenese Laertius (ديوجانس) ثبنا طويلا من كتبه في علوم الرياضة والطبيعة والفلك والملاحية ، والجغرافية ، والتشريع ، ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، والعلاج النفائى ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى^(٢٤) . ويسميه ثراسيلس Thrasyllus صاحب التارين الخمسة في الفلسفة ، ويطلق عليه بعض معاصريه اسم الحكمة (Sophia) نفسها^(٢٥) . وقد بلغت معارفه من السعة والتعدد ما بلغت معارف أرسطاطاليس

(*) ومن أقواله : « إن الأرض كلها ملن قرجل الحكيم الصالح »^(٢٦) .

نفسه ، ونال أسلوبه من الإعجاب ما ناله أفلاطون (٢٧) ، ووصفه فرانسس بيكن Francis Bacon في ساعة تخلى فيها عن عناده بأنه أعظم الفلاسفة الأقدمين على بكرة أبيهم (٢٨) .

وهو يبدأ كما يبدأ پارمنيدس ببحث تحليلي في الحواس فيقول إنه لا بأس علينا من الوثوق بها في الأغراض العملية ؛ ولكننا لا نكاد نحلل ما تمدنا به من المعلومات حتى نجد أنفسنا ننتزع من العالم الخارجى طبقة بعد طبقة مما تضيفه عليه الحواس من اللون ، والحرارة ، والطعم ، والنكهة ، والحلاوة ، والمرارة ، والصوت . وهذه « الصفات الثانوية » كائنة فينا نحن أو في عملية الإدراك الكلية ، لا في الشيء الموضوعى ، وفي العالم الحالى من الآذان لا تحدث الغاية الساقطة صوتاً ، ولا يكون لماء البحر مهما غضب هدير ، والعرف (Nomos) هو الذى يجعل الحلو حلواً والمر مرّاً ، والحر حاراً ، والبارد بارداً ؛ أما الحقيقة فهى أنه لا وجود إلا للجواهر الفردية (الذرات) والفراغ (٢٩) . ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ؛ أما المعرفة الحققة فلا سبيل إليها إلا البحث والتفكير . والواقع أننا لا نعرف شيئاً ، فالحق مدفون على بعد منا عظيم ولسنا نعرف شيئاً معرفة أكيدة ، بل كل ما نعرفه هو ما يحدث في جسمنا من تغيرات بتأثير القوى التى تصطدم به (٣٠) . وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التى يقذف بها الجسم الخارجى فتقع على أعضاء الحواس (٣١) ، وليست الحواس كلها إلا أشكالاً من اللمس (٣٢) .

وتختلف الجواهر الفردية التى يتكون منها العالم في شكلها وحجمها ووزنها ؛ وكلها تنزع إلى السقوط إلى أسفل ، وتنتج من هذا حركة دائرية تتحد فيها الجواهر المتائلة بعضها ببعض فتنتج من اتحادها الكواكب والنجوم . وهذه الجواهر لا يقودها فكر (Nous) أو ذكاء ، ولا يرتبها « حب » أو « كراهية » كما يقول أنبادوقليس ، بل إن الضرورة — أى الأثر الطبيعى للعلل الكامنة فيها هى التى تسيطر عليها جميعاً (٣٣) . وليس ثمة مصادفة ، بل المصادفة

خرافة اخترعت لتبرير جهلنا^(٣٤) ، وكية المادة تبقى على حالها ، لا يضاف إليها شيء جديد ، ولا يفنى منها شيء^(٣٥) ، وكل الذى يحدث هو تغير فى اتحاد الجواهر الفردية . لكن صور الأشياء مع هذا لا حصر لها ، وحتى العوالم نفسها يوجد منها فى أكبر البظن عدد « غير محدود » وهى تنشأ وتزول فى موكب لا نهاية له^(٣٦) . وقد نشأت الكائنات العضوية فى مبدأ أمرها من التراب المبلل^(٣٧) ، وكل شيء فى الإنسان مصنوع من جواهر فردية ، والروح نفسها مكونة من جواهر جد صغيرة ملساء مستديرة كجواهر النار ، والعقل ، والنفس ، والحرارة الحوية ، والمبدأ الحيوى ، كلها شيء واحد ، لا يختص بها الإنسان أو الحيوان بل هى منتشرة فى العالم كله موزعة عليه ، والجواهر الفردية العقلية الكائنة فى الإنسان وغيره من الحيوانات التى بها تفكر فى جميع أجزاء الجسم^{(٣٨)*} .

يبد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التى تتكون منها النفس هى أكثر أجزاء الجسم نبلا وأعظمها إثارة للدهشة . والرجل العاقل ينمى فكره ، ويحرر نفسه من الانفعالات ، والخرافات ، والخاوف ، ويبحث بالتأمل والإدراك عن السعادة العقلية التى فى متناول الحياة البشرية . والسعادة لا تنشأ من الطيبات الخارجية ، بل ينبغى للإنسان أن يعود على أن يجد فى داخل نفسه مصادر متعته وسعادته^(٣٩) . والثقافة خير من الغنى . . . ولا تستطيع قوة أو ثروة أن تترجح اتساع دائرة العلم^(٤٠) . والسعادة تأتى متقطعة ، و « اللذائد المادية لا تشبع صاحبها إلا زمناً قصيراً » ، لكن الإنسان ينال سروراً أدام إذا حصل على سلام النفس وصفائها (أتاركسيا ataraxia) وعلى البهجة (euthumia) . والاعتدال (metriotes) قدر من النظام والتناسب فى الحياة (biou symmetria) . وفى وسعنا أن نتعلم الشيء الكثير من الحيوانات —

(*) يمزو لكرتهوس Lucretius إل « دمقريطس العظيم » القول بوجود نوع من الموازنة النفسية الجسمية ، فقد « قال (دمقريطس) إن جواهر الجسم وجواهر العقل توضع أزواجاً كل منها بهوار الأخر : وهذا لربط هيكل الجسم بعلمه ببعض » .

« الغزل من العنكبوت ، والبناء من العصفور ، والغناء من العندليب والتم^(٤٨) » ، و « قوة الجسم لا تحون من أسباب النبل. » في دواب النقل أما قوة الخلق فهي سبب النبل في الإنسان^(٤٩) . وهكذا يفعل دمقريطس ما فعله من بعده الضالون في إنجلترا في عصر الملكة فكتوريا فقيم على ميتافيزيقاه الشائنة صرحاً من المبادئ الخلقية الخلافة الظاهر . « والأعمال الحسية يجب أن تصدر عن عقيدة . لا عن قسر ، ويجب أن يفعلها الإنسان للرجبة فيها لا أملاً فيها يناله عليها من جزاء » ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله^(٥٠) .

وقد أوضح حكمته ، ولعله برر أيضاً نصائجه ، بأن عاش حتى بلغ من السن مائة عام وتسعة أعوام ، أو تسعين عاماً كما يقول بعضهم^(٥١) . ويروى ديوجين ليرتيوس أنه لما قرأ دمقريطس على الجماهير أهم مؤلفاته كلها وصور كتاب العالم الأكبر *Megas diakosmos* أهدت إليه مدينة أبدوا مائة وزنة (٦٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ولكن لعل أبلدا كانت وقتئذ قد خفضت قيمة نقدها . ولما سأله بعضهم عن سر عمره الطويل أجاب بأنه كان يأكل عسل النحل في كل يوم وأنه كان يستحم بالزيت^(٥٢) . ولما رأى آخر الأمر أنه قد عاش من العمر ما يشتهي أخذ يقلل من طعامه يوماً عن يوم يريد بذلك أن يميت نفسه جوعاً شيئاً فشيئاً^(٥٣) ، ويقول ديوجين « إنه بلغ أرذل العمر^(٥٤) » وإنه خيل إلى الناس أنه يحتضر ، وحزنت أخته لأنه سيموت في أثناء عيد ثزموفوريا *Thesmophori* فيحول موته دون قيامها بما يجب عليها نحو الإلهة ، ها كان منه إلا أن أمرها بأن تخفف من لوعتها ، وأن تأتيه كل يوم ببضعة أرغفة من الخبز الساخن (أو بقليل من عسل النحل^(٥٥)) . واتخذ يضع هذا

الطعام فوق منخريه ، واستطاع بذلك أن يطيل حياته خلال أيام العيد . فلما أن انقضت ثلاثة أيام العيد لفظ آخر أنفاسه دون أى ألم ، كما يؤكد لنا هباركس وذلك بعد أن عاش مائة عام وتسعة أعوام .

واحتفلت مدينته بجنائزه احتفالاً عاماً ، وأثنى عليه تيمن الأثيني Timon of Athens . ولم ينشئ ديمقريطس مدرسة خاصة ، ولكنه صاغ أهم فرض من الفروض العلمية وأوجد للفلسفة نظاماً بقي بعد أن عفا الزمان على غيره من النظم التي ظلت تندد به ، ولا يزال يظهر في العالم جيلاً بعد جيل .

الفصل الثالث

أنبادوقليس

المثالية تضايق الحواس ، والمادية تكدر النفس ، لأن أولاهما تفسر كل شيء ما عدا العالم ، والأخرى تفسر كل شيء ما عدا الحياة ؛ وإذا أريد مزج هذين النصفين من أنصاف الحقائق فلا بد من العثور على مبدأ محرك دافع يتوسط بين التركيب والنماء ، وبين الأشياء والأفكار ؛ وقد حاول أنكساغوراس أن يبحث عن هذا المبدأ في العقل الكوني ، وحاول أنبادوقليس أن يبحث عنه في القوى الكامنة التي تنزع إلى الثورة والانقلاب .

وكان مولد هذا الأكرغاسي الشبيه بليونارد Leonarda في عام مراثون ، من أسرة غنية كانت مولعة بسباق الخيل ولعاً لم يكن يرجى معه أن ينبغ أحد أبنائها في الفلسفة . وقد درس بعض الوقت مع الفيثاغوريين ، فلما نضج عقله أخذ يفشى بعض عقائدهم السرية فطرد من زميرتهم^(٥٤) . وأولع أشد الولع بعقيدة تناسخ الأرواح ، وأعلن بخيال الشعراء وعواطفهم أنه كان « في مسالف الأيام شاباً ، وفتاة ؛ وغصناً مزهراً ؛ وطائراً ، وسمكة تسبح صامتة في البحر العميق »^(٥٥) . وذم أكل الطعام الحيواني ووصفه بأنه لا يخرج عن أن يكون صورة من أكل اللحوم البشرية ، أليست هذه الحيوانات تجسداً جديداً لبعض الآدميين^(٥٦) ؟ وكان يعتقد أن الناس جميعاً كانوا من قبل آلهة ، ولكنهم خسروا مكانهم في السماء لارتكابهم شيئاً من الدنس أو العنف ، ويقول إنه واثق بأنه يشعر في قرارة نفسه بما يوحى إليه بألوهيته قبل مولده . « وأي مجد عظيم وأية سعادة ليس فوقها سعادة قد تدهورتُ منها الآن ، وأصبحت أطوف الأرض مع

الآدميين^(٥٧) . وإذا كان واقعاً من هذا الأصل الإلهي فقد احتدى
 حذامين من الذهب ، ولبس ثوبين أرجوانيين ، ووضع على رأسه إكليلاً
 من الغار ؛ وقال لأبناء وطنه متواضعاً إنه محبوب أبلو ، ولم يعترف لغير
 أصدقائه بأنه إله . وادعى أن لها قوى فوق قوى البشر ، ومارس بعض
 لقوس السحر . وحاول بطريق العزائم والرق أن ينتزع من العالم الآخر
 أسرار مصير الإنسانية . وعرض على الناس أن يشفى مرضاهم بسحر
 الألفاظ ، وشفى كثيرين منهم حتى كاد الناس يصدقون دعواه . أما
 الحق فإنه كان طبيباً نطاسياً ذا آراء كثيرة في علم الطب ، ومتمكناً من
 سيكولوجية الفن ؛ وكان فوق ذلك خطيباً مصقعاً ، « اخترع » كما
 يقول أرسطاطاليس ، أصول البلاغة وعلمها غورغياس ، فعرضها هذا
 للبيع في أثينة ؛ وكان مهندساً أنجى صلينس من الوباء بتجفيف المستنقعات
 وتحويل مجارى الأنهار^(٥٨) . وكان سياسياً شجاعاً تزعم ، وهو أرسطقراطي
 الأصل ، ثورة على الأرستقراطية الضيقة ، وأبى أن يكون حاكماً بأمره ؛
 وأقام حكماً ديمقراطياً معتدلاً . وكان شاعراً كتب في الطبيعة وفي التطهير شعراً
 بديعاً اضطر أرسطاطاليس وشيخرون إلى أن يضعاه في مصاف الشعراء
 المجددين ، وأظهر لكريشيوس إعجابه به بمحاكاته . وقال فيه ديوجين
 ليرتيوس : « وإذا ذهب إلى الألعاب الأولمبية استلفت جميع الأنظار ، حتى لم
 يكن يذكر إنسان آخر بمثل ما يذكر به هو^(٥٩) » ، ولعله كان كما يقول إلهاً :

ولم يبق لنا من أشعاره إلا ٤٧٠ بيتاً لا نجد فيها إلا إشارات منقطعة
 لفلسفته ، فترى منها أنه كان يختار مبادئه من فلسفات مختلفة ، ويرى في كل
 طريقة من طرائقها شيئاً من الحكمة ، ولا يوافق پارمنيدس على رفض جميع
 ما يجيء إلينا من المعلومات عن طريق الحواس ، بل يثنى على كل حاسة
 ويرى أنها « طريقاً موصلاً للإدراك^(٦٠) » . وعنده أن الحس ينشأ من انبعاث
 جزيئات تنقل من الجسم الخارجى ، وتقع على « مسام » (poroi) الحواس ،

ومن أجل هذا يحتاج الضوء إلى بعض الوقت لكي يصل إلينا من الشمس^(٦٤) ،
وينشأ الليل من اعتراض الأرض لأشعة الشمس^(٦٥) ، والأشياء كلها تتكون
من عناصر^(*) أربعة : الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب ، وتعمل في هذه
العناصر قوتان رئيسيتان هما الجذب والطرْد ، أو قوتا الحب والبغض .

وينتج من اجتماع العناصر وتفرقها بفعل هاتين القوتين اجتماعا وتفرقا
لا آخر لهما عالم الأشياء والتاريخ . فإذا كانت الغلبة للحب أى النزعة
إلى الاتحاد تحولت المادة إلى نبات ، واتخذت الكائنات العضوية أشكالاً
مطردة الرق . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الأنفس كلها مسيرة
واحدة ، كذلك لا يوجد في الطبيعة فرق واضح بين جنس وجنس ،
أو بين نوع ونوع . ألا ترى مثلاً أن « الشَّعر » ، وأوراق الشجر ، وريش
الطيور السميكة والحراشف التي تتكون على الأعضاء الصلبة ، كلها من
نوع واحد^{(٦٨) ؟} . والطبيعة تنتج كل نوع من أنواع الأعضاء
والأشكال ، والحب يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولات غريبة
تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها ، وتارة أخرى
يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثروموامة ظروف الحياة^(٦٩)
والأشكال العليا كلها تنشأ من الأشياء السفلى^(٧٠) ، وقد كانت
الذكورة والأنوثة في بادئ الأمر مجتمعين في جسم واحد ، ثم انفصلتا
وظلت كلتاهما تنوق إلى الاتحاد مع الأخرى^{(**) (٧١)} . ويوجد في
مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ، يمزق فيها الكره ، أو قوة
التقسيم ، البنيان المعقد الذي أقامه الحب ، فتعود الكائنات العضوية والنباتات
عوداً بطيئاً إلى صووة تزداد بدائية يوماً بعد يوم ، ويظل هذا يحدث
حتى تختلط الأشياء جميعها مرة أخرى في كتلة فطيرة غير محددة الشكل^(٧٢)

(*) أو أركان كما كان العرب يسمونها . (المترجم)

(**) لعل أفلاطون قد استمد من هذا خطية أرسطوفان في « معرض آرائه » .

وهاتان العمليتان المتبادلتان عملية التطور وعملية الانحلال مستمرتان إلى أبد الدهر في كل جزء على حدة وفي الكل مجتمعا ؛ وتننازع القوتان قوة الائتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان في نظام عالمي شامل هو نظام الحياة والموت . ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسپنسر ! (٧٣) .

ومكان الله في هذه العملية غير واضح ، وذلك لأن من الصعب أن نفرق بين الحقيقة والحجاز أو بين الفلسفة والشعر في أقوال أنبادوقليس ؛ فهو في بعض الأحيان يوحد بين الإله وبين الكون نفسه ، وفي بعضها الآخر يوحد بينه وبين حياة كل حي أو عقل كل عاقل ؛ ولكنه يدرك أننا لن نستطيع قط أن نكون فكرة صحيحة عن القوة الخالقة الأساسية الأصلية . انظر مثلاً إلى قوله : « لن نستطيع أن نقرب الله منا قريباً يمكننا من أن ندركه بأعيننا ، ونمسكه بأيدينا . . . ذلك أنه ليس له رأس بشري ملتصق بأعضاء جسمه ، وليس له ذراعان متفرعتان تبدليان من كفيه ، وليس له قدمان ولا ركبتيان ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير ، عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف ، يومض في طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف » (٧٤) . ويحتج أنبادوقليس حديثه هذا بنصيحة الشيخوخة التي أنطقته بها الحكمة والكلالة : « ما أضعف وما أضيق القوى المودعة في أعضاء الإنسان ؛ وما أكثر المصائب التي تثلم حد التفكير ، وما أقصر الحياة التي يكدر فيها الناس والتي تنتهى بالموت . فإذا حل بهم زالوا من الوجود وتلاشوا كما يتلاشى الدخان وصاروا هواء ، يعرفون أن ما يحلمون به ليس إلا الصفائر التي عثر عليها كل واحد منهم أثناء تجواله في هذا العالم . ومع هذا تراهم جميعاً يفخرون بأنهم عرفوا كل شيء . ألا ما أشد حقهم وأكثر غرورهم ! ذلك أن هذا الكلي الذي يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان » (٧٥) .

واستحال في آخر سن من حياته واعظاً دينياً أكثر مما كان من قبل ،

منهمكاً في نظرية التجسيد ، وأخطأ بتوصل إلى بنى جنسه أن يتطهروا من الخطيئة التي طردوا بسببها من السموات ، ويدعو الجنس البشرى ، بما أوتى من حكمة بوذا وفيثاغورس ، وشوبنهاور ، أن يمتنع عن الزواج ، والتناسل^(٧٦). ولما حاصر الأثينيون مرقوصة في عام ٤١٥ ، بذل أنبادوقليس كل ما في وسعه لتأييد المقاومين وأغضب بذلك أكرجاس ، التي كانت تحقد على مرقوصة بكل ما في قلوب الأقارب من حقد دفين ، ونفى من بلده ، فذهب إلى أرض اليونان القارية حيث وافاه الأجل في ميغارا كما تقول بعض الروايات^(٧٨). ولكن ديوجين ليرتيوس يروى عن هيبوبوتس Hippobotus أن أنبادوقليس بعد أن أعاد إلى الحياة الكاملة امرأة اعتقد الناس أنها قضت نحبها غادر الوليمة التي أقيمت احتفاء بشفاؤها ، واخفى فلم ير بعد ذلك أبداً . وتقول بعض الأساطير إنه ألقى بنفسه في فوهة بركان إتنا النائر لكي يموت من غير أن يخلف وراءه أثراً ، فيؤيد بذلك دعواه أنه إله . ولكن النار العنصرية غدرت به ، فقلقت بنفخه النحاسيين ، وتركتهما على حافة كأس البركان ، كأنهما رمزان ثقيلان للفناء^(٩٠) .

افضل الرابع

السوفسطائيون

إن الذين يقولون إن بلاد اليونان هي أثينة يكذبهم أن أحداً من كبار المفكرين اليونان قبل سقراط لم يكن من أهل تلك المدينة ، وأنه لم يعقبه مفكر من أهلها حتى جاء أفلاطون . وإن المصير الذي لاقاه أنكساغوراس وسقراط ليدل على أن الجحود الديني كان في أثينة أقوى منه في المستعمرات ، وذلك لأن انفصال هذه المستعمرات من الناحية الجغرافية قد حطم بعض قيود التقاليد القديمة . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أثينة كانت تبقى مدينة غير متسامحة إلى حد السخف والغباء ولا مجال فيها للتفكير الحر لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ، ولم يقد إليها جماعة السوفسطائيين .

وقد كانت المناقشات التي تدور في الجمعية ، والمحاضرات التي تجرى أمام الهيليا ، والحاجة المتزايدة إلى القدرة على التفكير تفكيراً منطقي الظاهر ، وإلى التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً مقنعاً ، لقد كانت هذه كلها مضافة إلى ثراء المجتمع الإمبراطوري وتشوفه عاملاً في إشعار الناس بالحاجة إلى شيء لم يكن معروفاً في أثينة قبل بركليز ، ونعني بذلك الدراسة العليا المنتظمة للآداب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة ، ولم تقابل هذه الحاجة في بادئ الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويدرسون فيها ما يضعونه للتعليم من مناهج ، ثم ينتقلون إلى مدن أخرى ليعملوا فيها هذه الدراسة . وكان بعض هؤلاء المعلمين ، ومنهم پروتاغوراس Protagoras ، يطلقون على أنفسهم لقب سوفسطاي أي معلمو الحكمة^(٨١) ، وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ «أستاذ جامعي» ، ولم يكن

له معنى محط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فأدى إلى هجوم المحافظين على السوفسطائيين ؛ وأثارت نزعة بعضهم التجارية أفلاطون إلى تسوية سمعتهم بأن عزا إليهم تهمة « السفسطة » بغية المكسب ، وهي الوصف الذى ظل لاصقاً بهم إلى يومنا هذا . ولعل الجمهور كان يشعر نحو هؤلاء بشيء من الكره الخفى من بدء ظهورهم ، لأن ما كانوا يتقاضونه من باهظ الأجر نظير تدريس المنطق والبلاغة لم يكن يطيقه إلا الأغنياء الذين أفادوا من علمهم هذا فى دور القضاء^(٨٢) . ولنا ننكر أن المشهورين من السوفسطائيين كانوا يتقاضون ممن يعلمونهم أكثر ما يرضى هؤلاء أن يؤدوه إليهم من الأجور ، وذلك هو قانون الأثمان فى كل مكان ... فكان پروتاغوراس ، وغورغياس ، كما يقول الرواة ، يطلبان عشرة آلاف درخمة (١٠٠٠٠ ريال أمريكى) أجرا لتعليم تلميذ واحد . غير أن من كانوا أقل من هذين شأنًا كانوا يقنعون بأجور معتدلة ؛ فكان پرودكس Prodicus مثلاً — وهو الذى ذاع صيته فى جميع أنحاء بلاد اليونان — يطلب ما بين درخمة وخسين أجراً للاشتراك فى مناهجه^(٨٣) .

وقد ولد پروتاغوراس أشهر السوفسطائيين جميعهم فى أيدرا قبل مولد دمقريطس بجيل من الزمان . وكان فى أثناء حياته أشهر الرجلين وأعظمهما نفوذاً ؛ وفى وسعنا أن نستدل على ما كان له من شهرة واسعة بما أحدثته زيارته لأثينة من حماسة بالغة^(٨٤) واهتياج فيها كبير ؛ وحتى أفلاطون نفسه — وهو الذى لم يقل كلمة طيبة فى السوفسطائيين عن قصد — كان يجله ويصفه بأنه على خلق عظيم . وفى الحوار الأفلاطونى الذى سمي باسمه نرى پروتاغوراس أحسن مظهرًا من سقراط الشاب الكثير الجدل ؛ فسقراط فى هذا الحوار

(٥) أكبر الظن أن هذه الزيارات كانت فى الأعوام الآتية : ٤٥١ - ٤٤٥ ، ٤٣٢ ،

٤٢٣ ، ٤١٥ (٨٥)

هو الذى يتحدث كما يتحدث السوفسطائيون . وپروتاغوراس هو الذى يسلك مسلك الرجل المذهب والفيلسوف ، فلا يغضب أو يثور ، ولا يحقد على أحد لما ييديه من دلائل الفطنة والذكاء ، ولا يُحمّل حجج مناظريه من الجدل أكثر مما تحتمله ، ولا يهتم قط بأن يتكلم . ويعترف بأنه أخذ على نفسه أن يعلم تلاميذه التبصر والخلو في الشئون الخاصة والعامة ، وحسن تنظيم المنزل والأسرة ، وفنون البلاغة أو الكلام المقنع والقدرة على فهم شئون الدولة وحسن إدارتها^(٨٦) . . وهو يرر ما يأخذه من أجور عالية بقوله إن من عادته ، إذا عارض تلميذ فيما يطلبه من أجر ، أن يقبل منه أى أجر يراه التلميذ عادلا على شريطة أن يؤكد ذلك في خشوع أمام مزار مقدس^(٨٧) - وتلك لعمري خطة حقاء من معلم يشك في وجود الآلهة . ويتهمه ديوجين ليرتس بأنه « أول من سلح المجادلين بسلاح المغالطات المنطقية » وهى تهمة يسر منها سقراط بلاريب ، ولكن ديوجين يضيف إلى ذلك قوله : « كان بالإضافة إلى هذا أول من اخترع ذلك النوع من الجدل الذى يسمونه الجدل السقراطى^(٨٨) » - وهى تسمية قد لا يرتاح لها سقراط .

وكان من أفضاله الكثيرة أنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوربيين ، ويقول عنه أفلاطون إنه بحث في الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ ، وإنه كان أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة ، وأول من ذكر أزمان الأفعال وحالاتها (إخبارية أو شرطية الخ^(٩٠)) ، ولكن أهم ما يعيننا من أمره أن به ، لا بسقراط ، تبدأ النظرة الذاتية في الفلسفة . فقد كان على عكس الأيونيين يعنى بالأفكار أكثر ما يعنى بالأشياء ونعنى بالأفكار عملية الإحساس ، والإدراك ، والفهم والتعبير بأكملها ، فيينا كان بارمنيدس يرى أن الإحساس لا يهدى إلى الحقيقة ، كان پروتاغوراس يرى كما يرى لك Locke أنه السبيل الوحيدة إلى المعرفة ، وبأبى أن يعترف بوجود أية حقيقة تعلو على العقل ولا تتركها الحواس . ومن

أقوال پروتاغوراس أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، وأن كل ما يوجد هو الحقائق التي يعتقها بعض الناس في ظروف خاصة ، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة في اعتقاد أشخاص مختلفين أو في أزمنة مختلفة^(٩١) . والحقيقة كلها والخير والجمال ، أمور نسبية وشخصية ؛ « والإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة ، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة^(٩٢) » . ولقد ينجل إلى المؤرخ أن العالم كله قد بدأ يرتجف ويتزعزع كيانه حين أعلن پروتاغوراس هذا المبدأ البسيط من مبادئ الإنسانية والنسبية ، وأن الحقائق المقررة والمبادئ المقدسة جميعها أخذت تتصدع وتهار ؛ وأن الفردية قد وجدت صوتاً ينادى بها وفلسفة تؤيدها ، وأن الأسس فوق الطبيعية للنظام الاجتماعي لم تعرضت كلها لخطر الزوال .

ولولا أن پروتاغوراس قد طبق في وقت من الأوقات هذا التشكك البعيد الأثر ، والذي يتضمنه هذا القول الذائع الصيت ، على شئون الدين لبقى قولاً نظرياً مأمون العاقبة . ذلك أن پروتاغوراس قرأه على جماعة من كبار المفكرين في بيت يورپديز الملحد الحر التكفير البغيض إلى الشعب . وقد أثارت أول جملة في هذه الرسالة ثائرة الناس في أثينة وكانت الجملة الأولى فيها هي : « أما من حيث الآلهة فلست أدرى أمى موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شياً . وثمة أشياء كثيرة تقف في سبيل هذه المعرفة : الموضوع غامض ، وحياتنا الفانية قصيرة الأجل^(٩٣) » . وارتاعت الجمعية الأثينية من هذه الكلمة الافتتاحية التي تنذر بشر مستطير فقررت نفي پروتاغوراس ، وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته ، وأحرقت كتبه في السوق العامة . وفر پروتاغوراس إلى صقلية ولكنه ، على ما ترويه القصة ، غرق في الطريق^(٩٤) .

وواصل غورغياس الليونتينى Gorgias of Leontini هذه الثورة التشككية ، ولكنه أوتى من الحكمة ما جعله يقض معظم حياته فى خارج أثينة . وكانت سيرته أنموذجاً لسير الرجال الذين يجمعون بين الفلسفة والسياسة فى بلاد اليونان . وقد ولد فى عام ٤٨٣ ، ودرس الفلسفة والبلاغة مع أنبادوقليس ، وبلغ من شهرته فى الخطابة وفى تدريسها أن أرسلته ليونينى فى عام ٤٢٧ سفيراً لها فى أثينة . واستحوذ فى الألعاب الأولمبية التى أقيمت فى عام ٤٠٨ على قلوب حشد كبير من الناس بخطاب له طلب فيه إلى اليونان المتحاربين أن يعقدوا الصلح فيما بينهم لكى يواجهوا وهم متحدون واثقون من الفوز قوة بلاد الفرس الآخذة فى الانتعاش ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ويشرح أينما حل آراءه بأسلوب خطابى طلى ، وألفاظ ممتعة وعبارات منسقة فى معناها ومبناها ، متزنة اتزاناً دقيقاً بين الشعر والنثر ، لم يجد معها أية صعوبة فى جذب الطلاب إليه يعرضون عليه مائة مينا نظير منهجه الدراسى . وقد حاول فى كتابه فى الطبيعة أن يثبت ثلاث قضايا مدهشة مروعة هى أنه : (١) لا وجود لشيء ما . (٢) ولو أن شيئاً وجد لكانت معرفته غير ممكنة . (٣) ولو أن شيئاً كانت معرفته ممكنة لما أمكن نقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر (٩٥)* . ولم يبق من كتابات غورغياس غير هذه القضايا . وبعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها ألقى عصا التسيار فى تساليا وهدته حكيمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته (٩٦) . ويؤكد لنا كل من أرنهوا له أنه عاش حتى يبلغ من العمر مائة سنة وخمس سنين على أقل تقدير ، ويقول لنا كاتب قديم إن غورغياس ، وإن بلغ من

(٥) ومعنى هذه القضايا التى يقصد بها الخط من فلسفة التمسى التى يقول بها پارمنيدس :

(١) أن لا وجود لشيء خارج الحواس . (٢) وأنه لم يوجد شيء خارج الحواس لما أمكن معرفته لأن المعرفة جميعها تصل إلينا عن طريق الحواس . (٣) ولو أن شيئاً خارج دائرة الحواس أمكن معرفته لكان معرفته لا يستطيع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس .

العمرمائة سنة وثمان سنين ، لم يضعف جسمه من طول العمر ، بل ظل إلى آخر حياته في جيد الصحة لا تقل قوة حواسه عن قوة حواس الشباب (١٧) .

وإذا كان السوفسطائيون مجتمعين قد كونوا مدرسة متفرقة ، فإن هيباس الإليسي (Elis) كان مدرسة بمفرده ، وكان أنموذجاً للرجل المتعدد المعارف في عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حداً يجعلها في غير متناول عقل واحد . فقد كان يعلم الفلك والرياضيات ، وكانت له بحوث مبتكرة في الهندسة وكان شاعراً ، وموسيقياً ، وخطيباً . وكان يلقي محاضرات في الأدب ، والأخلاق والسياسة ، وكان مؤرخاً ، وضع أساس التاريخ اليوناني وتقويمه وتسلسله بأن جمع ثبثاً من أسماء الفائزين في الألعاب الأولمبية ، وأرسلته إليس مبعوثاً لها لدى دول أخرى ، وكان يعرف من القنون والحرف عدداً كبيراً أمكنه به أن يصنع ملابسه وأدوات زينته (١٨) . وكان عمله في الفلسفة صغيراً ولكنه خطير ؛ فقد كان يعترض على حياة المدن المصطنعة المؤدية إلى الانحلال ، ويوضح الفرق بين الطبيعة والقانون ، ويقول : ان القانون ظالم مستبد بالخلق (١٩) . وواصل برودكس ألكيوس عمل پروتاغوراس في النحو ، وحدد أجزاء الكلام ، وأدخل السرور على الشيوخ بوضعه قصة خرافية يصف فيها هرقل وهو يختار الفضيلة المجهدة بدل الوديلة الهينة (٢٠) . ولم يكن غيره من السوفسطائيين أتقياء مثله : وكان منهم أنتيفون الأثيني الذي حلل ديمقريطس في ماديته وإنكاره الآلهة ، والذي عرف العدالة تعريفاً يجعلها هي الطريقة الملائمة للظروف الموصلة إلى الغاية المطلوبة ، ومنهم ترازيماكس الخلقدونى Thrasymachus of Chalcedon الذي قال إن الحق هو القوة (إذا أخذنا بما يقوله عنه أفلاطون) وإن نجاح الأوغاد ليعت في نفوسنا الشك في وجود الآلهة (٢١) .

والسوفسطائيين في مجموعهم يعدون من العوامل التي كان لها أعظم الأثر

فى تاريخ اليونان ؛ فهم الذين اخترعوا لأوروبا النحو والمنطق ؛ وهم الذين رفقوا بالجلد ، وحلوا أشكال الحوار ، وعلموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقى وكيف يمارسونه ؛ وبفضل ما بعثوه فى اليونان من حافظ قوى وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة شغف مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال ؛ وهم الذين استعملوا المنطق فى اللغة فزادوا الأفكار وضوحاً ودقة ، ويسروا انتقال المعرفة انتقالاً صحيحاً دقيقاً . وهم الذين جعلوا للنثر صورة من صور الأدب والشعر ووسيلة للتعبير عن الفلسفة ؛ وطبقوا التحليل على كل شئ ؛ وأبوا أن يعظموا التقاليد المتواترة التى لا تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل ؛ وكان لهم شأن كبير فى الحركة العقلية التى حطمت آخر الأمر دين اليونان القديم عند طبقات الدهنيين . وفى ذلك يقول أفلاطون : إن « رأى السائد » فى زمنه هو أن « العالم وكل ما فيه من حيوان ونبات .. وجماد نشأ من علة تلقائية غير مدركة » ولا عاقلة . ويحدثنا لىسياس Lysias عن وجود مجتمع يكفر بالآلهة يطلق على نفسه اسم « نادى الشياطين kadodati moni lotai كان أعضاؤه يتعمدون أن يجتمعوا ليطعموا فى الأيام المقدسة التى كان الصيام مقررأ فيها^(١٠٣) . وكان يندار فى بداية القرن الخامس يقبل ما ينطق به الوحي فى دلتى قبول الأتقياء الصالحين ؛ وكان إسكلس يدافع دفاع السياسيين ؛ وفى عام ٤٥٠ انتقده هيرودوت وهو خائف وجل ، وكفر به توكيديدس صهره فى آخر ذلك القرن ؛ وشكا أو طيفرون Euthyphro من أن الناس كانوا يسخرون منه إذا تحدث عن النبوءات فى الجمعية ، ويعدون من البلهاء الذين دالت دولتهم^(١٠١) .

وليس من حقتنا أن نعزو الفضل فى هذا كله إلى السوفسطائيين أو أن نلومهم عليه ؛ فقد كان الكثير منه فى الجو الذى يحيط بهم ، وكان نتيجة طبيعية لازدياد الثراء ، والفراغ ، والأسفار ، والبحث والتفكير . وكذلك كان نصيبهم فى تدهور الأخلاق أنهم اشتركوا فى هذا التدهور (١٦ ج ٢ - ٢ مجلد ٢)

مع غيرهم ؛ ولم يكونوا العامل الأساسى فيه ؛ ذلك أن الثراء فى حد ذاته ، إذا لم تقترن به الفلسفة ، يقضى على التزمى وعلى الرواقية . ولكن السوفسطائيين عجلوا ، فى نطاق هذه الحدود الضيقة وعلى غير علم منهم ، سير حركة الانحلال . لقد كان معظمهم إذا غضبنا النظر عن حبهم الجلم للمال وهو حب متأصل فى طبائع البشر ، من ذوى الأخلاق الطيبة والحياة المحتشمة المهذبة ، ولكنهم لم ينقلوا إلى تلاميذهم التقاليد أو الحكمة التى جعلتهم أو أبقتهم فضلاء رغم علمهم أن المبادئ الخلقية قد نشأت بين بنى الإنسان ولم تنزل عليهم من آلهة السماء ، وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولعل نشأتهم فى المستعمرات لافى بلاد اليونان الأصلية قد جعلتهم يستخفون بقوة العادة ، بوصفها بديلاً سلمياً للقوة أو القانون ، فى المحافظة على النظام والأخلاق . ولقد كان تعريفهم للأخلاق أو لقيمة الإنسان تعريفاً قائماً على أساس المعرفة ، كما فعل پروتاغوراس قبل سقراط بجيل من الزمان (١٠٨) ، كان هذا التعريف باعثاً قوياً على التفكير ، ولكنه كان ضربة زلزلت قواعد الأخلاق نفسها ؛ كذلك كان توكيد المعرفة وتعظيم شأنها من الأسباب التى زفعت مستوى اليونان العلمى والثقافى ؛ ولكنه لم يقو من ذكائهم بنفس السرعة التى حرر بها عقولهم . ولم يكن قولهم إن المعرفة شىء نسبى سبباً فى حمل الناس على التواضع كما يجب أن يكون ، بل إنه أغرى كل إنسان بأن يتخذ من نفسه معياراً يقلد به جميع الأشياء ، فأصبح كل شاب نابه يحس بأنه خالق بأن يحكم على القانون الأخلاقى الذى يسير عليه بنو وطنه ، بأن يرفضه إذا لم يفهمه أو يعجبه ، ثم يصبح بعدئذ حراً فى أن يبرر رغباته حسب ما يراه هو بعقله ، ويقول إنها فضائل النفس التى تحررت من رق القانون . وكانت التفرقة بين « الطبيعة » والعرف ، وميل صغار السوفسطائيين إلى القول بأنه ما تبيحه « الطبيعة » خير فى ذاته على الرغم

من حكم العادة أو القانون ، كان هذا الميل وتلك الثغرة عاملاً في تقويض الدعامات القديمة للأخلاق اليونانية ، ومشجعاً للناس على القيام بكثير من التجارب في أساليب العيش . وأخذ الشيوخ يأسفون لانقضاء ما كان يسود المنزل من بساطة وإخلاص ، ولانهماك الناس في السعى وراء اللذة وجمع المال متحليين في ذلك من قيود الدين^(١٠٦) . ويحدثنا أفلاطون وتوكيديدس عن المفكرين والقادة الذين يقولون إن الأخلاق وهم خرافة ، والذين لا يعترفون بأى حق غير حق القوة . وهذه الفردية العارمة التي لا قيد لها من الضمير هي التي جعلت منطق السوفسطائيين وبلاغتهم وسيلة للاحتيال لقانوني والتهريج السياسي ، وحطت من قيمة نزعتهم العالمية الواسعة الأفق فجعلتها مجرد إحجام وحذر عن الدفاع عن بلادهم أو استعداد لبيعها لمن يؤدي فيها أغلى الأثمان ، دون أن يشعروا بشيء من وخز الضمير . وأخذ الزراع المتدينون والأشراف المحافظون يرون ما يراه عامة المواطنين من أهل الحواضر الديمقراطية وهو أن الفلسفة قد أصبحت خطراً تهدد كيان الدولة وينلرها بشر مستطير .

واشترك بعض الفلاسفة أنفسهم في مهاجمة السوفسطائيين ، فاتهمهم سقراط (كما اتهم أرسطوفان سقراط من بعد) بأنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة ، وكان يحقرهم لأنهم يتقاضون من الناس أجوراً^(١٠٧) ويرر جهله بالنحو بأنه لم يكن يستطيع حضور منهج پرودكس الذي يكلف خمسين درخمة ، ويقول إن كل ما كان في وسعه أن يحضر منهج الدرخمة الواحدة الذي يقتصر على المبادئ الأولية^(١٠٨) . وكتب في ساعة مشثومة تلك المقارنة القاسية يكشف فيها عن أمرهم :

« إنا لنعتقد يا أنثيفون أن في وسعنا أن نتصرف في الجمال أو في الحكمة تصرفاً شريفاً أو غير شريف ، فالشخص إذا باع جماله بالمال إلى كل راغب

في شرائه ، سماه الناس « عاهراً » ذكراً ؛ أما إذا صادق إنسان شخصاً يعرف أنه إنسان شريف جليل القدر يعجب به حسبناه رجلاً فطنا حصيفاً . والدين يبيعون الحكمة بالمال لكل من يتقدم لشرائها يسميهم الناس سوفسطائيين أو عاهري الحكمة إذا صح هذا التعبير . أما من يضاعف شخصاً يعرف أنه جدير بصحبته ، ويعلمه كل ما يعرف من الخير فلإننا نصفه بأنه يضطلع بالعمل الذي يليق بالمواطن الشريف^(١٠٩) » ولم ير أفلاطون حرجاً في أن يوافق على هذا الرأي لأنه كان من الأثرياء . وبدأ إسقراط Isocrates حياته بنخبة ضد سوفسطائيين ، ثم صار أستاذاً ناجحاً للبلاغة ، يتقاضى ألف درخمة (ألف ريال أمريكي) عن المنهج الواحد^(١١٠) . وواصل أرسطاطاليس هجومه عليهم وعرف سوفسطائي بأنه الرجل « الذي لا يحرص إلا على أن يثرى من وراء التظاهر بالحكمة »^(١١١) ، واتهم بروتاغوراس بأنه « يعد الناس بجعل أسوأ الأسباب يبلو كأنه أحسنها »^(١١٢) .

وكان شراً ما في هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق . فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة . ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطيع بها الاتفاق على التعليم العالي إلا إذا أمدته الدولة بالمال ؛ وإذا ما انتقد سوفسطائيون التقاليد والأخلاق السائدة في عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يحررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجحة العقل في زمانهم يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات في عصر الاستنارة في فرنسا إذ انقضوا على الماضي الميت انقضاضاً جديراً بالإعجاب فاكتسحوه أمامهم دفعة واحدة . ولم يطل عمرهم ، أو لم يكونوا بعيدى النظر في تفكيرهم ، حتى يقيموا نظاماً جديدة بدل النظم التي قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله . ولا بد في كل حضارة أن يحين الوقت

الذى يتحتم فيه بحث الأساليب القديمة من جديد إذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكي توائم التغيرات الاقتصادية التى لا تستطاع مقاومتها . ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا البحث الجليليذ ، ولكنهم عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية إلى هذا التكيف . وكفاهم فخراً أنهم كانوا حافزاً قوياً لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاءوا من كافة أركان العالم اليونانى إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب للتفكير جديدة ، وأيقظوا فيها الوعى الفلسفى والنضوج الذهنى . ولولاهم لما وجد سقراط أو أفلاطون أو أرسطاطاليس .

الفصل الخامس

سقراط

١ - قناع سيلينس Silenus

مما يغبط له الإنسان أن يقف آخر الأمر وجهاً لوجه أمام شخصية تبلو في ظاهر أمرها واقعية كشخصية سقراط . ونقول في ظاهر أمرها لأننا إذا تدبرنا المصدرين اللذين لا مناص لنا من الاعتماد عليهما في كل ما نعرفه عن سقراط ، وجدنا أن أحدهما وهو أفلاطون يكتب مسرحيات خيالية ، وأن الآخر وهو أكسانوفون يكتب روايات تاريخية ، وهذه وتلك لا يمكن أن تعدا من التاريخ الصادق الصحيح . وقد كتب ديوجين ليرتيوس في ذلك يقول : « يقولون إن سقراط حين سمع أفلاطون يقرأ الليسيس *Lyssis* صاح قائلاً : أى هرقل ! ما أكثر الأكاذيب التى قالها عنى هذا الشاب ! ذلك بأن أفلاطون قد أنطق سقراط بأشياء كثيرة لم ينطق هو بشيء منها » (١١٣) .

والحق أن أفلاطون لا يدعى بأنه يقصر أقواله على الحقائق ؛ وأكبر الظن أنه لم يدر بخلده قط أن المستقبل قد يعدم الوسائل التى يفرق بها بين ما هو سيرة حقة وما هو من نسج الخيال في كتابه . ولكن أفلاطون يرسم في المحاورات صورة منسقة لأستاذه من أيام شباب سقراط الوجمل في البارمنيدس وثرثرته الزقخة في البروتاغوراس إلى تقواه المكبوتة واستسلامه في الفيديون ، لا يوسع الإنسان معها إلا أن يعتقد أنه إذا لم يكن هذا سقراط بحق فإن أفلاطون يعد من أكبر مبتدعى الشخصيات في الأدب بأجمعه . ويعتقد أرسطاطاليس أن الآراء المعزوة إلى سقراط في البروتاغوراس هي آروؤه بحق (١١٤) . وقد كشفت

حديثاً هتافات من كتاب عن ألقبيادس كتبها إسكنيز الاسفتوزى *Aeschines of Sphettos* أحد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التي رسمها له أفلاطون في الأجزاء الأولى من محاوراته كما ترجح تأييد قصة العلاقة الوثيقة التي كانت بين الفيلسوف وبين ألقبيادس (١١٥). غير أن أرسطاطاليس من جهة أخرى يعدّ الذكريات *Memorabilia* والمائدة *Banquet* من القصص الموضوعية أى الأحاديث الخيالية التي يردد سقراط في أكثرها آراء أكسانوفون (*) نفسه (١١٦) وإذا كان أكسانوفون قد صدق فيما نقله عن سقراط صدق إكرمان *Eckerman* فيما نقله عن جيته ، فإن كل ما نستطيع أن نقوله في هذه الحال أنه غنى بجمع سخافات المعلم التي لا ضرر منها ، بأنه ليس من المعقول أن رجلاً أوتى من الفضائل ما أوتى سقراط حسب وصفه به أكسانوفون يستطيع أن يقلب الحضارة القائمة رأساً على عقب . على أن غير أكسانوفون من الكتاب الأقدمين لم يصوروا الحكيم القديم في صورة القديسين الصالحين كما صوروه أكسانوفون . من ذلك أن أرسطوقسانيس التارنتى *Aristoxenus of Tarentum* ينقل عن أبيه - الذى يدعى أنه كان يعرف سقراط شخصياً - حوالى عام ٣١٨ أن الفيلسوف كان شخصاً مجرداً من التعليم « جاهلاً فاجراً » (١١٧) ، وأن يوبوليس *Eupolis* الشاعر الهزلى فاق منافسه أرسطوفان في الافتراء على المشاء العظيم (١١٨) . وإذا أسقطنا من حسابنا ما يجر إليه الجدل من قسوة في اللفظ اتضح لنا على الأقل أن سقراط كان رجلاً نال من كره الناس وحبهم أكثر مما ناله أى إنسان آخر في عصره .

وكان أبوه مثلاً ، ويقال إنه هو نفسه نحت تمثالاً له رمس ، وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكربوليس (١١٩) . أما أمه فكانت قابله ، وكان من الفكاهات التي لا يفكك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من

(*) وفي الكتاب الثالث من الذكريات ينطق أفلاطون سقراط بشرح الأساليب والحيل الحربية .

مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار ، فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم . وتقول إحدى الروايات إنه ابن أحد الأرقاء (١٢٠) ، ولكننا نرجح بطلان هذه الرواية لأنه عمل هيلينا أى جنديا في فرق المشاة الثقيلة (وذلك واجب لا يضطلع به إلا المواطنون (١٢١)) ، وأنه ورث عن أبيه بيتا ، وكان عنده من المال سبعون مينا (٧٠٠٠ ريال أمريكي) ، يستثمرها له صديقه أقريطون (١٢١) ، أما فيما عدا هذا فإنه يصو لنا على أنه رجل فقير (١٢٢) . وقد عني عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان غالبا أيامه قوى البنية جيد الصحة ، واكتسب شهرة فائقة في الجندية أثناء حرب البلويونيز ، وحارب في بوتيدا Potidaea عام ٤٣٢ ، وفي ديليوم Delium عام ٤٢٤ ، وفي أمفيوليس عام ٤٢٢ . وفي بوتيدا أنقذ حياة الشاب ألقيداس وسلاحه ، ونزل عن جائزة الشجاعة إكراما لخاطر هذا الشاب ، وفي ديليوم كان آخر من تقهر من الأثينيين أمام الاسبارطيين ، ويلوح أنه أنجى نفسه بالتجديق في العدو ، فخافه الاسبارطيون وهم قوم لا يخافون . ويقال إنه في هذه الوقائع كلها بزعيم أقرانه في قوة الاحتمال وفي الشجاعة ، وإنه كان يصبر على الجوع والتعب والبرد فلا يشكو ولا يتململ (١٢٣) . أما في بلده ، إذا طواعته نفسه على الإقامة فيه ، فكان يشغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل ، ولم يكن مولعا بالأسفار ، وقلما كان يخرج من المدينة ومرفئها . وتزوج من إكسانثي Xanthippe التي كانت تعيب عليه إهماله شئون أسرته ، فكان يعترف بعدالة شكواها (١٢٥) ، ويثنى على كرم أخلاقها وحسن معاملتها لابنه وأصدقائه . ولم يكن الزواج يضايقه قط فقد يبدو أنه اتخذ لنفسه زوجة ثانية حين أباح القانون تعدد الزوجات مدة قصيرة لكثرة من قتل في الحروب من الذكور (١٢٨) .

والعالم كله يعرف وجه سقراط وملاحه .. وإذا حكمنا عليه من تمثاله النصق المحفوظ في متحف ترمي Museo dell Terme برومة ، وذلك حكم لا يستند إلى

أساس قوى ، قلنا إنه إنه لم يكن أنموذجاً صادقاً للوجه اليونانى (١٢٩) . ذلك أن سعة وجهه ، وأنفه الأفطس العريض ، وشفتيه الغليظتين ، ولحيته الكثية ، كلها توحى بأنه ينتمى إلى أرض السهوب التى جاء منها أناكارسيس Anacharsis صديق صولون ، أو ذلك السكودى الحديث تولستوى . وقد كتب عنه ألقبيادس فى إصرار عجيب ، حتى فى الوقت الذى يجهر فيه بحبه يقول : « أقول إن سقراط يشبه كل الشبه أقنعة سيلينس ، التى يمكن رؤيتها فى حوانيت التماثيل ، وفى أفواهها مزامير وصفارات ، وتفتتح فى أوساطها فترى فى داخلها صور الآلهة . وأقول أيضاً إنه يشبه مارسياس Marsyas الكائن الخرافى الذى يتكون نصفه الأعلى من إنسان ونصفه الأسفل من ماعز (satyr) ، ولست أعتقد أنك يا سقراط تنكر أن وجهك هو وجه ذلك المخلوق الخرافى (١٣٠) » . ولم يعترض سقراط على هذا القول ، بل إنه فعل ما هو شر من هذا فقد اعترف بأن له كرشاً مفرطاً فى الكبر وأنه يرجو أن ينقصها بالرقص (١٣١) .

وينفق أفلاطون وأكسانوفون فى وصفهم عاداته وأخلاقه . من هذه أنه كان يقنع بثوب بسيط رث يلبسه طول السنة ، ويفضل الحفاء على الأحذية أو الأخفاف (١٣٢) . وقد تحرر إلى حد لا يصدق العقل من داء التملك الوهيل المصاب به الجنس البشرى ، ويقال إنه أبصر ذات مرة كثرة البضائع المعروضة للبيع فقال : « ما أكثر الأشياء التى لا أحتاجها (١٣٣) ! » وكان يشعر بأنه غنى فى فقره . وكان مضرب المثل فى الاعتدال وضبط النفس ، ولكنه ، كان أبعد الناس عن حياة القديسين . وكان فى وسعه أن يشرب كما يشرب أى رجل مهذب مثقف ، ولم يكن فى حاجة إلى الزهد لكى يحتفظ باستقامة خلقه (٥) . ولم يكن ناسكاً يعتزل الناس ، بل كان

(٥) يقول أكسانوفون لسان سقراط : « إذا سألتى من الغراب قلت لك إن الخمر ترطب النفس ، وتسكن الأحزان ... ولكنى أظن أن أجسام الناس كأجسام النبات ... وأن الله إذا نحر النبات بالماء ليرتوى منه لم يقرر على الوقوف متديلاً ، ولم يمكن اللبث من =

يجب الرفقة الطيبة ، وكان لا يأتى أن يدعى إلى ولائم الأغنياء من حين إلى حين ، ولكنه لم يخضع لهم أو ينحنى امتثالاً لأمرهم ، وكان في وسعه أن يعيش أحسن العيش دون معونتهم ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك وولاتهم (١٣٥) . وجملة القول أنه كان رجلاً محظوظاً يعيش من غير كد ، ويقراً من غير أن يكتب ، ويعلم من غير أن يلتزم خطة رتيبة ، ويشرب دون أن يدور رأسه ، ثم يموت قبل أن يدركه وهن الشيخوخة ، وكان موته بلا ألم .

وكانت أخلاقه أحسن الأخلاق الملائمة لعصره ، ولكنها أخلاق يصنع أن يرضى بها كل الرجال الصالحين الذين يشنون عليه . فقد « سرت نار » الحب في جسمه حين رأى كرميدس Charmides ، ولكنه ضبط عواطفه بأن سأل نفسه هل لهذا الفتى هو الآخر « نفس نبيلة » (١٣٦) ؟ . ويصف أفلاطون سقراط والقيادس بأنهما عاشقان ، ويقول عن الفيلسوف إنه « يطارد الفتى الوسيم » (١٣٧) ؛ والشيخ وإن كان يبدو أنه قد جعل حبه في الغالب حباً أفلاطونياً ، لم يستنكف أن يقدم النصيح للاطنين والسراى عن خير الوسائل لاصطياد المحبين . وقد دفعته شهامته إلى أن يعد الخطية ثودورا بمعونته ، وقد جازته على هذه المعونة بدعوتها إياه أن « يتردد عليها ليزورها » (١٣٨) . ولم تكن تفارقه دعايته ورقة حاشيته ، ومن أجل هذا فإن الذين يطبقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يحتملوا أخلاقه . ولما قضى نحبه قال عنه أكسانوفون إنه بلغ من إنصافه أنه لم ينظلم إنساناً حتى في أنه الأمور . . . ، وبلغ من عدالته أنه لم يفضل في وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ؛ وبلغ من حكمته أنه لم يخطئ قط في تمييز الخبيث من الطيب ؛ ومن قدرته على تبيين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة

— أن يصرى في خلالة ، ولكنه إذا لم يشرب إلا بالقدر الذى يكفيه لأن يستمتع به نما واستوى حل سوته وأمر أكل الثمار وآوفا .

والشرف أن بدا أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسلمهم (١٤٠) : وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى نفسه ببساطة خلاصة فقال إنه « كان بحق أعقل ، وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس في حياتي كلها » (١٤١) .

٢ - صورة ذبابة الخيل

وإذا كان سقراط طلبة محباً للجدل فقد عمد إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسوفسطائيين الذين غزوا أثينة في أيام شبابه . وليس لدينا شاهد على أن أفلاطون قد اخترع نبأ التقاء سقراط ببارمنيدس ، وپروتاغوراس ، وغورغياس ، وپروديكس ، وهيبياس ، وثرامكس ، وما دار في لقائه بهم من الأحاديث ؛ وليس يبعد أيضاً أن يكون قد رأى زينون حين وفد هذا إلى أثينة حوالي عام ٤٥٠ ق . م وأنه تأثر بجذله تأثراً لم يفوقه طول حياته (١٤٢) . وأكبر الظن أنه عرف أنكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركلوس الملطي تلميذ أنكساغورس كان في وقت ما معلّم سقراط . وقد بدأ أركلوس هذا حياته العلمية عالماً في الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذي حول سقراط من الطبيعة إلى علم الأخلاق . ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، ومدّ تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير في حديثي كل يوم عن الفضيلة ، وفحصي عن نفسي وعن غيري ، لأن الحياة التي لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » (*) . وهكذا أخذ يطوف بمعتقدات الناس ، يمزجهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات دقيقة شديدة وآراء منسقة غير متناقضة ، ويلقى الرعب في قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحاً ، وحتى في الجحيم نفسه يعرض أن يكون مشاء طلبة

« يعرف مَنْ من الناس حكيم ومن منهم يدعى الحكمة وهو من غير أهلها » (١٤٤) ، وقد حمى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم إياه بمثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً . . وأنه يعلم الأسئلة جميعاً ولكنه لا يعلم شيئاً من أجوبتها ؛ وقال عن نفسه متواضعاً إنه من « هواة الفلسفة » (١٤٥) . ولعل الذى يقصده بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شيء غير تعرض الإنسان للخطأ ، وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادئ المقررة الجامدة : ولما أن أجاب مهبط الوحي فى دلتى جوابه المزعوم عن سؤال كريفون Chaerephon المزعوم : « هل فى الناس من هو أعقل من سقراط » وهو : « لا أحد » (١٤٦) ، عزا سقراط هذا الجواب إلى اعترافه هو بجهله ، وشرع من تلك اللحظة يقوم بذلك الواجب العملى واجب الحصول على أفكار واضحة ، وقال عن نفسه : « إنه سيتحدث عن حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعاقل وغير العاقل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وعما يعد شجاعة وما يعد جبناً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس ، وعن صفات الرجل البارِع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى . . . يرى أن من يجهلونهم يعدون بحق طبقة العبيد » (١٤٧) . وكان إذا صادف فكرة غامضة . أو تعمية هينة غير قائم على الحقائق ، أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ؛ تحدى محدثه بقوله : « ما هو ؟ » ثم سأله أن يحدد ما يقول تحديداً دقيقاً . وأصبح من عادته أن يصحو مبكراً ؛ ويلهث إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصنائع ، ويأخذ فى مجادلة أى إنسان يتوسم فيه الذكاء الحافظ أو الغباء المسلى ، وكان يسأل : « ألم يعمل الطريق إلى أثينة لكى يتحدث الناس فيه » (١٤٨) ، وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد : كان يطلب إلى من محدثه أن يعرف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف

في العادة عما فيه من نقص ، و تناقض ، أو ضعف وبطلان ؛ ثم يستلزم
عدته بأسئلته المتعاقبة إلى تعريف أتم وأصح لا يقوله هو أبداً . وكان ينتقل
أحياناً إلى فكرة عامة أو عرض فكرة أخرى جديدة يبحث سلسلة طويلة
من الحالات المفردة الخاصة مكتته من أن يدخل قدرأ من طريقة الاستقراء
في المنطق اليوناني ؛ وكان في بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطي
المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التي تترتب على التعريف أو الرأي
الذي يريد أن يهدمه . وكان مولعاً بالتفكير المنظم خوفاً به ، يجب أن يصنف
الأشياء المفردة حسب جنسها ، ونوعها ، وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك
مهد السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس في التعريف ، وإلى نظرية أفلاطون
في الأفكار . وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأثار
دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التي قدر عليها ألا يطول أجلها في تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيبون عليه أنه يهدم ولا يبني ، وأنه يرفض كل
جواب ولا يجب هو بشيء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل
التفكير ، وأنه في كثير من الحالات ترك الفكرة التي أراد أن يوضحها وهي
أكثر غموضاً من ذي قبل . وكان إذا حاول شخص حازم مثل أفريتياس
Critias أن يسأله حول جوابه إلى سؤال آخر فأصبحت له من فوره ميزة
على سائله . نعم إنا نراه في البروتاغوراس يعرض أن يجيب عن الأسئلة لأن
يسأل ؛ ولكن هذه النية الطيبة لا تدوم إلا للحظة قصيرة ، وعندئذ ينسحب
بروتاغوراس ، وهو الذي تدرس في المنطق من زمن طويل ، من ميدان
الجدل بهدوء^(١٢٩) . ويستشيط هيبياس غضباً من تلمص سقراط وهروبه من
الإجابة عما يوجه إليه من أسئلة ، ويرفع عقيرته بقوله : « قسما يزيوس
إنك لن تسمع (جوابي) حتى تعلن أنت ما ترى أنه العدالة ؛ لأنه لا يكفي
أن تسخر من الناس ، وأن تسأل كل إنسان وتربكه ، ثم تأتي أن تفصح

عن سبب لآى لإنسان ، أو أن تعلن عن رأيك فى موضوع ما (١٠٥) . وقد أجب سقراط عن هذا التقرير وأمثاله بقوله إنه ليس إلا قابلة كأمه ، « إن اللوم الذى يوجه إلى كثير ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن ليس لدى من العقل ما أستطيع به أن أجيب عنها ، لوم عادل لا اعتراض لى عليه ، وسيبه أن الله أرغمنى على أن أكون قابلة ، ونهاني عن أن ألد (١٠٦) » ، وذلك لعمري هروب واضح ما أخلفه بصديقه يوربديز .

وهو يشبه السوفسطائيين من وجوه كثيرة ، ولم يكن الاتينيون يترددون فى أن يطلقوا عليه هذا الاسم ، على أنهم لم يكونوا يقصدون بهذا أن يعيبوه أو ينقصوا من قدره (١٠٦) . والحق أنه كان سوفسطائيا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ أى أنه كان بارعاً فى المراوغات الماكرة ، والحيل الجدلية ، بيدل بحال الألفاظ أو معانيها بحذق ودهاء ، ويغرق المسألة التى يجادل فيها بالتشبيهات والاستعارات المفككة ، ويماحك ويغالط كما يغالط صبيان المدارس ، ويحارب بالألفاظ محرب الأبطال ولكن إلى غير غاية (١٠٧) . وقد عفو الإنسان عن جرعه السم لأننا لا نرى أن ثمة آفة شرا من المنطقى العارف بقوة منطقته . وكان يختلف عن السوفسطائيين فى أربعة أمور : كان يكره البلاغة ، وكان يرغب فى تقوية الأخلاق ، ولم يكن يدعى أنه يعلم أكثر من فن بحث الأفكار ، وكان يأبى أن يأخذ أجراً على تعليمه — وإن كان يبلو أنه قبل فى بعض الأحيان عوناً من بعض الأغنياء من أصدقائه (١٠٨) . وكان تلاميذه يحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضايقهم ، وقد قال مرة لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنيل الشرف والفضيلة ، لأن كلامنا يميل إلى حب صاحبه ، وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلونى هم حبهم من كل قلوبهم ، يسوءنى غيابهم عنى كما يسوءهم غيابى عنهم ، وأتوق لصحبته كما يتوقون لصحبتى (١٠٩) » .

ويمثل أرسطوفان في رواية السحب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة ذات مكان معين يجتمعون فيه ؛ وفي أكسانوفون فقرة تؤيد هذه الفكرة بعض التأييد (١٥٦) ؛ ولكنه يصور لنا عادة بأنه يعلم في أى مكان يجده فيه من يعلمه ، أو من يستمع إليه ؛ غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ خاصاً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بلغ من شدته أن أصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافاً في بلاد اليونان - الأفلاطونية ، والكلبية ، والرواقية والأبيقورية ، والتشككية . فكان منهم انتسان Antisthenes الفخور الدليل الذى أخذ عن أستاذه مبدأ البساطة في الحياة وحاجاتها ؛ وأسس المدرسة الكلبية . ولعله كان حاضراً حين قال سقراط لأنثيفون : « يبدو أنك تظن أن السعادة في الترف والإسراف ؛ أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن في حاجة إلى شيء كنت شبيهاً بالآلهة ، وأنتك إذا أقللت من حاجاتك قلدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة (١٥٧) » . وكان منهم أيضاً أرسطوبس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « في اللذة خيراً » العقيدة التى نشرها بعدئذ في قوريني Cyrene والتى دعا إليها أبيقور أثينة فيما بعد . ومنهم إقليدس الميغارى الذى جعل من الجدلية السقراطية تشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حقة . وكان منهم الشاب فيدون الذى كان قد انحط إلى طبقة العبيد ثم افتداه قريطون Crito بإيعاز سقراط ، وأحب سقراط هذا الشاب و « جعله فيلسوفاً » . وكان منهم أكسانوفون القلق المضطرب الذى تمحل عن الفلسفة ليكون جندياً ، ولكنه أثبت أن « لا شيء أعظم نفعا من محبة سقراط ، والتحدث إليه في أية مناسبة وفي أى موضوع مهما يكن شأنه (١٥٩) » . ومنهم أفلاطون الذى تأثر بخياله القوى بالفيلسوف الحكيم تأثراً لم يفارقه طول حياته حتى امتزج العقلان وصارا في تاريخ الفلسفة عقلاً واحداً . ومنهم أقريطون الثرى ، « الذى كان يهيم حباً بسقراط » ، والذى كان يحرص أشد الحرص على ألا يكون الفيلسوف الكبير في حاجة إلى

شيء ما^(١٦٠) . وكان منهم الشاب ألقبيادس المتهور الجريء الذى أساء بعدم وقائه إلى معلمه ، وعرضه للأخطار فى مستقبل الأيام ، ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه يجب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم ، والذى يقول فيه :

« إنا إذا سمعنا متحدثاً غيرك ، وإن كان من أحسن الناس حديثاً ، لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك ؛ أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ، ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون ، أما هذه التفت فلإنها تخلب الألباب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها . . . ولإنى لأعرف أنى إذا لم أصم أذى عن سماع أقواله وأفر من صوته الذى يسلب العقل للازمته حتى بلغ سن الشيخوخة وبقيت جالسا تحت قدميه . . . ولقد أحسست فى نفسى أو قلبى . . . بذلك الألم الشديد الذى هو أشد لإيلاما لنفس الشاب الشريف من أنياب الأفاعى ألا وهو ألم الفلسفة . . وأنت يا فيدروس وأنت يا أغاثون ، وأنت يا إركسماكوس ، وأنت يا بوزنياس ، وأنت يا أرسطوديمس وأنت يا أرسطوفان ، أنتم كلكم ، ولا حاجة لى بأن أضم إليكم سقراط نفسه ، قد طافت بكم هذه التجربة نفسها وشغفتم بالفلسفة شغفى أنا بها^(١٦١) .

وكان منهم الزعيم الأبحركى كرتياس الذى يستمتع بتهكم سقراط على الديمقراطية والذى كانت له يد فى إدانته بأن كتب مسرحية وصف فيها الآلهة بأنها من ابتداع مهرة الصنائع الذين يستخدمونها كما يستخدم خفراء الليل ليرهبوا بها الناس ويرغموهم على حسن الأدب^(١٦٢) . وكان منهم أيضاً ابن الزعيم الديمقراطى أنيتوس Anytus وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط عن العناية بعمله وهو الانجارجى الجلود . وشكا أنيتوس من أن سقراط قد أفسد عقل الغلام بما بث فيه من تشكك ، فلم يعد يبجل أبويه أو يعظم الآلهة ؛

هذا إلى أن أنيتوس كان يشتمز من نقد سقراط للديمقراطية(*) (١٦٣) ويقول :
« أى سقراط ! إني أظنك مفرطاً في استمدادك لأن تتحدث بالشر عن
الناس ، فإذا قبلت نصحي أشرت عليك أن تصطنع الحذر ؛ ولعله لا توجد
قط مدينة ليس لإيذاء الناس فيها أيسر من عمل الخير لهم ؛ وتلك بلا شك حال
أثينة نفسها (١٦٤) » وأخذ أنيتوس يتربص به الدوائر .

٣ - فلسفة سقراط

وكان من وراء هذه الطريقة فلسفة مراوغة ، تجريدية ، تجري على غير
نظام ، ولكنها فلسفة بلغ من جديتها وحقيقتها أن مات الرجل في واقع الأمر
من أجلها . وقد يبدو لأول وهلة أن ليست هناك فلسفة سقراطية ، ولكن
أكبر السبب في هذا أن سقراط قبل نزعة بروتاغوراس النسبية فرفض النزعة
التحكمية ولم يكن واثقاً إلا من جهله .

وقد حكم على سقراط لأنه لا يؤمن بالدين ، ولكنه مع هذا كان يعبد
آلهة المدينة بلسانه إن لم يعبدها بقلبه ، ويشترك في احتفالاتها الدينية ،
ولم يعرف عنه أنه نطق مرة بكلمة تدل على عدم تقواه (١٦٦) . وكان
يعترف بأنه يتبع في جميع قراراته الهامة السلبية روحاً Diamonion داخلياً
كان يصفه بأنه إشارة من السماء ، ومن يندى فلعل هذا الروح كان هو
الآخر سخريه من سخريات سقراط وتهكماته ؛ فإن كان كذلك فإن سقراط
لم يكن ينفك يؤكد دعواه هذه تأكيداً عجيباً ، ولم تكن هذه الدعوى
إلا مثلاً من أمثلة عدة لالتجاء سقراط إلى النبوءات والأحلام وقوله إنها
وحي من عند الآلهة (١٦٧) . وكان يقول إن في الكون من الأمثلة الدالة على
التناسق المدهش العجيب ، ومن الخطوة الواضحة المرسومة ، ما لا يصح معه

(*) ولعل أنيتوس ، كما يذكر لنا فلاوطرخس وأثيليوس ، كان يمشق القيادس ولكن
القيادس لم يبادل له الحب وفضل عليه سقراط (١٦٤) .

أن يعزى وجود العالم إلى الصدفة المحضة أو إلى أية علة غير عاقلة ، أما الخلود فلم يكن واثقا منه مثل هذه الثقة أو قاطعا في أمره هذا القطع ؛ فهو يستمسك به ويدافع عنه في الفيديون Phaedo أما في الأبولوجيا Apology فهو يقول : « إذا جاز لي أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أنى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا في واقع الأمر لا أعلم لى بها على الإطلاق » (١٦٨) . ويطبق هذه النزعة اللاأدرية نفسها على الآلهة في كتابه الكراتلس فيقول : « أما الآلهة فلسنا نعرف عنها شيئا » (١٦٩) . وكان ينصح أتباعه بالألا يجادلوا في مثل هذه الأمور ، يسألهم كما يسأل كنفوشيوس أتباعه هل عرفوا شئون البشر حتى المعرفة فأصبحوا بعدئذ على استعداد لأن يتدخلوا في شئون السماء (١٧٠) ؟ وكان يحس أن خير ما نفعله في هذه الناحية أن نقر بجهلنا ، وأن نطيع في الوقت نفسه وحى دلتى حين سئل كيف يعبد الإنسان الآلهة فأجاب : « حسب قانون بلادكم » (١٧١) .

وكان يطبق هذا التشكك نفسه تطبيقاً أشد من هذا صراحة في العلوم الطبيعية فيقول إن من واجب الإنسان ألا يزيد في دراستها على القدر الذى يهتدى به في حياته ؛ أما فيما عدا هذا فإن هذه العلوم يبدأ بضل فيها العقل ، يكشف كل لغز غامض فيها حين يحل عن لغز آخر أشد منه غموضاً (١٧٢) . وكان في شبابه قد درس العلوم الطبيعية مع أركلوس Archelaus ، فلما كبر ونضج عقله تركها وهو يعتقد أنها أسطورة خداعة إلى حد ما ، ولم يعد يهتم بالحقائق أو بأصول الأشياء بل وجه اهتمامه إلى القيم والغايات . وفى ذلك يقول أكسانوفون « إنه كان على اللوام يتحدث في البشرية » (١٧٣) . وكان السوفسطائيون أيضاً قد حولوا اهتمامهم من العلوم الطبيعية إلى الإنسان ، وبدعوا يدرسون الإحساس ، والإدراك والمعرفة ، ولكن سقراط تعمق أكثر من هذا في داخل الإنسان وأخذ يدرس الأخلاق والأغراض البشرية : « قل لى يا يوثيديموس ،

هل ذهبت في حياتك إلى دلفي ؟ : وهل لاحظت ما هو مكتوب على جدار الميكل - أعرف نفسك ؟ ، نعم لاحظته . « وهل لم تفكر في هذه الكتابة ، أو هل عنيت بها ، وحاولت أن تفحص عن نفسك وتعرف عن يقين أخلاقك ؟ » (١٧٥) .

فلم تكن الفلسفة إذن عند سقراط هي الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسية ، مدخلها والوسيلة إليها المنطق ، وإذا كان قد عاش في ختام عصر السوفسطائيين فقد أدرك أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة في تاريخ أية ثقافة من الثقافات وتلك هي إضعاف أحد الأبنس التي تقوم عليها الأخلاق ونعني به خوارق الطبيعة . وبعد أن أدرك هذا لم يعد خائفاً مرتاعاً إلى الإيمان بالدين بل سلك السبيل إلى أعمق الأسئلة في علم الأخلاق : هل يستطيع وجود علم للأخلاق قائم على أساس من الطبيعة ؟ أى يمكن أن تنبئ الأخلاق من غير الاعتقاد بخوارق الطبيعة ؟ وهل في مقدور الفلسفة إذا صاغت قانوناً قوياً أخلاقياً دينوياً غير ديني أن تنقذ الحضارة التي تهددها حرمتها الفكرية بالانهار والزوال ؟ وحين يقول سقراط في الأوطيفرون أن ليس الخير خيراً لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، حين يقول هذا يعرض في واقع الأمر ثورة فلسفتي ولم تكن فكرته عن الخير فكرة دينية ، بل كانت فكرة دينوية إلى حد يجعلها نفعية . فهو يرى أن الصلاح ليس فكرة عامة مجردة ، ولكنها فكرة خاصة عملية فالصالح صالح لشيء ما ، والصلاح والجمال شكلان من أشكال المنفعة والفائدة البشرية ، وحتى البسلة من الروث تكون جملة إذا أحسن إعدادها للغرض الذي تؤديه (١٧٦) . وإذا لم يكن ثمة (في رأى سقراط) شيء غير المعرفة يعادها في نفعها ، فإن المعرفة هي أسمى الفضائل والذيلة جميعها هي الجهل (١٨٧) ، وإن كان المقصود بالفضيلة (arete) هنا هو التفوق لا البراعة من الذنوب . والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة ، وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه ،

والناس لا يفعلون قط ما يعرفون أنه خطأ — أى مضاد للعقل ، ضار بهم .
وأسمى أنواع الخير والسعادة ، وخير سبيل للوصول إليها هى سبيل المعرفة
أو الدكاء .

ويقول سقراط إنه إذا كانت المعرفة هى أسمى الفضائل كانت الأرستقراطية
خير أشكال الحكم ، وكانت الديمقراطية مسخفاً وعبثاً . وفى ذلك يقول
أكسانوفون على لسان سقراط : « من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على
حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ
فى الناي ، أو أى صانع على الإطلاق ، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من
عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا » (١٧٩) . وهو يعيب على الأثينيين جهم
للتقاضى . ، وتحاسدهم الصاحب ، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السياسية ؛
ويقول ذلك : « ولهذه الأسباب ترائى على الدوام أخشى أشد خشية أن يحل
بالدولة شر تنوء به وتعجز عن تحمله » (١٨٠) . وكان يظن أن لا شىء ينجى
أثينة إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية ، وليست السبيل إلى هذا الحكم هى
الاقتراع ، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلاً لتقدير كفاية مرشد السفن
أو الموسيقى أو الطبيب أو النجار . كذلك يجب ألا يختار موظفو الدولة على
أساس جباههم أو ثرائهم ؛ ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن
شر الديمقراطية . والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرستقراطى الذى تقصر
فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم والذين يدربون على القيام بما
تطلبه من الواجبات (١٨١) . على أن سقراط كان يعترف بما للديمقراطية
الأثينية من مزايا رغم ما يوجهه إليها من نقد ، ويقدر ما أسدته إليه من
حريات وما أتاحت له من فرص . وكان يتسم ساخراً من ميل بعض أتباعه
للدعوة إلى « العودة إلى الطبيعة » ، وقد وقف من أنستانس ومن الكلبيين نفس
الموقف الذى وقفه فلتير من روسو فيما بعد — وهو أن الحضارة ، رغم عيوبها
الكثيرة ، كنز ثمين لا يصح أن تتخلى عنه لتستبدل به البساطة الأولية (١٨٢) .
ومع هذا كله فقد كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة الريبة والسخرية ؛ فأما

التمسكون منهم بالدين فقد كانوا يرونه أشد السوفسطائيين خطورة ؛ لأنه وإن راعى ما في الدين القديم من أسباب المتعة والمسرة ، رفض التقاليد المرعية ، وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعده إلى حكم العقل بعد تقص وفحص ، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خبر المجتمع أو أوامر الآئمة ؛ وانتهى به الأمر إلى تشكك ترك العقل في حال من الاضطراب زهت كيان كل عادة وكل عقيدة . وكان الذين يمجدون الأيام الخوالى أمثال أرسطوفان يعزون إليه كما يعزون إلى پروتاغوراس ويورپديز زعزعة أركان الدين ، وقلة احترام الصغار للكبار ، والانحلال الخلقي عند الطبقات المتعلمة ، وفوضى العزوبة التي كانت تقوض أركان الحياة الأثينية . ولقد كان الكثيرون من زعماء الحزب الأبركي من تلاميذ سقراط أو من أصدقائه ، وإن كان هو نفسه قد أبى أن يؤيد هذا الحزب ؛ ولما أن قام رجل منهم يدعى أفريتياس وقاد الأبركيين في ثورة بسطوا خلالها عهداً من الإرهاب الوحشي ، اتهم الديمقراطيون أمثال أنتوس ، وملائوس سقراط بأنه العقل المحرك للرجعية الأبركية ، وأجمعوا أمرهم على إبعاده عن مجرى الحياة الأثينية .

وأفلحوا فيما أجمعوا أمرهم عليه ، ولكنهم لم يفلحوا في القضاء على ما كان من نفوذ لا حد لقوته . ذلك أن الطريقة الجدلية التي تلقاها عن زينون انتقلت منه عن طريق أفلاطون إلى أرسطاطاليس فحوّلها هذا إلى نظام منطقي بلغ من الإكمال درجة استطاعت بها أن تبقى دون أن يطرأ عليها تغيير ما تسعة عشر قرناً كاملة . أما العلم فقد كان له فيه أثر صار ، ذلك أنه حول الطلاب من البحث في العلوم الطبيعية ، كما أن نظرية الغرض الخارجي لم تكن من العوامل المشجعة للتحليل العلمي . وربما كان لزعزعة سقراط الفردية والذهنية في علم الأخلاق بعض الأثر فيما أصاب الأخلاق في أثينة من انحلال ، ولكن رفعها من شأن الضمير ، وقولها إنه أعلى من القانون ، أصبحت من العقائد الجوهرية في الديانة المسيحية . وقد انتقل الكثير

من آرائه على أيدي تلاميذه فأصبح مادة جميع الفلسفة الكبرى في القرنين
التالين . وكان أقوى أسباب نفوذه هو المثل الذي ضربه للناس بحياته
وأخلاقه ، فقد أضحى في التاريخ اليوناني شهيداً وقديساً ؛ حتى لقد كان
كل جيل يبحث عن مثل أحلى للحياة البسيطة والتفكير الجريء يعود إلى
الماضي ليستمد من ذكرى سقراط غذاء لمثله العليا ، وفي ذلك يقول
أكسانوفون : « كلما فكرت في حكمة الرجل ونبل أخلاقه رأيت أن ليس
في مقدوري أن أنساه أبداً . أو أن أحاجز نفسي عن الثناء عليه حين أذكره ؛
وإذا كان من بين أولئك الذين جعلوا الفضيلة غايتهم إنسان قد اتصل بشخص
أكثر معونة له في هذا الغرض النبيل من سقراط ، فيأني أرى أن هذا الرجل
خلقي بأن يعد أسعد الناس على الإطلاق » (١٨٣) .

الباب السابع عشر

أدب العصر الذهبي

الفصل الأول

بندار

إن فلسفة عصر من العصور تصبح في الأحوال العادية أدب العصر الذي يليه ؛ ذلك أن الآراء والمسائل التي يتجادل فيها الناس في ميدان البحث والتفكير تكون في الجيل التالي أساس مسرحياته وقصصه وشعره . لكن الأدب في بلاد اليونان لم يتأخر عن ركب الفلسفة ، لأن الشعراء كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، يفكرون لأنفسهم ؛ وكانوا في مقدمة أرباب العقل والتفكير في أزمانهم . ولذلك فإن النزاع الذي قام بين التحفظ والتطرف والذي اضطرب به دين اليونان وعلومهم وفلسفتهم قد تردد صدهاء أيضاً في الشعر والتمثيل بل وفي كتابة التاريخ نفسه . ولذا كانت براعة الصورة الفنية قد اجتمعت في الأدب اليوناني إلى عمق التفكير ، فقد وصل أدب العصر الذهبي إلى درجة من الرقي لم يصل إليها الأدب في العالم كله مرة أخرى إلا في عصر شيكسبير وميتاني .

ويسبب هذا العبء الثقيل من الأفكار والعدم وجود طبقة من الملوك أو الأشراف يناصرون الأدب ويشجعون الأدباء ، كان القرن الخامس أقل غناء من السادس في الشعر الغنائي بوصفه فناً مستقلاً . وكان بندار أداة الانتقال بين العصرين ، فقد ورث الصيغة الغنائية من العصر الذي قبله ولكنه ملأها

بالفخامة المسرحية ، ولم يلبث الشعر من بعده أن تخطى حدوده التقليدية وجمع في المسرحيات الديونيشية بين الدين ، والموسيقى ، والرقص لكي يصبح أداة أعظم من الأدوات السابقة للتعبير عن فخامة العصر الذهبي وعواطفه الجياشة .

وكان بندار ينتمى إلى أسرة طيبة تعود بأصلها إلى أبعد العصور البدائية ، وتدعى أنها تضم الكثيرين من الأبطال القدامى الذين خلد ذكرهم في شعره . وقد أورثه 'عمه' ، وهو موسيقى يجيد النفخ في الناي ، كثيراً من حب الموسيقى ، وشيئاً من براعته فيها ، وأرسله أبوه إلى أثينة ليستزيد من هذا الفن ، وفيها علمه لاسوس Lasus ، وأجثكليز Agathocles تأليفه الغنائية الجماعية . ثم عاد إلى طيبة قبل أن يتم العقد الثاني من عمره أى قبل عام ٥٠٢ ق ، م ، وأخذ يدرس مع الشاعرة كورنا Corinna . وقد تبارى معها خمس مرات في الغناء أمام الجماهير ونغلبت عليه في المرات الخمس . ولكن كورنا كانت جميلة تسر الناظرين ، والمحكين كانوا رجالاً^(١) . وكان بندار يسميها خنزيرة ، ويسمى سمندس غراباً ، ويسمى نفسه نسرأ . لكن شهرته رغم عيبه هذا قد ازدادت إلى حد جعل أبناء بلده يتحترعون قصة يقولون فيها إنه بينما كان الشاعر نائماً في الحقل يوماً إذ حطت بضع نحلات على شفثيه وخطفت عليهما شهداهما^(٢) . ولم يلبث أن كلف بإنشاء قصائد ، يكافأ عليها بسخاء ، في مدح الأمراء والأثرياء ، واستضافته الأسر النبيلة في رودس ، وتندوس ، وكورنثة ، وأثينة ، وأقام وقتاً ما في بلاط الإسكندر الأول المقدوني ، وتبرون الأكرغاسى ، وهيرون الأول ملك سرقوصة ، وكان فيها كلها شاعر هؤلاء الملوك . وكان عادة يؤجر على أغانيه مقدماً ، كما لو أن مدينة في أيامنا هذه قد كلقت مؤلفاً موسيقياً أن يكرمها بتأليف قطعة غنائية تنشدها لإحدى الفرق ويرقص على أنغامها الراقصون ، ويتولى هو تنظيم الغناء والرقص . ولما أن عاد بندار إلى طيبة حوالى السنة الرابعة والأربعين من عمره ، حيته المدينة وعدته أعظم هدبة أهلتها بوثوية إلى بلاد اليونان .

وأخذ يعمل بجد في تلحين كل قصيدة من قصائده ، وكثيراً ما كان يدرب المغنين على غنائها . وكتب ترانيم وأناشيد نصر للآلهة ، وأغاني خيرية تنغى في أعياد ديونيشس ، وأناشيد للعدراى تغنيها الفتيات ، ومدىحا للمشهورين من العظماء ، وأغاني للموائد ، ومرثى للجناثر ، وأغاني للنصر ينشدتها الفائزون في المباريات الأثينية الجامعة . ولم يبق من هذه كلها إلا خمس وأربعون أغنية سميت باسم الألعاب التي تنغى بمدىح أبطالها . وليس لدينا من هذه الأغاني الخمس والأربعين إلا ألفاظها ، أما موسيقاها فلم يبق منها أثر . ونحن إذا شئنا أن نحكم عليها كنا في وضع شبيه بوضع مؤرخ في مستقبل الزمان لديه نصوص مسرحيات فجر التلحينية وليس لديه شيء من موسيقاها فحكم بأن فجر هذا شاعر وليس مؤلفاً موسيقياً ، ثم قلده مستنداً إلى الألفاظ التي كانت في وقت ما تصاحب ألقانه . أو كان عالماً صينياً لا يعرف شيئاً عن القصص المسيحية يقرأ ذات مساء في ترجمة عرجاء عشر ترانيل من وصيع باخ Bach نزعَتْ عنها موسيقاها ومراسمها الدينية . على هذا النمط يكون حكماً على پندار من آثاره ، فنحن إذا قرأنا أغانيه اليوم ، أغنية بعد أغنية في سكون حجرة المكتب حكمنا أنه لا يماثلها شعر آخر في عصر اليونان الذهبي في بحث السامة والكآبة .

وليس في وسعنا أن نشرح تكوين هذه القصائد إلا بتشبيه كل منها بقطعة موسيقية ، فلقد كان پندار يرى ما يراه سميندس وبكيلدس Bacchylites وهو أن القالب الذي تصب فيه أغنية النصر قالب محتوم لا مفر منه شأنه في هذا شأن النغم الموسيقي الذي يوضع لمغن واحد ولآلة موسيقية واحدة في الأغاني الأوربية الحديثة . وكان يبدأ أولاً بإيراد موضوع الأغنية — وهو اسم اللاعب الذي نال الجائزة وقصته ، أو اسم الشريف الذي فازت بجياده في مباراة جر العربات . ويشيد پندار في العادة « بحكمة الإنسان ، وجماله ، واتساع شهرته »^(١) . فهو في واقع الأمر لم يكن يهتم كثيراً بالموضوع الأصلي

الذى يعرض له ؛ بل كان يتغنى بمدح العدائين والمهاضي والملوك ؛ ولم يكن يتردد في الرضاء بأن يتخذ أى طاغية يهبه المال مسرعاً نصيراً له وقديساً^(٥) إذا ما أعانه على ذلك خياله الخصب وشعره المعقد الذى كان موضعاً لزهوه . ولم يكن يستنكف أن يتخذ أى شيء موضوعاً لقصائده سواء كان سباق البغال أو مجد الحضارة اليونانية على اختلاف أنواعها وفي كل مكان انتشرت فيه . وكان وفيّاً لطيبه ، ولم يكن أكثر إلهاً وتوفيقاً من وحى دلتى حين دافع عن حياده في الحرب الفارسية ؛ ثم استحى فيما بعد من غلظته هذه ، وخرج عن مألوف عادته ، وأثنى على زعيمة الدفاع اليونانى ووصفها بأنها « أثينة الدائمة الصيت ، الغنية ، المتوجة بالنفوس ، الجديرة بأن يتغنى بمدحها الشعراء ، حصن هلاس الحصين ، والمدينة التى تحمى الآلهة^(٦) » . ويقال إن الأثينيين وهبوه خمسة آلاف درخمة (١٠,٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على القصيدة التى وردت فيها هذه الأبيات^(٧) ؛ وتقول رواية أخرى أقل جدارة بالثقة من هذه إن طيبة فرضت عليه غرامة جزاء له على ما فيها من تعنيف خفى ، وإن أثينة أدت عنه هذه الغرامة^(٨) .

والجزء الثانى من أغاني پندار يتكون من مختارات من الأساطير اليونانية وفى هذا أسرف پندار إسرافاً لا يشجع الإنسان على متابعة قراءته . وقد شكّا من ذلك كورنا Corinna فقال إنه : « كان يَبْدُرُ بالزكية لا باليد^(٩) » . وقد كانت للآلهة عنده مكانة عالية ، فكان يعظمها ويستمد منها معظم موضوعاته . وكان الشاعر المحبب لكهنة دلتى ، وقد حصل منهم فى حياته على مزايا كثيرة ولمسا مات كرمته روحه بأن دعيت إلى أن تنال نصيبها من باكورة الفاكهة التى تقدم فى ضريح أبولو^(١٠) . وكان آخر من دافع عن الدين القويم ، وإن إسكلس على تقواه ، ليبدو إذاً قورن به رجلاً زنديقاً . ولو أن پندار اطلع على قصيدة پروميتيوس المحرور ورأى ما فيها من تجديف فى حق الآلهة لروعه هذا أشد الترويع . وهو يسمو أحياناً فى فكرته عن زيوس إلى ما يقرب من التوحيد كقوليه فيه :

المسيطر على كل شيء والمطلع على كل شيء^(١١) . وهو يؤمن بالطقوس الغامضة الخفية ويرجو كما يرجو أورفيوس أن يكون مقره الجنة . وينادى بأن الروح البشرية من أصل إلهي وأن مآلها إلهي^(١٢) . وقد وصف يوم الحساب ، والجنة ، والنار وصفاً يعد من أقدم أوصافها فقال : « وبعد الموت مباشرة تعاقب الروح الخارجة على القانون ، وينظر في الخطايا التي ارتكبت في مملكة زيوس واحد^١ يصدفها أحكامه الصارمة التي لا تنقض » .

وفي ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون لا فرق بين أيامهم ولياليهم في بهجتها وبهائها ، ولا يفعلون ما كانوا يفعلونه في الأيام الخالية ، يكدحون كدحاً كنوداً في حرث الأرض وإثارتها ليحصلوا على حاجاتهم الباطلة ؛ أو يخضون بسفنهم عباب البحار بل يقيمون في نعيم دائم مع الآلهة العظام ويقضون معهم حياة خالية من الأحزان ، يستمتعون فيها بسرور جزاء لهم على ما حفظوا من عهدهم وهم على ظهر الأرض . وعلى بعد منهم نرى فريقاً آخر يقاسون ألوان العذاب ويقعون في دياجير مظلمة لا ينفذ فيها البصر^(١٣) .

وكان القسم الثالث والأخير في أغاني پندار يتألف عادة من نصيحة خلقية . وليس من حقنا أن ننظر منه في هذا القسم فلسفة عميقة ؛ وذلك أن پندار لم يكن من أبناء أثينة . وأكبر الظن أنه لم يلق في حياته سوفسطائياً ، ولم يقرأ لأحد من سوفسطائيين شيئاً ، بل كان يوجه قواه العقلية بأجمعها إلى فنه ، فلم تبق لديه قدرة على التفكير المبكر الأصيل ؛ وكان يكتفى بأن يستحث الرياضيين الفائزين ، أو الأمراء الحاكين ، على أن يكونوا متواضعين يجلون الآلهة ، ويوقرون بني جنسهم ، ويحترمون أنفسهم . وكان ما بين الحين والحين يمزج اللوم بالمديح ، وبلغ من الجرأة أن حذر هيرن Hieron ذات مرة عاقبة الشره^(١٤) . ولكنه لم يجاز نفسه عن أن يقول كلمة طيبة في حق المال أحبب الطيبات كلها وأحبها إلى قلوب الناس وكان يمقت الثورين الصقليين ، وقد حذرهم من عاقبة أمرهم بالفاظ

لا تكاد تختلف عن ألفاظ كنفوشيوس : « إن من أسهل الأشياء حتى على الضعفاء أن يقوضوا مدينة من أساسها ، أما إعادتها إلى مكانها بعد تدميرها فتتطلب جهوداً مضنية وكفاحاً مريراً ^(١٥) » . وكان يجب في أثينة ديمقراطيتها المعتدلة بعد سلاميس ، ولكنه كان يعتقد مخلصاً أن الأرستقراطية أقل أنواع الحكم ضرراً . ذلك بأنه كان يرى أن الكفاية متأصلة في الدم ، لا تكتسب بالتعليم ، وتنزع إلى الظهور في الأسر التي ظهرت فيها من قبل . والدم الطيب وحده هو الذى يهيئ الخلق إلى القيام بالأعمال النادرة التي يجعل الحياة الكريمة جديرة بأن يحياها الإنسان . « ما أقصر الحياة ! أى شيء نكونه وأى شيء لا نكونه ؟ الإنسان حلم يحوم حول خيال ، أما إذا نزل عليه بهاء من قبل أحد الأرباب فإن هالة من المجد تحيط به وتصبح حياته حلوة ممتعة ^(١٦) » .

ولم يكن يندار محبباً إلى الجماهير في أثناء حياته ، وسيظل بضعة قرون يستمتع بما يستمتع به من خلود لا حياة فيه أولئك الكتاب الذين يشيد الناس كلهم بذكورهم ، ولا يقرأ أحد كتابتهم . لقد كان يطلب إلى العالم أن يقف عن الحركة في الوقت الذى كان يتحرك فيه إلى الأمام ، ومن أجل هذا خلفه العالم ورائه ، حتى ليبدو أكبر سناً من المكان وإن كان أصغر من إسكس . وقد كتب شعراً متقناً محبوباً ، معقداً ملتوياً ، لا يقل في هذه الصفات كلها عن نثر تاستوس Tacitus ، وكتبه بلهجة له خاصة مصطنعة تعتمد أن يجعلها كلغة الأقدمين ، وبأوزان متقنة دقيقة إلى درجة لم يعن معها أحد الشعراء بأن يحلو حذوه ^(*) ، ومتنوعة تنوعاً لا نجد معه إلا أغنيتين اثنتين من بين أغانيه الأربع والخمسين ذواتي وزن واحد . وشعره غامض المعنى رغم سداجة تفكيره ، وقد بلغ هذا الغموض حداً يضطر معه النحاة إلى قضاء حياتهم كلها يحاولون حل تراكييه

(*) ويستثنى من هذا التعميم شاعر عظيم هو دريدن Dryden في قصودته وليلة الإسكندر . Alexander's Fe

الشبهة بتركيب اللغات التيوتونية ، ثم لا يجدون بعد هذا العناء إلا عبارات طنانة جوفاء . وإذا كان بعض الطلبة من العلماء لا يزالون يقبلون على قراءة شعره رغم هذه العيوب ، ورغم بخوده وتمسكه الشديد بالشكليات واصطناعه التشبيهات المتسخة ، وإثقال هذا الشعر بالأساطير المملة ، إذا كان بعضهم لا يزالون يقبلون على قراءته رغم هذا كله فما ذلك إلا لما فيه من قصص واضحة تتابع حوادثه سراعاً ، وإخلاصه في مبادئه الأخلاقية ، ولروعة لغته التي ترفع أتفه الموضوعات إلى سماء العظمة ، وإن كانت لا تحفظ مكانها فيها إلا زمناً قصيراً .

وعاش بندار حتى بلغ الثمانين من العمر ، متحصناً في طيبة من اضطراب التفكير الأثيني ، وقد تغنى بذلك في شعره فقال : « ما أحب موطن الإنسان إلى قلبه ، وما أعزز فاقه ، وأقاربه ، يعيش بينهم قانعا راضياً ، أما الحمقى فيحبون الأشياء الفاتنة ^(١٧) » . ويقال إنه قبل أن ينصرم أجله بعشرة أيام (٤٤٢) أرسل إلى مهبط وحي أمون يسأله : « ما أحسن الأشياء للإنسان ؟ » فكان جواب الوحي في مصر كجواب الوحي في بلاد اليونان « الموت ^(١٨) » . وأقامت أثينة تمثالاً له أنفقت عليه من الأموال العامة ، ونقش أهل رودس أغنيته الأولمية السابعة — التي يمدح فيها جزيرتهم — بحروف من ذهب على جدار هيكل من هياكل الجزيرة . ولما أن أمر الإسكندر الأكبر بإحراق طيبة النائرة ودك أبنيتها في عام ٣٣٥ ، حذر جنوده أن يمسوا بسوء البيت الذي عاش فيه بندار ولقي فيه ربه .

الفصل الثانى

ملهى ديونيشس

ورد فى معجم سويداس The Lexicon of Suidas أنه حدث فى أثناء تمثيل مسرحية من تأليف پراتيناس Pratinas حوالى ٥٠٠ ق . م أن سقطت المقاعد الخشبية التى كان النظارة يجلسون عليها ، وأن أصيب بعضهم بجروح ، وأن استولى اللعر عليهم ، وأن الأثينيين شادوا بعد هذا الحادث ملهى من الحجر على المنحدر الجنوبى للأكرپوليس وهبوه للإله ديونيشس(*) . ثم شيدت ملاه أخرى عكى غراره فى المائتى عام التالية فى لآرتريا Eretria ، وإپدورس ، وأرغوس ، ومنتينيا Mantinea ، ودلفى ، وتورومينيوم Tauromenium (تورومينا Tauromina) ؛ وسرقوصة ، وغيرها من المدائن فى مختلف أنحاء العالم اليونانى . ولكن مسرح ديونيشس هو الذى مثلت عليه المآسى والمسالى الكبرى فى أول الأمر ، وهو الذى ناضل أشد النضال فى المعركة التى احتدمت بين الدين القديم والفلسفة الحديثة ، والتى ربطت أجزاء التاريخ الفكرى لعصر بركليز ، وجعلته عملية كبيرة واسعة النطاق من عمليات التفكير والتغير .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الملهى العظيم كان مكشوفاً للسماء . وأن مقاعده الخمسة عشر ألف كانت ترتفع على شكل نصف دائرة كالمروحة ، مشيدة من

(*) ليس دلفا هو ملهى ديونيشس الذى يزوره السواح اليوم ، بل إن هذا الملهى الباقى إلى اليوم قد شيده وزير المالية عام ٣٣٨ بأمر من ليقورغ ، ويظن أن أجزاء منه يرجع تاريخها إلى ٤٢١ ، ويبدو أن أجزاء أخرى قد أضيفت إليها فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد .

القرميد مطلة على البارثون ، ومتجهة نحو جبل هيمتس Hymettus والبحر . ومن أجل هذا فإن أشخاص المسرحية حين ينادون الشمس والنجوم والبحار ، كانوا ينادون حقائق واقعية يستطيع معظم النظارة ، وهم يستمعون إلى الحديث أو الغناء ، أن يروها ويشعروا بوجودها . وقد صنعت المقاعد من الخشب أولا ، ثم من الحجارة بعدئذ ، ولم تكن لها مساند خلفية ، وكان كثيرون من النظارة يأتون معهم بوسائد يجلسون عليها ، ولكنهم كانوا محضرون خمس مسرحيات في اليوم الواحد دون أن يستلوا ظهورهم إلى شيء معروف لنا غير ركب من خلفهم من النظارة ، وهي بلا ريب مساند غير مريحة . وكان في الصفوف الأمامية عدد قليل من المقاعد الرخامية ذات الظهور يجلس عليها كبار كهنة ديونيشس المحليين وموظفو المدينة(*) . وكان عند قاعدة منصة الخطابة مكان للرقص وللمغنين ، وكان من خلفها بناء خشبي صغير يسمى الاسكينى skene أو المنظر ، يتخذ تارة لتمثيل قصر ، وتارة لتمثيل معبد ، أو بيت خاص ، وأكبر الظن أنه كان يستخدم فوق هذا لجلوس الممثلين حين لا يكونون على المسرح يمثلون أدوارهم(**) . وهناك معدات بسيطة « كذابيح » القرايين ، والأثاث وما إليها مما قد تحتاجه المسرحية ، وأخرى كالمنابر والملابس يوثق بها عند تمثيل مسرحية لأرسطوفان(٢٠) وقد صور أجاتار كس الساموسى عدة مناظر تصويراً توهم الرأى بوجود مسافات بينها . وكانت هناك عدة وسائل آلية تساعد على تغيير مجرى الحوادث أو مكانها(†) . من ذلك أنه إذا أريد إظهار انتهاء

(*) هذا الوصف وما يليه من وصف المسرح يفترض فيهما أن الملهى الذى شاده ليقورغ قد شيد على غرار الملهى القديم الذى حل محله .

(**) اسنا نعلم علم اليقين أكانت الحوادث تقع على سقف المسرح أم على مقدمته ، وربما كانت الحوادث تتحرك عليه من مستوى إلى مستوى آخر كلما تغيرت الأمكنة في القصة .

(†) كانت سارية تسقط من أعلى تستخدم في العهد الروماني فتتدل في فجوة في بداية المنظر وترفع في نهايته . ولكن المسرحيات الباقية لدينا من القرن الخامس ليس فيها شواهد على هذا ، ويلوح أنها كانت تعتمد على أناشيد ترتل بين الفصول لتؤدى الفرض الذى يؤديه إنزال الستار .

محادثة من الحوادث داخل المنظر دار سطح خشبي (ekkyklema) على عجل إلى خارج المسرح وصنعت عليه صور بشرية بطريقة تعبر أمام النظارة ما حدث ، وقد توضع عليه جثة ومن حولها القتلة بأيديهم أسلحتهم ملوثة بالدماء ، ولم يكن من تقاليد التمثيل اليوناني أن تمثيل الحوادث العنيفة على المسرح مباشرة . وكان على جانبي صدر المسرح لوحة كبيرة منشورية الشكل مثلثة تتحرك على محور لها ، وقد رسم على كل وجه من أوجه المنشور منظر يخالف ما على الوجه الآخر ، فإذا أديرَت هذه الأوجه تغير المنظر في لمح البصر : وكان أعجب من هذا جهاز آخر يتكون من آلة رافعة ذات بكرة وأثقال توضع على يسار المسرح وتستخدم في إنزال الآلهة أو الأبطال من « السماء » إلى المسرح أو إعادتهم إلى « السماء » أو إظهارهم معلقين في الهواء بين السماء والأرض . وكان يورپديز ينوع خاص مولعاً باستخدام هذه الآلة لإنزال إله يحمل بتقواه ما في مسرحياته اللاأدرية من تعقيد .

ولم تكن المأساة في أثينة من الشئون الدنيوية أو الأعمال التي تتكرر طول العام ، بل كانت جزءاً من الاحتفال السنوي بعيد ديونيس (*) . وكانت تعرض على الأركون بهذه المناسبة عدة مسرحيات يختار منها عدداً قليلاً ليُمثل في هذا العيد . وكانت كل قبيلة من القبائل العشر في أتكاء تختار واحداً من مواطني الأثرياء يشرف على جوقة المرتلين . وكان من امتيازاته أن يؤدي نفقات تدريب المغنين ، والراقصين ، والممثلين ، وما إلى ذلك من النفقات التي يتطلبها تمثيل إحدى المسرحيات . وكان المشرف ينفق في بعض الأحيان مبالغ طائلة على إعداد المناظر والملابس وتدريب الممثلين . وبهذه الطريقة كانت كل مسرحية ينفق عليها نيسياس تنال جائزة (٢١) . وكان بعض المشرفين الآخرين يقتصدون في

(*) وكانت المسرحيات تمثل أَيْضاً في الديونيشيا الصغرى أو الهيا *Lenaea* التي تقام عادة في بيرية ، وتمثل كذلك من حين إلى حين في الملاحى المحلية بمدن أتكاء .

هذه النفقات باستئجار ملابس مستعملة من باعة ملابس التمثيل (٢٣) .. وكان واضع المسرحية هو الذى يقوم عادة بتدريب جوقة المرتلين .

وكانت هذه الجوقة أهم عناصر التمثيل وأكثرها نفقة من عدة وجوه . وكثيراً ما كانت المسرحية تسمى باسمها ، وعن طريقها كان الشاعر فى أكثر الأحيان يعبر عن آرائه فى الدين والفلسفة . وتاريخ التمثيل اليونانى كفاح خاسر تقوم به جوقة المرتلين للسيطرة على المسرحية . ولقد كانت هى فى بادئ الأمر كل شئ فيها ؛ ثم نقص شأنها فى ثيسبس وإسكلس ، كلما زاد عدد الممثلين ؛ ثم اختفت نهائياً فى مسرحيات القرن الثالث . ولم تكن الجوقة تتألف عادة من مغنين محترفين ، بل كانت تتألف من هواة يختارون من الكشوف المحتوية على أسماء أبناء القبيلة المدنيين . وكانوا جميعاً من الرجال ، وكان عددهم بعد إسكلس خمسة عشر رجلاً ؛ وكانوا يقومون بالرقص والغناء معاً ويسبرون فى موكب مهيب فوق المسرح الطويل العتيق ؛ بشرحون بحركاتهم الموزونة ألفاظ المسرحية ومواقفها .

وكان للموسيقى فى المسرحيات اليونانية شأن لا يعلو عليه إلا شأن الشعر والتمثيل نفسه ، وكان المؤلف هو الذى يضع عادة الموسيقى المسرحية كما يضع ألفاظها (٢٣) . وكان معظم الحوار يلقى بشكل أحاديث أو خطب حماسية ، وكان بعضه ينشد ؛ ولكن الأدوار الهامة كانت تحتوى على قطع غنائية يغنيها شخص واحد أو شخصان أو ثلاثة أشخاص معاً ، أو تنشد مع النشيد الجماعى أو تتعاقب معه (٢٤) . وكان الغناء بسيطاً غير مقسم إلى أدوار أو ألحان متوافقة . وكان يصحبه فى العادة نفخ فى الناي يوافق أنغام المغنين نغمة بعد نغمة . وبهذه الطريقة كان فى وسع النظارة أن يتابعوا ألفاظ القصيدة دون أن تضيق فى نغمات الغناء ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه المسرحيات بقراءتها قراءة صامتة ، ذلك أن الألفاظ (١٨ - ج ٢ - مجلد ٢)

عند اليونان لم تكن إلا صورة فنية معقدة ينسج منها الشعر ، والموسيقى ،
والتمثيل ، والرقص وتتألف منها كلها وحدة عميقة متحركة (*) .

ولكن المسرحية رغم هذا هي أهم شيء ، والجائزة تمنح لها أكثر مما تمنح
للموسيقى ، وتمنح للتمثيل أكثر مما تمنح للمسرحية ، وكان في وسع الممثل
الماهر أن يرفع من شأن مسرحية متوسطة فتفوز هي بالجائزة (٣) . ولم يكن
الممثل - وهو دائماً من الذكور - شخصاً محترماً كما كانت الحال في
رومة ، بل كان يكرم أعظم التكريم ، فيعفى من الخدمة العسكرية ،
ويعرّأماً بين صفوف الجند في زمن الحرب . وكان يلقب بهكريتس
hypokrites ، وكان معنى هذا اللفظ عندهم هو الخبيث ، أى الخبيث على
النشيد الجماعى . ولم يؤد الدور الذى يقوم به الممثل من انتحال شخصية
إنسان آخر إلى تغيير معنى هذه الكلمة فيصبح معناها « المنافق » إلا بعد ذلك
بهد . وكان الممثلون يؤلفون لهم طائفة أو نقابة قوية تسمى نقابة « الفنانين
الديونيشيين » ، انتشر أعضاؤها في جميع بلاد اليونان ، وكانت جماعات من
ممثلين تنتقل من مدينة إلى أخرى ، يؤلفون مسرحياتهم ويلحنون موسيقاها ،
ويصنعون ملابسهم ، ويقيمون مسارحهم . وكان دخل كبار الممثلين عظيماً
كما هو شأنهم في جميع الأوقات ، أما المتوسطون منهم فكان دخلهم قليلاً
مزعزعا (٤) ، وكانت أخلاقهم هي الأخلاق التى يتوقع الإنسان وجودها
في أقوام يتنقلون من مكان إلى مكان ، وتختلف معيشتهم بين الترف
والفقر ، يمنهم توتر أعصابهم من أن يحيا حياة سوية مستقرة .

(٥) ولقد ظلت الموسيقى ذات شأن هام في ثقافة عصر اليونان الزاهر (٤٨٠ - ٣٢٢)
واشتهر من مؤلفيها في القرن الخامس ثيموثيوس الملى Timotheus of Miletus وكتب
مقطوعات كانت الموسيقى فيها تغطي على الشعر ، وكانت عبارة عن قصة ذات حوادث صالحة
للمثيل . وقد زاد أوتار القيثارة اليونانية فجعلها أحد عشر وترًا ، وقام بتجارب في الأساليب
المعقدة للحكمة ، فأثار هذا جماعة المحافظين في أثينة وظلوا يتددون به حتى هم بالانتحار ،
ولكن يوربديز هدأ ثورته واشترك معه في عمله ، وتباً بأن بلاد اليونان سخرت ساجدة له ،
وقد صدقت نبوءته .

وكان الممثل في المتآسي والمسالى على السواء يلبس على وجهه قناعاً ،
ركب فيه عند فمه مبسم من الشبهان . وكانت طريقة تنظيم الصوت في الملهى
اليونانى ، ووضع المسرح بحيث يراه الجالس فى أى مقعد من المقاعد ،
طريقة فذة مدهشة . على أن اليونان مع هذا رأوا أنه يحسن بهم أن يقووا
صوت الممثل ، وأن يساعدوا عين الناظر البعيد على تميز مختلف أشخاص
الرواية ، وكانوا يضحون فى سبيل هذا بكل مميزات الصوت وتعبيراتها ،
فإذا كانوا يمثلون على المسرح أشخاصاً حقيقيين مثل يورپديز فى مسرحية
إلكترىازوسى ، وسقراط فى مسرحية السحب ، فإن الأقنعة كانت تحاكي
ملاعهم الحقيقية ، وتحاكيها فى الغالب محاكاة هزلية .

وقد جاءت الأقنعة إلى المسرحيات من طريق التمثيل الدينى ، وكانت
فيها من وسائل الإرهاب أو الفكاهة . وقد ظلت تسير على هذه السنة فى
المسالى ، وكان فيها من القبح ، وغبابة الشكل ، والإسراف فى هذا كل
ما يستطيع خيال اليونان أن يتبدعه . وكانت الوسائد والمساند تزيد من أجسام
الممثلين ، والقلائس العالية والأحذية ذات النعال السميككة تزيد من أطوالهم ،
كما كانت الأقنعة تقوى أصواتهم وتزيد فى حجم وجوههم . وقصارى القول
أن الممثل القديم كان ، كما يقول لوشيان ، شخصاً ذا «منظر يشع مفرع» (٢٨) .

وليس النظارة أقل جدارة باهتمامنا من المسرحية نفسها . لقد كان
الدخول لمشاهدة التمثيل مباحاً لجميع الرجال والنساء من كافة الطبقات (٢٩) .
وكان جميع المواطنين بعد عام ٤٢٠ ق . م . يعطون من الدولة الأبلتين اللتين
يؤدنها أجراً للدخول إذا كانوا فى حاجة إليهما . وكان النساء يجلسن بمعزل
عن الرجال كما كان للسرارى مكان خاص بهن ، وقد جرت العادة أن تمنع
النساء الساقطات من حضور المسرحيات إلا إذا كانت المسرحية مسلاة (٣٠) .

وكان النظارة جماعة مرجين ليسوا أحسن ولا أسوأ أخلاقا من أمثالهم في غير بلاد اليونان . وكانوا وهم يشاهدون التمثيل ويستمعون إليه يأكلون البندق والفاكهة ويشربون الخمر . وكان أرسطاطاليس يقترح أن تقدر قيمة إخفاق المسرحية بمقدار ما يؤكل من الطعام في أثناء تمثيلها . وكانوا يتنازعون المقاعد ، ويصفقون ويصرخون لمن يحبون من الممثلين ، ويصفرون ويزجرون حين يغضبون ، فإذا رأوا ما يدعو إلى احتجاج أقوى من هذا ، دفعوا المقاعد بأقدامهم إلى الأرض ، وإذا ثاروا أخرجوا الممثل عن المسرح بالزيتون أو التين أو الحجارة^(٣١) . وكاد إسكندر أن يلقى حتفه رجما بالحجارة عقابا له على وضع مسرحية بغیضة ، وكاد إسكندر أن يقتل لأن النظارة اعتقدوا أنه أفشى بعض أسرار الطقوس الإليوزينية الغامضة . وقد حدث أن استعار موسيقى كمية من الحجارة ليبني بها بيتا ، ووعد من استعارها منه أن يردّها إليه مما سيجمعه من عمله في المسرحية التالية^(٣٢) . وكان الممثلون في بعض الأحيان يستأجرون جماعة من المصنفين ، لكي يظفي تصفيقهم على ما ينشونه من صفيح النظارة ، وكان بعض الممثلين الهزليين يلقون بالبندق إلى النظارة يرشونهم به لكي يظلوا هادئين^(٣٣) . وكان النظارة يستطيعون إذا شاءوا أن يحولوا دون إتمام التمثيل بما يحدثونه من ضجة متعمدة ، ويحتمون تمثيل المسرحية الثانية^(٣٤) ، وهذه الطريقة كان يمكن اختصار البرنامج التمثيلي إلى الحد الذي يطيقونه .

وكان التمثيل في مدينة ديونيشيا يدوم ثلاثة أيام ، تمثل في كل منها خمس مسرحيات — ثلاث مأس ومسرحية خرافية يكتبها شاعر ، ومسلاة يكتبها شاعر آخر^(٣٥) . وكان التمثيل يبدأ في الصباح الباكر ويستمر إلى ما بعد الغروب ، ولم تكن مسرحية ما تمثل مرتين في ملهى ديونيشس إلا في أحوال نادرة ،

فلذا لم يشاهدها بعضهم في ملهى هذه المدينة استطاع أن يشاهدها في ملاهى غيرها من المدن اليونانية ، أو أن يشاهدها ممثلة تمثيلا أقل روعة على مسرح قروى في أتكنا . وبلغ عدد المسرحيات الجديدة التى مثلت في أثينة بين عامى ٤٨٠ ، ٣٨٠ نحو ألى مسرحية (٣٦) . وكانت الجائزة التى تمنح لأحسن المآسى الثلاث عشرة ، والى تمنح لأحسن مسلاة سلة مملأى بالتين وزقا من الخمر ، أما فى العصر الذهبى فكانت الجوائز الثلاث التى تمنح للمأساة ، والجائزة الوحيدة التى تمنح للمسلاة ، بدرة من المال تقدمها الدولة . وكان المحكمون العشرة يختارون بالقرعة فى الملهى نفسه فى صباح اليوم الأول من أيام المباراة ، وكانوا يختارون من بين ثبث طويل يحتوى أسماء من يرشحهم المجلس لهذا الغرض ، فلذا انتهت المسرحية الثالثة كتب كل قانس على لوحة ما يختاره من المسرحيات لنيل الجوائز الأولى والثانية والثالثة ، ثم وضعت اللوحات جميعاً فى قارورة ليختار الأركون خمساً منها حيثما اتفق . وهذه الأحكام الخمسة مجتمعة تنال الجائزة النهائية ، أما الخمسة الثانية فتتلف دون أن تقرأ . ولهذا فلأن أحداً من الناس لم يكن يعرف مقدماً من هم القضاة ، أو أيهم سيكون الحكم فعلاً . على أنه كان يحدث فى بعض الأحيان ورغم هذه الاحتياطات أن تقدم الرشا للمحكىين أو أن يرهبوا لكى يحكموا للشخص بعينه . ويشكو أفلاطون من أن القضاة يخوفهم من الجماهير كانوا فى كل مرة تقريباً يقضون حسب ما يوحى به تصفيق الجماهير ، ويقول إن هذا « الحكم المسرحى » يفسد المؤلفين والنظاره جميعاً (٣٨) : فلذا انتهت المباراة توج الشاعر الفائز ومنظم فرقة المنشدين بالحلاب (*) ، وكان الفائزون فى بعض الأحيان يقيمون نصباً دائمة يصيب الذى أقيم لليسكرانس *Lesicratis* ، ليخلدوا به فوزهم وكان المالك أنفسهم يتبارون لنيل هذا التاج •

ويقرر حجم الملهى وتقاليد الاحتفال طبيعة المسرحيات اليونانية إلى حد بعيد ، وإذ كان من غير المستطاع إظهار الفروق الضعيفة بين الشخصيات بلامح الوجه أو تغيير نبرات الصوت ، فقد كانت الدقة في تصوير شخصيات المسرحية قليلة الوجود في الملهى الديونيشي . لقد كانت المسرحيات اليونانية دراسة للأقدار أى للإنسان في كفاحه مع الآلهة ، أما المسرحيات التى كتبت، في عصر الملكة إلزابث فكانت دراسة في تتابع الحوادث أى دراسة للإنسان في صراعه مع أخيه الإنسان ، وكانت الجيدة منها دراسة في الأخلاق أى دراسة للإنسان في صراعه مع نفسه . وكان النظارة اليونان يعرفون مقدماً مصير كل شخصية من الشخصيات الممثلة ، كما يعرفون نتيجة كل حادثة من حوادث التمثيل ؛ ذلك بأن العادات الدينية كان لا يزال لها في القرن الخامس من القوة ما يكفي لتحديد موضوع المسرحيات الديونيشية بحيث لا يخرج عن قصة من الأساطير والحرفات الشائعة عند اليونان الأولين (*) . ولم يكن في المسرحية شئ من ترقب النتائج غير المعروفة أو من المفاجآت ، بل كان فيها بدلا من هذا لذة الشعور السابق بالنتائج المرتقبة ومعرفة ما سيكون قبل وقوعها . وكان مؤلفو المسرحيات جيلا بعد جيل يقصون على النظارة أنفسهم القصة بعينها ، ولم يكن بينهم اختلاف إلا في الشعر ، والموسيقى ، والتفسير ، والفلسفة . وحتى الفلسفة نفسها كانت

(*) ولقد كانت هناك مسرحيات قليلة مأخوذة من تاريخ اليونان بعد عهد الأساطير . ولم يبق من هذه المسرحيات الأخيرة سوى الآن لإبهرجية « المرأة الفارسية » لإسكس . وقد مثل فرنكس Phrynichus في عام ٤٩٣ « سقوط ميلطس » ، ولكن اليونان كانوا يحزنون أشد الحزن حين يذكرون استيلاء الفرس على مدينتهم الجديدة ، ولهذا فإهم فرضوا على فرنكس غرامة قدرها ألف درخمة لهذه البدعة الجديدة التى أدخلها في التأليف المسرحى وحرموا إعادة تمثيل مسرحيته (٣٩) . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن تمثيلها كان يذهب في السر تمثيل هذه المسرحية ليتغلها وسيلة لإثارة حية الاثينيين ودفعهم إلى محاربة الفرس (٤٠) .

تحددتها التقاليد إلى حد كبير : ففى الموضوع الرئيسى فى مسرحيات إسكلس وسفكليز هو العقاب الذى تفرضه الآلهة الخاسدة أو الأقدار اللاشخصية جزاء على التعاطف الوقع والتكبر عليها وعدم تعظيمها ، والمغزى الذى يتكرر على الدوام هو ما فى إطاعة صوت الضمير والشرف ، وما فى الاعتدال المتواضع ، من حكمة بالغة . وإن اجتماع الفلسفة بالشعر ، وبتتابع الحوادث ، والموسيقى ، والغناء ، والرقص هو الذى جعل المسرحيات اليونانية من طراز جديد فى تاريخ الأدب . وهو الذى جعلها ترقى من لدن نشأتها تقريباً إلى درجة من العظمة والفخامة لم ترق إلى مثلها فيما بعد :

الفصل الثالث

إسكلس

ونقول تقريباً عامدين ، فكما أن وجود عدد كبير من ذوى المواهب المتوارثة والمتابعة يمهّد السبيل إلى ظهور العباقرة ، فإن كاتباً مسرحياً ، لا نرى خيراً من أن ننسى اسمه وأن نكرمه رغم هذا النسيان ، قد عاش بلاريب بين ثيسس وإسكلس . ولعل وقوف أثينة الموفق في وجه القرس هو الذى بعث فيها العزة والقوة الدافعة اللتين لا بد منهما لوجود عصر المسرحيات الكبرى ، كما أن الثروة التى أتت بها التجارة والإمبراطورية فى أعقاب الحرب قد أعانت على قيام المباريات الديونيشية فى الأغاني والمسرحيات الغنائية . وكان إسكلس يحس فى قرارة نفسه بهاتين العزة والقوة الدافعة ، فكان ككثيرين غيره من كتاب اليونان فى القرن الخامس يكتب ويستمتع بالحياة ، ويعرف كيف يعمل وكيف يتكلم ، وأخرج فى عام ٤٩٩ وهو فى السادسة والعشرين من عمره مسرحيته الأولى ؛ وفى عام ٤٩٠ حارب هو وأخواه فى واقعة مرثون وأظهروا من الشجاعة ما جعل أثينة تأمر بعمل صورة تخلد بها بطولتهم ؛ وفى عام ٤٨٤ نال جائزته الأولى فى العيد الديونيشى ؛ وفى عام ٤٨٠ حارب فى أرتميزيوم وسلاميس ، وفى ٤٧٩ فى بلاتيه ؛ وفى ٤٧٦ ؛ ٤٧٠ زار سرقوسة واستقبل بمظاهر التكريم فى بلاط هيرون الأول ؛ وفى ٤٦٨ انزع منه سفكليز الشاب الناشئ الجائزة الأولى للمسرحية بعد أن ظل هو مسيطراً على الأدب الأثينى جيلاً كاملاً ، وفى عام ٤٦٧ عاد إلى مكانته العليا على أثر ظهور مسرحيته « سبعة ضد طيبة » ، وفى عام ٤٥٨ نال آخر انتصاراته وأعظمها بإخراج أورستيا مسرحيته الثلاثية ؛ وفى عام ٤٥٦ عاد إلى صقلية ، حيث وافته منيته فى تلك السنة نفسها .

وكانت الحاجة ماسة إلى رجل بهذه المهمة ليصوغ المسرحية اليونانية في صورتها النهائية ؛ فقد كان إسكلس هو الذى أضاف ممثلاً ثانياً إلى الممثل الأول الذى أخرجه شيبس من بين فرقة المغنين ، وأتم بذلك نقل الترتيلات الديونيشية من قصيدة دينية غنائية إلى مسرحية(*) ، وكتب سبعين (ويقول بعضهم تسعين) مسرحية ، لم يبق منها إلا سبع . وليست الثلاث الأولى من هذه المسرحيات ذات شأن كبير(**) ؛ وأشهرها كلها مسرحية بروميثيوس المقيد وأعلامها هي التى تتكون منها مسرحية أورستيا الثلاثية .

وقد تكون مسرحية بروميثيوس المقيد هي الأخرى جزءاً من مسرحية ثلاثية وإن لم نجد مؤرخاً قديماً يؤيد هذا الظن . فنحن نسمع عن مسرحية دينية تدعى بروميثيوس جالب النار ، ولكنها كانت تمثل مستقلة عن مسرحية بروميثيوس المقيد وفي مجموعة أخرى من المسرحيات(١) . ولدينا قطع صغيرة باقية من مسرحية بروميثيوس الطليق من تأليف إسكلس ، وتكاد هذه القطع أن تكون خالية من المعانى ، ولكن العلماء الحريصين يؤكدون لنا أننا لو حصلنا على نص المسرحية كاملاً لوجدنا إسكلس يجيب إجابة مقنعة على جميع الضلالات التى تُنتطق بها المسرحية الحالية بطلها . وحتى لو أخذنا بهذا الرأى فإننا لا يسعنا إلا أن نعجب كيف يطبق النظارة الأثينيون الاستماع إلى تجديف هذا الجبار في حق

(١) لم يبق بعد الممثلين في مسرحيات إسكلس يزيد على اثنين ، ولكن الأدوار التى يملأونها ، أنه مسرحية لم يكن يحددها إلا أن شخصيتين من أشخاص المسرحية لا أكثر يمكن أن يظهر على المسرح في وقت واحد . وكان رئيس فرقة الممثلين يعمل أحياناً ممثلاً ثالثاً ، ولم يلق صدور الشخصيات كالعلم والهند وأمثالهم يمدون من الممثلين .

(٢) « مسرحية » المرأة المتهمة « بمسيلة الشان » والممثلين فيها المخالة العليا . ومثل هذا يقال عن مسرحيات « المرأة الفارسية » فهى غنائية قبل كل شيء ، وتصف وصفاً وأصبغاً مسرحية بلايوس . أما « مسرحية طيبة » فكانت القسم الثالث من مسرحية ثلاثية تروى قصة الملك لاوس من Laus و زوجته الملكة جوكستال Jockastal ، وكيف قتل ابنهما أوديب أباه وتزوج أمه ، ثم تصف الزناح الذى قام بين أبناء أوديب من أجل عرش طيبة .

الآلهة في عيد ديني . ونجد بروميثيوس في مستهل المسرحية مشلوداً إلى صخرة في جبال القوقاز شده إليها هفستس Hephæstus بأمر زيوس حين غضب على بروميثيوس لأنه علم الآدميين فن النار ويقول هفستس :

يا ابن ثيمس يا حصيف الرأي يا حكيم !
لقد كتب عليك أن تشد بالأغلال
إلى هذه الصخرة العالية التي لا يرقاها إنسان
ولا تسمع فيها صوت آدمي
أو ترى وجه أحد ممن كنت تحبهم ، وحيث تدبل زهرة جمالك
محترقة في حر الشمس اللافتح الصافي
وسيقبل الليل مزدانا بالنجوم
وتسلي بظلاله ، فإذا طلعت الشمس
بددت بأشعتها صقيع الصباح ،
ولكن شعورك بباواك الحاضرة يقض مضجعتك

مهما يكن ما تتعرض له من أخطار ، لأن أحد لا يمد يده
لحل وثاقتك . إن هذا هو الذي تجنيه من حبك لبني الإنسان ،
لأن زيوس شديد صارم ، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد^(٩٩)

ويتحدى بروميثيوس ، وهو معلق في الصخرة لا حول له ولا طول ،
رب أولمبس ، ويعد في زهو وكبرياء الخطوات التي نقل بها الحضارة إلى
الخلائق الأولين الذين كانوا حتى ذلك الوقت :

يعيشون كائنات الأخرق تحت الثرى في الكهوف الخاوية التي لا تدخلها
أشعة الشمس ، ولا تصل إليها دلائل على حلول الشتاء ، ولا يعطرها شذى
أزهار الربيع ، ولا تماؤها فاكهة الصيف ، ولكنهم كانوا يعملون كل شيء وهم
عمى البصائر لا يخفضون لقانون ، حتى عامتهم كيف تشرق النجوم وتغرب

في أماكن خافية على عقولهم ؛ واخترعت لهم العدد باعث الفلسفة ، وعلمتهم تركيب الحروف ، ووهبت لهم الذاكرة صانعة كل شيء ، وأم التفكير الحلو الجميل . وكنتُ أول من ذلل الحيوان لخدمة الإنسان ... وأنا دون سواي الذي ابتدعت السفن . . . وأنا الذي اخترعت كل هذه الفنون لبني الإنسان لا أجد الآن وسيلة أنجي بها نفسي ، (١٣) .

وتحزن الأرض كلها لحزنه ، « فإذا تلاطمت أمواج البحر صرخت ، وخرج من أعماق البحار أنين حزين ، وانبعث من كهوف الموتى عويل » ؛ وترسل الأمم كلها تعازيها إلى هذا السجين السياسي ، وتأمره أن يذكر أن الألم يطوف بكل الخلائق ، « فالحزن يسير في الأرض ، ويجلس عند قدمي المخلوقات واحداً بعد واحد » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لإنقاذه . ويشير عليه « أفيانوس » بالخضوع لزيوس « لأن الذي يحكم ، يحكم بالقسوة لا بالحق » ؛ وتعجب الأفيونوسات بنات البحر ولا تدرى هل الإنسانية جديرة بأن يعذب أحد من أجلها فيصلب على هذا النح ، « لقد كانت تضحيتك هذه أيها الحبيب تضحية لا جلوى منها . ألم تر الجنس البشري ضعيفاً في جهده ونشاطه ، يتألف من حاملين خياليين مكبلين بالأغلال ؟ » (١٤) . ومع هذا فإن تلك البنات يعجبن به إعجاباً يحملهن على البقاء إلى جانبه حين يهده زيوس بإلقائه إلى طرطروس Tartarus ليواجهن معه الصاعقة التي تقذف به وهن إلى الهاوية . غير أن پروميتيوس تمنع عنه راحة الموت لأنه من الآلهة ومن أجل ذلك يرفع في الخاتمة المققودة للرواية الثلاثية من طرطروس ليشد مرة أخرى إلى صخرة جبلية ، ويرسل زيوس نسرأ ينخر قلب المارد الجبار . لكن القلب ينمو بالليل بنفس السرعة التي ينخره بها النسر بالنهار ، وبهذه الطريقة يقاسي پروميتيوس العذاب مدى ثلاثة عشر جيلاً من أجيال الآدميين . ثم يقتل الجبارُ الرحيمُ هرقلُ النسرَ ويُقنَع زيوس بفك أغلال

پروميثيوس ، ويندم هذا على فعلته ويصطلح مع زيوس القادر على كل شيء ، ويضع في إصبعه الخاتم الحديدي رمز الضرورة .

وفي هذه المسرحية الثلاثية القوية يقرر إسكلس موضوع المسرحيات اليونانية - وهو كفاح الإرادة البشرية ضد القدر المحتوم - ، وموضوع حياة بلاد اليونان في القرن الخامس - وهو الصراع بين الفكر الثائر والإيمان التقليدي . والنتيجة التي يستخلصها نتيجة غير صريحة ، ولكنه يدرك قضية الثائر ويجبها بعطفه كله ؛ ولنا نجد حتى في مسرحيات يوربديز مثل ما نجده هنا من النظرة الانتقادية لرب أولمبس ، وما أشبه هذه المسرحية بالفردوس المفقود يحتل فيها الملك الساقط مكان بطل القصة رغم ما يتصف به الشاعر من تقي وصلاح . والراجح أن ملتن كان كثيراً ما يذكر پروميثيوس وهو يولف الخطب البليغة التي ينطق بها الشيطان . وكان جوته مولعاً بهذه المسرحية ، واتخذ بروميثيوس أداة يهر بها عن نزعة الشباب الجامح ؛ أما بيترن فقد اتخذ نموذجاً ينسج على منواله طول حياته ؛ وأعاد شلي Shelley ؛ وهو الذي كان على الدوام هدفاً لنوب الدهر ، القصة إلى الحياة في قصيدته المشهورة بروميثيوس الطابق التي لا ينغصع فيها الجبار الثائر قط . وتنطوي هذه الخرافة على عدد كبير من الاستعارات والتشبيهات : منها أن العذاب هو ثمرة شجرة المعرفة ، ومنها أن معرفة المستقبل تحطم قاب الإنسان كدماً ؛ وأن العذاب والصلاب هما جزاء المخلص على الدوام ، وأن الإنسان مضطر في آخر الأمر أن يرضى بالقيود man muss ensagen ، وأن عليه أن يحقق غايته داخل نطاق طبيعة الأشياء . وذلك لعمرى موضوع جبلبل ، يمكن إسكلس بفضل لغته الجذلة من أن يجعل من بروميثيوس أساة من الطراز العظيم . ولم نر قط أن الكفاح بين العلم والخرافة ، أو بين الاستنارة والجهل ، أو بين الديمقراطية والتحكم ، قد صور بأقوى مما « صور به هنا ، أو سما في الرمزية أو في الصراحة إلى أسهى مما سما به في هذه المأساة . ويقول شلحل

Schlegel في هذا : « إن المآسى الأخرى التى أنتجها المؤلفون اليونان مآس عادية أما هذه فهى المأساة الحقة » (٤٥) .

ومع هذا فإن أرسيتيا أعظم منها - وهى بإجماع الآراء أجمل المسرحيات اليونانية على الإطلاق ، ولعلها أجمل المسرحيات فى العالم كله (٤٦) . وقد مثلت فى عام ٤٥٨ ، وأكبر الظن أن تمثيلها حدث بعد عامين من تمثيل مسرحية فيروميثيوس المقيّد وقبل أن يموت مؤلفهما بعامين . وموضوع المسرحية هو نشأة العنف من العنف ، والجزاء المحتوم الذى لا بد أن يؤدى إليه الكبرياء والاطراف المصحوبان بالعنوة والصلف . ونحن نسمى القصة خرافة ، ولكن اليونان كانوا يسمونها تاريخاً ، ولعلمهم كانوا على حق فى هذه التسمية . وهذه القصة كما يرويها اثنان من كبار كتاب المسرحيات اليونان يمكن أن تسمى أطفال تانتلوس لأن هذا الملك القريشى المستهتر الفخور بثرائه هو الذى بدأ سلسلة الجرائم الطويلة ، واستنزل غضب ربّات الانتقام جزاء له على سرقة شراب الآلهة وطعامها ، وتقديم الطعام المقدس لابنه پلويش ؛ وفى كل عصر من العصور يجمع بعض الناس من الثروة أكثر مما يليق بالإنسان ، ويستخدمونها لإفساد أبنائهم . وفى هذه القصة ترى كيف استطاع پلويش أن يستحوذ على عرش إليش Elis بشر الوسائل ، وكيف اغتال بعدئذ شريكه فى جرمه ، وتزوج ابنة الملك الذى خدعه وقتله ، ثم رزق من هيوداميا Hippodamia بثلاثة أبناء : ثيستيز Theyestes وإيروپى Aerope وأتروس Atreus . وفسق ثيستيز بإيروپى ؛ وانتم أثروس لأخته بأن أطعم أخاه أبناً لمة ؛ فما كان من إيجيشتس Aegisthus بن ثيستيز من أخته إلا أن أقسم لينتقم من أثروس وأبنائه . وكان لأتروس ولدان هما أجهمنون ومنلوس ، وتزوج أجهمنون كليتمسترا ورزق منها ابنتين هما إفجينيا وإلكيترا وولدا واحداً هو أرسيتيز . ولما أن سكنت الريح ووقفت سفن أجهمنون عند أويس وهى فى طريقها إلى طروادة ، روعت كليتمسترا حين فضحى أجهمنون بابلته إفجينيا لكى تهب الريح ، وبينما كاد أجهمنون يحاصر

طروادة أخذ لمجشس يغازل زوجته الحزينة ، قالت له واثمرت معه على قتل الملك . ومن هذه النقطة يبدأ إسكلس قصته .

وجاءت الأنباء إلى أرجوس بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، ونزل أبحمنون الفخور على شواطئ الهلوبونيز « مسربلا بلروع من الصلب وترتعد الجيوش فرقاً إذا غضب » ، واقترب من ميسني ، ويظهر جماعة من الكبراء أمام قصر الملك وينشدون نشيداً يعيد إلى الأذهان تضحية أبحمنون بإفجينا .

« وتسبح على مهل بما لا بد من التسليخ به ، ونحركت في صدره ريح عجيبة هزته هزا ، ريح من الأفكار السود ، نجسة ، دنسة ؛ فقام وقد امتلأ قلبه جرأة ، لأن الناس تقوى قلوبهم إذا عميت بصائرهم ؛ وهم بتنفيذ رغبته الدينية التي أورثته الحزن فيما بعد ؛ بل إنها هي الحزن بعينه . وهكذا تحجر قلب هذا الرجل فقتل ابنته لكي يستطيع بهذا القتل أن يثار لنفسه من ضحكة ضحكها امرأة وأن يعين سفائنه على السير . . .

« وألقت بمقيصها الزعفراني اللون على الأرض بقوة وغضب مكبوت لم تنطق به ، ونفلت في قلب كل رجل من أولئك الرجال المحاربين القتلة سهام الرأفة التي أطلقتها الفتاة من عينيها ، وارتسمت في عقولهم صورة وجه يحاول بقوة ما أعجبها أن يستلر الرحمة من القلوب ، وجه الفتاة الصغيرة التي كانت ترقص إلى جانب سفينة أبيها . ولم يؤثر ذلك الصوت البريء في قلب الأب حين انضم إلى صوته بعد أن صبت الكأس الثالثة ، (١٧) .

ويدخل رسول أبحمنون ليعلم قلوب الملك . ويدرك إسكلس بخياله الرقيق ما يهتز به قلب الجندى البسيط من نشوة السرور وهو يطاءً قدمه أرض بلاده بعد غيابه الطويل ؛ فينطق الجندى بقوله : « إني الآن مستعد للموت إذا أراد الله أن أموت » ؛ ويصف الجندى لفرقة المرتابن أهوال الحرب وأقذارها ،

والمطر الذى تنفذ مياهه إلى العظام ، والحشرات التى تضاعفت فى الشعر ،
وحرارة الصيف الحارقة فى إليون ، وبرد الشتاء القارس الذى تساقطت منه
الطيور جميعها موقى . وتخرج كلتيمنسترا من القصر كثيفة متهيجة الأعصاب ،
ولكنها مع ذلك ذات كبرياء ، وتأمّر أن تنثر فى طريق أبجمنون السجف
الثمينة . ويقبل الملك فى عربته الملكية ، يحف به جنده ، منتصب القامة فخوراً
بما أحرزه من نصر ، ومن خلفه عربة أخرى تحمل كسندرا الجميلة السمراء ،
وهى الأميرة والمنتبهة الطروادية ، جارية أبجمنون ومشبعة شهوته رغم أنفها ،
وهى التى تنبأ وقلبا غاضب حاقد بأنه سوف يلتقى جزاءه ، كما تنبأ فى
حزنها بموتها . وتصف كلتيمنسترا للملك بلسان زلق شوقها لعودته خلال
السنين الطوال : « لقد نضبت من أجلك ينابيع دموع عيني الفياضة ، فلم يبق
فيها قطرة واحدة ، ولكنك تستطيع أن ترى فيهما كيف أضناهما سمى ،
وأنا أترقب فى حزن بشائر نصرك المبطنة ، وكيف كنت أقوم بسرعة من
نوى المضطرب إذا هزت البعوضة جناحها لأنى كنت أحلم بمتاعبك المفضية
الطويلة ، وقد تجمعت كلها أثناء نوى القصير (٤٨) » . ويرتاب أبجمنون فى
إخلاصها ويلومها أشد اللوم على إسرافها فى فرش السجف المطرزة تحت
سنايك خيله ، ولكنه يتبعها إلى القصر وتصحبه كسندرا مدعنة مستسلمة .
وتردد فرقة المرتلين بصوت منخفض فى خلال فترة الراحة الطويلة أغنية
تنلر بشر مستطير . ثم تنبعث من الداخل صرخة كان كل سطر من أسطر
المأساة يهوى الآذان لسماعها ، صرخة أبجمنون حين يغتاله إيحاش
وكلتيمنسترا . وتفتح الأبواب ، وتظهر كلتيمنسترا والبلطة فى يدها والدم
يلوث جبهتها ، وقد وقفت منتصرة فوق جثتى كسندرا والملك ، وترتل
الفرقة خاتمة المسرحية :

« ألا ليت الله يمن على بأن يعاجلنى الموت فجاءة دون ألم أشد ، ومن غير

انتظار موئم طويل ، فأقضى نحبي وأنام النوم الأبدى الذى لا صحوة منه .
ليت الله يمن على بهذا بعد أن لاقى الردى من كان يرعاه حبه^(١٩) .

والمسرحية الثانية من هذه الثلاث المسرحيات المجمعة هى الكتفورى
Choephoroe أو حاملات قربان الخمر . واسمها مشتق من جماعة النساء
اللاقى يأتين بالقرايين إلى قبر الملك . وكانت كلتيمنسترا قد أرسلت أرسيتز
ابنها الصغير ليربى فى فوسيس Pyocis القاصية عساه أن ينسى مقتل أبيه ،
ولكن شيوخ تلك الجزيرة يعلمونه قانون النار القديم : « إن نقطة الدم
المراقة تتطلب دماً جديداً » ، وكانت الدولة فى تلك الأيام المظلمة تترك
عقاب القتل لأولياء القتيل ، وكان الناس يعتقدون أن روحه لا تجد الراحة
حتى يثار له . واستحوذت فكرة الانتقام على أرسيتز وأقضت مضجعه ،
وكانت توحى إليه أن يقتل أمه وإيجسثس . وتحقيقاً لهذا الغرض يأتى
سراً إلى أرجوس مع رفيقه پيلديز Pylodes ، ويبحث عن قبر أبيه ،
ويضع عليه خصلة من شعره . ويسمع الشابان وقع أقدام ساكبي قربان
الخمر على القبر فيبتعدان عنه ويصغيان فى ذهول إلى إلكترا أخت أرسيتز
الحزينة وقد أقبلت مع جماعة من النساء ، ووقفت عند القبر ، وأخطت
تتاجى روح أبمنون وتدعوه لأن يثير أرسيتز فياخذ بثار أبيه . وهنا
يكشف أرسيتز عن نفسه ، فتصب من قلبها المثقل بالهموم فى عقله الساذج
أن عليه أن يقتل أمه ، ويذهب الشابان إلى قصر الملك فى زى تاجرين ،
وترحب بهما كلتيمنسترا وتكرمهما فيرق لها قلباهما ، ولكن أرسيتز يختبرها
بقوله إن الغلام الذى أرسلته إلى فوسيس قد مات ، ويسئولى عليه
الفرع حين يرى البهجة بادية فى حزنها . وتستدعى إيجسثس يستمع معها
إلى أن الفتى الذى يحشيان انتقامه قد قضى نحبه ، فيقتله أرسيتز ويدفع
أمه إلى القصر ، ثم يخرج بعد هنية وقد جن جنونه أو كاد لشعوره
بأنه قتل أمه ويقول :

« وقبل أن يذهب عقلى أعلن فى هذا المكان إلى كل من يحبنى ، وأعترف
أنى قتلت أُمى (٥٠) » .

وفى المسرحية الثالثة نرى الشاعر يصور أرسيتز تطارده ربات الانتقام
المكلفة بمعقاب المجرمين ، وتشتق المسرحية اسمها من اسم هذه الإلهات الملطف
« اليومنيديات Eumenides » أى « الراجيات الخير » . ويصبح أرسيتز
طريداً مهمل الدم ، يتجنبه سائر الناس ؛ تتعقبه ربات الانتقام أينما ذهب ،
وتحوم حوله فى صورة أشباح سود تنادى بسفك دمه . ويلقى الفتى بنفسه
فوق مذبح أبولو فى دلتى فيهدئ الإله روعه ، ولكن شبح كلتيمينسترا يقوم
من تحت الثرى ويوعز إلى ربات الانتقام ألا تتوانى عن تعذيب ولدها .
ويسافر أرسيتز إلى أثينة ويحز راكماً أمام ضريح الإلهة أثينا ويتوسل إليها أن
تنحيه . وتسمع أثينا نداءه وتصفه بالذى « كمله العذاب » . وتحتج ربات
الانتقام عليها فتدعوهم أن يعرضن قصة أرسيتز على مجلس الأريييجس ؛
ويمثل المشهد الأخير هذه المحاكمة العجيبة التى ترمز إلى استبدال حكم القانون
بالقبصاص وسفك اللماء . وتتولى أثينا ربة المدينة رئاسة المجلس ، وتعرض
ربات الانتقام حجتهن فى طلب الانتقام من أرسيتز ، ويدافع عنه أبولو .
وتنقسم المحكمة على نفسها وتتساوى الأصوات ، وترجح أثينا رئيسة المجلس
الجاناب الذى يريد تبرئة أرسيتز ، وتعلن براءته ، وتقرر من ذلك الوقت
رسمياً أن مجلس الأريييجس هو المحكمة العليا فى أتكّا ، وأن حكمه السريع على
القاتل سيظهر البلاد من المنازعات ، وأن حكمته ستهدى البلولة إلى طريق
النجاة مما يحيط بالشعب من أخطار . وتهدى الإلهة بالفاظها العذبة نائرة
ربات الانتقام ، وتكسب قلوبهن ، وتقول زعيمتهن إن « نظاماً جديداً
قد ولد فى ذلك اليوم » .

وتعد الأرسيتيا أروع آيات الأدب اليونانى بعد الإلياذة والأوديسة ، فيها
تظهر سعة الإدراك ، ووحدرة التفكير والتنفيذ ، وقوة الترقى المسرحى ، والقدرة
(١٩ - ج ٢ - مجلد ٢)

على فهم أخلاق الناس ، وروعة الأسلوب ، وهى مميزات لا نراها مجتمعة مرة أخرى إلا فى شيكسبير ، والمسرحية الثلاثية محبوبة حبكاً قوياً كأن أجزاءها ثلاثة فصول فى مسرحية حديثة ، فكل جزء منها يمهّد للجزء الذى يليه ويستدعيه فى تتابع منطقي محتوم لا مفر منه ، وكلما أعقبت إحدى مسرحيات المجموعة المسرحية التى قبلها تزداد رهبة الموضوع ، ويبدأ الإنسان يلرك كيف كانت هذه القصة تثير أحاسيس اليونان . ولسنا ننكر أن الرواية مثقلة بالكلام الكثير الذى لا يبرره مقتل أربعة أشخاص ، وأن ما فيها من أغان كثيراً ما يكون غامضاً عسير الفهم ، وأن ما فى هذه الأغاني من تشبيهات واستعارات قد بولغ فيه كثيراً ، وأن لغتها فى بعض الأحيان ثقيلة خشنة متكلفة . لكن هذه الأغاني مع ذلك لا يفوقها شيء من نوعها ، فهى مليئة بالعظمة والحنو ، بليغة فيما تدعو إليه من دين جديد هو دين العفو والمغفرة ، ومن فضائل النظام السامى الذى كان يؤذن بالزوال .

ذاك أن الأرسطيا تبليغ من التحفظ ما تبلغه پروميثيوس من التطرف وإن لم يكن بينهما إلا فترة من الزمان لا تزيد على سنتين . لقد جرد إفلتيز الأريبجس من اختصاصه فى عام ٤٦٢ ، وفى عام ٤٦١ قتل ، وفى عام ٤٥٨ عرض إسكلس فى الأرسطيا دفاعاً عن هذا المجلس قال فيه إنه أحكم هيئة فى حكومة أثينة . وكان الشاعر فى ذلك الوقت قد طال أجله وضرسته السنون ، وكان فى وسعه أن يفهم الشيوخ أكثر مما يفهم الشبان ، وكان مثل أرسطوفان يتوق لأن يتحلّى بفضائل رجال مرثون . ويريد أثنيوس منا أن نعتقد أنه كان سكيراً^(٥١) ولكتنا نراه فى الأرسطيا رجلاً مزمناً يعظ الناس من فوق المسرح ، ويحذرهم من الخطيئة وما يتبعها من عقاب ، ويبين لهم ما يعقب الألم من حكمة ، ويشرح قانون العتو والانتقام ، وهو مبدأ آخر من مبادئ الخطيئة الأولى ، ويقول إن كل عمل غير صالح سينكشف يوماً ما ويعاقب مقترفه فى إحدى حيواته : وبهذا حاول التفكير

اليوناني أن يوفق بين الشر والله ، فيقول إن العذاب كله ناشئ من الخطيئة ، ولو كانت خطيئة جليل من الأجيال البائدة . ولم يكن مؤلف بروميشوس تقياً ساذجاً ، ودليلنا على ذلك أن في مسرحياته ، ومنها الأرستيا ، كثيراً من العبارات الدالة على الإلحاد ، وقد اتهم بالكشف عن أسرار الطقوس الدينية ولم ينتج إلا شفاعاة أخيه أمينياس الذي كشف عما أصيب به من جروح في سلاميس^(٥٢) . ولكن إسكلس كان يعتقد واقعاً أن الأخلاق الصالحة لا بد لها أن تعتمد على قوى غير قوى البشر لكي تصمد لقوة الفرائز المضرة بالهيئة الاجتماعية ، وكان يرجو :

« أن يكون هناك واحد يستمع إلى الناس من عرشه الأعلى ، بان أوزيوس أو أبلو ، مطلع على الخلق ، يعاقب على خرق القانون بالغضب ويتعقب من خرقه ، وهو يقصد بهذا » تعذيب الضمير والجزاء الحق »

ومن أجل هذا تراه يحل الدين ويحاول أن يسمو عن الشرك ، ويفكر في التوحيد .

« أي زيوس ، زيوس أينما يكون ، إذا كان يجب أن يسمع هذا الاسم فسوف أدعوه به . أنقب في البر والبحر والهواء ، فلا أجد في مكان ما ملجأ إلا إليه وحده ، إذا نبذ عقل ، قبل موته ، عبء هذا الغرور^(٥٣) » .

وهو يرى أن زيوس هو طبيعة الأشياء مجسدة ، وهو قانون العالم أو علته ، وأن « القانون الذي هو القدر والأب الذي يدرك كل شيء يلتقيان هنا ويصبهان شيئاً واحداً^(٥٤) » .

وربما كانت هذه الأبيات الختامية آخر ما نطق به من الشعر . ويعود بعد عامين من إحراج أرستيا إلى صقلية . ويعتقد البعض أن النظارة ، وهم في العادة أكثر تطرفاً من القضاة ، لم تعجبهم هذه المسرحية الثلاثية ، ولكن يصعب التوفيق بين هذا الاعتقاد وبين ما قرره الأثينيون بعد بضع سنين ،

وعلى خلاف العادة ، من إعادة تمثيل مسرحياته في ملهى ديونيشيس . وقد
أقبل على هذا كثيرون وظل إسكاس ينال الجوائز بعد وفاته . وبينما كان
هذا يحدث إذ قتله نسر في صقلية ، على ما تقول إحدى القصص القديمة ، بأن
ألقى سلحفاة على رأسه الأصلع لأنه حسبته حجراً^(٥٦) . وفيها دفن إسكاس
ونقش على شاهد قبره تلك العبارة التي كتبها بنفسه والتي يدهشنا أنها لم تذكر
شيئاً عن مسرحياته ، والتي يفخر فيها بندوب جراحه .

تحت هذا الحجر يرقد إسكاس ، الذي تحدثنا عن بسالته أيكّة مرثون
أو ملك الفرس ذو الشعر الطويل الذي يعرفه حق المعرفة .

الفصل الرابع

سفكليز

في عام ٤٦٨ انتزع الجائزة الأولى للمأسة من إسكلس قادم حديث
في سن السابعة والعشرين يسمى سفكليز (سوفكل) أى العاقل المكرم : وكان
سفكليز هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤماً . وكان موطنه
الأصلى ضاحية كولونس لإحدى ضواحي أثينة ، وكان ابن صانع سيوف ،
ومن أجل هذا فإن الحرب الفارسية والهللونيكية التي أفقرت الأثينيين كلهم
تقريباً جاءت لهذا الكاتب المسرحى بثروة طائلة (٥٧) . وكان فضلاً عن ثرائه
رجلاً عبقرياً وسيماً جيد الصحة ، نال جائزتي المصارعة والموسيقى — فجمع
بذلك بين كنهاتين لو شهدهما أفلاطون لاغتنبط أشد الاغتناب بوجودهما في رجل
واحد . وقد أمكنته مهارته في لعب الكرة وفي العزف على القيثارة من أن يقيم
حفلات عامة في الفنون ؛ وكان هو الذى اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس
ليقود شبان أثينة العراة في رقصة النصر ونشيده (٥٨) . وقد ظل محتفظاً بهاء
طلعته إلى أواخر أيامه ، ويظهره تمثاله المحفوظ في متحف لاتران Lateran
شيخاً ملتجئاً بديناً ولكنه قوى طويل القامة . وقد نشأ في أسعد عهود أثينة ،
وكان صديقاً لبركليز وشغل في عهده أعلى مناصب الدولة ؛ فكان في
عام ٤٤٣ أمين بيت المال الإمبراطورى ؛ وفي عام ٤٤٠ كان أحد القواد
الذين تولوا قيادة قوات أثينة في الحملة التي سورها بركليز على
ساموس ، وإن كان من واجبا أن نضيف إلى هذا أن بركليز كان
تعجب بشعره أكثر من إعجابه بخططه الحربية . وعين بعد الكارثة
التي حلت بأثينة في سرقوسة عضواً في لجنة الأمن العام (٥٩) ، واقترع

يحكم منصبه هذا على عودة الدستور الأجرى في عام ٤١١ . وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من إعجابه بسياسته ، فقد كان ظريفا ، لبقا ، متواضعا ، محبا للهو ، وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه . وكان يحب المال^(١٠) والغلمان^(١١) ، حتى إذا ما باع من الشيخوخة تحول حبه هذا نحو السراى^(١٢) ، وكان شديد الصريح ، وقد شغل مرارا منصب الكاهن^(١٣) .

وكتب سفكليز ١١٣ مسرحية ؛ لم يبق منها إلا سبع لا نعرف الترتيب الذى خرجت به . وقد نال الجائزة الأولى في الحفلات الديونيشية ثمانى عشرة مرة ، ونالها مرتين في الحفلات اللينائية Lenaeon ، وحصل على أولى جوائزه في سن الخامسة والعشرين وعلى آخرها وهو في الخامسة والثمانين ، وظل يسيطر على المسرح الأثينى ثلاثين عاما ، وكان له عليه من السلطان أكثر مما كان لمعاصره بركليز على الحكومة الأثينية . وهو الذى زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة ، وظل يقوم ببعض الأدوار حتى فقد صوته . وقد غير نظام المسرحية الثلاثية الذى كان يتبعه إسكلس وفضل أن يدخل المباريات بثلاث مسرحيات مستقلة كل منها عن الأخرى (وحذا حذوه يورپديز من بعده) .

وكان إسكلس مولعا بالموضوعات الكونية التى تطفئ على أشخاص مسرحياته ، أما سفكليز فكان مولعا بالأخلاق ، ويكاد أن يكون حليث النزعة في إدراكه للآثار النفسانية . ومسرحية « المرأة التراقينية » في ظاهرها مسرحية غنائية عاطفية ؛ وخلاصتها : أن ديانيرا Deianeira تملكها الغيرة من حب زوجها هرقل لأيوولا Iola فتبعث إليه على غير علم منها بثوب مسمم يقضى عليه فتقتل هى نفسها . وليس الذى يعنى به سفكليز في هذه القصة هو العقاب الذى يحل بهرقل — أى العقاب الذى كان يبدو لإسكلس أنه أهم ما في المسرحية — وليس هو عاطفة الحب القوية نفسها ، — وهى التى كانت تبدو أهم ما فيها في نظر يورپديز — بل الذى يعنى به هو سيكولوجية الغيرة . وفي مسرحية

أجاسكس لا يعنى المؤلف بأعمال القوة التى يقوم بها بطل المسرحية ، بل إن الذى يعنى به هو دراسة رجل ذهب عقله . ولا نكاد نرى فى فلبكتيس حادثة ما ، بل الذى نراه هو تحليل سافر للسذاجة التى أوديت وللخيانة الدبلوماسية . والقصة فى مسرحية إلكترا قليلة الشأن قديمة ، ولقد كان إسكلس يفتن بما تنبره القصة من مشاكل أخلاقية ، أما سفكليز فيكاد يغفل هذه المشاكل فى حرصه على دراسة كراهية الفتاة لأمها دراسة تحليلية نفسانية لا أثر للعاطفة أو للشفقة فيها . وقد اشتق من اسم هذه المسرحية اسم لنوع من الاضطراب العصبى كان موضوع البحث فى يوم من الأيام ، كما اشتق من مسرحية أوديب الملك اسم لنوع آخر من هذا الاضطراب .

وأشهر المسرحيات اليونانية بأجمعها مسرحية أوديب تيزانس ، والفصل الأول من فصولها قوى الأثر : ترى فيه خليطاً من الرجال ، والنساء ، والظلم ، والبنات ، والأطفال جالسين أمام قصر الملك فى طيبة يحملون أغصان الغار والزيتون رمزاً لأنهم جاءوا راجين متوسلين . ذلك أن وباء قد اجتاحت المدينة فاجتمع الشعب يطلب إلى الملك أوديب أن يقرب للآلهة قرباناً يسترضيها به . وتعلن إحدى النبوءات أن الطاعون سيذهب عن طيبة إذا خرج القاتل غير المعروف الذى اغتال ملكها السابق . ويلعن أوديب هذا القاتل أياً كان لعنة شديدة ، لأن جريمته قد سببت هذا الشقاء كله للمدينة ، وبداية المسرحية على هذا النحو خير مثل لتلك الطريقة التى يشير بها هوارس طريقة الاندفاع فى وسط الأشياء *in medias res* أى مفاجأة النظارة بالمشكلة أولاً على أن يأتى شرحها فيما بعد . لكن النظارة فى هذه المسرحية كانوا يعزفون مجرى الحوادث بطبيعة الحال لأن قصة ليوس *Laius* وأوديب وأبى الهول كانت جزءاً من القصص الشعبى اليونانى . وتقول الرواية الماثورة إن لعنة قد حلت بليوس وأبنائه لأنه أدخل إلى هلاس رذيلة غير طبيعية^(٦٤) ، وكانت نتائج هذه الخطيئة التى أهلكت الناس

جيلا بعد جيل موضوعاً شائعاً للمآسى اليونانية ، وقد قال الوحي إن ليوس وزوجته جكستا Jocasta سيرزقان ولداً يقتل أباه ويتزوج أمه ، وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وجد في العالم للمرة الأولى زوجان يريدان أن يكون أول أبنائهما بنتاً ، ولكنهما رزقا ولداً ، وأرادا ألا تتحقق النبوءة فعرضاه للموت على أحد التلال ، حيث وجده راع وسماه أوديب لتورم قلميه ، وأهداه إلى ملك كورنثة وملكتها فتبناه ورياه . ولما كبر أوديب عرف من مهبط الوحي أيضاً أنه قد كتب عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . واعتقد أن ملك كورنثة وملكتها هما أبوه وأمه ، ففر من المدينة واتخذ طريقه إلى طيبة . والتقى في الطريق بشيخ طاعن في السن فتشاجر معه وقتله وهو لا يعرف أن هذا الشيخ أبوه . ولما اقترب من طيبة التقى بأبي الهول ، وهو مخلوق له وجه امرأة ، وذنب أسد ، وجناح طائر . وقد سأل أبو الهول أوديب أن يجيب عن ذلك اللغز المشهور : « ما قولك في مخلوق ذي أربع أقدام ، وثلاث أقدام ، وقلمين ؟ » . وكان أبو الهول يقتل كل من لا يعرف الجواب الصحيح عن هذا السؤال ، واستولى الملع على أهل طيبة واشتدت رغبتهم في تطهير طريق مدينتهم من هذا المخلوق المهول ، فنلروا أن يكون ملكهم الثاني هو الرجل الذي يحل هذا اللغز ، وذلك لأن أبا الهول قد قرر أن ينتحرا إذا عرف إنسان الجواب الصحيح . وأجابه أوديب بقوله : « هو الإنسان ؛ لأن الطفل الرضيع يحب أولاً على أربع أقدام ، فإذا كبر مشى على قلمين ، وإذا هرم استعان بعضاً » . وكانت إجابة عرجاء ، ولكن أبا الهول رضى بها ووفى بوعده فقتل نفسه . ورحب الطيبون بأوديب وعدوه متقدماً لهم ، ولما لم يعد ليوس إلى المدينة اختاروا هذا القادم الحديد ملكاً عليهم . واتبع أوديب العادة المألوفة في المدينة فتزوج الملكة ورزق منها أربعة أبناء : أنتجوني ، وپوليئيسز Polynices ، وإتيكليز Eteocles ، وإزميني Ismene .

وفي المنظر الثاني في مسرحية سفكليز — وهو أقوى منظر في المسرحيات

اليونانية بأجمعها - يأمر أوديب كاهناً من كبار الكهنة بأن يكشف إذا استطاع عن قتل ليوس فيقول إن القاتل هو أوديب نفسه . وليس في الفجائع كلها فجيرة أشد وقماً أو أعظم هولاً من إدراك الملك على الرغم منه أنه هو قاتل أبيه وزوج أمه . وتأتى جوكستا أن تصدق هذا النبأ وتقول إنه حلم فرويدى Freudian (*) ، وتؤكد لأوديب « أن كثيرين من الناس حلموا أنهم ضاجعوا أمهاتهم ، ولكن الذى يرى أن هذه أضغاث أحلام يعيش طول حياته مستريح البال (٦٥) » . ثم تعرف الحقيقة كاملة فتشقى نفسها ، ويجن أوديب من شدة الندم فيفقد عينيه ويغادر طيبة منفياً عنها ، وليس معه من يعينه في منفاه غير أنتجوني .

وفى مسرحية أوديب فى كولونوس (**) وهى الجزء الثانى من مسرحية ثلاثية غير مقصودة ، نرى الملك السابق طريداً ، أشيب الشعر ، متكئاً على ذراع ابنته يطلوف بالمدن يستجدى الناس الخبز ، ويصل فى طوافه إلى كولونوس الظليلة ، وينتهر سفكليس هذه الفرصة فينشد لقريته التى ولد فيها ، ولزيتونها ، أغنية من أحسن الأبيات اليونانية لا تستطيع ترجمتها ترجمة تظهر جمالها يقول فيها :

« أيها الغريب ، إنك تنزل الآن فى هذه الأرض ، أرض الجهاد والفرسان ، تلك أرض لا كثلها أرض سواها ، ها هى ذى كولونوس البيضاء تتلألأ . كم من مرة غنى العندليب بصوته الشجي وهو عائد إلى عشه تخفيه الأيكة الخضراء ، يروى قصته الحلوة الحزينة ... وترى الرجس فى كل يوم يرتشف رضاب الندى فيفتتح ، وتعلوه أول عناقيد من التيجان البيض !

(*) أى من أحلام فرويد العالم النفساني الشهير ، وسوف الحام بأذه (فرويد) من عند المؤلف بطلمة الحال . (المترجم)

(٥٥) كانت مسرحيات أوديب الملك ، وأوديب فى كولونوس ، وأنتجوني تمثل كل منها بحددها مستقلة عن الأخرى .

« وهنا تخرج الأرض عشباً عجيباً لم يتغن أحد بمثله في جزيرة بليس Pelops اللورية القرية ، ولم ينبت قط في أرض آسية البعيدة ، وهو نبات متجدد التضارة على الدوام ، يجدد نفسه ، ويتوالد بنفسه ، يلتقى الرعب في قلوب أعدائها المسلحين : فهو لا يبلغ في غير هذه البلدة ما يبلغه فيها من جمال وازدهار ، بأوراقه الزيشية الملساء ذات الزرقة السنجابية البراقة كالفضة ، والذي يغذى البلدة بعصير زيتونه . ولن تستطيع قوة أو يد تخربة أن تخرب المدينة سواء كانت قوة الشباب الأهوج أو حكمة الشيخوخة المحربة لأن قرص زيوس السماء يرعاها هو والضياء الأزرق المنبعث من عين أينا » .

وكانت نبوءة قد سمعت بأن أوديب سيموت بجوار اليمينيديات ، فلما عرف أنه الآن في أيكتهن المقدسة بكولونس أيقن هذا الشيخ الذي لم يجد في الحياة جمالا أن الموت يحلو في ذلك المكان . وينادى لشسبوس ملك أثينة بأبيات كأنه يخرق بها حجب الغيب ويجمع فيها القوى التي كانت تعمل على إضعاف بلاد اليونان وهي فقر التربة ، وقلة الإيمان وضعف الأخلاق والرجال :

« إن آلهة السماء وحدها هي التي لا تصل إليها الشيخوخة ولا الموت لأي سبب من الأسباب ، وكل ما عداها يعدو عليه الزمان المسيطر على كل شيء ، فتذهب قوة الأرض ، وتذبل زهرة الرجولة ، وينعدم الإيمان ، ويزدهر الإلحاد ازدهار الزهرة ، ومنذا الذي يستطيع أن يجد في شوارع الناس المفتوحة ، أو في مكثون حبه الخفي ريحاً تهب صادقة إلى أبد الدهر (٦٧) » .

ثم يبدو كأن أوديب يسمع نداء إله من الآلهة فيودع أنتجوني وإزميني وداعا رقيقاً ، ويسير إلى الأيكة المظلمة وليس معه إلا ثسيوس وحده .

« وسرنا قليلاً ثم التفتنا فإذا الرجل قد اختفى ، ولم يبق إلا الملك (*) » ، وقد رفع إحدى يديه ليظلل بها عينيه ، كما يفعل الإنسان إذا تراءت له رؤية

رهية مروعة لا تقوى عيائه على التطلع إليها . . . وما من أحد غير ثسيوس يعرف كيف قضى نحبه . . . فلعل لإنساناً أرسلته الآلهة ليهدي خطاه ، أو لعل الأرض قد أشفقت عليه ففقرت فاما وابتلعتة حتى لا يصيبه ألم ، وهكذا اختفى الرجل ولم يخلف وراءه شيئاً نحزن لأجله — لم يترك العالم بعد أن ينهكه المرض والألم ؛ بل اختتم حياته ، إن كان قد اختتمها ، ختاماً عجيباً (٢٨) .

وفي المسرحية الثالثة في ترتيب الحوادث ، والظاهر أنها هي أول ما كتب من المسرحيات الثلاث ، توارى أنتجوني الوفية في قبرها . فقد سمعت أن أخويها پولينيسير وإتيكليز يتنازعا على عرش المملكة ، فعادت مسرعة إلى طيبة ترجو أن توفق بينهما ، ولكنهما لا يصغيان إليها ، ويواصلان الحرب حتى يقضى عليهما ويستولى كريون Creon حليف إتيكليز على العرش ، ويأمر ألا تدفن جثة پولينيسير عقاباً له على ثورته . ولكن أنتجوني تعصى هذا الأمر وتدفن جثة أخيها لأنها تعتقد ، كما يعتقد سائر اليونان ، أن روح الميت لا تقفأ تعذب ما دامت جثته لم تدفن . وفي هذا المقام تغنى فرقة المرتلين أغنية تعد من أشهر أغاني سفكليز :

« ما أكثر العجائب في هذا العالم ، ولكن لا شيء أعجب من الإنسان ، فهو يشق طريقه المحفوف بالآخطار خلال المضيق ذي الماء المزبد فوق متن البحار الصاخبة ، تدفعه ريح الجنوب الهوجاء . والأرض أقدم الآلهة التي لا يعترها نصب ولا وهن يفلحها ويقلبها سنة بعد سنة بمحراثه ونيره المعلق على رقاب جياده .

« ويصيد بفخاخه المنسوجة طيور الهواء الحمقاء ، ووحوش الغاب والفواات ، وسمك البحار المالح . ألا ما أشد مكره . فهو يدلل بجيلة التي لا آخر لها الثور الوحشي والأيل الذي يمرح حرّاً في الجبال ، ويخضع للجامه الجنود الأشعث ذا اللبد . أما الكلام وإسداء النصيح العاجل والذكاء فقد عرفها كلها بنفسه ،

وعرف كيف يسقط المطر السريع وكيف تهب الريح العاتية الطليقة التي تتجمد تحت سماء الشتاء . وهو مستعد لكل ما يصادفه ، فقد عرف كيف يتحمل الوباء الوخيم ، وكيف ينجو من كل ما يصيبه ، ولكنه مع هذا كله لم يجد دواء يرد عنه الموت (٦٩) .

ويحكم كريون أن تدفن أنتجوني حية ، ويحتج ابنها هيمون على هذا الحكم الظالم الرهيب ، فلا يفيد احتجاجه فيقسم لأبيه « إنك لن ترى وجهي بعد الآن » . وهنا لأول مرة يحدث الحب أثره في مأساة سفكليز وينشد الشاعر لإله الحب نشيداً ظل الأقدمون يذكرونه عهداً طويلاً :

« أيها الحب ، يا من لا يقوى على صدك شيء في الكفاح ، كل الناس يخضعون إذا ألقيت عليهم نظرة من عينيك . الحب يرقط طول الليل على خد العلاء ، ويطوى الريا والقفار ، ويشق عباب البحار . أيها الحب يا من يقع الآلهة في أسرك ، هل يقوى الآدميون على النجاة من قبضتك ؟ (٧٠) .

ويحتج هيمون ، ويجد كريون في البحث عنه ويأمر جنوده بأن يفتحوا الكهف الذي دفنت فيه أنتجوني ، فيجدها ميتة ، وإلى جانبها هيمون قد وطلد العزم على الموت .

« ونظرنا ، وفي قبوة الكهف المظلم رأيت الفتاة مخنوقة هناك ، وقد لف حبل من النيل وعقد حول عنقها ، وإلى جانبها حبيبها ممسك بجنتها الهامدة يندب عروسه الميتة . . . فلما أن رآه الملك صرخ صرخة مروعة واتجه نحوه وهو يصبح : « أي ولدي ، ماذا فعلت بنفسك ؟ وماذا يوئلك ؟ وأية كارثة حلت بك فسلبت عقلك ؟ أقبل يا ولدي أقبل ، إن أباك يتوسل إليك » . ولكن ابنه أحلق فيه بعينين كميني النمر ، وبصق في وجهه ، ثم استل سيفه ذا المقبضين دون أن ينبس ببنت شفة وضرب ، غير أن أباه تراجع إلى الوراء فأخطأته الضربة . وغضب الغلام الداعر البائس من نفسه ، فسقط على حد سيفه ،

فنقل السيف في جنبه ، وقبل أن تحمد أنفاسه أمسك الفتاة بلراعيه المسترخيتين ، وقد اصطبغ خدها المصفر بشبهه . وهكذا قضى الاثنان نحبهما ، وأصبحا جثتين هامدتين وحّد بينهما الموت (٧١) .

وأهم ما تمتاز به هذه المسرحيات صفتان لم يلحظ بروعتها مر الزمان ولا عبث المترجمين وهما جمال الأسلوب وسمو الفن . ففيها النموذج الحق لعبارات العصر الذهبي المصقولة ، الهادئة ، الرصينة ، القوية في غير إسراف ، الخزلة الرشيقة ، التي تجمع بين قوة فدياس ورقة برلستيليز . ولا يقل السياق نفسه سمواً عن الألفاظ ، فكل سطر قد وضع في الموضع اللائق به ، وكل سطر يستحوذ على فكرك ويسير بك إلى تلك اللحظة التي تصل فيها الحوادث إلى غايتها ومغزاها . وقد بنيت كل مسرحية من هذه المسرحيات كما تبني المعابد يصقل كل جزء منها على حدة ، ولكنه يوضع في مكانه اللائق به من البناء كله ، إذا استثنينا فيها عيباً واحداً هو أن المؤلف في مسرحية فلكتيوس يقبل في غير جهد فكرة إنزال الآلهة بالآلات (وهي فكاهة من فكاهات يورپدیز) ويعدها حلاً جدياً للعقدة المستعصية على الحل . وأهم النقاط البارزة في حبكة هذه المسرحيات ، وفي مسرحيات إسكلس ، هي أولاً انتقام لغيرسة شديدة وسفاهة في أحد الفصول (كلجنة أوديب للقاتل المجهول) ، ثم معرفة فجائية للحقيقة كانت قبل غامضة ، ثم تعثر الحفظ ، ثم الانتقام الإلهي والعقاب المثلوم . وكان أرسطاطاليس يتخذ « أوديب الملك » مثلاً للمسرحية الكاملة البناء الخالصة من النقص ، وإن مسرحيتي أوديب الآخرين لتوضحان أهم الموضوع تعريف أرسطو للمسرحية ، وقوله إنها تطهير للرحمة والفرح بعرضهما عرضاً موضوعياً . والشخصيات هنا مصورة تصويراً أوضح من شخصيات إسكلس وإن لم تبلغ واقعيتهما مبلغ شخصيات يورپدیز . وفي ذلك يقول سفاكيز نفسه : « إنني أصور الرجال كما يجب أن يكونوا ، أما يورپدیز فيصورهم كما هم » (٧٢) ،

وكانه يعنى بهذا أن التمثيل يجب أن يتجه إلى حد ما نحو المثل العليا ، وأن الفن يجب ألا يكون تصويراً همسياً . ولكن أثر يورپديز يظهر واضحاً في النقاش الذى يدور في الحوار ، وفي استغلال العواطف في بعض الأحيان ، وشاهد ذلك أنا نرى أوديب يغفل صفاته الملكية ويحتاج تيرسياس Teiresias ، ونراه حين يفقد بصره يتحسس أوجه بناته تحسناً يبعث الحسرة في النفس ، أما إسكلس فلو أنه كان في هذا الموقف نفسه لنسى البنات وأخذ يفكر في قانون من القوانين الخالدة .

وسفكلز أيضاً فيلسوف وواعظ ، ولكن نصائحه لا تعتمد على رضاء الآلهة بالقدر الذى تعتمد به عليها نصائح إسكلس . وسبب ذلك أنه قدمسته زوح السوفسطائيين ، وهو وإن كان يستمسك بأصول الدين يظهر في مسرحياته أنه لولا أن الحظ قد واثاه لكان هو ويورپديز سواء . ولكن حساسيته الشاعرية الشديدة تمنعه أن يتلمس المآذير لما يصيب الناس من ضرر لا يستحقونه في أغلب الأحيان . انظر مثلاً إلى قول ليلس Lylus أمام جسم هرقل وهو يتلوى من شدة الألم :

« نحن لم نقترف ذنباً ، ولكننا نقر بأن قلوب الآلهة خالية من الرحمة ، فهم يلدون الأبناء ، ويطلبون أن يعبدوا باسم الآباء ، ولكنهم ينظرون إلى أبنائهم نظرة مليئة بالأحقاد (٧٣) » .

وهو ينطق جوكستا بالسخرية من النبوءات ، مع أن مسرحياته تلور حول هذه النبوءات نفسها وتبدو فيها واضحة ، وترى كريون يندد بالمتنبئين ويقول عنهم إنهم « طائفة لا هم لها إلا جمع المال » ، فيسأل فلكتيئس السؤال القديم « كيف نبرر تصرفات الممء إذا كنا نجد السماء طامنة ؟ » (٧٤) ، ويجب سفكلز عن هذا السؤال إجابة تبعث الأمل في النفس فيقول

إن النظام الأخلاقي في العالم أدق من أن تفهمه عقولنا ، ولكنه نظام قائم بالفعل ، وستكون الغلبة فيه للحق في آخر الأمر^(٧٥) . وهو يحل وحلوا إسكلس فيزي أن زيوس هو نفسه النظام الأخلاقي ، وهو يقترب من الوجدانية أكثر مما يقترب منها إسكلس نفسه . ويشبه الصالحين من الإنجليز في عصر الملكة فكتوريا ، فتراه قوياً في إيمانه بالأخلاق الفاضلة وإن كان غير واثق كل الثقة من دينه ، ويرى أن أرق أنواع الحكمة أن نعرف القانون الذي هو زيوس ، المرشد للأخلاق لهذا العالم ، وأن نتبعه متى عرفناه .

« ألا ليت قدي الثابتين لا تعجزان عن السير في طريق الحق والصلاح .
رليتني أقضى حياتي مبراً من الخطايا في القول والفعل ، مستمسكا بتلك القوانين الأزلية التي تسمو على الدوام إلى أبراج السماء الأثيرية النقية التي نشأت فيها :
ذلك أن موطنها الوحيد هو أولمبس ، ولم تكن هي وليدة حكمة البشر ، ومهما غفل عنها الناس فلإنها مستيقظة لا تنام عيناها أبدا^(٧٦) » .

ذلك قلم سفكليز ولكنه صوت إسكلس ، أو هو الإيمان يقف وقفته الأخيرة في وجه الكفر . وكأننا نشهد في هذا الموقف ، موقف التي والاستسلام للقضاء ، أيوب يتدم على ما فرط منه ويرضى بما كتب له ، ولكننا نلمح بين السطور شيئاً من إلهام يورپديز قبل أن يوجد يورپديز نفسه .

ويرى سفكليز ، كما يرى صولون ، أن أسعد الناس هو الذي لم يولد ، ويليهِ في هذه السعادة من يموت في طفولته . ولقد وجد أحد المتشائمين المحدثين بعض اللذة في ترجمة الأبيات الحزنة في النشيد الجنائزى الذي أنشد عند موت أوديب ، وهي أبيات يظهر فيها الملل من العالم النائي من آلام الشيخوخة ، ومن حرب الهلويونيز حيث يقتل الإخوة ويفتك بعضهم ببعض :

« أى رجل ذاك الذى يتوق إلى طول الأجل ؟ إن عني ترى الحماة

تكتنف كل أساليبه ، وكلما مرت بك السنون تبدلت حياتك سوءاً بعد سوءه .
سوف يقترب منك الحزن ، ويمتنع عن عينيك الشرور . هذا هو الجزء
الذى يناله من يطول أجلهم .

« وخير الناس فى نظرى هو الذى لم يولد (*) ؛ ويليه فى هذا من يولد
ثم يموت لساعته . إن الشباب ليجيء للإنسان بالحقائق التى هى أخف وزناً
من الريش ، ثم تجتمع الشرور كلها فلا ينقصها شر : من غضب ، وحسد ،
وشقاق ، ونزاع ، وسيف يتعقب الحياة . وتختتم هذه المتاعب كلها باقتراب
الشيخوخة التى توهم الجسم فيفر من الأصدقاء والأقارب ، الشيخوخة التى
يتضاعف فيها كل ما تحت قبة السماء من أحزان .

« والذى يتحرر من الكدح ، تنعقد أواصر الصداقة بينه وبين غيره من
الناس ، ولا تصحبه عروس ولا أهل عروس ، ولا يسمع صوت الدفوف
والغناء لأن الموت يقضى على ذلك كله .

ويعرف كل من درس حياة سفكاز أنه كان يتسلى فى شيخوخته
مع حظيته ثيوريس Theoris ، وأنه رزق منها بطفل (٧٨) ، وأن أبوفون
Iophon ابنه الشرعى أقام دعوى على أبيه يتهمة فيها بالسفه ، ولعل
الدافع له إلى هذا خوفه أن يترك الشاعر ثروته لابنه من ثيوريس .
ودافع سفكاز عن نفسه وقدم دليلاً على تمتعه بكامل قواه بعض
مقطوعات قرأها على المحكمة من مسرحية كان يكتبها ، ولعلها كانت
مسرحية « أوديب فى كولونس » ؛ ولم يكتف القضاء بتبرئته من التهمة بل
ساروا يحفون به إلى بيته (٧٠) . ومع أنه قد ولد قبل يورپديز بزمان طويل .
فقد عاش حتى لبس عليه الحداد ، ثم مات فى السنة التى مات فيها هذا
الكاتب سنة ٤٠٦ . ومن الخرافات الشائعة أنه لما حاصر الاسبارطيون .

(*) تذكرنا هذه العبارة والمباراة التى فى مستهل الفقرة السابقة بقول أبي العلاء المعرى :
« تعب كلها الحياة » و « هذا جنه أبى على » : (المترجم)

أثينة ، تجلى ديونيشس إله التمثيل للمتحاربين وشفع لأصدقاء سفكليز ،
فحصل لهم على ممر أمين ، وأمكنهم بذلك أن يدفنوه في مقبرة آبائهم في
ديسيليا Deceleia ، وأجله اليونان وكرموا كذا يكرمون آلهتهم ، وكتب له
الشاعر سيمياس Simmias قبرة هائلة قال فيها :

تسلق بلطف أيها الخلباب إلى حيث يرقد سفكليز في راحته الهادئة ،
وأرسل غداً ترك الصفرء المخضرة على قبره الرخامى ، الذى يفتح حوله
الورد الأرجوانى . ولتدل حوله عناقيد الورد المكتنزة ، وتلقى حول
الحجر أعناقها الصغيرة الجميلة ، جزاء وفاقاً له على حكمته الحلوة التى
هو منشؤها والتى تدعى ربوات الشعر وثالوث الجمال أنها أغانيها

الفصل الخامس

يورپديز

١ - المسرحيات

كما شق جيوتو Giotto الطريق الوعر للتصوير الإيطالي في بداية عهده ، ثم أوصله بروحه الهادئة إلى كماله الفني ، وأتم ميكل أنجلو تطوره بأعماله التي صدرت عن عبقريته المعبدة ، وكما شق باخ Bach بمجهوده الجبارة الطريق الرحب إلى الموسيقى الحديثة ، وأبلغها موزار ببساطتها العذبة الرخيمة إلى أرقى الدرجات ، ثم أتم بهوفن تطورها بمؤلفاته التي لا يدانيها شيء في فخامتها وجلالها ، كذلك شق إسكلس بشعره القوى وفلسفته الصارمة الطريق الذي سارت فيه المسرحيات اليونانية ، وحدد أشكالها ، ثم هلب سفكليز هذا الفن بموسيقاه المتزنة وحكمته الهادئة ، وأتم يورپديز تطوره بمؤلفاته التي تفيض بالشعور الجائش والشك القوى . لقد كان إسكلس مسرحياته واعظاً لا يكاد يقل صراحة عن أنبياء بني إسرائيل ، وكان سفكليز فنانياً سامياً يتشبه بإيمان مزعزع موشك على الانهيار ، وكان يورپديز شاعراً عاطفياً إبداعياً لا يستطيع أن يكتب مسرحية كاملة لأن الفلسفة شتت قواه . وكان هؤلاء هم إشعيا وأيوب والجامعة في كتاب اليونان المقدس .

ولد يورپديز في عام سلاميس ، ويقول بعضهم إنه ولد في يوم سلاميس بالذات ، وأكبر الظن أن مسقط رأسه هو تلك الجزيرة التي يقال إن أبويه فرأ إليها هرباً من الغزاة الميديين (٨٠) . وكان أبوه رجلاً من أصحاب المال والسلطان في مدينة فيلا Phyla الأتكية ، وكانت أمه تنحدر من أسرة شريفة (٨١) ،

وإن كان منافسه أرسطوفان يصر على أنها كانت تدبر حانوت بذال ، وتبيع الفاكهة والأزهار في الطرقات . وقضى يورپدیز أيامه الأخيرة في سلاميس ، مولعاً بعزلة تلالها ، وجمال مناظرها ، وزرقة بحارها ، وكما أراد أفلاطون أن يكون كاتباً مسرحياً فكان فيلسوفاً ، كذلك أراد يورپدیز أن يكون فيلسوفاً فكان كاتباً مسرحياً . ويقول استرابون (٨٢) إنه « تلقى منهج أنكساغورس كله ، ودرس بعض الوقت على پرودكس ، وكان صديقاً حميماً لسقراط ، وبلغ من صلاته به أن بعض الناس يظنون أن قد كان للفيلسوف يد في مسرحيات الشاعر (٨٣) . وكان للحركة السوفسطائية كلها أثر كبير في تعليمه ، واستحوذت عن طريقه على المسرح الديونيشى ، فكان هو فلتير عصر الاستنارة اليوناني ، يعبد العقل ويلمح إلى هذه العبادة في ثنايا مسرحياته التي كانت تمثل لتمجيد إله من الآلهة تلميحاً أفسدها وكان له أسوأ الأثر فيها .

وتعزو إليه سجلات المسرح الديونيشى فضل تأليف خمس وسبعين مسرحية ، بدأت بينات بلياس في عام ٤٥٥ و اختتمت بالباخيه Bacchae في عام ٤٠٦ ، ووصات إلينا منها ثمان عشرة كاملة وهتامات مختلفة من باقي المسرحيات (٨٤) . ومادتها هي أساطير اليونان الأولين ، تتخللها إشارات من التشكك تبسّدو أولاً في حذر ثم تظهر سافرة جريئة بين السطور . ونرى في مسرحية أيون Ion أبا القبائل الأيونية المزعوم وقد وقع في ورطة حرجة : فقد جاء على لسان وحى أهلوان أباه هو أكموثوس Xuthus ، ولكن أيون يكشف أنه ابن أهلوال الذي أغوى أمه ثم خلعها على أكموثوس ، ويسأل أيون نفسه أيمكن أن يكون الإله النبيل كاذباً ؟ وفي مسرحيتي هرقل وألسستيز Alcestis نرى الفقى الغوى ابن

(٥) ظهرت المسرحيات الكبرى بالترتيب الآتى أو ما يقرب منه : ألسستيز ٤٢٨ ، ميديا ٤٣١ ، هبوليتس ٤٢٨ ، أندركى ٤٥٧ ، هكميا ، حوال ٤٢٥ ، المرأة الطروادية ٤١٥ ، إلبونيا في طوديس حوال ٤١٣ ، أرسستيز ٤٠٨ ، إلبجيا في أريس ٤٠٦ ، طباخية ٤٠٦ .

زيوس وألكمينا في صورة إنسان سكير طيب القاب ، له نهم جارجتوا Gargantua وعقل لويس السادس عشر . وتقص مسرحية ألسستيز القصة المنفرة فتصف كيف اشترطت الآلهة نظير إطالة عمر آدميتاس Admetus (ملك فيرى Pherae في تساليا) أن يرضى إنسان ما أن يموت بدلاً منه . وتعرض زوجته أن تقتليه بحياتها ، وتودعه بقصيدة من مائة بيت يستمع إليها في صبر ونبل ، وتُحمل ألسستيز باعتقاد أنها قد ماتت ولكن هرقل يخرج من مجلس الخمر والولائم ، ويجادل الموت ، وينهره ، ويرغمه على ترك ألسستيز ، ويعيد إليها حياتها . ولا يمكن فهم المسرحية إلا على أنها محاولة نخبئة لتسخيف هذه الخرافة(*) .

وتستخدم مسرحية هيبوليتس Hippolytus هذه الطريقة عينها طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه ، ولكن بطريقة أظرف وأكثر دهاء . فالبطل الوسيم هنا شاب صياد يقسم لأرتميس Artemis العذراء إلهة الصيد أن يكون على الدوام وفيأ لها ، وأن يتجنب النساء طول حياته ، وأن يجد أعظم لذته في الأدغال . وتغضب أفرديتي لهذه العزوبة المهينة فتصب في قالب فدرا Phaedra زوجة ثسيوس هيأماً جنونياً هيبوليتس بن ثسيوس . أنتيوني Antiope زوجته المحاربة . وهذه هي أولى مآسي العشق فيما لدينا من كتابات أدبية ، وفيها نجد من بداية الأمر جميع أعراض الحب في أعقد أزماتها وأقوى درجاتها ، وذلك حين يصد هيبوليتس عن فدرا فيتحطم قلبها ، ويلوى غصنها ، وتكاد تقضى من فرط الأسى . وتصبح مرييتها فيلسوفة .

(*) وقد مثلت في عام ١٩٣٨ ، مع ثلاث مسرحيات أخرى بقلم يورهديز ؛ ولعل المقصود منها أن تكون مسرحية نصف خرافية ونصف جدية ، لا مسرحية بين المأساة والمسلاة . وقد أخذ بروولنج Browning في قصيدته Balanation's Adventure هذه المسرحية على ظاهرها مدفوعاً إلى هذا بسلاجه وكرمه نفسه .

على غير انتظار فتأخذ في التفكير في الحياة بعد الموت ، وتظهر في تفكيرها هذا من الشك في هذه الحياة ما لا يقل عن شك هملت فيها :

« ومع هذا فحياة الإنسان كلها ألم وكدر ، وليس ثمة راحة على ظهر هذه الأرض ، وإذا كانت هناك حالة بعيدة أحب إلى الموتى من الحياة فإن يد الظلماء « تقبض عليها وتحجبها في ظلمات من فوقها ومن أسفل منها : ومن الناس من يرغبون في الحياة ويتعلقون بالبقاء على هذه الأرض بهذا الشيء البراق الذي لا أعرف ماذا أسميه ، وذلك لأن الحياة الأجرى نبع مخنوم مغلق ، والأعماق التي من تحتنا لم تكشف لنا ، ونحن نتقاذفنا الخرافات والأكوام إلى أبد الدهر (٨١) » .

وتحمل المربية رسالة إلى هبوليتس تقول إن فدرا ترحب به في فراشها ، ويرتاع هو لهذه الرسالة لأنه يعرف أن التي تدعوه إلى فراشها زوجة أبيه ، وينطلق لسانه بإحدى الفقرات التي اشتهر من أجلها يورپديز بأنه عدو النساء :

« رباہ ! لم وضعت في سبيلنا هذا الشرك البراق ، تلك النساء اللاتي يتعمقن خطانا على ظهر هذه الأرض السعيدة ؟ هل إرادتك هي التي اقتضت أن يولد الإنسان عن طريق الحب والمرأة ؟ (٨٥) » .

ثم تموت فدرا ، ويجد زوجها في يدها رسالة كتب فيها أن هبوليتس أغواها ، ويستشيط ثسيوس غضباً ، ويدعو بوسيدن أن يقتل هبوليتس ، ويحتج الشاب بأنه برىء ولكن أحداً لا يصدقه ، ويخرجه ثسيوس من البلاد . وبينما كانت عربته تمر في سيرها بشاطئ البحر إذ يخرج من الموج أسد ببحر ويطارده ، ويحفل جواداه ويقلبان العرة ويبحران هبوليتس (بعد أن مزقه الجوادان) فوق الصخور حيث يموت شرميتة . وترفع فرقة المنشدين صوتهما بهذه الأبيات التي أدهشت أئينة وأزعجت بلاريب :

« أيتها الآلهة ، يا من أوقعته في الشرك ، إنى أقذف في وجهك كرهى واحتقارى . »

وفى مسرحية ميديا ينسب يورپديز إلى حين غضبه على الآلهة ويصوغ من قصة ركاب السفينة أرجوس أقوى مسرحياته على الإطلاق . فعندما يصل جيسن Jason إلى كلشيز ، تهيم الأميرة ميديا بحبه ، وتساعده على أخذ الجزة الذهبية ، وفى دفاعها عنه تخدع أباه وتقتل أخاه . ويقسم جيسن أن يحبها حباً أبدياً ويأخذها معه إلى أيولكس Iolcus . وهناك تدس ميديا الوحشية الطباع السم إلى الملك پلباس Pelas لكى تجلس جيسن على العرش الذى وعد به ، وإذ كانت شريعة تساليا تحرم الزواج من الأجنبيةات فإن جيسن يعيش مع ميديا عيشة العاشقين بغير زواج وتلد طفلين . ولكنه لا يلبث أن يضيق ذرعاً بشهوتها الوحشية ، ويتطلع حوله باحثاً عن زوجة شرعية ووارث للملكه ، ويعرض أن يتزوج ابنة كريون ملك كورنثة . ويوافق كريون على هذا الزواج وينفى ميديا من البلاد ، ونفكر ميديا فيما ارتكبته من أخطاء ، وتنطق بفقرة من أشهر فقرات يورپديز التى يدافع فيها عن النساء :

« ولم أربى جميع الأشياء التى لا تنمو ويسيل منها الدم ، شيئاً تهشم كما تهشم المرأة . إن علينا أن نقدم كل ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد ، لنبتاع به حب رجل ، ولكننا نبتاع به سيداً ليتصرف فى أجسامنا ! وهذا لعمري أشد ما يؤلمنا فى هذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شريراً ، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا . . . إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدى بها ذلك الشيء الذى ينال بجانبها سبل السلام . وإن التى تجد بعد جهودها للمضيئة الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها ، فلا يتغض عن ظهره عبأها بعنف ، تعد نفسها سعيدة . أما التى تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتقن الموت . إن زوجها إذا مل رؤية وجهها فى داخل المنزل

غادره ، وذهب إلى مكان أرواح من المنزل وأحب منه إلى قلبه ، أما هي فقد كتب عليها البقاء حيث هي ، لا تقع عينها إلا على نفس واحدة . ثم يقولون بعدئذ إنهم هم الذين يلبون نداء الحرب ، على حين أننا نجلس في عقر دورنا وفي حمايتها بعيدات عن كل خطر ! إن هذا لسخرية وبهتان ! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال ، أخوض المعارك وترسى في يدي لأحب إلى من أن أحمل طفلاً واحداً (٨٦) .

ثم تتبع هذا قصة انتقامها الرهيب ، فترسل إلى منافستها مجموعة من الأتواب الثمينة متظاهرة بأنها تريد بذلك أن تسترضيها . وتلبس الأميرة الكورثية أحد هذه الأتواب فتحترق بالنار ، ويحاول كريون أن ينقذها فيحترق هو أيضاً ويموت . وتقتل ميديا أطفالها ، وتخرج بجثثهم على مرأى من جيسن ، وتتشدد فرقة المرتلين هذه الخاتمة الفلسفية :

« لزيوس في السماء ردهات مملأ بالكنوز يفرق منها على بني الإنسان مصائرهم القريبة من خير وشر لم يكونوا يرجونه أو يرهبونه . فأما الغاية التي كانوا يتطلعون إليها فلا ينالونها ، فهناك طريق لم يفكر أحد فيه ! ذلك ما حدث في هذا المكان » .

وتلور سائر المسرحيات في الغالب حول قصة طروادة . ففي مسرحية هلن نرى القصة كما رواها استسكورس Stesichorus وهيرودوت (٨٧) ، فملكه اسبارطة حسب هذه الرواية لا تفر مع باريس إلى طروادة ، بل تنقل رغم إرادتها إلى مصر ، حيث تنتظر عجيء زوجها دون أن يعتدى أحد على عفافها ، ويقول يورپديز إن بلاد اليونان كلها قد خدعتها خرافة هلن في طروادة . وفي مسرحية إلفينيا في أوليس يغمر يورپديز قصة تضحية أبحمنون بفيض من العواطف لم تعهد من قبل في المسرحيات اليونانية ، وبطائفة من أشنع الجرائم التي دفع الناس إليها دينهم القديم . وكان إسكاس وسسفاكيز قد كتباً أيضاً في هذا الموضوع ، ولكن

مسرحتيهما لم تلبث أن نسيت وطفى عليها سناً من المسرحيات الحديثة ؛
وفى هذه المسرحية ينظر يورديز إلى قدوم كليتمنسترا وابتها نظرة
عطف وحنان ؛ ويظهر أرسيز « وهو لا يزال بعد طفلاً رضيعاً لا يستطيع
الكلام » ليشهد خرافة القتل التى تقرر مصيره فيما بعد . وترى الفتاة يحلها
الخفر وتغمرها السعادة وهى تهول لتحيى الملك :

إفجينيا : ما أشد شوقى يا أبته إلى أن أرمى على صدرك بعد هذا
الغياب الطويل ؟ وأوجو ألا يغضبك أننى قد سبقت غيرى
إليك — لأننى مشتاقة إلى طاعتك ولأنك يسرك بكل
السرور أن ترانى . ولكن لم أراك مهموماً محزوناً ؟

أجمنون : إن الملوك والقادة كثيرون المهوم .
إفجينيا : لكن هذه الساعة لى — هذه الساعة لا أكثر . لا تستسلم
للهوم ! .

أجمنون : سأكون كلى لك ؛ فلا تثقتى يا أفكارى . . .
إفجينيا : ومع هذا — ومع هذا — فإنى أرى الدموع تفرق فى عينيك !
أجمنون : نعم ، لأن الغياب فى المستقبل سيطول .
إفجينيا : لست أعرف ، لست أعرف ، يا أبنى العزيز ماذا تقصد ؟
أجمنون : إن فطنتك الرشيدة تضاعف أحزانى .
إفجينيا : سأنطق إذن بالسخف لأدخل السرور على قلبك (٨٨) .

وحين يقبل أخيل تتبين أنه لا يعرف شيئاً عن زواجهما المزعوم ،
يل تعرف بدل هذا أن الجليش قد طال انتظاره للتضحية بها ؛ فتلقى
بنفسها على قدمى أجمنون وتتوسل إليه أن يبقى على حياتها :

لقد كنت أولى أبناءك — وأولى من . قال لك يا أبت ، وأولى من جلسى
على ركبتيك من أطفالك ؛ وتبادلت وإياك الحديث فى مسرات الحياة . وهذا

ما كنت تقوله لى : « أى بنيتى العزيزة ، هل يقدر لى أن أراك ممتعة سعيدة فى بيت سيدك وزوجك الخلق بك ؟ » واحتضنت لحيتك التى أمسك بها الآن متوسلة ، وأجبتك بقولى : « وأنا الأخرى سأرحب بك يا أبت ، حين يبيض شعرك من طول السنين ، فى داخل بيتى الحلو الجميل ، وسأجزيك على حبك لإعزازاً وتكريماً . هذا ما كنا نتحدث به ، أذكره جيداً ، ولكننى أراك تنساه وتريد أن تقضى على حياتى (٨٩) » .

وتندد كليتمسترا باستسلام أبحمنون لهذه الطقوس الوحشية ، وتتوعد بهبارات تحتوى على كثير من المأسى — : « لا تضطرنى إلى الغدر بك » ، وتشجع أخيل على ما يبذله من الجهد لإنقاذ الفتاة ، ولكن إفجينيا تغير رأيها وتأبى أن تهرب :

استمعى يا أماه إلى ما خطر ببالى وأنا أقلب الفكر فى أمى :

لقد اعتزمت أن أموت ، ويسرنى أن أموت هذه الميتة المحيدة — وأن أبعد عنى جميع الأفكار الدينية ... إن هلاس العظيمة أكلها تتطلع إلى ، وما من أحد غيرى يستطيع أن يمد إليها يداً ويسدى إليها تلك النعم : فتسير سفنها ، وتهزم فريجيأ عدوتها ، وتنفذ بناتها من البرابرة فى أيامها المقبلة ، حتى لا يستطيع الناهبون أن يختطفوهن من بيوتهن ويقبضوا بذلك على سعادتهن ، بعد أن يعاقب باريس على اعتدائه واهلن على ما جللت به نفسها من عار : كل هذا الخير ستناله البلاد بموتى ، وسيكون اسمى مباركا محوطاً بالإجلال لأننى وهبت الحرية لهلاس (٩٠) .

وحين يقبل الجنود ليأخذوها تأمرهم ألا يمسوها بأيديهم وتسير طاعة مختارة إلى كومة وقود التضحية .

وفى مسرحية هكيبا تضع الحرب أوزارها ، ويستولى اليونان على طروادة ، ويقسم المنتصرون الأسلاب . وترسل هكيبا زوجة پريام پوليلورس

أصغر أبنائها ومعه كنز من الذهب إلى پولمنستر Polymnestor ملك تراقيا وصديق بريام . لكن پولمنستر بطمع في الذهب فيقتل الغلام ويلقي بجثته في البحر ، فتقذفها الأمواج فوق ساحل إل يون ، وتحمل إلى هكيبا . وفي هذه الأثناء يمنع شبح أخيل الميت الريح من أن تدفع الأسطول اليوناني إلى بلاده ، حتى يضحي له ببولكسينا Polyxena أجمل بنات بريام : ويأتي تليبيوس Talthibius رسول اليونان إلى هكيبا ليأخذ منها الفتاة ، فيجدها ملقاة على الأرض منقوشة الشعر ذاهلة ، وقد كانت منذ قليل ملكة مكرمة ، وينشد أبياتاً من الشعر تدل على تشكك يورپديز :

ماذا أقول يا زيوس ؟ — أقول إنك تنظر إلى الخلق ؟ أم إلى قولنا إن هناك جيلا من الآلهة ليس إلا وهما وخذاعاً كاذباً نستمسك به ولا يجدنا نفعاً وإن المصادقة دون غيرها هي التي تسيطر على جميع مصائر البشر؟^(٩١) .

والفصل التالي في المسرحية المركبة هو المرأة الطروادية . وقد مثلت هذه المسرحية الجزئية في عام ٤١٥ ، بعد أن دمر الأثينيون ميلوس في عام ٤٠٦ بزمان قليل ، وقبيل الحملة التي سبقت إلى صقلية للاستيلاء عليها وضمتها إلى الإمبراطورية الأثينية . وكانت هذه هي اللحظة التي روع فيها يورپديز بالمذبحة التي وقعت في ميلوس ، وبالنزعة الاستعمارية الوحشية التي دفعت الأثينيين إلى مهاجمة سرقوسة ، فجزؤ على الجهر بدعوة حارة إلى السلم ، صور فيها ما حدث تصويراً جريئاً على أنه انتصار من وجهة نظر المغلوبين ، وكان تصويره هذا « أعظم تشهير بالحرب في الأدب القديم »^(٩٢) . وهو يبدأ حيث ينتهي هومر — بعد الاستيلاء على طروادة . فالطرواديون ملقون على الأرض بعد مذبحه جامعة ، ونساوهم قد ذهب الروح بعقولهم ، ومن يخرجون من مدينتهم الخربة ليكن سبائاً للغالبيين . وقبل هكيبا مع ابنتها أندرمكي وكسندرا بعد أن ضحى بحياة بولكسينا ، ويأتي تليبيوس ليأخذ كسندرا إلى خيمة أبهمنون . وتسقط هكيبا على الأرض

من فرط الحزن ، وتحاول أندرمكى أن تواسيها ، ولكنها هى الأخرى يغلب عليها الجزع حين تضم الأمير الصغير أستياناكس Asyanax إلى صدرها وتذكر أباه الميت .

أندرمكى ولقد شددت وتر قومى من زمن بعيد وصوبت سهمى نحو حسن سمعى ، وأدركت أن سهمى قد أصاب هدفه ، ومن أجل هذا فأنا بعيدة كل البعد عن السلام . لقد أحبيت من أجل هكتور كل ما يثنى عليه الرجال فينا ، وبذلت جهدى فى الوصول إليه . لقد عرفت أن التجوال فى خارج البلاد يسئ إلى سمعة المرأة سواء أصابها شر فى هذا التجوال أو عادت منه بريئة طاهرة ، ومن أجل هذا قمعت فى نفسى هذه الرغبة ، وكان تجوالى فى حديقة بيتى ، ولم تلخل قط من باب دارى ألفاظ النساء المستهتر أو أحاديثهن المرحية . ونحدثت إلى قلبى ، ولم أكن أبغى ذلك الحديث ، فسعدت به . وكثيراً ما لزمّت الصمت وأسبلت العين حين كان هكتور يجيئنى ، وحرصت كل الحرص على أساليب الحياة الطيبة وعرفت أين أرشد ، وأين أطيع . . .

ولقد قال الناس إن ليلة واحدة تدلل المرأة وتلقيها فى احضان الرجل . فيا للعار ، يا للعار ! أى شفتين هاتين اللتين توردان المرأة موارد الهلكة وتسمحان للغريب أن يقبلهما ؟ . إن أنثى الحيوان الأعجم ، إن المهرة ، لا تجرى بخالية من المحموم إذا كان رفيقها بعيداً عنها . . .

أى هكتور ! يا أحب الناس إلى ، لقد كنت زوجى ، وكنت كل شئ لى ، كنت أمبرى ، وحكىمى ، يا أشجع الشجعان ! إن رجلاً ما لم يمسنى أو يقترب منى من يوم أن أخذتنى من دار أبى وجعلتنى زوجة لك . . . وها أنت ذا قد دميتُ وقلبتُ فى الحرب إلى الرق وعيش المذلة فى هلاس وراء البحار الكريهة ! .

وتفكر هكيبا فى يوم انتقام بعيد فتأمر أندرمكى أن ترضى بسيدتها

الجديد لعله يسمح لها أن تربي استياناكاس ، حتى يستطيع في يوم من الأيام أن يعيد بيت پريام ومجد طروادة . غير أن اليونان كانوا قد فكروا هم أيضاً في هذا ، ويقبل ثلثيوس ليعلم أن استياناكاس لا بد أن يموت : « لقد قررنا أن يلقي ولدك من فوق سور طروادة العالي ذى الأبراج » . ويتزع الطفل من بين ذراعى أمه ، وتنشبت به أندرمكى إلى آخر لحظة وتودعه وداعاً حاراً وعقلها مشنت مضطرب :

الى الموت يا أحب الناس لى وأعزهم على ، بأيدى رجال صاة غلاظ الكباد ، واتركنى وحيدة فى هذا المكان ، لقد كان أبوك شجاعاً مقداماً ، ومن أجل هذا يقتلونك . . . ولا نجى من يرحمك ! . . . ألا أيها المخلوق الصغير الذى تتلوى بين ذراعى ، ما أذكى هذه الرائحة التى تنبعث من حول عنقك ! أيها الحبيب أعشاباً ضملك هذا الصدر وغذاك ، وهل لى غير غاية قضيت الليالى قلقة أسهر عليك فى مرضك حتى أضنانى السهر ؟ قبلنى قبله واحدة لن تتكرر بعد ذلك أبداً . أمدد ذراعيك وأرفع نفسك حول عنق ، قبلنى الآن وضع شفيتك فوق شفتى . . . آه أيها اليونان الظرفاء ، لقد عثرتم على نوع من العذاب لم يعرف مثله الشرق من قبل ! . . . أسرعوا خلوه ، جروه ، ألقوه من فوق الأسوار ، إن كنتم تريدون أن تلقوه من فوقها ! مزقوه أيها الوحوش ، عجلوا ! لقد خارت عزيمتى فلست أقوى على رفع يدي لأنجى طفلى من الهلاك .

ثم تأخذ فى الهليان ، ويقش علىها ، ويخرج بها الجند ، وحينئذ يظهر منلوس ، ويأمر جنوده أن يأتوه بهلن ، وكان قد أقسم ليقتلها ، وترتاح هكيبا حين تفكر أن هلن ستلقى آخر الأمر جزاءها :

أباركك يا منلوس ، أباركك إن أنت قتلتها ! ولكن حذار أن تنظر لى وجهها لئلا تأسرك فتخر صريعاً !

وتدخل هلن ، لم يمسهما أحد بسوء . ولا تخشى أن تمس بسوء ، تزهو إذ تشعر بأنها جميلة .

هكيا : هل أتيت الآن مزدانة الصدر والجبين ، وهل تتنفسين مع سيدك ما يتنفسه من هواء ، أنت يا ذات القلب الخبيث ، فليطأ رأسك ، ولينفش شعرك ، ولتمزق أثوابك ، فلن يكون من تحتها شيء يرفع من شأنك بل سيكون من داخلها ما يجللك العار لما ارتكبت من الآثام . كن صادق العزم أيها الملك ، وضع على جبين هلاس تاج العدالة ، اقتل هذه المرأة . . . منلوس : صه ، أيها العجوز صه . . . (ثم يلتفت إلى الجند) :

أعدوا لها سفينة كبيرة متعددة الحجرات تجوب فيها البحار . . .

هكيا : إن من أحب مرة سيظل محباً على الدوام .
وحين تخرج هلم ويخرج مناوس يعود ثلثيوس يحمل جثة أستيانا كس القتل !

ثلثيوس : لقد سحرت أندرمكي . . . هذه الدموع في عيني وهي تبكي بلادها من وراء البحار . لقد نظرت إلينا ، وأخذت تتحدث إلى قبر هكتور ، ونرجوايأ كان ما نفعله به ألا نغفل المراسم المرحية في دفن هذا الطفل . . . وأمرتني أن ألقيه في أربطة الموت وأثوابه وأن أضمه بين يديك . . . (تاحل هكيا الطفل) .

هكيا : آه ! أي موت لاقيت أيها الصغير ! . . . أيها اللراخان الرقيقان ، إن صورتكما العزيزة لمي بعينها صورة ذراعيه . . . وبأيتها الشفتان اللتان يشع منهما الكبرياء ، لقد انطبقتا إلى أبد الدهر ! ماذا كانت تلك الكلمات الكاذبة التي نطقت بها وأنت تحبو إلى فراشي ؟ لقد ناديتني بأسماء رقيقة وقلت لي : أي جدتي ، سأقص شعري حين تموتين وأركب على رأس القواد إلى قبرك . لم خدعتني هذا الخلداع ؟ وهأنذا ، العجوز ، الطريدة ، الثكلي ، أبكيك بالدمع الغزير ، أبكي طفولتك وأبكي ميتك التعسة . أي إلهي ! وأبكي خطاك حين نجى لترحب بي ، وأبكي جلوسك في حجرى ، وأبكي رقادنا معاً ! لقد ذهب كل هذا ولن يعود . وكيف يستطيع شاعر أن ينحت شاهد قبرك ليقص قصتك صادقة ؟

« هنا يثوى طفل خافه اليونان ، فقتلوه لأنهم خافوه » . نعم ، وستبارك بلاد اليونان بأجمعها القصة التي يقصها ذلك الشاهد .

ألا ما أشد غرور الإنسان ، إنه يتباهى بمسراته ولا يخاف شيئاً ، ومن حوله صروف الزمان ترقص رقص البلهاء في الريح ! . . . (تلف الطفل في أكفانه) .

إن أحسن الثياب الفرجية التي كنت أحفظ بها ليوم زواجك بإحدى ملكات الشرق بعد أن جبت البلاد القاصية للبحث عنها ، إن هذه الثياب تلفك الآن إلى أبد الدهر (٩٨) . .

وفي مسرحية إلكترا نرى الموضوع القديم قد خطا خطوات إلى الأمام فأجمنون قد مات ، وأرستيز في فوميس ، وإلكترا قد زوجها أمها بفلاح يخلص لها إخلاصاً ساذجاً ، ويرهب أصلها الملكي أشد رهبة ، ولا يؤثر في إخلاصه لها ورهبته إياها طول تفكيرها في أمرها وإهمالها شئونه . وبينما هي تفكر هل يعثر عليها أرستيز ويأتي إليها إذ يأمره أهلو نفسه (ويؤكد يورپديز هذه النقطة ويحرص على إبرازها) بأن يثار لموت أجمنون . وتستفزه إلكترا ، وتقول إنه إذا لم يقتل السفاح فستقتله هي ، ويبحث الصبي عن إيجشس ويقتله ثم ينقلب على أمه . وتبدو كليتمسترا هنا عجوزاً شمطاء ، ذليلة ، منهوكة القوى ، ويؤنبها ضميرها على جرائمها ، يتنازع قلبها خوف الأطفال الذين يكرهونها وحبا لإياهم في نفس الوقت ، وتطلب الرحمة في غير توسل ، وترضى إلى حد ما بما جوزيت به على ذنوبها . وحين ينتهي القتل يرتاع أرستيز من هول ما حدث ويقول : شقيقتي هل لمستها مرة أخرى ، واحسرتاه غطى جسدها ، وضعى عليه ثوبها الجميل ، وسدى هذا الجرح الأحمر المميت . أي أماء ، هل كانت نتيجة آلامك أن ولدت قاتلك (٩٩) ؟ .

ويسمى يورپديز الفصل الخامس من فصول المسرحية إفجينيا في توريسر

أو إفجينيا بين التورين . وفيه يبدو أن أرتيمس قد وضعت على كومة الحريق في أوليس غزالة بدل ابنة أبحمنون ، واختطففت الفتاة من الاله ، وجعلتها كاهنة في معبد أرتيمس بين التورين أنصاف المهرج سكان القرم . وكانت عادة التورين أن يضجوا للآلهة بكل غريب تطأ قدمه بلادهم ، وتقوم إفجينيا بدور العاملة البائسة الشقية التي تقدم الضحايا . وكانت الثمان عشرة سنة المليئة بالأحزان التي قضتها خارج بلاد اليونان قد بلدت ذهنها . وكان أبلو قد وعد أرسيتز على لسان الوحي أن ينزل السكينة على قلبه إذا انتزع من التورين صورة أرتيمس المقدسة وجاء بها إلى أتكنا . ويبحر أرسيتز وبيلاديز ويصلان آخر الأمر إلى أرض التورين ، ويقبلهما هؤلاء الناس ويرونهما هدية طيبة أهدها البحر إلى أرتيمس ، ويسرعون بهما ليلبحوهما على مذبحها . وتنتاب أرسيتز نوبة عصبية ينجر على أثرها مغشياً عليه عند قدمي إفجينيا ، وهي ، وإن كانت لا تعرفه ، تأخذها الشفقة عليه حين ترى رفيقين في نضرة الشباب يساقان إلى الموت :

إفجينيا : إن أحداً من الناس لم يعط علم بداية أحزانه أو نهايتها ؛ ذلك أن الله خفي ، وأساليبه كلها تخفيها المصادفات العمياء عنا فلا نعرفها ؛ ألا أيها الرجلان الشقيان ، من أين جئتما ؟ . . . ومن أمكما . . . ؟ ومن أبوكما ؟ أفصحا أيها الغريبان ، ومن هي أختكما إن كانت لكما أخت ؟ ولم تركاها من غير أخوة وكلاكما في ميعة الصبا ونضرة الشباب وشجاعته . . . ؟

أرسيتز : ألا ليت بد أختي تسبل عيني وأنا مسجى على فراش الموت !

إفجينيا : واأسفاه ، إنها تعيش تحت سہاوات بعيدة ، ودعاؤك أيها الشقي لا يجديك نفعاً . ولكنك من أرجوس ، ومن أجل هذا فسأقدم لك كل ما في وسعي من عناية ، و لن أضن عليك بشيء منها . سأتيك بثياب ثمينة تدفن فيها ، وبزيت يبرد كومة حريقك حين يلفها الاله اللهب الذهبي ، وسألقى عليها الشهد الذي جمعه النحل الطنان من آلاف الأزهار الجبلية لكي يغني معلق في وسط العبير .

(٢١ - ج ٢ - مجلد ٢)

وتعدهما بأن تنجيهما إذا حملا معها إلى أرجوس رسالة تأمرهما بأن
يتقشاهما في ذاكرتهما .

إفجينيا : قولا « لأرستيز بن أبحمنون إن التي قتلت في أويس ، والتي
قتلتها بلاد اليونان ولكنها لا تزال حية ، إن إفجينيا تبعث إليه السلام » .
أرستيز . إفجينيا ! أين هي ؟ أعادت من بين الأموات ؟
إفجينيا أنا هي ! ولكن لا تتكلم حتى لا تفسد على " تدبرى . " خلفي
يا أخى إلى أرجوس قبل أن أموت .

ويريد أرستيز أن يضمها بين ذراعيه ، ولكن الحراس يمنعونها ، لأن
كاهنة أرتميس لا يصح أن يمسا إنسان . ويعلن أنه أرستيز ، ولكنها
لا تصدقه فيقنعها بأن يذكر لها القصص التي روتها لها إلكترا .

إفجينيا : أهذا هو الطفل الذى عرفته ، الطفل الصغير قد انتقل خفيفاً
كما ينتقل الطير ؟ . أى أرض أرجوس ، أيها الموقد ، أيها اللهب المقدس
الذى أشعلك سكلوبس الشيخ ، إلى أباركك لأنه عاش ، ولأنه نما ، وصار
ضياء وقوة ، أخى وابن أبى ، إلى أبارك اسمك إلى أبد الدهر (٩٥) .

ويعرضان عليها أن ينجياها من أسرها ، وتساعدنها هي على أن يأخذا
صورة أرتميس . ويستطيعان بحيلتها الماهرة أن يصلا آمنين إلى سفينتهما ،
ويحملان التمثال إلى برورون Brauron . وفيها تصبح إفجينيا كاهنة ، وتصبح
بعد موتها إلهة معبودة . ويتخلص أرستيز من ربات الانتقام ، وينعم بالطمأنينة
والسلام بضع سنين ، وتروى الآلهة غليلها وتم مسرحية أطفال تفتالوس .

٢ - يورپديز الكاتب المسرحى

لا مناص لنا من أن نوافق أرسطاطاليس عن أن هذه المسرحيات ، إذا
نظرنا إليها من ناحية الفن المسرحى ، لا تصل إلى المستوى الذى وضعه له إسكلس

وسفكليز^(٩٦) . نعم إن مسرحيات ميديا ، وهولييتس ، والباخيات قد رسمت لها خطة محكمة ، ولكن هذه المسرحيات نفسها لا يمكن مع ذلك أن توازن من حيث سلامة التركيب والبناء بمسرحية أرسيتيا ، أو من ناحية الوحدة المعقدة بمسرحية أوديب الملك . ذلك أن يوربديز لا يثب دفعة واحدة إلى الحادثة الهامة في المسرحية فيعرضها ثم يفسر بعد ذلك مقلداتها تفسيراً تدريجياً طبيعياً في سياق القصة ، بل نراه يستخدم الوسيلة المصطنعة وسيلة المقدمة التمهيدية ؛ بل يفعل ما هو أسوأ من هذا فيضعها على لسان إله من الآلهة . وهو لا يظهر لنا هذه الحادثة من بادئ الأمر كما يقضى بذلك فن التمثيل ، بل نراه يأتي في كثير من الأحيان برسول يصفها وإن لم يكن فيها شيء من العنف . يضاف إلى هذا أنه لا يجعل الغناء الجماعي جزءاً من الحوادث التي تمثل ، بل يحوله إلى عمل فرعي ثانوي ، ويستخدمه لوقف تطور حوادث المسرحية بما يتضمنه من أغان جميلة على الدوام ، ولكنها كثيراً ما تكون عديمة الصلة بتلك الحوادث . وهو لا يعرض ما يريد من آراء عن طريق الحادثات التي تتضمنها المسرحية ؛ بل يعتمد على استبدال الأفكار بالحداثات ويجعل المسرح مدرسة للتأمل والبلاغة والجدل . وما أكثر ما تعتمد حركات مسرحياته على المصادفات « والذكريات » - وإن كانت الأفكار هنا حسنة التنظيم ومعرضة عرضاً مسرحياً صادقا . وتختتم معظم مسرحيات يوربديز بإله ينزل من آله (كما كان يفعل بعض الكتاب من قبله) ، وتلك وسيلة لا يمكن أن نفتقروا له إلا إذا افترضنا أن المسرحية الحقيقية قد اختتمت قبل هذا الحيلة الدينية . وأن الإله لم ينزل إلا لكي يختم التمثيل بخاتمة فاضلة لولاها لكان في نظرهم شائناً فاضحاً^(٩٧) . وقد استطاع عظماء الكتاب الإنسانيين دون غيرهم أن يعرضوا بهذه الوسيلة مروقهم ولحادهم على المسرح :

أما مادة المسرحية فهي ، كصيفتها وشكلها ، خليط من العبقرية والصناعة ، وسبب ذلك أن أهم ما يمتاز به يوربديز هو الإحساس المرهف كما يجب أن

يكون سائر الشعراء . وهو يحس بمشاكل الجنس البشرى إحساساً قوياً ويعبر عنها تعبيراً موثقاً عظيم الوقع في النفوس ؛ ومأسية أشد المآسى فجائع وهو أعظم كتابها إنسانية ، ولكن إحساسه يكون في أغلب الأحيان مفرطاً في الخنوع أو متكلفاً له ؛ و « إذرافه الدمع السخين » (٩٨) ، أيسر مما يجب أن يكون ؛ وهو لا يدع فرصة تفلت منه ويستطيع أن يظهر فيها أما تفارق طفلها ، ويتزعج كل ما يستطيع انتزاعه من العواطف من كل موقف من المواقف ؛ وتلك المناظر دائمة الحركة ، وهو يصفها في بعض الأحيان بقوة لا تعادلها قوة أى وصف من المآسى قبله أو بعده ، ولكنها تنحط أحياناً إلى التمثيل الشجوى الغنائى وتتخيم بالعنف والرعب كما ترى في خاتمة مسرحية ميديا ، وقصارى القول أن يورپديز في بلاد اليونان هو بيرن ، وشلى ، وهوجو ، مجتمعين ، وهو بمفرده حركة إبداعية كاملة .

وهو يفوق منافسيه في تصوير الشخصيات ، ويحل عنده التحليل النفسى ، أكثر مما يحل عند سفكليز نفسه ، محل تصارييف القضاء . وهو لا يمل من تقصى القوانين الأخلاقية والبواعث التى تحدد سلوك بنى الإنسان . ويدرس أنواعاً مختلفة من الرجال : من زوج إلكترا الفلاح إلى ملوك بلاد اليونان وطروادة ؛ ولسنا نجد كاتباً مسرحياً غيره قد صور مثل ما صور هو من أصناف النساء المختلفة ، أو صورها بمثل ما صورها هو من العطف عليها ، فقد كان كل لون من ألوان الرذيلة أو الفضيلة يهيم ويستوعب انتباهه ، فيصوره تصويراً واقعياً . وهو في هذا يختلف عن إسكلس وسفكليز ؛ فقد كان هذان الكاتبان مستغرقين فيما هو عام وأبدى استغراقاً عجزاً معه عن رؤية ما هو فردى ومؤقت سريع الزوال ؛ وقد خلقا بذلك أصنافاً من الشخصيات عميقة غير عادية ، أما يورپديز فقد صور أفراداً أحياء ، وحسبنا شاهداً على هذا أن أحداً ممن عاش قبله لم يتصور إلكترا بمثل الوضوح الذى تصورهما هو به . وفي هذه المسرحيات نرى المسرحيات التى تمثل الصراع مع الأقدار تتخلى عن مكانها شيئاً فشيئاً إلى المسرحيات التى

تمثل المواقف والأخلاق ، وهى تمهد السبيل للمسلاة الخلقية التى استحوذت
فى القرن التالى على المسرح اليونانى على أيدى فلمون Philemon ،
ومتندر Menander .

٣ - يوربديز الفيلسوف

لكن من السخف أن يكون أهم ما نقدر به يوربديز هو مسرحياته ،
ذلك أن أهم ما يعنى به لم يكن الفن المسرحى ، بل كان البحث الفلسفى
والإصلاح السياسى ، فهو وليد السوفسطائيين ، وشاعر الاستنارة ، وممثل
الشباب المتطرف الذى كان يسخر من الأساطير القديمة ، ويرنو بطرف إلى
الاشتراكية ، ويدعو إلى نظام اجتماعى جديد يعل فيه استغلال الرجال
للرجال والرجال للنساء ، واستغلال النولة لهولاء وأولئك ، وهذه النفوس
الثائرة هى التى كان يكتب لها يوربديز ، وهى التى كان من أجلها يضيف
إلى مسرحياته تلك الغمزات المتشككة ، ويحشر مئات الضلالات بين سطور
مسرحياته الدينية المزعومة ، وهو يغطى هذه وتلك بفقرات مليئة بعبارات
التقى والصلاح وبالأغاني الوطنية . وكان يعرض الأساطير المقلسة بحرفيتها
فيبدو ما فيها من سخافات وأباطيل واضحا جليا ، ومع ذلك فإن أحدا
لا يستطيع أن يتهمة بالمروق من الدين ، وهو يدعو فى مسرحياته بوجه عام
إلى التشكك فى الآلهة والدين ، ولكنه يوجه ألفاظها الأولى والأخيرة إلى
الآلهة . ويرجع بعض ما يمتاز به من الدهاء والذكاء ، كما يرجع دهاء رجال
دوائر المعارف الفرنسيين وذكاءهم ، إلى أنه قد أرغم على أن يفصح عن
آرائه وهو يحاول إنقاذ حياته . ولقد كان شعاره هو شعار لكريشيوس :

Tantum religio potuit suader emelorum . ما أكثر الشرور التى

يدفع إليها الدين : نبوءات تولد العنف فى أثر العنف ، وأساطير ترفع من شأن
الفساد الخلقى بما تضربه من أمثلة قديمة ، وما تعلنه من رضا الآلهة عن الخيانة

والزنا والتلصص ، والتضحية بالآدميين ، والحروب . وهو يصف العراف بأنه « رجل ينطق بقليل من الحقائق وكثير من الأباطيل »^(٩٩) ، ويقول ؛ إن « من البلاهة المحضة » تعرف المستقبل بالفحص عن أحشاء الطير^(١٠٠) ؛ ويندد بجميع الوسائل التي تستخدم لمعرفة الغيب واستنزال الوحي^(١٠١) ؛ وأهم من هذا كله أنه يستنكر أشد الاستنكار ما تؤدي إليه الخرافات الرائجة من نشر الفساد ويقول :

سيلرك الناس أن لا وجود لآلهة ، وأن لا ضوء في السماء ، إذا كان الباطل سيقب الحق في آخر الأمر . . . لا تقل إن في السماء زانياً وزانية ، وآلهة مسجونين وآلهة سجينين : لقد أحس قلبي من زمن بعيد أن هذه خسة ودناءة ، ولن أتحول قط عن هذا الإحساس . . . إنما هذه كلها أقاصيص كاذبة ، شأنها شأن الحفلات الممجة التي تقام لتنتالوس ، وللآلهة التي تمزق أجساد الأطفال . إن هذه الأرض أرض السفاحين قد خلعت على الآلهة ما تنصف به هي من جشع وشهوانية . والشر ليس مقره السماء . . . وهذه كلها أقاصيص ميتة آثمة من اختراع المغنين^(١٠٢) .

وتراه أحياناً يقلل من حدة هذه الفقرات بترانيم لديونيئشس أو مزامير دينية للآلهة مجتمعة ، ولكنه في بعض الأحيان ينطق إحدى شخصياته بتشككه في الآلهة جميعاً :

هل في الناس من يقول إن في السماء آلهة ؟ كلا ! ليس في السماء آلهة ، ليس فيها آلهة ، لا تسمحوا لأحد هؤلاء الحمقى الذين غرهم هذه الخرافات الباطلة أن يخدعكم ويضللكم هذا الضلال . انظروا إلى الحقائق في ذاتها ، ولا تنفخوا بكلماتكم أكثر مما تستحق أن يوثق بها ؛ إنى أصارحكم أن الملوك يقتلون ، وينهبون ، ويبحثون في أيامهم ، ويغربون المدن زوراً وغدراً ، ولكنهم رغم هذه الآثام أسعد حالاً من الذين يحيون حياة هادئة ملوهاً بالتق والصلاح^(١٠٣)

وهو يبدأ مسرحية ميلاني المفقودة بهذين البيتين اللذين يثيران أعظم الدهشة :
أى زيوس ، إن كان ثمة زيوس ، لأننى لا أعرف عنه إلا ما يقوله
الناس فيه .

ويقان إن النظارة حين سمعوا هذا القول هبوا واقفين احتجاجاً عليه ،
وهو يحتم هذه المسرحية بقوله :

والآله الدين يعدهم البشر حكماً ، ليسوا أكثر وضوحاً من أحلام
مجنحة ، ولا تختلف أساليبهم عن أساليب الآدميين ، نهى كلها فوضى
واضطراب يتلوه اضطراب . ومن أراد أن يكون أقل الناس علماً ،
وآلا تعنى بصيرته كما يعنى الكهنة بمصائر البلهاء ، يمحى إلى الموت الذى
يعرفه من يعرفونه (١٠٤) .

وهو يعتقد أن مصائر الناس نتيجة لأسباب طبيعية ، أو للمصادفات
العمية ، وليست من تدبير قوى عاقلة مفكرة تنصفها كائنات تسمى
على الكائنات البشرية (١٠٥) ، ويفسر بعض ما يظنه الناس معجزات تفسيراً
يستند إلى العقل والمنطق : فيقول مثلاً إن ألسنتي لم تمت حقاً ، بل أخذت
لكى تدفن حية ، ولكن هرقل أدركها قبل أن تموت (١٠٦) وهو لا يقول
لنا صراحة ما يعتقد هو نفسه فى هذا ، ولعل منشأ ذلك هو شعوره بأن
ما يورده من الشواهد لا يؤدى إلى الاعتقاد الواضح ، لكن عباراته التى
هى أكثر ما يمتاز بها عن غيره هى العبارات الدالة على الإيمان بوحدة
الوجود ، وعلى العقيدة التى أخذت من ذلك الوقت تحمل عند المتعلمين من
اليونان محل عقيدة الشرك القديمة :

يا صاحب الأساس العميق الذى يقوم عليه العالم ، ويا ذا العرش
الرفيع الذى يعلو على العالم ، أيا كنت ، يا من لا نعرفك ويصعب علينا أن
نتصورك ، يا منسق الموجودات ، ويا عتل عقولنا ، إليك يا الله أرفع
صوتي بالثناء ، لأننى أرى فىك السيل الصامتة التى تأتى بالعدالة ، قبل أن
يصل إلى نهاية أجله كل من يحيا ويموت (١٠٧) .

والعدالة الاجتماعية هي النعمة الصغرى في أغانيه ؛ وهو يتمنى ، كما يتمنى جميع من امتلأت قلوبهم عطفاً على الخلق ، أن يحين الوقت الذى يكون فيه الأقوياء أكثر مما هم عطفاً على الضعفاء ، والذى يقضى فيه على أسباب البؤس والنزاع (١٠٨) ؛ وتراه حتى في أيام الحرب ، وما تستلزمه من إثارة الروح الوطنية والحماسة للقتال ، يصف مصائب الحرب وأهوالها وصفاً واقعياً لا يخفى فيه شيئاً هذه الأهوال :

كيف تعمى عيونكم يا من تدكون المدن ، وتخربون المعابد ، وتدمرون القبور ، تلك الأجدات المحرمة التى يثوى فيها الموتى القدامى ؟ ألا تعلمون أنكم عما قريب ستموتون (١٠٩) ؟ :

ويمتلئ قلبه حسرة حين يرى الاثنين يقاتلون الاسبارطيين ، وتلوم الحرب بينهم خسين عاماً ، يستعبد فيها بعضهم بعضاً ، ويهلك فيها خير رجالهم ، ويدعو في إحدى مسرحياته المتأخرة دعوة حارة مؤثرة إلى السلام :

« أيتها السلم ؛ إنك تفيضين بالخير العميم كأنك تأتين به من نبع عميق ؛ ليس في العالم كله جمال كجمالك ، بل إنا لا نرى له مثيلاً حتى بين الآلهة الأخيار . إن قلبي يكاد يتفطر لطول غيابك ، لقد وهن العظم منى ولم تعودى ؛ وهل نكل عيناى قبل أن تريا زهرتك وجمالك ؟ وهل يقضى على المشيب والأحزان قبل أن تسمع أذناى مرة أخرى أغاني الراقصين الشجية ووقع أقدام من تطوق رؤوسهم أكاليل الزهر ؟ ألاعودى إلى مدينتنا أيتها الحبيبة المقدسة ولا تقيمي بعيدة عنا يا من تطفئين الحقد . إن العداوات والأحقاد ستفارقنا إذا أقمت معنا وسيخرج من أبوابنا الجنون وظبا السيوف (١٠٩) .

ويكاد يفرد من بين كتاب عصره العظام بالجرأة على مهاجمة الرق . ذلك أنه قد اتضح له في أثناء حرب البلوونيز أن معظم الأرقاء لم يكونوا كذلك بطبيعتهم ، بل إنهم قد ساقتهم إلى هذه الحال ظروف الحياة وحدها ؛

وهو لا يعترف بوجود أرستقراطية طبيعية ، ويرى أن البيئة لا الوراثة هي التي تخلق الرجال . والأرقاء في مسرحياته يضطلعون بأدوار هامة ، وكثيراً ما ينطقون بأجل أشعاره . وهو حين يبحث حال النساء يعطف عليهن عطف الشاعر الواسع الخيال ؛ فهو يعرف أغلاطهن ويعرضها عرضاً واقعياً جعل أرسطوفان يتهمة بأنه يكره النساء ؛ ولكنه في الحقيقة قد عرض قضية المرأة أحسن مما عرضها أى شاعر قديم آخر أيد حركة تحريرها التي كانت وقتئذ في بداية عهدها . وتكاد بعض مسرحياته أن تكون حديثة الطابع ، تحتوى على دراسات في مشاكل الجنس البشرى كالدراسات التي نشأت بعد أيام إبسن Ibsen بل إنها تحتوى على دراسات في الشلوذ الجنسي نفسه (١١٠) . وهو يصف الرجال وصفاً واقعياً ، أما النساء فوصفه لإيهن ينطوى على كثير من الشبهة ، وتثال ميديا الرهيبة من عطفه أكثر مما يتاله جيسن البطل غير الوفي ؛ وهو أول كاتب مسرحى جعل المسرحية تلور حول الحب ؛ حتى لقد كان آلاف من شباب اليونان يتغنون بأغنيته إلى إيروس إله الحب في مسرحية إندرمدا التي لم تحصل إلينا :

« أيها الحب ، إلها ، ملك الآلهة والبشر ! هلا امتنعت عن تعليمنا ما هو الحب ؟ أو ساعدت الهبين المساكين ، الذين تشكلهم كما تشكل الطين ، كي يصلوا بكدهم وجدهم إلى غاية موفقة سعيدة (١١١) » .

ويورديز بطبيعته متشائم ، لأن كل من يروى قصص الحب يصبح متشائماً حين تصطدم الحقيقة بالخيال ، وفي ذلك يقول هوراس وولبول Herases Walpole : « إن الحياة مسلاة عند من يفكرون ، ومأساة عند من يحسون (١١٢) » : ويقول شاعرنا :

لقد نظرت من أمد بعيد إلى حياة الإنسان فلم أجد إلا خيالا أشعث .
وفي وسعي أن أوكد أيضاً أن الذين يعدون من بين الناس حكماء ، شديدي
الدكاء ، مبتدعين لأعظم الخطط ، يحزون على هذا شر الجزاء . وهل

أبصرت عين الله مـذ بدأت الحياة رجلاً واحداً سعيداً (١١٣) ؟ .

وهو يعجب من جشع الإنسان وقسوته ، ومن الشريرين وسعة حيلهم ،
ومن اختطاف الموت للناس اختطافاً دنيئاً خبط عشواء : وهو ينطق الموت
في بداية مسرحية أليس بقوله : « أليست مهمتي أن أقبض أرواح المقضى
عليهم ؟ » ، ويحييه أيلو بقوله : « لا ، بل مهمتك أن تقبض من نضجوا
ووصلوا إلى الشيخوخة الكاملة » . ومن رأيه أن الموت إذا جاء بعد أن يحيا
الإنسان حياته كاملة كان أمراً طبيعياً ، لا يصح أن يقضب أحد منه : « لو أن
كل جيل من الناس جاء في أثر الجيل الذي قبله ، وازدهر ثم ذبل ، ثم انقضى
أجله ، كما يأتي الحصاد بعد الحصاد على مر السنين ، لو أن هذا حدث
لما بكينا صروف الزمان وما تصيينا به الأقدار : إن هذا هو الذي تجري به
سنن الطبيعة ، ومن واجبتنا ألا نبتئس بما تجعله قوانينها أمراً محتوماً لا مفر
منه (١١٤) » . وينتهي أمره إلى الرواقية : « اصبر كما يجب أن يصبر الرجال ،
ولا تفضجر (١١٥) » . وتراه من حين إلى حين يحلو وحلو أنكسيانس *Anaximenes*
ويستبق فلسفة الرواقين فيوامي نفسه بالتفكير في أن روح الإنسان جزء من
الهواء المقدس ، النيوما *Pneuma* ، وفي أنها ستبقى بعد الموت جزءاً من
روح العالم (١١٦) .

من يلرى ؟ لعل هذا الذى نسميه موتاً هو حياة ، ولعل ما نسميه حياة
هو الموت ؟ وكل ما هنالك من فرق أن الناس وهم أحياء يقاسون مرارة
الأحزان ، فإذا ما أساموا الروح ، لم تبق لديهم أحزان ، ومن ثم
لا يحزنون (١١٧) .

٤ - يورپديز الطريد

إن الرجل الذى نصوره من مسرحياته هذا التصوير ليشبه تمثاله الجالس فى متحف اللوفر ، وتمثيله النصفية فى نابلى ، شهماً يحملنا على الاعتقاد بأن هذه التماثيل منقولة نقلاً أميناً عن أصول يونانية حقيقية . فوجهه الملتحي وسيم ، ولكنه أضناه التفكير ، ورققه الحزن الحنون ، ويتفق أصدقاؤه وأعداؤه على أنه كان مكتئب الطبع يكاد أن يكون نكدأ ، لا يميل إلى المرح أو الضحك ، وأنه قضى سنه الأخيرة فى عزلة فى أرض الجزيرة التى ولد فيها . وكان له ثلاثة أبناء ذكور كانت طفولتهم سبباً فيما استمتع به من سعادة قليلة (١١٨) . وكان يجد سلواه فى الكتب ، ومبلغ علمنا أنه كان أول مواطن فرد فى بلاد اليونان جمع لنفسه مكتبة كبيرة (*) (١١٩) . وكان له أصدقاء أختيار ، منهم پروتاغوراس ومنهم سقراط ، ولم يكن ثانيهم يهتم بالمسرحيات ولكنه كان يقول إنه لا يتردد فى أن يسير إلى بيديه مشياً على قدميه ليشهد مسرحية من مسرحيات يورپديز ، وذلك لعمزى قول خطير لصدوره من فيلسوف كبير . وكان الجليل الناشئ من تحررت عقولهم ، من أسر التقاليد يعادونه زعيماً لهم ، ولكنه كان له من الأعداء أكثر مما كان لأى كاتب آخر فى تاريخ اليونان . وقد اقتصر القصصاء الذين كانوا فيها نظن يرون

(٥) لقد كان فى بلاد اليونان على الدوام دور كتب تقتنيها الدولة أو الملوك كما رأينا فى خلال هذه الفتره ، ويمتازت تتج هذه المجموعات فى مصر إلى أيام الأسرة الرابعة . وكانت المكتبة اليونانية تتألف من مافات مرتبة فى هيون صوان . وكان نشر الكتاب عندهم يعنى أن مؤلفه أجاز نسخ مخطوطة ونشر النسخ المنقولة عنه . فإذا حدث هذا جاز بعد ذلك كتابة عدة نسخ من المخطوط من غير حاجة إلى إذن المؤلف أو الحصول منه على « حق النشر » . وكانت النسخ المنقولة من المؤلفات المنقولة من المؤلفات الشعبية المتداولة كثيرة العدد ولم تكن كثيرة التكاليف . ويعد هذا أفلاطون فى الأبولوجيا أن رسالة ألكساندروس فى الطبيعة يمكن شراؤها بدرخمة واحدة (أى ريال أمريكى) ، وقد أصبحت أثينة فى عصر بركليز مركز تجارة الكتب فى بلاد اليونان .

أن واجبهم يقضى عليهم بأن يحرموا الدين والأخلاق من مهام تشككه ،
اقتصروا هؤلاء القضاة على تنويع خمس من مسرحياته بتاج النصر ، ولقد كان
الأركون المشرف على شئون الدين مسخياً غاية السخاء حين قبل هذا العدد من
مسرحيات يورپديز ضمن المسرحيات التي يحيز تمثيلها الدين . وكان المحافظون
على اختلاف نزعاتهم يلقون عليه هو وسقراط تبعة انتصار نزعة الكفر بالآلهة
بين شباب أثينة . وحاربه أرسطوفان من بادى الأمر فى مسرحية الأركانيين ،
وهجاه وصوره تصويراً هزلياً مرخاً فى مسرحية الشموفر بازوسى ،
وفى السنة التالية لموت الشاعر واصل هجومه عليه فى مسرحية الضفادع .
على أنه يقال لنا رغم هذا إن الكاتبين كاتب المأسى وكاتب المسالى ،
ظلا صديقين إلى النهاية (١٧٠) . أما النظارة فكانوا ينددون بإلحاده
ويهرعون إلى مشاهدة مسرحياته . ولما أن نطق الصياد الشاب فى السطر ٦١٢
من مسرحية هبوليتس بقوله « لقد أقسم لسان ، ولكن عقلى لا يزال طليقاً ،
احتج الجمهور احتجاجاً قوياً على ما ظنه انتهاكاً شديداً لحرمة الآداب
والدين حتى اضطر يورپديز أن يقف فى مكانه ويهدى ثائرتهم بأن
يوكد لهم أن هبوليتس سيجرى على قوله هذا الجزء الأوفى قبل انتهاء
القصة - وهو وعد مأمون العاقبة يكاد يصدق على كل شخصية فى
المأساة اليونانية .

ووجهت إليه حوالى عام ٤١٠ تهمة المروق من الدين ، ولم يمض بعدئذ
إلا قليل من الوقت حتى وجه إليه هجيانون Hygianon تهمة أخرى ،
تتصل بالجزء الأكبر من ثروته ، واستدل على خيانة يورپديز بالبيت الذى
نطق به هبوليتس . وبرى الشاعر من التهمتين ، ولكن موجة السخط
التي قوبلت بها مسرحية المرأة الطروادية أشعرت يورپديز أنه لم يكذب
له صديق واحد فى أثينة . ويقال إن زوجته نفسها قد انقلبت عليه لأنه لم

يشترك في حفلات الزواج الحامسية في المدينة ، وما وافت سنة ٤٠٨ ، وكان قد بلغ الثانية والسبعين من العمر ، حتى قبل دعوة وجهها إليه الملك أرخلوس Archelaus لينزل ضيفا عليه في عاصمة مقدونية . ووجد يورپديز في مدينة پلا Pella تحت حماية هذا الفرديك (*) - ولم يكن كلك بروسيا يجشى منه على عقائد شعبه - وجد في هذه المدينة الطمأنينة والراحة ، ونجها كتب مسرحية لإفجينا في أوليس التي تكاد تكون كلها من قصائد الرعاة ، ومسرحية الباخيات الدينية العميقة . ومات بعد ثمانية عشر شهرا من قدومه إلى تلك المدينة ، ويقول أشقياء اليونان إن موته كان نتيجة لهجوم كلاب الملك وتمزيقها جسده .

وبعد سنة من موته عرض ابنه المسرحيتين في احتفال المدينة بعيد الديونيشيا ومنحهما القضاة الجائزة الأولى . ويظن النقاد ، ومنهم العلماء المحدثون أنفسهم ، أن مسرحية الباخيات كانت ترصية قدمها يورپديز للدين اليوناني (١٣) . على أنه ليس ببعيد أن يكون قد قصد بالمسرحية أن تكون قصة رمزية لما لقيه يورپديز من معاملة على أبدى الشعب في أثينة .

وتقص المسرحية كيف مزقت جماعة من النساء المتظاهرات في الحفلات الديونيشية تقودهن أجيف Agave أم پنثيوس Pentheus ملك طيبة ، نقول كيف مزقت أولئك النسوة جسم هذا الملك لأنه طعن خرافتهن الباطلة الهمجية وتدخل من غير حق في شئون حفلاتهن .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة ؛ فإن القصة من الأساطير الدينية المأثورة . وكانت أسطورة التضحية بحيوان أو تمزيق جسم إنسان إذا جرؤ على حضور هذه المواكب جزءا من الطقوس الديونيشية . وقد ربطت هذه المسرحية

(ه) يقصد أرخلوس نفسه الذي استضاف يورپديز كما استضاف فردريك الأكبر ملك بروسيا لتتير . (المترجم)

القوية بين المأساة اليونانية في عنوان قوتها وبين المأساة اليونانية في بداية نشأتها ، وذلك بعودتها إلى استمداد حنكها من قصة ديونيشس . وقد ألف الشاعر هذه المسرحية بين جبال مقدونيا التي تصفها في أشعار لا تضعف قوتها ، ولعله كان يقصد أن تمثل في بلا حيث كانت عبادة باخوس Bacchus ذات قوة عظيمة . وهي تدل على علم مدهش غزير بالطقوس الدينية ونشوتها ، وفيها ينطق عباد باخوس بمزامير تدل على الخشوع والصلاح ليس ببعيد أن يكون الشاعر قد تجاوز فيها حدود العقلية ، وأدرك وقتئذ ضعف العقل ، وأن العواطف والمشاعر لا بد منها للنساء والرجال على السواء . ولكن القصة تحي من طرف خفي الدين الديونيشي ، وموضوعها هي الأخرى هو ما قد ينشأ من العقائد الخرافية من شرور .

وتفصيل ذلك أن الإله ديونيشس يزور طيبة متخفياً في صورة باخوس أو منجسداً ويدعو إلى عبادة ديونيشس . وترفض بنات كدمس رسالته فيسلبن وعين ويث فيهن نشوة دينية قوية ، فيذهبن إلى التلال ليعبدنه بالرقص الممجى العنيف ، ويرتدين جلود الحيوان . ويتمنطقن بالأفاعى ، ويضعن على رؤوسهن أكاليل من الخلاب ، ويرضعن صفار الذئب والظباء ، ويقاوم ملك طيبة هذه الطقوس ويقول إنها تناقض العقل والأخلاق والنظام ، ويسجن الداعى إليها فيصبر على العقاب صبر المسيحيين الأولين . ولكن الإله الذى فيه يتجلى ويفتح جدران السجن ويستعين ببقوته الإلهية على تخدير الحاكم الشاب . ويلبس بنثيوس تحت هذا التأثير ثياب امرأة ، ويتسلق التلال وينضم إلى جماعة المعتقدات وتبين النسوة أنه رجل ، فيمزق جسمه إرباً . وتحمل أمه ، التي تملكها « النسوة » ، فأفقدتها وعيها ، رأسه

المفصول في يديها ظناً منها أنه رأس أسد ، وتغنى عليه أغنية نصر . ثم تفيق فتدرك أنها تمسك برأس ابنها ، وتبسمئز من تلك الطقوس التي أسكرتها وأفقدتها وعيها ، ويقول لها ديونيشس إنها سخرت منه وهو إله ، وإن ذلك هو جزاؤها على هذه السخرية ، فتجيبه بقولها وهل يليق بالإله أن يشبه بالرجل المتكبر في نوبة غضبه ؟ والدرس الأخير الذي يلقيه علينا يورپديز في هذه المسرحية هو بعينه الذي يلقيه علينا في أولى مسرحياته ، ولقد كان يورپديز في مسرحيته التي وضعها وهو يحتضر هو بعينه يورپديز الذي عهدناه في أيامه الأولى .

وذاع صيته وأحبه الناس بعد موته حتى في أثينة نفسها ، وأصبحت الفكرة التي جاهد من أجلها هي الآراء المسيطرة على العقول في القرون التالية . ولما انتشرت الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان نفسها أخذ المتحضرون الجدد يعدونه هو وسقراط أعظم من عرفتهم بلاد اليونان من أصحاب العقول الملهمة الحاضرة . ذلك أن يورپديز كان يعالج المسائل الحية لا أفاصيص الشعر الميتة ، ولقد ظل العالم يذكره ولم ينسه إلا بعد زمن طويل . فقد نحيم النسيان على مسرحيات من سبقوه من المؤلفين ، أما مسرحياته فكانت تمثلها يتكرر في كل عام ، وفي كل مكان أنشئ فيه مسرح يوناني . ولما أخفقت الحملة التي وجهت إلى سرقوسة (٤١٥) والتي تنبأ يورپديز بإخفاقها في مسرحية المرأة الطروادية ، وواجه الأسرى الأثينيون الموت أحياء وهم يعملون عبيداً مصفدين بالأغلال في محاجر صقلية ، ولما حدث هذا أطلق سراح كل من استطاع أن ينشد فقرات من مسرحيات يورپديز (كما يحدثنا بذلك فلوطرخس (١٢٣)) . وقد صيغت المسلاة الجديدة على غرار مسرحياته ، وتطورت منها ، وفي ذلك يقول أحد زعماء هذه المسلاة : « لو أنني كنت واثقاً من أن للموتى عقولا تترك لشغفت نفسي لكي

أرى يورپديز^(١٢٤) . وكان إحياء فلسفة التشكك ، والحرية العقلية ؛ والزعة الإنسانية ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان هذا الإحياء سبباً في بعث يورپديز إلى الوجود وجعله أكثر اندماجاً في ذلك العهد من شيكسبير . وجملة القول أن شيكسبير وحده هو الذي كان يضارع يورپديز ، وإن كان جيته يستكثر هذا على شيكسبير نفسه . ومن الأسئلة التي يوجهها جيته إلى إكرمان : « هل أنجبت أمم الأرض بعد يورپديز كاتباً مسرحياً جديراً بأن يخلفه ؟ »^(١٢٥) . والجواب علم ، هذا أنها لم تنجب أكثر من كاتب واحد^(*) .

الفصل السادس

أرسطوفان

١ - أرسطوفان والحرب

المأساة اليونانية أشد قتاما من المآسي الإنجليزية في عصر الملكة إليزابيث لأنها قلما تستخدم مبدأ الترفيه التهكمى الذى يتخلل المأساة فيزيد قدرة السامع على احتمال ما فيها من فواجع . والكاتب اليونانى المسرحى لم يكن يلجأ إلى هذه الطريقة لأنه كان يفضل أن تكون مأساته عالية المستوى من بدايتها إلى نهايتها ، ولذلك ترك المسلاة إلى كتاب المسرحيات الهزلية الحالية من المغزى والى تهديء عواطف النظارة المهتاجة بما تهيبه لهم من الفكاهة والراحة . وقد انفصلت المسلاة على مر الزمن من المأساة واستقلت عنها ، وأفرد لها يوم خاص فى الحفلات الديونيشية اقتصر منهج الاحتفال فيه على ثلاثة مسال أو أربع يكتبها مؤلفون مختلفون وتمثل واحدة بعد واحدة لتحصل كل منها على جائزة مستقلة .

وازدهرت المسلاة اليونانية كما ازدهرت الخطابة ، فى صقلية أول الأمر . ذلك أنه قدم إلى سرقوسة من كوس فى عام ٤٨٤ فىلسوف ، شاعر ، طبيب ، كاتب مسرحى يدعى إيكارمس Epicharmus أخذ يعرف الناس بفيثاغورس وهرقليطس ومبادئ العقليين فى خمس وثلاثين مسلاة لم يبق منها إلا عبارات متفرقة منقولة عنها ، وبعد اثنتى عشرة سنة من قدوم إيكارمس إلى صقلية أجاز الأركون الأثينى لفرقتها أن تمثل مسلاة ؛ وسرعان ما نما الفن الجديد وتطور بتأثير الديمقراطية والحرية حتى أصبح أهم وسائل الهجو الأخلاقى والسياسى فى أثينة ؛ وكانت حرية التعبير الواسعة المسموح بها فى المسلاة تقليد يرجع إلى المواقب الديونيشية التى كانت تحمل عضواً التناسل فى الذكور . ولما أسمى استعمال هذه

الحرية من في عام ٤٤٠ ق . قانون يحرم التهجم على الأشخاص في المسلاة ، لكن هذا الحظر ألغى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وظل الكتاب يستمتعون بحرية الكلام وحرية السباب كاملتين حتى أيام حرب البلوونيز ، فكانت المسلاة اليونانية والحالة هذه تؤدي واجب الصحافة الحرة في الديمقراطيات الحديثة ، أعنى بذلك واجب النقد السياسي .

ونحن نسمع عن كثيرين من كتاب المسالى قبل أرسطوفان ، بل إن أرسطوفان نفسه — وهو ريليه العهد العظيم ، قد نزل من عليائه فأثقى على بعضهم بعد أن انقشع عجاج المعارك التي احتدمت بينه وبينهم . ومن هؤلاء الكتاب أقراطينوس Cratinus لسان سيمون Cimon الناطق ، والذي أثار حرباً شعواء على بركليز ولقبه « الإله القادر ذا الراس الشبيه ببصل الفأر » (١٣٧) . ولقد أنجنا الزمان الرحيم من قراءة مسرحيات هذا الكاتب . . ومن هؤلاء السابقين أيضاً فركراتس الذى هجا في مسرحية الزجال الممج التي كتبها حوالى ٤٢٠ ق م الألبنيين الذين يعلنون أنهم يمتنون للحضارة ويتمنون العودة إلى الطبيعة . ألا ما أقدم البدع التي يتدعها الناس في شبابهم ! على أن أقدر منافسى أرسطوفان هو يوبوليس Eupolis ، قد تعاونوا أولاً في العمل ثم تنازعا وافترقا ، وأخذ كلاهما يهجو صاحبه أقذع الهجاء ، ولكنهما مع ذلك اتفقا في حملتهما على الحزب الديمقراطى . وإذا كانت المسلاة قد عادت الديمقراطية طوال القرن الخامس فقد كان من أسباب هذا العداء أن الشعراء يحبون المال ، وأن الأشراف كانوا أغنياء ، لكن أكبر أسبابه أن وظيفة المسلاة اليونانية كانت تسلية الجماهير عن طريق النقد ، وأن الحزب الديمقراطى كان وقتئذ صاحب السلطان . وإذا كان بركليز زعيم الديمقراطية يعطف على الأفكار الجديدة كتحرير المرأة والنزعة العقلية في الفلسفة فإن كتاب المسالى قد اتفقوا جميعاً ، اتفقا يهتفون على الريية في مصدره ، على مقاومة التعطيل في جميع

(٥) ليات بصل يسمى أيضاً النمل والسيقل squill . (المترجم)

أشكاله ، وأخلوا يدعون إلى العودة إلى أساليب ، « رجال مرثون » وما كان يعزى إليهم من مبادئ أخلاقية . وكان أرسطوفان لسان هذه الرجعية ومردد صداها ، كما كان سقراط ويورپديز رائدى الآراء الجديدة . وهكذا استحوذ النزاع بين الدين والفلسفة على مسرح التمثيل الهزلى .

وكان لدى أرسطوفان من الأسباب ما يبرر سبه للأرستقراطية ، فقد كان ينتمى إلى أسرة مثقفة غنية ، ويبدو أنه كان يمتلك أرضاً في إبيملينيا ، بل إن اسمه نفسه ليدل على أنه من النبلاء لأن معناه ، الأفضل يظهر . وكان مولده حوالى عام ٤٥٠ ق . م ، وإذن فقد كان فى عتفوان الشباب حين دارت بين أثينة واسبارطة تلك الحرب العوان التى أضحت فيما بعد موضوعاً مشثوماً لمسرحياته . وقد اضطره غزو اسبارطة لأثينا إلى مغادرة مزرعته فى الريف والسكنى فى أثينة ، وكان يكره حياة المدن ، وأظهر شديد استيائه حين طلب إليه فجأة أن يكره الميغارين ، والكورنثيين ، والإسبارطيين ، وأخذ يندد بهذا التطاحن الذى يقتل فيه اليونانى أخاه ، ويدعو فى كل مسرحية يكتبها إلى السلم .

وانتقلت السلطة العليا فى أثينة بعد موت بركليز فى عام ٤٢٩ . إلى يدى كليون Cleon دايع الجلد الغنى ممثل المصالح التجارية التى تدعو إلى القضاء قضاء مبرماً على اسبارطة منافسة أثينة فى السيادة على بلاد اليونان . وقد سخر أرسطوفان فى مسرحية له مفقودة تدعى « البابليين » (٤٢٦) سخريه لاذعة من كليون وأساليبه السياسية قدم بسببها إلى المحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بغرامة . وثأر أرسطوفان لنفسه بعد عامين من هذا الحكم بإخراج مسرحية الفرسان The Knights ، وكانت أهم شخصية فى هذه المسرحية هى شخصية ديموس Demos (أى الشعب) ، وكان لديموس هذا رئيس خدام يدعى « الدباغ » . ولم يكن أحد يجهل من المقصود بهذه الألقاب نحتى كليون نفسه الذى كان بمن شاهدوا المسرحية . وكان ما فيها من هجو لاذعاً شديداً إلى حد امتنع منه الممثلون جميعاً عن تمثيل دور الدباغ خوفاً

من العقاب السياسى الصارم ، فلم يجد أرسطوفان بداً من أن يمثل بنفسه هذا الدوروفى هذه المسرحية يعلن نيشياس Nicias (وهو اسم الزعيم المحترف رئيس الحزب الأحرارى) أن الوحى أنبأه بأن الحاكم الثانى الذى سيتولى الأمر فى بيت ديموس سيكون بائع وزم ، ويُقبل هذا البائع الدوار ويحييه العييد ويلقبونه « زعيم المستقبل فى أثيننا الحبيدة ! » ويخاطبه بائع الوزم بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أذهب لأغسل سقطى . . . إنك تسخر منى » . ولكن رجلاً يدعى دمستين يؤكد له أنه يتصف بالصفات التى تؤهله لأن يحكم الشعب — أليس هو وغداً منحطاً ، مجرداً من العلم على اختلاف أنواعه ؟ ويخشى الدباغ أن يفقد مركزه فيؤكد ولاءه لديموس واستعداده لخدمته ، ويقول إن أحداً غيره لم يخدم ديموس كما خدمه هو إلا العاهرات . وتحوى المسرحية المحزون الذى اعتاد أرسطوفان : فالوزام يضرب الدباغ بالسقط ويستعد لمباراة خطابية فى الجمعية بأكل مقدار من الثوم ؛ ويعقب هذا تنافس فى الملق والدهان ليعرف من من المتنافسين يستطيع أن يسرف فى مديح ديموس أكثر من سواه ، فيكون بذلك « أكثر استحقاقاً لرضاء ديموس وبطلته » . ويحضر المتنافسون قدراً عظيماً من الطيبات ، ييسطونها أمام ديموس قبل الانتخاب لتكون وعداً منهم بما سوف يقدمونه له بعدها . ويقترح الوزام أن يختبر شرفهم وأمانتهم بأن تفتش خزانة كل مرشح ، فيعثر فى خزانة الدباغ على كومة من المأكولات الشبيهة الطرية ، أهمها كمكة ضخمة لم يقطع منها لديموس إلا قطعة جد صغيرة (وكان ذلك إشارة إلى تهمة رائجة فى ذلك الوقت تقول إن كليون قد سرق قدراً كبيراً من أموال الدولة) . وعلى أثر هذا يفصل الدباغ من عمله ويصبح الوزام حاكم بيت ديموس .

وتواصل مسرحية الزنا بغير السخرية من الديمقراطية سخرية أخف من السخرية السابقة . ففيها يظهر جماعة من المواطنين المتعطلين — على هيئة زنا بغير — يسعون إلى كسب أبله أو أبلتين فى كل يوم بأن يكونوا قضاة ، حتى

يستطيعوا بالاستماع إلى « المزلفين » وجباية الضرائب الباهظة أن يستولوا على أموال الأغنياء ويضعونها في خزانة الدولة وفي جيوب الفقراء .

ولكن أكثر ما يهتم به أرسطوفان في هذه المسرحيات الأولى هو السخرية من الحرب والدعوة إلى السلم . فبطل مسرحية الأكارنيين (٤٢٥) رجل يسمى ديسيوپوليس Dicaeopolis « المواطن الشريف » وهو مزارع يشكو من أن الجيوش قد أتلفت أرضه حتى لم يعد يستطيع العيش ببصر النيلذ من كرومه . وهو لا يجسد ما يدعو إلى الحرب ، ويؤمن بأنه ليس بينه وبين الاسبارطيين سبب للخصام . ويطول انتظاره لأن يعقد القواد السياسيون الصلح ، فيوقع هو معاهدة شخصية مع المسديمونيين ، ويشهر به جماعة من جيرانه الوطنيين دعاة الحرب فيجهم بقوله :

إني أشك كثيرًا هل الاسبارطيون هم الملمومون وحدهم في جميع الأحوال .
الجيران : أتقول إنهم غير ملمومين في جميع الأحوال ؟ يالك من وغد أفاق !
كيف تجرؤ على التلحق بهذه الخيانة الوطنية أمامنا ، ثم تظن أنك ستنجو منا ؟

ويوافق على أن يسمح لهم بقتله إذا عجز عن البرهنة على أن أثينة يقع عليها من اللوم في إشعال نار الحرب بقدر ما يقع على اسبارطة . ويوضع رأسه على وضم ، ويبدأ في الإدلاء بحجته . وفي هذه اللحظة يدخل قائد أثيني ، مهزوم ، متبجح ، متهاكم لحرمة الآلهة ، يشتم منه الحاضرون ، فيخلو سبيل ديسيوپوليس ، ويدخل السرور على قلب كل إنسان بأن يبيع لم خمرًا يسمى السلم . وكانت هذه المسرحية غاية في الجرأة ولا يحجزها إلا شعب تعوذ أن يستمع إلى ما يقال ضده . وقد استفاد أرسطوفان من عادة الاستطراد التي كانت تجيز لكاتب المسلاة أن يخاطب النظارة على لسان فرقة المنشدين أو إحدى شخصيات المسرحية ، فأخذ يشرح للجمهور الغرض الذي يهدف له بوصفه رجلا دوارا فكها بين الاثينيين ينقب عن عيوبهم ويكشفها لهم .

« لم يعمد شاعرنا منذ كتب المسالي إلى إطراء نفسه على المسرح . . . ولكنه

يعتقد أنه فعل لكم الخير الكثير . وإذا لم تقبلوا بعد الآن أن يسرف الغرباء في خداعكم ، أو يغروكم بالملق والدهان ، وإذا لم تكونوا في السياسية إمعات كما كنتم من قبل ، فالفضل في ذلك راجع إليه . وقد كنتم من قبل إذا أرادت وفود المدن الأخرى أن تمهدكم لا تطلب ذلك منهم إلا أن يصفوكم بأنكم « الشعب المتوج بالنفسج » . فلا تكادون تسمعون لفظ بنفسج حتى تعتدلوا في جلسكم على أطراف أعجازكم . وإذا أراد أحد أن يستثير غروركم وتحدث عن « أثينة الغنية الناعمة نال كل ما يبغيه منكم لأنه يتحدث عنكم كما يتحدث عن السردين في الزيت . ولقد أحسن الشاعر إليكم كل الإحسان حين حذركم من هذه الحيل الخادعة (١٣) » .

ولقد نال الشاعر أعظم النصر في مسرحية السلم التي أخرجها عام ٤٢١ . ففي ذلك الوقت كان كليون قد مات ، وأوشك نيشياس أن يوقع مع اسبارطة معاهدة سلام وصداقة تدوم خمسين عاما . ولكن الحرب اشتعلت نارها مرة أخرى بعد بضعة سنين ، وخاب أمل أرسطوفان في بني وطنه فدعا نساء اليونان في عام ٤١١ أن يعملن لحقن الدماء . وتبدأ مسرحية ليسستراتا بإجتماع نساء أثينة ، في مطلع الفجر ورجلهن نائمون في مجلس حربي قرب الأكروبولس ويتفقن على أن يمنعن عن أزواجهن جميع متع الحرب حتى يعقدوا الصلح مع العدو ، ثم يرسلن رسولا إلى نساء اسبارطة يدعونهن إلى معاونتهن في حملة السلم الجديدة . ثم يستيقظ الرجال آخر الأمر من نومهم فيدعون النساء أن يعدن إلى بيوتهم ، وتأتي النساء العودة فيحاصرهن الرجال بدلاء ملأى بالماء الساخن وبسيل من الكلاء ، وتلقى ليسسترا (منقولة أثينة) على الرجال درساً تقول فيه :

لقد صبرنا عليكم كثيراً في الحروب الماضية . . . ولكننا كنا نفرض عليكم رقابة شديدة ، وكثيراً ما كنا نسمع ، ونحن في منازلنا ، أنكم قد

أخطأتم في تقرير أمر من الأمور . فإذا سألنا عنه قال الرجال : « وما شأننا نحن
أنتن والمسألة عن هذا ؟ اصدمتن » . وسألنا « كيف يحدث يا زوجي أن تسير
الأمور بهذه السخف على أيدي الرجال ؟ » . ويحجب زعيم الرجال بقوله إن
النساء يجب أن يبتعدن عن شئون الدولة ، لأنهن عاجزات عن تصريف
شئون الخزانة العامة . (وتتسلل بعض النساء في أثناء هذه النقاش إلى أزواجهن
وهن يتمتمن بمحجج من نوع حجج أرسطوفان) . وترد ليسسترا على ذلك
بقولها : « وكيف لا يستطيعن ؟ فطالما دبرت الزوجات شئون أزواجهن المالية
لخيرهم ولخيرهن » . ونبدى من الحجج القوية ما يقنع الرجال آخر الأمر بعقد
مؤتمر من الدول المحاربة ، ويجتمع مندوبو هذه الدول ، وتنتهي لهم ليسسترا . كل
ما يستطيعون أن يشربوه من الخمر . وسرعان ما تلعب الخمر بروؤوسهم
فيوقعون المعاهدة التي طال انتظارها ويحتم المنشدون المسرحية بنشيد مدح السلم :

٢ - أرسطوفان والمتطرفون

يرى أرسطوفان أن انحلال الحياة الأثينية العامة يرجع إلى شرين أساسيين
هما الديمقراطية والخروج على الدين . وهو يتفق مع سقراط في أن
سيادة الأمة قد انقلبت فأصبحت سيادة السياسيين ، ولكنه كان واثقا
من أن تشكك سقراط ، وأنكساغورس والسوفسطائيين قد ساعد على
انحلال عرى الروابط الخلقية التي كانت في الزمن القديم عاملا قويا في تدعيم
النظام الاجتماعي والاستقامة الفردية . وقد سخر أشد السخرية من الفلسفة
الجديدة في مسرحية السحب . وخلاصتها أن رجلا من الطراز القديم
يدعى استرپسياديز Stripselades كان يبحث عن حجة يبرر بها التوصل
من ديونه ، فيغتنبط إذ يسمع أن سقراط يدير متجرًا للتفكير ،
يستطيع كل إنسان أن يتعلم فيه كيف يثبت كل ما يريد إثباته ولو كان
خاطئا . ويتخذ الرجل طريقة إلى مدرسة « المفكرين الأشداء » ، ويرى

فى وسط حجرة الدرس سقراط معلقا من السقف فى سلة ، ومنهمكا فى التفكير كما يرى بعض الطلاب منحنيين متجهين بأنوفهم نحو الأرض :

استرپسياديز : ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين ينحنون هذا الانحناء العجيب ؟

الطالب : إنهم يفحصون عن الأسرار العميقة عمق تروتروس .

استرپسياديز : ولكن لم — عفوا ولكن — أجزاءهم الخلفية — لم أراهم مثبتيين فى الهواء على هذا النحو العجيب ؟

الطالب : ان أطرافهم الأخرى تدرس الفلك

يطلب استرپسياديز إلى سقراط أنه يعلم بعض الدروس

سقراط : وبأى الآلهة تقسمون ، لأن الآلهة ليست من العملة الرائجة عندنا ؟ .

وبشير إلى فرقة المرتلين فى مسرحية السحب

إن هؤلاء هم الآلهة الحقيقيون .

استرپسياديز : لكن قل لى ، ألا تؤمن بزيوس ؟ .

سقراط : ليس لزيوس وجود :

استرپسياديز : ومن الذى ينزل المطر إذن ؟ .

سقراط : هذه السحب ، فهل رأيت مطرا ينزل من غير سحب ؟

ولو أن زيوس كان هو الذى ينزل المطر لأنزله فى الجو الصحو وحين تظهر السحب

استرپسياديز : ولكن قل لى من الذى يرسل الرعد ؟ إن جسمى ليرتجف منه

سقراط : إن هذه السحب فى اندفاعها تحدث الرعد .

استرپسياديز : كيف ؟

سقراط : إذا امتلأت بالماء واندفعت في سيرها تساقطت بقوة عنيقة بعضها على بعض وأحدثت هذه القعقة .

استرپسياديز : ولكن من الذى يسوقها ؟ أليس هو زيوس ؟

سقراط : كلا ؛ إن الدوامة الأثرية هى التى تسوقها .

استرپسياديز : إذن فأعظم الآلهة كلها هى الدوامة . ولكن ما الذى يحدث قعقة الرعد ؟

سقراط : سأعلمك من حالتك أنت نفسك . ألم يحدث لك مرة ما أن امتلأت بالطعام في إحدى الولائم ، ثم اضطربت معدتك فحدثت في داخلك كركرة ؟

وفي منظر آخر يلتقي فيديبيديز Phaidippides بن استرپسياديز بالحجة الصحيحة والحجة الباطلة مجتمعين . وتخبره أولاها بأن عليه أن يقلد الفضائل الرواقية التى كان يتصف بها رجال مرثون ، ولكن الأخرى تشير عليه بأن يتخلق بالأخلاق الحديثة . وتساله الحجة الباطلة : هل في الناس من نال شيئاً بالعدالة أو الفضيلة أو الاعتدال ؟ وتقول : إنه إذا وجد رجل شريف ناجح وجد معه على الدوام عشرة رجال خونة ناجحين معظمين . وتضيف إلى ذلك قولها : انظر إلى الآلهة نفسها . لقد كذبت ، وسرقت ، وقتلت ، وزنت . وها هى ذى يعبدها اليونان جميعهم . وحين تشك الحجة الصحيحة في أن معظم الناجحين كانوا خونة ، تسألها الحجة الباطلة :

من أية طبقة من الناس يخرج رجال القانون عندنا ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجة الباطلة : هذا حق . ومن أى صنف يخرج شعراؤنا كتاب

المأسى ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجة الباطلة : وخطباؤنا العموميون ؟

الحجة الصحيحة : كلهم سفهاء :

الحجة الباطلة : انظري الآن إلى من حولك ،

تلقفت ونسبر إلى النظارة

أية طبقة من الطبقات تنتمي إليها الكثرة الغالبة من

أصدقائنا الحاضرين هنا ؟ .

وتفهم الحجة الصحيحة من النظارة في جرد ووقار

الحجة الصحيحة : إن الكثرة الغالبة منهم سفهاء .

وفيدبديز تلميذ للحجة الباطلة ياتمر بأمرها ويبلغ من طاعته إياها أن يضرب أباه بحجة أنه يقوى على ضربه وأنه يستمتع بهذا الضرب ، ويسأل فوق ذلك : « ألم تضربني وأنا غلام ؟ » ويستحلفه استرپسياديز يزيرس أن يرحمه ولكن فيدبديز يرد عليه بقوله إن زيوس لم يعد له وجود ، لأن الدوام قد حلت محله . ويستشيط الوالد غضباً ، ويهيم في الطرقات ، ويدعو جميع المواطنين الصالحين إلى القضاء على هذه الفلسفة الجديدة ، فيهاجون متجر التفكير ويحرقونه ولا ينجو سقراط بحياته إلا بعد جهد شديد .

ولسنا نعرف ماذا كان لهذه المسلاة من أثر في مأساة سقراط . وكل الذي نعرفه أنها مثلت في عام ٤٢٣ قبل المحاكمة الشهيرة بأربع وعشرين سنة ، ويبدو أن ما فيها من فكاكة طيبة لم يغضب الفيلسوف ، بل يقال إنه ظل واقفاً طوال التمثيل (١٢٨) يمكن أعداءه من أن يروه أوضح رؤية . ويعصور أفلاطون سقراط وأرسطوفان في صورة الصديقين بعد التمثيل ، وقد أوصى أفلاطون نفسه ديونيشيوس الأول ملك صقلية بهذه الأعجوبة المسلية ؛ وظل محتفظاً بصدافته لأرسطوفان حتى بعسده أن مات أستاذه (١٢٩) . وقد كان ملائوس أحد الثلاثة الذين اتهموا سقراط في عام ٣٩٩ طغلا

حين مثلت المسلاة ، وكان ثانيهما وهو أنيتس على وفاق مع سقراط بعد أن مثلت (١٣٠) ، وأكبر الظن أن انتشار المسرحية بعدئذ بوصفها قطعة أدبية أضرب بالفيلسوف أكثر مما أضرب به تمثيلها الأول . ولقد أشار سقراط في دفاعه عن نفسه - كما يرويه أفلاطون - إلى هذه المسرحية وقال عنها إنها من أكبر الأسباب التي سوأّت سمعته وألبت القضاة عليه .

وكان في أثينة هدف آخر وجه إليه أرسطوفان سهام هجائه ، وقد وجهها هذه المرة سهام عداوة لا تنطق نارها . ذلك أنه لم يكن يثق بتشكك السوفسطائيين ، أو بالفردية الأخلاقية ، والاقتصادية ، والسياسية التي كانت تنخر في عظام الدولة ، أو بالدعوة النسائية العاطفية التي ترمى إلى مساواة النساء بالرجال ، والتي كانت تثير ثائرة النساء ، أو بالاشتراكية التي كانت تعمل عملها بين الأرقاء . لقد رأى هذه المبادئ كلها واضحة أجلى وضوح في يورپديز ، واعتزم أن يقضى بالضحك والسخرية على ما كان للكاتب المسرحي الكبير من أثر في العقلية اليونانية .

وبدأ يعمل لهذه الغاية في عام ٤١١ بمسرحية أسماها السموفريزوسيات Thesmophoriazusae . وقد اشتق هذا اللفظ من اسم النساء اللاتي كن يحتفلن بعيد دتمر وپروسفوني عن طريق الامتناع الجنسي . وفيه يجتمع عبادهما ليناقش آخر ما سخر به يورپديز من بنات جنسهن ، ويدبرن أمر الانتقام منه . وترأى أنباء هذه الخطة إلى يورپديز فيشير على نسيلكس Mnesilochus والد زوجته بأن يلبس ثياب النساء ويدخل الاجتماع ليدافع عنه . وتشكو أولاهن من أن الكاتب المسرحي قد حرمها من وسيلة كسب عيشها ؛ فقد كانت من قبل تصنع أكاليل الزهور للهياكل ، فلما أن قال يورپديز إنه لا وجود للآلهة ، كسدت تجارتها . ويدافع نسيلكس عن يورپديز بقوله إن أسوأ ما قاله عن النساء حتى لا مراة ، فيه ، وإنه أخف مما تعرفه النساء أنفسهن من أخطائهن . وترتاب النساء في أن هذا

الطعن في النساء صادر عن امرأة ، فيمزق ثياب نسيلكس ، ولا يستطيع النجاة من تمزيق جسمه إرباً إلا بأن يختطف طفلاً رضيعاً من بين ذراعي امرأة ، وينلنهم بأنه سيقتله إذا مسسته هو بسوء . ولكنهن لا يعان بهذا التهديد ويهجمن عليه ، فيخلع عن الطفل لفافاته ، فيجد أنه زق خمر قد لف في ملابس طفل هرباً من أداء ضريبة الإيراد . ويقول إنه رغم هذا سيقطع عنقه ونحزن لهذا صاحبة الزق وتصبح قائلة : « سألتك ألا تتلف زق العزيز ، فإن كنت لا بد فاعلا فجيئ بجفنة تتلق فيها دماءه » . ويحل نسيلكس المشكلة بأن يشرب الخمر ، ويرسل في الوقت نفسه دعوة إلى يورپديز بأن يخف لإتقاده من ورطته . وخلق بنا أن نقول بهذه المناسبة إن يورپديز يظهر في أجزاء مختلفة من مسرحياته — في صورة منلوس ، أو پرسيسوس ، أو إكو Echo . وفي هذه المرة يفلح أخيراً في تمكين نسيلكس من الحرب .

ويعود في مسرحية الضفادع إلى مهاجمة يورپديز رغم موته : ذلك أننا نرى ديونيشس إله المسرحية غاضباً على من بقى حياً في أثينة من كتاب المسرحيات ، فينزل إلى الجحيم ليعود بيورپديز . وتلتق به وهو ينتقل في قارب إلى العالم السفلي طائفة من الضفادع فتحييه بتيقها تحية لا نشك في أن شباب أثينة ظل يتندر بها شهراً كاملاً . ولا ينسى أرسطوفان أيضاً أن يسخر من ديونيشس ولا يخشى من تمثيل طقوس إلوسيز تمثيلاً ساخراً . ذلك أن الإله حين يصل إلى العالم السفلي يجد يورپديز يحاول خلع إسكلس عن زعامة كتاب المسرحيات جميعهم . ويتم إسكلس يورپديز بأنه يعمل على نشر التشكك ، والحيل القانونية الخطرة ، وعلى إفساد أخلاق نساء أثينة وشبابها . ويقول إن من سيدات الطبقة العليا من قتلن أنفسهن لأنهن لم يطقن سماع بداعة يورپديز . ثم يؤتى بميزان ويلقى كل شاعر في إحدى كفتيه أبياتاً من مسرحياته . وترجح عبارة قوية من عبارات إسكلس على اثنتي عشرة عبارة من عبارات يورپديز (وهذا هجاء في الشاعر الشيخ

نفسه) . ويعرض إسكلس آخر الأمر أن يقفز الشاعر الشاب إلى إحدى الكفتين ومعه زوجه ، وأبناؤه ، ومتاعه ، ويقول إنه يؤكد أن بيتاً واحداً من الشعر يرجح عليهم جميعاً . ويخسر المتشكك العظيم في آخر الأمر المباراة ، ويعود إسكلس إلى أثينة منتصراً(*) . وقد منح القضاة هذه المقالة الأولى في النقد الأدبي الجائزة الأولى ، وبلغ من سرور النظارة بها أن أعيد تمثيلها مرة أخرى بعد بضعة أيام .

وكذلك وجه أرسطوفان سخريته إلى الحركة المتطرفة بوجه عام في مسرحية متوسطة القدر تدعى الإكليزيازوسيات *The Ecclesiazusae* أى نساء الجمعية (٣٩٣) . وموضوعها أن نساء أثينة يتخفين في زى الرجال ، ويمعلن مقاعد الجمعية ، وترجح أصواتهن على أصوات أزواجهن ، وإخوتهن ، وأبنائهن ، ويختارن منهن حكام الدولة : وتزعم هذه الحركة امرأة تدعى پراكساغورا *Praxagora* شديدة التحمس لنيل النساء حقوقهن السياسية ، وتتهم بنات جنسها بالغفلة لأنهن يرضين بأن يحكمهن الرجال البلهاء . وتقترح أن تقسم الثروة بالتساوى بين المواطنين على أن يترك الأرقاء من غير أن يفسدهم الذهب . ويتخذ المهجوم على « المدينة الفاضلة » صورة أخف من هذه وأرحم في مسرحية الطيور أرقى مسرحيات أرسطوفان جميعها (٤١٤) . ومضمونها أن اثنين من مواطني أثينة يستولى عليهما اليأس ، فيتسلفان إلى مسكن الطيور ، يأملان أن يجدا فيه الحياة المثالية التى ينشدانها . ويستعيناان بالطيور على بناء مدينة فاضلة بين الأرض والسماء تدعى نفلوككسيچيا *Nepheloccygia* أى « أرض وقوق السحاب » . وتوجه الطيور مجتمعة خطابها إلى الآدميين فى نشيد لا يفوقه أى نشيد آخر وضعه شعراء المآسمى تقول فيه :

(*) ربما كان هذا إشارة إلى تكرار تمثيل مسرحيات إسكلس .

أى بنى الإنسان ، يا قصار الأجل ، ويا من تملأ الأحزان حياتكم يوماً بعد يوم ، يا عراة ، يا منزوعى الريش ، يا ضعاف الأجسام ، يا كثيرى النزاع ، يا مرضى ، يا من تتنابكم النوائب ، يا من خلقتكم من طين ! استمعوا إلى أقوال السادة الطيور ، الخالدة ، مالكة الهواء ، التى تشرف من عل بأعينها الرحيمة ، على ما بينكم من نزاع ، وشقاء وكدح ، وقلق .

وتضع الطيور خطة لمنع كل الاتصال بين الآلهة والبشر ، ولا تسمح بأن تصعد القرابين إلى السماء . وتقول المصلحة منها إن الآلهة القدماى لن تلبث أن تموت جوعاً فتسود الطيور . ثم تختبر آلهة جلد على صورة الطير ، وتنزل الآلهة التى صورت فى صورة الآدميين عن عروشها ، ثم يأتى آخر الأمر وفد من أولمپس يسعى لعقد هدنة ، ويقبل زعيم الطير أن يتزوج من خادمة زيوس ، وتختتم المسرحية بهذا الزواج الموفق .

٣ - الفنان والمفكر

أرسطوفان مزيج من الجمال والحكمة والقذارة لا تستطيع أن نحدد الصنف الذى ينتمى إليه من الناس . كان فى وسعه إذا اعتدل مزاجه أن يكتب أغاني من الشعر اليونانى الخالص الرصين ، لم يستطع مترجم حتى الآن أن ينقله بروعته إلى لغة غير لغته الأصلية . وحواره هو الحياة نفسها ، أو لعله أكثر سرعة ، وأعظم طلاوة ، وأشد قوة مما تجرؤ أن تكون عليه الحياة ، وهو يشبه ربليه Rabelais وشيكسبير ، ودكنز ، فى قوة أسلوبه وحيويته ، وشخصياته كشخصياتهم أصدق تصويراً للعصر الذى عاش فيه من جميع ما ألفه المؤرخون فى ذلك العصر ، ويفوح منها شذاه أقوى مما يفوح من هذه المؤلفات كلها مجتمعة ؛ وليس فى وسع أحد أن يعرف الأثينيين حق المعرفة إذا لم يكن قد قرأ مسرحيات أرسطوفان . ومع هذا فإن حبيكات مسرحياته هزأة سخيفة ، جمع أطرافها بإهمال يكاد أن

يكون مرتجلاً . وتراه في بعض الأحيان يستنفد موضوع المسرحية الرئيسي قبل أن يبلغ منتصفها ؛ ويتعارج ما بقي منها على عكازي الجون والمزل حتى يصل إلى نهايتها . والفكاهة في العادة من النوع الدنيء ، مثقلة بالجناس السهل الساذج ، وتطول حتى لا يطيق الإنسان طولها ، وكثيراً ما تستعار عباراتها من عمليات المضغ ، والتكاثر ، والتبرز . ففي مسرحية الأركانيين تسمع عن شخص لا ينقطع ساعة عن التبرز طيلة ثمانية أشهر (١٣١) . وفي السحب نرى فضلات الإنسان الكبيرة تمزج بالفلسفة العليا (١٣٢) ، ولا تمر صفحة إلا نجد في التي تليها أردافاً ، وصدرأ ، وغدداً تناسلية ، وسفاداً ، ولواطاً ، واستمناء ، كل ذلك يعرض علينا (١٣٣) ، ثم نراه يتهم منافسه الشيخ أقراطينوس Cratinus بسيا البول ليلاً (١٣٤) . وهو بهذا كله أكثر الشعراء القدامى شهاً بأهل هذه الأيام لأن الإسفاف والبلداء لا يختص بهما عصر من العصور . وإذا ما تحدثنا عنه بعد حديثنا عن مؤلف يوناني سواء — وبخاصة بعد حديثنا عن يورپديز — بدا لنا مسافاً إلى حد تشمئز منه النفس وتنقبض ، حتى ليصعب علينا أن نتصور أن النظارة الذين يستمعون إلى أحدهم هم بعينهم الذين يستمعون إلى الآخر .

ولذا كنا محافظين صادقين أطلقنا هذا كله ، وحججنا في ذلك أن أرسطوفان يهاجم التطرف بكافة أشكاله ، ويستمسك مخلصاً بالفضائل والردائل القديمة أياً كان نوعها . وهو على ما نعلم أحط الكتاب اليونان جميعهم خلقاً ، ولكنه يأمل أن يعوض هذا النقص بمهاجمة الفساد الخلقى ، ونراه دائماً إلى جانب الأغنياء ، ولكنه يشتر بالجن ، ويكذب كذاباً يوسف على يورپديز حياً وميتاً ، ولكنه يهاجم الغدر والخيانة ، ويصف نساء أثينة بالفظاظلة إلى حد غير معقول ، ولكنه يشهر يورپديز لأنه يفتري ويسخر بالآلهة سخيرية جريئة (*) . وإذا وازنا بينه وبين سقراط التقى لم نجد بداً من أن نصوره

(*) وقد ورد في أقواله : إن بعض الآلهة تقيم المواعير في السماء .

كافراً مهزراً ، لكنه رغم هذا يدعو بقوة إلى الدين ويتهم الفلاسفة بأنهم يعملون للقضاء على الآلهة . لكن تصوير كليون ذى السلطان القوى تصويراً هزلياً ، وكشف عيوب ديموس أمام ديموس نفسه يتطلبان شجاعة حقة ، وتبين الخطر الشديد الذى يتهدد حياة أثينة من جراء اتجاه الدين والأخلاق من التشكك السوفسطائى إلى الفردية الأبيقورية ، نقول إن تبين هذا الخطر يتطلب كثيراً من الفطنة ونفاذ البصيرة . ولعل أثينة كان يصلح حالها لو أنها عملت ببعض نصائحه ، ولم تشتط فى نزعتها الاستعمارية ، وعقدت صلحاً مبكراً مع إسبارطة ، وخففت بزعامة أرسطوطانية ما فشا فى الديمقراطية التى قامت بعد عصر بركليز من فوضى وفساد .

ولقد أخفق أرسطوفان لأنه لم يكن جاداً فى نصائحه إلى الحد الذى يحمله على العمل بها . وكان إسرافه فى تمثيل الدعارة وفى الشتائم من الأسباب التى أدت إلى تحريم المهجو الشخصى ؛ ومع أن القانون الذى صدر بهذا التحريم قد ألغى بعد قليل من الوقت ، فإن « المسلاة القديمة » ذات النقد السياسى قد ماتت قبل موت أرسطوفان (٣٨٥) ، وحلت محلها فى مسرحياته الأخيرة نفسها « المسلاة الوسطى » مسلاة الأخلاق والغرام . لكن الحبوبة التى كانت تمتاز بها المسلاة اليونانية قد اختفت باختفاء ما كان فيها من إسراف ووحشية ، وظهر فليمون ومناندر واختفيا وعفا ذكرهما ، أما أرسطوفان فقد ظل باقياً رغم تبدل المبادئ الأخلاقية والأنماط الأدبية ، حتى وصل إلى عصرنا هذا ومع له إحدى عشرة مسرحية من مسرحياته الاثنتين والأربعين كاملة لم ينقص منها شيء . ولا يزال إلى هذا اليوم حياً فى هذه المسرحيات رغم ما يعترض فهمها وترجمتها من صعاب . وإذا ما استطعنا أن نسد أنوفنا حتى لا يؤذيها فحشه وبداءته استطعنا أن نقرأ مسرحياته بكثير من البهجة الدنسة .

الفصل السابع

المؤرخون

لم ينس اليونان النثر كل النسيان في نشوة الشعر المسرحي ، فقد أولعوا أشد الالع بالخطابة مدفوعين إلى هذا بنزاعهم القضائي ونظامهم الديمقراطي . وإذا رجعنا إلى ذلك التاريخ البعيد - عام ٤٦٦ ق . م - رأينا كوراكس Corax السرقوصى يكتب رسالة يسميها تكني لوجون Techné Logon (فن الكلمات) يرشد بها المواطنين الذين يريدون أن يخاطبوا الجمعية أو القضاة ، ونجد فيها منذ ذلك العهد تقسيم الخطبة إلى ديباجة ، وقصة ، ونقاش ، وملاحظات ثانوية ، ومسك الختام . ونقل غورغياس هذا الفن إلى أثينة ، واستخدم أنتيفون Antiphon الأسلوب المنمق في الخطب والنشرات التي خصها بالدعابة الأجركية ، ثم أضحت الخطابة اليونانية على يد ليسياس أكثر وضوحاً وأقرب إلى الأسلوب الطبيعي ، غير أن الخطب التي كانت تلقى على الجماهير لم تتخلص من خداع الألفاظ ، ولم تثبت ما للأسلوب الحديث البسيط من قوة الأثر ، إلا عند أعظم الساسة والحكام أمثال ثمستكليز وبركليز . وشهد السوفسطائيون هذا السلاح الجديد واستغله تلاميذهم استغلالاً بلغ من قوته أن حرم الحزب الأجركي تعليم فنون البلاغة بعد استيلائه على مقاليد الحكم في عام ٤٠٤ (١٣٦) .

وكان التاريخ أعظم ما أنتجه النثر في عصر بركليز ، ونستطيع أن نقول إن القرن الخامس هو الذي كشف عن الماضي وبُحث عن علاقة الإنسان بالزمن . ويمتاز فن التاريخ عند هيرودوت بكل ما في الشباب من صير وقوة ، فإذا ما وصلنا إلى توكيديدز بعد خمسين عاماً من عصر هيرودوت رأيناه قد بلغ حداً من النضوج لم يفقه فيه أى عهد من العهود التي أعقبته ، وكانت (٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠)

الفلسفة السوفسطائية هي التي فصلت بين هذين المؤرخين وميزت كلا منهما من الآخر فقد كان هيرودوت أكثر بساطة من صاحبه ، ولعله كان أكثر منه رافة ، وما من شك في أنه كان أبهج منه روحاً . وقد ولد في هليكرنسس Halicarnassus حوالي عام ٤٨٤ ، من أسرة بلغت من رفيع المنزلة درجة أمكنها أن تشترك في الدسائس السياسية . ونفى من بلده وهو في الثانية والثلاثين من عمره بسبب مغامرات عمله السياسية . فبدأ من ذلك الوقت تلك الرحلات البعيدة التي كان لها أكبر الأثر في توارينه . وقد مر بغيريقية في طريقه إلى مصر وتوغل فيها حتى وصل إلى جزيرة إلفنتين ، ووصل في ترحاله غرباً إلى قورينة وشرقاً إلى السوس وشمالاً إلى المدن اليونانية القائمة على شاطئ البحر الأسود . وكان حينما ذهب يلاحظ ، ويبحث بعين العالم وتطلع الطفل ، ولما ألقى عصا التسيار في أثينة حوالي عام ٤٤٧ كان في جعبته مقدار ضخم من المذكرات المختلفة عن جغرافية الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وتاريخها وعادات أهلها . وقد استعان بهذه المذكرات وسرقات قليلة من هكتايوس Hecataeus وغيره من المؤرخين السابقين على تأليف أشهر الكتب التاريخية على الإطلاق . وقد وصف في كتابه هذا حياة الناس في مصر ، والشرق الأدنى ، وبلاد اليونان ، وسجل فيه تاريخ هذه البلاد كلها ، من بدايته الخرافية إلى نهاية الحرب الفارسية . وتقول إحدى القصص القديمة إنه قرأ أجزاء من كتابه هذا على الجمهور في أثينة ، وإن الأثينيين أعجبوا أشد الإعجاب بما ورد فيه من وصف الحرب وما قاموا به فيها من أعمال مجيدة ، فقرروا له اثنتي عشرة وزنة (تالنت) أى ما يعادل ستين ألف ريال أمريكي — وهو مبلغ يرى أى مؤرخ أنه يبلغ من الضخامة جداً يجعله غير معقول . ويعلم هيرودوت في مقدمة الكتاب بأسلوب رائع الغرض من وضعه فيقول :

« هذا عرض لبحوث (Historia) هيرودوت الهليكرنسى يقصد به

ألا يمحوا الزمان ما قام به الهلينيون والبرابرة من أعمال مجيدة عجيبة ، ويقصد بنوع خاص ألا تنسى الأسباب التي من أجلها شنوا الحرب بعضهم على بعض » :

والكتاب إلى حد ما « تاريخ عالمي » لأنه يتناول قصة جميع الأمم التي تسكن في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو أوسع في مجال بحثه من الموضوع الضيق الذي شمله كتاب توكيدندز ، وتسرى في الكتاب روح الوحدة غير المقصودة بما يتضمنه من باب الفرق بين حكم البرابرة المطلق والديمقراطية اليونانية ، ثم ينتقل بخطى وثيدة واستطرادات مضطربة إلى الخاتمة الروائية المتوقعة في سلاميس . والغرض من الكتاب كما يقول المؤلف هو تسجيل « الأعمال العجيبة والحروب » (١٣٨) ، والحق أن القصة في بعض مواضعها تغيد إلى الذاكرة سوء فهم Gibbon للتاريخ حين يقول إنه « لا يعدو أن يكون سجلا لجرائم البشرية وحماتها ومصائبها » (١٣٩) ، على أن هيرودوت رغم هذا يتسع له المجال لإيراد حقائق طريفة لا تنحصر عن ملابس الجماعات التي يصفها ، وعاداتها ، وأحلامها ، ومعتقداتها . وهو يذكر لنا كيف يستطيع المصريون أن يقفزوا إلى النار ، وكيف يسكر أهل الدانوب من رائحة الخمر ، وكيف بنيت أسوار بابل ، وكيف يأكل المساجيق Massageteae آباءهم ، وكيف كانت لكاهنة أثينا في بداسس Pedasus لحية ضخمة . وهو لا يقتصر على تصوير الملوك والملكات ، بل يصور كذلك الرجال من جميع الطبقات ، ويبعث الحياة في صفه بذكر النساء اللاتي لا يجدن لهن مكانا في كتاب توكيدندز . ويصف أحليتين ، وجمالين ، وقسوتين ، وفتنتين .

وفي « هيرودوت كثير من الهراء » كما يقول استرابون (١٤٠) ، ولكن المجال الذي يبحث فيه مؤرخنا واسع سعة مجال أرسطاطاليس ، وفيه فرص كثيرة للزلل ، وجهله لا يقل سعة عن علمه ، كما لا تقل سلاجه وسرعة

تصديقه لكل ما يروى عن حكمته ؛ فهو يعتقد أن نطفة الأحباش سوداء^(١٤١) ، ويصدق الخرافة القائلة إن اللسدوميين قد نالوا النصر لأنهم جاءوا بعظام أرسنيز إلى اسبارطة^(١٤٢) ، وينقل أعداداً ضخمة عن جيوش خشيارشاي ، وعن قتلى الفرس وعن انتصارات اليونان الذين لم يكادوا يصابون فيها بجروح . وتسرى في قصته روح الوطنية ولكنها ليست بعيدة عن الإنصاف ، فهو يعطى قسطاً من العناية لكلا الطرفين في معظم المنازعات السياسية^(*) . ويمجد بطولة الغزاة ، ويعترف بما كان يتصف به الفرس من شرف وشهامة ، وهو يقع في أشنع أخطائه حين يعتمد على ما يحدثه به الأجانب ؛ فهو يظن أن نبوخذ نصر امرأة ، وأن جبال الألب نهر ، وأن كيوبس عاش بعد رمسيس الثالث ، لكنه حين يبحث في أشياء أتاحت له الفرصة لمشاهدتها بنفسه ، يكون أدعى للثقة به ، وكلما ازداد علمنا بالتاريخ ازدادت أقواله ثباتاً .

وهو لا يتردد في قبول الكثير من الخرافات والأوهام ، ويسجل الكثير من المعجزات ، ويرى النبوءات في خشوع الأتقياء ، ويسود صحفه بالتفاؤل والتطير ؛ ويحدد تواريخ سميلي Semele ، وديونيشس ، وهرقل ؛ ويعرض التاريخ كله ، كما يعرضه بوسيه Bossuet كأنه مسرحية من وضع القوة الإلهية المدبرة لشئون العالم ، تثاب فيها الفضائل ، وتعاقب الخطايا والجرائم ، وطغيانُ الناس إذا استغنوا . لكن عقله تكون له الغلبة أحياناً ؛ ولعل سبب ذلك أنه يستمع للسوفسطائيين في آخر حياته . فهو يشير إلى أن هومر وهزيبود هما اللذان وضعا أسماء آلهة أولمبس ونحطعا عليها صورها ، وأن أديان الناس وليدة عاداتهم ، وأن ما يعرفه إنسان ما عن الآلهة يعادل ما يعرفه غيره^(١٤٣) . وهو يرى أن العناية الإلهية هي الحكم الذي لا معقب لحكمه في تاريخ العالم ، لكنه يهمل بعد ذلك أمرها

(*) قارن بحثه الخيالي البارح في الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية في الكتاب

ويبحث عن الأسباب الطبيعية للحادثات ، ويوازن بين شخصيات ديونيشس وأوزيريس ، وأساطيرهما موازنة العالم المحقق ، ويتسم ابتسامة المتسامح مما يروى عن تدخل الآلهة في حوادث العالم ، ويعرض لتفسيرها أسبابا طبيعية^(١٤١) ، ويكشف لنا عن خطته العامة ويغمز بطرف عينه حين يقول : «إني مضطر إلى أن أقص ما ينقل إلى» ، ولكني غير ملزم بتصديقه ، وأحب أن يصدق هذا القول على كل قصة أروها في هذا التاريخ^(١٤٥) ، وهو أول من وصلت إلينا مؤلفاتهم من المؤرخين اليونان ، وعلى هذا الاعتبار لاندوم شيشرون على وصفه إياه بأنه أبو التاريخ . ويضعه لوشيان ، كما يضعه معظم الأقدمين ، في منزلة أرقى من منزلة توكيديلز^(١٤٦) .

ومع هذا كله فإن الفرق بين عقل هيرودوت وعقل توكيديلز كالفرق بين المراقبة والنضوج ، ذلك أن توكيديلز ظاهرة من ظواهر عصر الاستنارة اليوناني ، وهو من سلالة السوفسطائيين ، كما كان جين من الناحية الروحية من سلالة بايل Bayle وفولتير . وكان والده من أثرياء الأثينيين يمتلك مناجم للذهب في تراقية ، وكانت أمه تراقية من أسرة عريقة . وقد تلقى كل ما كان في أثينة في أيامه من تعليم ، ونشأ في جو التشكك الفلسفي ، ولما شبت نار حرب البلوپونيز أخذ يسجل حوادثها يوما فيوما ، ثم مرض بالطاعون في عام ٤٣٠ ، وفي عام ٤٢٤ اختير وهو في سن السادسة والثلاثين (أو الأربعين) أحد قائدين توليا قيادة حملة بحرية سيرت إلى تراقية ، ولما أن عجز عن قيادة قواته إلى أمفبوليس Amphipolis ليفك عنها الحصار في الوقت المناسب . - نفاه الأثينيون ، ف قضى العشرين سنة التالية من عمره ينتقل من بلد إلى بلد وخاصة في إقليم البلوپونيز . وإلى هذا العلم المباشر بأحوال العدو يرجع بعض ما يمتاز به كتابه من نزاهة ذات أثر كبير في النفس . ولما شبت الثورة الأبحرية في عام ٤٠٤ انتهى أجل نفيه فعاد إلى أثينة . ومات - ويقول بعضهم انه اغتيل - في عام ٣٩٦ أو قبله قبل أن يتم تاريخ

حرب الپوونيز . وهو يبدأ ذلك التاريخ بهذه العبارة البسيطة :
كتب توكيديلز - وهو رجل أثيني - تاريخ الحرب التي دارت رحاها
بين الپوونيز والآثينيين ، من ساعة أن اشتعلت نارها . وكان يعتقد أنها حرب
خطرة الشأن ، أجدر بالرواية من أية حرب سبقتها .

ويبدأ قصته الافتتاحية من النقطة التي انتهى إليها هيرودوت في ختام
حرب الفرس . وبما يوصف له أن عبقرية أعظم المؤرخين اليونان لا ترى
في الحياة اليونانية شيئاً أجدر بالتسجيل من حروبها . لقد كان هيرودوت
يكتب وهو يستهدف تسلية القارئ المتعلم ، أما توكيديلز فيكتب ليد مؤرخي
المستقبل بالمعلومات ، ويسجل السوابق ليسترشد بها الحكام في المستقبل .
وكان هيرودوت يكتب بأسلوب سهل مهلهل غير متأسك ، ولعل الذي
أوجى إليه بهذا الأسلوب هو ملاحم هرمر الجواله المأثمة . أما توكيديلز
فيكتب كما يكتب من استمع إلى الفلاسفة ، والخطباء ، والكتاب المسرحيين ،
بأسلوب يكبر فيه التعقيد والغموض ، لأنه يحاول أن يجمع فيه بين الإيجاز
والدقة والعمق ، أسلوب تفسده في بعض الأحيان بلاغة غورغياس
وزخرفها ، ولكنه في بعض الأحيان لا يقل عن أسلوب ناستس وضوحاً
ولاحكام سبك ، ويسمو في اللحظات الحاسمة إلى العبارات المسرحية التي
تبلغ من القوة ما تبلغه أية عبارة من عبارات يورپديز . ولسنا نجد في المسرحيات
اليونانية ما هو أروع من الصفحات التي يصف فيها حملة منقوصة ، أو تردد
نيشياس ، أو ما أعقب الهزيمة من فزع وروع . ولنعد مرة أخرى إلى الموازنة
بين هيرودوت وتوكيديلز فنقول إن هيرودوت ينتقل من مكان إلى مكان ،
من عصر إلى عصر ، أما توكيديلز فيضبط قصته في إطار جامد من الفصول
والسنين ، مضجياً في ذلك بتسلسلها . وكان هيرودوت يكتب عن الأشخاص
أكثر مما يكتب عن مجرى الأحداث لأنه يحس أن الشخصيات هي التي
يجري الأحداث ، أما توكيديلز فهو وإن كان يعترف بما للأفراد غير

العادين من خطر في التاريخ ، وإن كان يخفف من أعباء موضوعه بما يثبته فيه من صورة بركليز ، وألقبيادس ، ونيشياس وأمثالهم ، ينجح لتكوين الحوادث أكثر مما ينجح للذكر الأشخاص ، ويبحث في علل الحوادث وتطوراتها ، ونتائجها . وكان هيرودوت يكتب عن حوادث جده بعيدة عنه نقلت إليه أخبارها معننة مرتين أو ثلاث مرات في معظم الحالات ، أما توكيديديز فكثيراً ما يحدثنا عما شاهدته بعينه ، أو عما سمعه ممن شاهدوا بعينهم ، أو اطلعوا على وثائقه الأصلية ، وكثيراً ما يثبت الوثائق التي يتحدث عنها . وهو شديد الحرص على الدقة ، وحتى وصفه الجغرافي نفسه قد ثبتت صحة تفاصيله . وقبلما يصدر أحكاماً أخلاقية على الرجال أو الحوادث ، ويطلق العنان لسخريته الأرستقراطية من الديمقراطية الأثينية فتتغلب عليه وهو يصور كليون ، ولكنه في أكثر الأحيان يبعد شخصيته عن قصته ، ويروي الحقائق بنزاهة لا يتحيز لأحد الطرفين ، ويقص قصة حياته توكيديديز العسكرية القصيرة وكأنه لم يعرف ذلك الرجل قط ، دع عنك أنه هو الرجل الذي يقص قصته . وهو مبتدع الطريقة العامية في التاريخ ، ويفخر بما بذله في تأليفه من الجهد والعناية . ويقول وهو يشير من طرف خفي إلى هيرودوت : وإنني حتمت أن النتائج التي وصلت إليها من الأدلة التي ذكرتها هنا يمكن أن يوثق بها ويعتمد عليها . وما من شك في أنها لن تؤثر فيها قصص شاعر يعرض ما في صناعته من مبالغات ، ولا تأليف الإخباريين التي يضحى فيها بالحقائق في سبيل الطرافة والحادذية لأن الموضوعات التي يعالجونها خارجة عن نطاق الأدلة والبراهين ، ولأن قدم عهدنا قد سلبها قيمتها التاريخية ورفعها إلى مقام الخرافات . أما نحن فلم نلجأ إلى هذه الطريقة أو تلك ، ولا ريب عندنا في أننا قد اعتمدنا على أصح المعلومات وأكثرها وضوحاً ، وأننا قد وصلنا إلى نتائج تبلغ من الدقة أقصى ما ينتظره الإنسان في أمثال هذه المسائل الموهلة في القدم . . . وإنني لأخشى أن يفقد كتابي بعض ما يجب أن يحتويه من طرافة ومتمعة بسبب خلوه

من القصص الخيالية المثيرة للعواطف ، ولكن إذا رأى الباحثون الذين يرغبون في الوصول إلى حقائق الماضي الصحيحة ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل - وهي التي تشبه بلاريب حوادث الماضي ، إن لم تكن صورة مطابقة لها - إذا رأى هؤلاء الباحثون أن فيه فائدة لهم ، فلا يرضى بهذا وأقنع به . وملاك القول أني لم أكتب كتابي هذا ليكون مقالة يكسب بها تصفيق الناس وثناؤهم لحظة قصيرة ، بل كتبه ليكون ملكاً لجميع العصور (١٤٧) .

لكنه مع هذا يضحي بالدقة في سبيل الطرافة في حالة واحدة معينة ، فهو مولع بأنه ينطق شخصياته بالخطب الطنانة ، ويعترف صراحة بأن معظم هذه الخطب من نسج الخيال ، ولكنها مع ذلك تساعد على توضيح الشخصيات والأفكار والحوادث وإنعاشها . وهو يدعي بأن كل خطبة من هذه الخطب تتضمن خلاصة خطبة حقيقية أُلقيت فعلاً في الوقت الذي يتحدث عنه . فإذا كان هذا صحيحاً فإن جميع رجال الحكم وقواد الجيش من اليونان قد درسوا بلاريب فنون البلاغة مع غورغياس ، والفلسفة مع السوفسطائيين ، وعلم الأخلاق مع ثرازمكس . يضاف إلى هذا أن الخطب جميعها واحدة في أسلوبها وفي مراوغتها ودهائها ، ونظرتها الواقعية إلى الأمور . وهي تجعل الاسبارطي صاحب الرد الموجز المسكت مراوغاً كأى أثيني تربى بين السوفسطائيين ، وتنطق الدبلوماسيين بحجج أبعد ما تكون عن الدبلوماسية (*) وتضفي على عبارات قادة الجند أمانة صارمة لا قبل لهم بها . وليست خطبة پركليز الجنائزية ، إلا مقالا بديعاً في فضائل أثينة ، كتبها بأسلوب رشيق رجل مطرود من بلده ، مع أن پركليز قد اشتهر ببساطة خطبه وبعدها من فنون البلاغة ، هذا إلى أن فلوطرخس يفسد على توكيد بدز دعواه الخيالية الروائية بقوله إن پركليز لم يخلف وراءه شيئاً مكتوباً ، وإن أقواله لا يكاد يبق منها شيء على الإطلاق (١٤٨) .

(*) خطب أتمبيادس في اسبارطة ، المجلد الرابع (ص ٢٠ ، ٩٨) .

ولتوكيد يدز من العيوب ما يعادل فضائله ، فهو صارم كصرامة التراقي ،
وتقصه روح المرح والفكاهة الأثينية ، ولذلك يخلو كتابه من الفكاهة أياً
كانت ، وقراءه منهمكا على الدوام في : هذه الحرب التي يؤرخها توكيد يدز ،
(وهى عبارة يكررها في كثير من الفخر) لإنهما كما يصرفه عن كل شيء
عدا الحوادث السياسية والحربية . وهو يملأ صفحاته بالتفاصيل العسكرية ،
ولا يذكر قط فناً واحداً ولا عملاً من أعمال الفن . وهو دائم البحث عن
علل الأشياء ، ولكنه قلما يتعمق إلى العوامل الاقتصادية التي تكمن وراء
العوامل السياسية وتحدد مجرى الحادثات ، وهو وإن كان يكتب للأجيال
المقبلة ، لا يحدثنا بشيء عن دساتير الدول اليونانية أو عن حياة المدن ،
أو نظم المجتمعات . وهو يتجنب التحدث عن النساء بقدر تجنبه التحدث عن
الآلهة ، ويأبى أن يكون لمن موضع في قصته ، وهو ينطق بركليز صاحب
الشهامة والمروءة الذي عرض حياته للخطر من أجل محظية تطالب بحرية
المرأة ، ينطعه بقوله : « إن سمعة المرأة إنما تقوم على امتناع الرجال عن
ذكرها بالخير أو بالشر قدر المستطاع » (١٩) . وهو وإن عاش في عصر
يعد أعظم عصور التاريخ ثقافة ، يضل في ببداء الانتصارات والهزائم
العسكرية المتعاقبة التي تقوض قواعد المنطق من أساسها ، ولا يتغنى بالحياة
العقلية الأثينية التي تهز المشاعر هزاً ، بل يبقى قائداً عسكرياً بعد أن
يصبح مؤرخاً .

على أننا رغم هذا كله مدينون له بالشيء الكثير ، وليس من حقنا أن
نعيبه فوق ما يستحق لأنه لم يكتب ما لم يتكفل بكتابته ، فهاهنا نجد في القليل
طريقة لكتابة التاريخ منظمة ، واحتراماً للحقائق ، ودقة في الملاحظة ،
ونزاهة في الحكم ، وجزالة في اللفظ لم تبق بعده طويلاً ، وسحراً في
الأسلوب ، وعقلاً قوياً سدداً عميقاً ، تصلح واقعيته الصارمة لأن تكون
دعامة لأرواحنا الروائية الخيالية بفطرتها . ولسنا نجد في كتابه شيئاً من

القصص الخرافية ، أو الأساطير ، أو المعجزات . وهو يقبل قصص البطولة ، ولكنه يحاول أن يفسرها بالاستناد إلى العلل الطبيعية ؛ ويغفل ذكر الآلهة إغفالاً تاماً ، ولا يجعل لها موضعاً في كتابه ، ويسخر من النبوءات والوحي ومن غموضها الذي يجعلها في مأمن من الخطأ^(١٥٠) ، ويندد في سخريه بغباء نيشياس إذ يركن إلى النبوءات بدل أن يركن إلى المعرفة الحقة . وهو لا يعترف بوجود قوة عليا مدبرة مرشدة ، أو خطة إلهية موضوعة بحكمة ، بل إنه لا يعترف حتى « بالتقدم » نفسه ؛ وهو ينظر إلى الحياة والتاريخ نظرتة إلى مسرحية دينية ونبيلة معا ، يرفع من شأنها بين الفينة والفينة عظام الرجال ، ولكنها تهوى على الدوام إلى وهدة الخرافة ، والحرب . وفي شخصه يحسم النزاع بين الدين والفلسفة وتنتصر الفلسفة ٥

وبعد ، فإن فلوطرخس وأنتيسوس يشيران في كتبهما إلى مئات من المؤرخين اليونان ، ولكن الذين عاشوا منهم في العصر الذهبي ، عدا هيرودوت . وتوكيديلز قد عدا الدهر عليهم كلهم تقريباً فعفت آثارهم ، ومن جاء بعدهم من المؤرخين لم يبق من كتبهم إلا فقرات مضرقة . وقد حدث هذا بعينه لمختلف الآداب اليونانية الأخرى ؛ فليس لدينا من آثار كتاب المآسي المسرحية الذين يعدون بالمئات والذين نالوا الجوائز في حفلات ديونيشيا إلا عدد قليل من المسرحيات كتبها ثلاثة من الشعراء ، أما كتاب المسالى الكثيرون فلم يبق إلا أثر لواحد منهم ، ولم يبق من فلسفة ذلك العصر إلا آثار رجلين اثنين . وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إنه لم يبق من الآداب اليونانية التي يعزوها النقاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد أكثر من جزء واحد من عشرين جزءاً من نتاج ذلك القرن ، وإنه لم يبق من آثار القرون التي سبقت أو تلتته إلا أقل من هذا القليل^(١٥١) . والكثرة الغالبة مما بقي لنا قد جاءتنا من أثينة ؛ ولقد أثبت المدن الأخرى ، كما نستدل من عدد الفلاسفة الذين بعث بهم إلى أثينة ، عدداً كبيراً من العباقرة ؛ ولكن البربرية التي طغت عليها من خارجها ومن أسفل منها

قد ابتلعت ثقافتها أسرع مما ابتلعت ثقافة أثينة ، فضاعت مخطوطاتها في
فوضى الثورات والحروب ، وليس في وسعنا إلا أن نحكم على الكل من
هتافات الجزء .

لكن تراث هذه الحضارة رغم هذا كله تراث عظيم ، عظيم في شكله
بلاريب إن لم يكن في مقداره (ومنذ الذي استطاع أن يستوعبه كله ؟) ،
والشكل والنظام هما جوهر أسلوب العصر الذهبي في الأدب وفي الفن على
السواء ؛ فالكتاب اليوناني ، كالفنان اليوناني الذي يعد أنموذجاً لذلك العصر ،
لا يقنع بمجرد التعبير عما يريد ، بل يتوق إلى أن يكسب مادته شكلاً وجمالاً .
وهو يعتمد إلى مادته فيقصها من أطرافها ويشذبها ، ويعيد تنظيمها لتكون
راضحة جليلة ، ويحولها إلى صورة من البساطة المعقدة ؛ وهو دائماً واضح
بسلك أقصر الطرق إلى قصده ، وقلما يلجأ إلى الدوران أو الغموض ،
يتجنب المبالغة والتحيز ، وإذا ما لجأ إلى الخيال في مشاعره حاول أن يكون
منطقياً في تفكيره . وهذا الجهد الدائم الذي لا ينفك يبذله لإخضاع الخيال
للعقل ، هو الصفة الغالبة المسيطرة على العقل اليوناني ؛ لا بل على الشعر اليوناني
نفسه . ومن أجل هذا كان الأدب اليوناني أدباً « حديثاً » بل قل أدباً معاصراً ؛
فإننا ليصعب علينا أن نفهم دانتى أو ملتن ؛ أما يورپديز ، وتوكيدبندز ،
فهما شديداً القرب من عقولنا وينتميان إلى عصرنا . وسبب ذلك أن العقل
يبقى من غير تغيير وإن تغيرت الأساطير ، وأن حياة العقل توائمت بين
أنصارها ومحبيها في كل زمان ومكان .

الباب الثامن عشر

اتحاد بلاد اليونان

الفصل الأول

العالم اليوناني في عهد بركليز

خلق بنا قبل أن نواجه منظر حرب البلوپونيز الحزنة أن نلقى نظرة على العالم اليوناني خارج أتكنا . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة في هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا نستطيع أن نقيم عليه الدليل ؛ وهو أنها كانت تشترك مع أثينة في الازدهار الثقافي الذي امتاز به العصر الذهبي وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها في هذا الازدهار .

في عام ٤٥٩ سبر بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمّن لبلاده قممها . وأخفقت الحملة في غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التي كان يسير عليها ثمستكليز ، وهي أن يكسب العالم بالتجارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بحريتها ، ثم انضمت مدنها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ قتيأت بذلك إلى أن تكون في العهد الذي اصطبغ فيه العالم المعروف بالصبغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدن اليونانية في آسية باستقلالها الذي ظفرت به في ميكالي عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم (*). وازدهرت المستعمرات اليونانية في تراقية وعلى شواطئ الهلسينث والبروبنتس واليوكسين (**). تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب البلوپونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس • وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من نهار الحمجية وأضحت إحدى الدول الكبرى في العالم اليوناني . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنت لها عاصمة جديدة جميلة في پلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوخسيس Zeuxis ، ويورپدیز ، وضربت بلاد اليونان في الحلف البووني مثلاً طيباً لم تنفع به حياة الدول حرة مستقلة في ظلال السلم والتعاون الدولي .

وفي إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة في مجال التجارة البحرية . وأرسل پركليز في عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيّين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيارس مستعمرة ثوريای Thurii الجديدة لتكون تجرية في سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ، ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هبودامس المهندس المعمارى شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حلوه في القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشيعاً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة ،

وظلت صقلية — وهى التى كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائماً غنية — تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سولينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك لفرس . المترجم

(**) أه الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . المترجم .

وبلغت أقراغاس في عهد هيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس :
« ينغمس رجال أقراغاس في الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يوتنون
ببوتهم كأنهم يعيشون أبداً^(١) » . وترك چيلون الأول بعد موته في عام ٤٧٨
لسرقوسة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه ناپليون
لأوروبا الحديثة . وأضحت المدينة في عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس
على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلاً عن التجارة والثروة .
وفيها أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوسية مضرب المثل في
البلخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » في المدينة حتى كان الرجل الذى
ينام في منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سريعى البديهة حذاد
الأسلحة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحمون
في الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إيكارمس وماسى
إسكلس^(٢) .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبداً غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً
على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابہ وخزائنه لسمونيديز ، وبكيليديز ،
ويندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوسة إلى وقت ما عاصمة
اليونان العقلية ؛

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى
نعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة ديمقراطية مقيدة ،
وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحدث حلو سرقوسة وطردت الطغاة
الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملأى الأراضى وأنشأت ديمقراطيات تجارية
تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد ميتين

(١) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى في عهد هيرون الأول (٤٧٥ - ٤٦٨) ثم أعيد
جناؤه في عهد هيرون الثانى (٢٧٠ - ٢١٦) . وقد بقي منه جزء كبير . ومثلت فيه في هذا
القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من قترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد چيلون الأول . وفى عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار فى هيميرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقبها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلها المنعمون فى إغايتها تباطؤ الاسبارطيين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيميرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الطاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه فى أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذى خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلى لهذه الآلهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى جيلا Oela وكرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون فى ولائهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيئشس أعظم قائد فى بلدهم ، ولكن ديونيئشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبى من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده فى إقامة الدكتاتورية ثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غلرامته وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شئ عدا مدينته وجيشه ، واعتزم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله چيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثاني

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على الدوام سبب شخصي - بل شخص واحد في العادة ، كما لا تستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور إليها في صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون الغامون من رجال عصره فادعى أن بركليز هو الذي أوقد نار الحرب الهلونية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسبانيا (٣) .

والراجع أن بركليز الذي لم يتردد في الاستيلاء على أيجينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول في شرق البحر الأبيض المتوسط في وقتنا الحاضر - كانت باباً ومفتاحاً لتجارة نصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية في بحر إيجة . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة في هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هي وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن في مقلوب أية سفينة أن تمخر عباب هذا البحر إلا برضاها . وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الحبوب في البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجلب يهلك ميثوني Methone لم تستطع أن تستورد القليل من الحبوب إلا بعد استئذان أثينة (٤) . وكانت تلك المدينة تدافع عن هذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد في طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التي يصل منها هذا

الطعام إليها ، على أنها بمراسمتها طرق التجارة الدولية كانت تؤدي خدمة حقة. للسلم والرخاء في بحر إيجه ، ولكن الطريقة التي سارت عليها في أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبرياتها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التي تبرعت بها هذه المدن لتصعد بها غارات الفرس عنها في تجميلها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها في شن الحرب على غيرها من مدن اليونان^(٥) . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت في عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (٢٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) في العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر في جميع القضايا التي تنشأ في داخل الحلف إذا كان أحد طرفي النزاع مواطناً أثينياً أو كانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة في وجه أثينة أخضعها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخذ يركباز بسرعة ومهارة الفن التي ثار نفعها في إيجينا (٤٥٧) ، وعوبية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديلز فإن زعماء الديمقراطية الأثينية كانوا يترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتغلوا الحرية الغرض الأسمى لسياستهم في داخل أثينة نفسها . وفي ذلك يقول توكيديلز على لسان كليون مخاطباً الجمعية في عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون يأترون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خير تقدمونه لهم وتضرون به أنفسكم لتنفوهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يحبونكم مرغمين ، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة »^(٦) ، وقد أدى هذا التناقض الأساسي بين عبادة الحرية ، وطفانيان الإمبراطورية منضماً إلى النزعة الفردية المتأصلة

في الدول اليونانية أدى هذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبي في بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة^(٢٧) ، فقاومت بوثوتية في كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذي يخشى الخضوع لها . بإسبارطة ، وطلبت إليها أن تقف في وجه أثينة . ولم يكن الإسبارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثيني وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين النوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء في قلوبهم ، وبدأ للأبحرية الإسبارطية مالكة الأراضي أن الخطة التي جرت عليها أثينة وهي إقامة حكومة ديمقراطية تستمد ساطتها من الإمبراطورية في كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدا لهذه الأبحرية . أن تلك الخطة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الإسبارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليا في كل مدينة من هذه المدن ، وأخلوا يعملون على مهل في تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى بركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهداه تفكيره إلى أن في مقدور الجيش أن يدافع عن أثينا ، أو عن جميع سكان أثينا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن في مقدور الأسطول أن يحمي الطرق التي تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى ثغر أثينة المسور ويبقيها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع الزول عن شيء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذي تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا في هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هليني للبحث عن حل للمشاكل التي تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسبارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إياها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامة أثينة ، وحدث كثير من الدول الأخرى حذوها بوحى منها^(٨) ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفى هذا يقول توكيديلز قاله تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت الهلوبيونيز وأثينة مماوعتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة فى امتشاق الحسام^(٩) » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث فى عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثينى ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الديمقراطيون المنتصرون فى كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغاثتهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل ميغارا وكورنثة من جهة أخرى . وفى عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidea وهى مدينة فى جزائر خلقيدية تؤدى الجزية لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثى ، جاؤلت هذه المدينة أن تخلع النير الأثينى عن كاملها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصرها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت فى خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميغارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل محمولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت ميغارا وكورنثة بأسبارطة ، فرفضت على أثينة أن تلغى قرار التحريم ، ووافق بركليز على شريطة أن تسمح اسبارطة للدول الأجنبية . بأن تتجر مع لكونيا ، فرفضت اسبارطة هذا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالاً تاماً ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، لما كان من اسبارطة إلا أن أعلنت الحرب^(١٠) .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أو ذاك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلووينز ما عدا أرغوس إلى اسبارطة ، وحدث حذوها كورنثة ، وميغارا وبثونية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية واليكسينية ، والجزائر الإيجية في بادئ الأمر بعض معوتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى في هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثيني مدن البلووينز الساحلية ، وأما الجيش الاسبارطي فغزا أتكاً واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا پركليز سكان أتكاً إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هائجهم بأن يصبروا . ويصبروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تديراً سديداً من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكاً سبباً في تفشي وباء فيها — لعله الملاريا(١) — في عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعدداً كبيراً من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهليين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين پركليز بأنه أساء التصرف

(١) يريده الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . (المترجم)

(**) انظر وصف لكريشس القوي لهذا الوباء في ص ١١٣ - ١٢٨٦ من الجزء الرابع

من De Rerum Natura .

فى الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يلى فى إرشاء
ملوك اسبارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف
فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه
غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠٠ رىال أمريكى) . وفى ذلك
الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ،
لكن الأثينيين لم يجلوا لم زعيماً يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ، وأرادوا
أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه فى محنته ، فخرجوا قانوناً كان هو واضعه ،
ومنحوا ابناً له من اسبازيا حقوق المواطنة الأثينية . ولكن الأثينيين الطاعن
فى السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات
بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة فى عهده إلى ذروة
مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التى أفاءها عليها خلف كاره من جهة ،
وبفضل القوة التى أوغرت عليها صلور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولها
ظان القواعد التى رست عليها دعائم العصر الذهبى لم تكن سليمة ، وكان لا بد
أن تنقوض حين عجزت السيادة الأثينية عن تسيير دفة الحكم فى زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيدىدز ، كانت تستطيع أن تنظر بالأنصر رغم
هذا العجز ، لو أنها ظلت تسير على خطة فايوس Fabius التى وضعها
بركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا فى تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من
ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الديمقراطى الجدد تجاراً من نمط
كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيربولس
Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة
الحرب فى البر والبحر ، وكان كليون أقدرهم جميعاً وأعظمهم كفاية ،
وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً .
ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلج ردائه وضرب على
فخذة وهو يخاطب الجماهير » (١٢) ، ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان
شديد الحرص على الظهور على المنصة فى ثياب العال (١٣) . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات بركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم قبرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كهايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً في جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل في الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدمونيين على الاستسلام على غير عادتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطائية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعنى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التى تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذى تؤدیه المدن الداخلة فى نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التى يسير عليها كليون فى هذه المدن ، كالسياسة التى يسير عليها فى أثينة ، هى أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يحده عندهم من المال . ولما أذ ثارت الطبقات العليا فى متلبنى ، ونبذت الحكم الديمقراطى ، وأعلنت تحرر لسيوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع المذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح - ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانونى الذى يصح أن تعقد بمحضوره - وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاكيث Pachcs القائد الأثينى الذى قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشى فى أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصعدوا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاكيث قبيلاً تنفيذ أمر

المذبحة . وبعث باكينز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم إجابة
لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر^(١٤) . وكفركليون عن ذنبه
بأن مات في الميدان وهو يحارب البطل الاسبارطى براسيداس Brasidas
الذى كان يستولى على المدن في شمال بلاد اليونان الأصلية والخاصة لأثينة
أو المنحالفة معها مدينة في إثر مدينة . وهذه الحرب هي التي خسر فيها
توكيديلز منصبه البحري ومسكنه في أثينة من جراء تباطؤه في إنقاذ أمفيوليس
المدينة التي كانت تتحكم في مناجم الذهب في تراقية . وقتل براسيداس
في هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسبارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين
الذين كانوا يهددون بها بالثورة فعرضت الصالح مرة أخرى على أثينة ،
وانصاعت أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الأبحركى ف وقعت صلح نيشياس
(٤٢١) . ولم تكن المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل وقعت
شروط حلف يستمر خمسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تحف لمساعدة اسبارطة
إذا ما ثار عليها الهياوتيون^(١٥) .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تلوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة مؤقتة لم تدم إلا ست سنين . وهذه العوامل الثلاثة هى : الفساد الذى طرأ على السلم فجعله « حرباً بوسائل أخرى » وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الجسام ، ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات الدورية فى صقلية ، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة ، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها ، وحولوا ولائهم إلى أثينة ، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً ، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة ، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea (٤١٨) . وانتصرت اسپارطة فى المعركة ؛ وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها .

وفى هذه الأثناء سیرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس الدورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينية (٤١٦) ، ويقول توكيديدس - وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم - إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق : « لقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هؤلاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتم متأصل فى طبيعتهم ، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به ؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا ، وستركه قائماً سرمدياً من بعدنا ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه ، لأننا نعرف أنكم أتم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة » (١٦) . وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعلم الأثينيون كل من وقع في أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لحسابته من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مأس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهي يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس ممن أيدوا في الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس (١٧) . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكفى في الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل في أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، وبهاء طلعه ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل في واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى هركليز ، قد أنعمت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس في منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو فى سن العشرين بجانب سقراط في بوتيديا Potidaea ، وحارب في السادسة والعشرين من عمره في واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بالفاظ ، « بلغ من تأثيرها في ألقبيادس أن استدرت الدمع من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلققين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فيهجر سقراط ، ويأخذ الفيلسوف في مطاردته كأنه عبد آبق » (١٨) . وكانت بديهة الشاب الواقعة ومجونه حديث الناس في أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه هركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الآخر كان زلق اللسان في صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنني لم أعرفك حين كان عقلك في عنفوانه » (١٩) .
وأراد مرة أن يرد على تحدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلاً من
أغنى الأثنيين وأشدهم بطشاً يدعى هبونكس Hipponicus على وجهه ،
ثم دخل في اليوم الثاني بيت ذلك العظيم ، وخلع ملايسه ، ورجا هبونكس
أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته
هيريقي ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق
معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أثينة مثلاًها
من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين في رسم الصور
على الحدران ، وجمع طائفة من جياد السباق ، فاز بها مراراً في سباق
المركبات في أولمبيا . وقد فازت خيله في إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى
والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية (٢٠) .
وكان في بعض الأحيان يعد السفن ويؤدى نفقات الممثلين من ماله الخاص ،
وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا
كان يعبت في صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكان أثينة بقضها وقضيضها كانت
تستمتع معه بسعاده . وكان يلعم قليلاً في نطقه تلعماً بلغ من سحره أن
أصبح التلعم الطراز الشائع بين شباب أثينة العصريين ، واحتل مرة طرازاً
جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثرياء المتأنقون أن لبسوا
أحذية ألقبيادس ؛ وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ،
ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش
على درعه الذهبي صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك
انتصاراته في الحب (٢١) ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما
تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخلت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما
ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مختبراً السوق

العامة دون أن يجرؤ إنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفتات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت بركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى النقى . ولكن نيشياس كان ضالماً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع القيادس يخصص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثينيين . وكان صلح نيشياس مشيناً في نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير في عام ٥٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التي قذفت بأثينة مرة أخرى في معمعان القتال ، ولما أن هتفت له الجمعية ابتهج لها فها Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع (٣٣).

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال ألفيادس هو الذى أفسد عمل بركليز . ذلك أن أثينة قد انتعشت بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجه . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حى هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ، ولا تقف أبداً عند حد . وكان ألفيادس يطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجدد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام . الهلوبيونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية : ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوسة ، ولم تكن هى تطبيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوسة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به بركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حنو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تزعم أحدهما سرقوسة الدورية ، وتزعم الأخرى ليونتيني Leontini الأيونية . وأرسلت ليونتيني غورغياس إلى أثينة يستنجد بها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت بجهتاً رسلاً إلى أثينة يبلغونها أن سرقوسة تعد العدة لتخضع صقلية كلها ، وتفرض عليها حكومة دُورية ، وتمدد اسهارة بالموث والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى . واغتم ألفيادس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية منقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خبر ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أيسر الأمور وبقليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تتسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ في الاضمحلال ، وإن الشعب الذى يريد أن تكون له إمبراطورية في حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب (٣٣) .

وقام نيشياس في الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بلخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحمل الآن تحملاً خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلباً على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سرقة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحماسة الشديدة التي هي من أنخص خصائص الحرب ، وأخذ الأهليون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتمالاً وطنياً عظيماً . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التي كانت قد فقت كثيرًا من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهانها . وتفصيل ذلك أن أشخاصاً مجهولين تسللوا في جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذانها ، وأعضاء تكبيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المباني العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضي إلى القوم بشهادة لا سند لها متقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا البعث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكارى . بزعمهم ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا في تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم في عام ٤١٥ وقد عقد لواؤه لداعية من دعاة السلم خوار القلب
 يبغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة
 وخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حاثلا بين عبقريته
 وبين الجهود التي لا بد من بلها لنيل النصر . ولم تكذ تمضى على سفر
 الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها
 ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقائه قد اشتركوا في تمثيل
 الطقوس الإلورية الخفية تمثيلا هزليا ساخرا . وأسرعت الجمعية تدفعها
 الجاهير الهائجة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلامينيا Salaminia
 للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس
 الدعوة ، وانتقل إلى سلامينيا ؛ ولما أن رست السفينة عند ثورباى نزل إلى
 البر خفية وفر هاربا . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت
 حكما بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطاع الأثينيون
 القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التي تهدف
 إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال
 يحسده ظالما ، فلجأ إلى البلوونيز ، وحضر إحدى جلسات الجمعية
 الاسبارطية ، وعرض أن يساعد إسبارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة
 أرستقراطية فيها . ويقول توكيذيدز على لسانه : « أما الديمقراطية فإن
 العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علما بذلك من أى واحد
 منهم ، لأن عندى من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى
 لا أجد شيئا جديداً أذكره عن هذا السمخف المتأصل فيها » (٢١) . وأشار
 على الاسبارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة مرقوصة ، وجيشا للاستيلاء
 على ديسيليا Deceleia -- وهى مدينة فى أنكا إذا استولت عليها إسبارطة
 تحكمت عسكرياً فى أنكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة
 فى لوريوم أن تمد أثينة بالأموال التى تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسبارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزيمته حين نبذ ما تعودته في حياة الترف وعاش كما يعيش الاسبارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافي القدمين ، ويستحم في نهر اليوروتاس Eurolas صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعت البهية ، وجاذبيته رغم هذا كله أفسدتا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بحبه ، وحملت منه بولد ، وأسرت إلى أصدقائها في زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أچيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم ألقبيادس بذلك فحصل على منصب في قسم من أسطول اسبارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ، وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال ألقبيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسي في سرديس .

وكان نيشياس يواجه في الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع الغلب عليها إلا عبقرية ألقبيادس العسكرية ومهارته في حيلك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خفت لمساعدة سرقوسة . وفي عام ٤١٤ استطاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسبارطي يقوده جيلبس Gylippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية في ميناء سرقوسة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتاحت لها للخروج من هذا المأزق حين خسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده واهلهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه لإرضاء للآلهة . لكنهم في اليوم الثاني وجدوا أنفسهم يحيط بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة في البحر أولاً ثم في البر بعدئذ .
وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه ببسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر
لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعدموه ، ثم أرسل من بقي على
 قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل
 في مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التي ظل يحياها عدة أجيال أولئك
الذين ظلوا عدة قرون يكسحون في استخراج الفضة من مناجم لوريوم
 وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكد يبق لها شيء من الأموال التي جمعها بركليز في خزائنها ، وكان عام آخر كفيلاً باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتخلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات منهن إلى اسبارطة . وفي عام ٤١٣ ادعت اسبارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون في هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عويية والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسبارطيين . وبعثت سرقوسة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثأر لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسبارطي الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسبارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية (٢٥) .

ومما يدل على شجاعة الديمقراطية الأثينية وما كان فيها من حية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيمًا راعت فيه قواعد الاقتصاد ، وجدت في جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكد تمضي سنة على هزيمتها في سرقوسة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسبارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الأبحركى ثورة في البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعمائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب في يوم من الأيام في جانب الحرب ، بل لأنهم كانوا في واقع الأمر يودون لو انتصرت اسبارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الديمقراطية فاقترعت على أن تكفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التي وحدت صفوف الطبقات المتأثرة في أثينة واسبارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار في إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الأبحركيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسبارطة ، وأخذوا يهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسبارطى في أثينة . وفي هذا الوقت تولى ثرمينز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعمائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمعت أثينة فترة قصيرة بحكم ديمقراطى أرستقراطى مشترك كان في نظر توكيديانز وأرسطاطاليس^(٣) (وكلاهما من الأشراف) خير ما رأته أثينة بعد عهد صولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلاً . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على تسطوها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدداً قليلاً من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارث نائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الديمقراطية . وانتظر الأبحركيون قدوم الجيش الاسبارطى ولكن الاسبارطيين تباطأوا شأنهم في كل مرة ، وولى الحكام الجدد الأدبار ، وأعاد الديمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .

وكان ألقبيادس قد أيد الثورة الأبحركية سرّاً ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الديمقراطية إلى سابق عهدا استدعته إليها ووعدته بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التي توالى عليها بعد نفيه منها . غير أن ألقبيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرباط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسينث مسرعاً ، والتقى بأسطول اسپارطى عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خقليدون وبيزنطية حصاراً دام عاماً كاملاً استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بعلمارة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتل ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله (٢٧) . ولكن أثينة وهى تحفل بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذى يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضاً قضى على ألقبيادس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى فى الميناء وألا يشترك فى القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس فى الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدى ، وقتل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثينى أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها فى الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى ألقبيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح القيادس يخشى أثينة واسبارطة على السواء ، فلم يربداً من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة في ياسها أن يصهر ما في القاتيل والقرابين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله في بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، ثم قررت أن تمنح الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنة للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة ، وهزم الأسطول الجديد عمارة اسبارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب لسيوس) في عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التي أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقه حوالى العالم ؛ واتهموا الباقين على قيد الحياة بإهمالهم لإنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المنتصرين (ومنهم ابن بركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان مقراط عضواً في لجنة الرئاسة في ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التي صودق بها عليه . وماهى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقنعوها بقتل القواد . وفي هذه الأثناء عرض الاسبارطيون ، بعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كنيوفون المخمور (٢٨) .

وانتجه الأسطول الأثيني بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(هـ) كان لفظ استراتيجوس Strategos يطلق على نواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسبارطين بقيادة ليسندر في بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من محبته بين التلال أن السفن الأثينية قد انحلت لها موضعاً شديداً الخطورة عند إيجسبوتامى Aegospotami قرب لمبسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبحثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفي اليوم الثاني حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثيني المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسندر بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين^(٢٩) . وترأى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجيا مع القائد الفارسي فرنزوس Pharnapazus الذي وهبه قصرأ وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنزوس بأن يقتل ضيفه عملاً بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس في قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عارياً يائساً ، يريد أن يقاتل دفاعاً عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحريتهما اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه ففضى نجه في السادسة والأربعين من عمره ، وكان أعظم العاقرة في تاريخ اليونان العسكري ، كما كان إخفاقه . أعظم الفواجع في هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق في بحر إيجه ، فأخذ ينتقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الديمقراطيات ويقيم مكانها حكوماتاً بحرية خاضعة لاسبارطة ، ثم دخل ثغرى بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصالح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرّب مدينة أدت في الماضي خدمات مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب ذلك الأسوار الطويلة واستدعاء الأبحريين المنفيين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطولها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسبارطة مساعدة جديدة في كل حرب تخوض غمارها في المستقبل . واحتجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الأبحريون العائدون بزعماء أقرتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألفوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضي شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث وزنات أرصفة بيرية التي كلفت أثينة ألف وزنة (٣٠) ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الديمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسمائة آخرين ، وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ، وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ، وحرم أقرتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمره هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الديمقراطي ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الأبحريين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الديمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان اللعوى ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ؛ يزداد يوماً بعد يوم ؛ ولما أن اقترب من بيرية ألف من الديمقراطيين المدججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكد الثلاثون يملكون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقربين . ونظم أقرتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس.

أثينة وأعاد إليها الحكم الديمقراطي (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلاً لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الأحركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنها ردت إلى اسبارطة المائة الوزنة التي أعارها حكامها إلى الثلاثين^(٣١) . وأعادت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذي حرمت منه جيل من الزمان .

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسى الوحيد الذى ارتكبه الديمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبه مع فيلسوف طاعن فى السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأى عمل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذاك الأنيتوس Anytus الذى هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أنيتوس هذا رجلاً صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازيبولس ، وأنقذ حياة بعض من أسرهم جنوده من الأجركيين . وكانت له يد فى إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة فى معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقى مع سقراط وصار سكيراً عربيداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه (٣٣) ؛ ولم يخفف من حقه على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أقريتياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث (٣٤)) . فقد بدأ لأنيتوس أن تأثير سقراط فى الأخلاق وفى السياسة أسوأ من تأثير أى سوفسطائى آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التى كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين فى الأنظمة الديمقراطية(*) . وبدا لأنيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انقطع أقريتياس رأتقيادى عن سقراط فى أوائل عهده بالتدريس لأنهما لم يقبلا القيرد التى كان يدعو إليها .

ووجه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، وليقون في عام ٣٩٩
وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها
الدولة ، بل يخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه
مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب »(*) (٣٥) . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية
(ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالي خمسمائة من المواطنين
معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها
ما في رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من
دقة ؛ وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه (٣٧) ، وأن
روايته عن اعتذار سقراط تتفق في كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون .
يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما .
« تقولون أولاً إنى لا أؤمن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أؤمن بإنصاف الآلهة...
إن مثلكم في هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل
والحمير (٣٨) » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان لبعاء أرسطوفان من
أثر فعال :

« لقد اتهمني كثيرون ، اتهموني في الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة
تطاردي كثيراً من السنين ؛ وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . .
لأنهم بدعوا يتهمونني وأتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ،
إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر في السموات
العلا ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدوللعين كأنها
أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Crotzet أن سبب الاتهام الحقيقي هو عداء زراع أنكاء لكل من
يشير الشك في آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشتري منها الأتقياء
للسالكون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أي نقص في العتيدة أدبية يسبب الكساد لهذه
السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعطل العداء على هذا النحو إنما ينطق بلسان أولئك الزراع
الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة (٣٩)

هذه الشائمة ، وسرعان ما ينخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التي يوجهونها إلىّ ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التي ينطبع فيها كل شيء قوياً في عقولكم ، أولعلمهم وجهوها إلىّ في أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندھا ثبتت في العقول . وأصعب ما في الأمر كله أني لا أستطيع ذكر أسمائهم لأنني أجهلھا . اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هزلي . . . تلك هي حقيقة التهم الموجهة إلىّ ، وهذا هو الذي رأيتموه بأعينكم في مسلاة أرسطوفان (٣٩) .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هي أن يهدي الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به . « ولو فعلت لكان مسلکی عجيباً بحق . أي رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء علىّ في بوتيديا ، وأمفيوليس ، وديليوم قد ثبت حيث أمروني بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر - وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأنصوّر أن الله يأمرني بأن أؤدى رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسي وعن غيري من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتي خشية الموت . . . ، وإذا ما قلّم لي : يا سقراط إنا سنغفوك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتكم : أي رجال أثينة ، إنني أجلكم وأحبكم ، ولكنني سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدى قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقي الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له : أي صديقي ، لم تعنى كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا البذر اليسير من الحكمة والحقيقة وأنت مواطن في مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، برثوني أو لا تبرثوني ، ولكن أيا كان ما تفعلونه بي ، فلتعلموا أنني لن أبدل طرائقي ، ولو مت مرات كثيرة (٤٠) .

ويبدو أن القضية قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمره ألا يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذي قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلي ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيتون إلى ... لأنكم إن قتلتموني لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلي ، فأنا ، إذا سمح لي أن أُلجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ، كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطيء الحركة لضخامة جسمه ، في حاجة إلى ما يثبت فيه الحياة ... ولذا كنتم لن تجدوا غيري رجلا مثلي ، فإني أنصحكم أن تبقوا على (٤١) .

وصلر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى في أول الأمر أن يطلب هذا الطلب ، فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن يؤدي غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكي) . وضمنه أفلاطون وهؤلاء الأصدقاء في تعهده . فلما أخذ الرأي للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم في المرة الأولى (٤٢) .

وقد كان في استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أقريطون وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل الفرار (٤٣) ، والراجع أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهي الأمر على هذا النحو . ولكن سقراط بقي كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول حياته أكثر من بضع سنين وأنه « لن يلقى عن كاهله إلا أبهط جزء من الحياة ؛ وهو الجزء الذي يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة في النقصان » (٤٤) .

لهذا لم يقبل اقترح أفريطون ، بل أخذ يبحث من وجهة النظر الأخلاقية ، ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية^(٤٧) . ولم ينقطع تلاميذه عن زيارته في سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يبحث بشعر فيلون Phaedo ويقول : « نخل إلى يافيدون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غدا » - حزنا على . وجاءته زانثي باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها ، فأخذ يواصيها ، وطلب إلى أفريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل تريد إذن أن أستحقها^(٤٨) ؟ » .

ويقول ديودور الصقلي^(٤٩) . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته وأعدموا من اتهموه . ويقول سويداس إن ملاطوس مات رجلا بالحجارة^(٥١) ، ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه غضبا بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطنا يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن سؤال ، أو يستحم في ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن يقتلوا أنفسهم^(٥٢) . ويروى ديوجانس ليرتيوس أن ملاطوس أعدم ، وأن أنيتوس نفي ، وأن تمثالا من البرنز أقيم في أثينة تخليداً للذكرى الفيلسوف^(٥٣) . ولكننا لا نعرف ما في هذه القصص من الصديق أو الكلب^(*) .

وانتهى العصر الذهبي بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية والمعنوية ، ولم يكن ثمة ما يستطيع به تحليل القسوة المتناهية التى عاملت بها ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على متلبى ، وإعدام قواد أرجنوسى ،

(*) أما جروت^(٥٤) . فذكر فيها ، وما يبحث في نفوسنا نحن الشك في صدقها ما يبدله أفلاطون وأكسانوفون من الجهد في الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها الناس بوجه عام في الزمن القديم (كان يقبلها مثلا تروتلان وأوغسطين^(٥٥)) ، وهى تتفق كل الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المختصر ، لم يكن ثمة ما يستطيع به تحليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التي خاضت عمارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التي تستند إليها الحياة الأثينية : فأفقرت تربة أتكأ من جراء الغارات الاسبارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثيني فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ، وأفقرت خزائنها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ، وقتل نحو ثلثي مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب الهلنويين . لقد تركت موقعتا سلايس وبلاثيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افتقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وألحقت أثينة بمجراح في روحها مستنصرة لا يرجى لها براء :

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيثان : عودة الديمقراطية على أيدي رجال من ذوى الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها في خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى في خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يبدان بهما إنتاج أى عصر آخر في تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نبى ، وأن سقراط قد أعلم ، ولكن القوة التي بعثها في الفلسفة كانت تكفى لأن تجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليوناني الذي بلغ فيها ذروته . فقد نصبت فيها تلك الآراء التي كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة في الحياة الفكرية الأوربية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التي لا تخضع لقاعدة والتي كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التي عرفها التاريخ - وهي الجامعات التي جعلت أثينة في (٢٦١ - ٢٤٤ ج ٢ - ٢٤٤)

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديلز قبل اكتمالها .
ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب
على مقومات الفن وتقاليده قضاء تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان
عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض
المتوسط : ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذي دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت .
إليها حيويتها عوداً يثير الدهشة ، فتجددت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ،
وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار ،

الكتاب الرابع

اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

من ٣٩٩ لك ٣٢٢ ق ٢٠ م

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

في الكتاب الرابع

ق . م . ٠

- ٣٩٩ - ٦٠ أجلسوس ملك اسبارطة .
- ٣٩٧ - الحرب بين سراقوصة وقرطاجة .
- ٣٩٦ - أرسطوبس في سيريني وأنتستانس في أثينة ، فيلسوفان .
- ٣٩٥ - أثينة تعيد بناء الأسوار اللويلة .
- ٣٩٤ - واقعنا كرونيا وثيدس .
- ٣٩٣ - أبولونبية أفلاطون ، وعمرابلية أكسافوفون ، وإكلازوسية أرسطوفان .
- ٣٩٠ - ٣٨٧ ديونيشيوس يخضع إيطاليا الجنوبية .
- ٣٩١ - إسقراط يفتح مدرسته .
- ٣٩٠ - إلفوراس يصنع قبرص بالصينة اليونانية .
- ٣٨٧ - صلح أنتستداس ، أو صلح الملك ، أفلاطون يزور أرتقلياس التاراسي العالم الرياضي ، وديونيشيوس الأول .
- ٣٨٦ - أفلاطون ينشئ 'المجمع العلمي' (الأقاديمية) .
- ٣٨٣ - الاسبارطيون يحتلون كدمية عند طيبة .
- ٣٨٠ - بديچركس لإسقراط .
- ٣٧٩ - بليچداس وميلون يحبران طيبة .
- ٣٧٨ - ٥٤ الإمبراطورية الأثينية الثانية .
- ٣٧٥ - ثباتيس ، العالم الرياضي .
- ٣٧٢ - ديميجن السقوي ، الفيلسوف .
- ٣٧١ - أبامانداس ينتصر عند لكترأ .
- ٣٧٠ - ديوداتيس الموي عالم الأجنة ، وديوكسس النيدى الفلكي .
- ٣٦٧ - ٥٧ ديونيشيوس الثاني طافية في سراقوصة ، ديون يضع خططاً للإصلاح .
- ٣٦٧ - أفلاطون يزور ديونيشيس الثاني .
- ٣٦٢ - أبامانداس ينتصر ويموت عند منتهيا .
- ٣٦١ - زيارة أفلاطون الثالثة لسراقوصة .

ق. م. ٠

- ٢٦٠ - بركستلز الأثيني ، واسكو پاس الباروسو المالان ؛ إفه رس السيمون .
وثيروميس الطيوزى المؤرخان .
- ٢٥٩ - فليپ الثانى نائب الملك فى مقدونية .
- ٢٥٧ - ٤٦ الحرب بين أثينة ومقدونية .
- ٢٥٧ - ٤٦ فن ديونيشيوس الثانى .
- ٢٥٦ - ٤٦ الحرب المقدسة الثانية .
- ٢٥٦ - مولد الإسكندر الأكبر ؛ حرق الهيكل الثانى فى إفسوس ، مسرحية
« فى السلم » لإسقراط .
- ٢٥٥ - مسرحية أرييستمس إسقراط .
- ٢٥٤ - اغتيال ديون .
- ٢٥٣ - ٤٩ تابوت هليكرنس .
- ٢٥١ - « فليپ الأول » تأليف ديمتين .
- ٢٤٩ - فليپ يهاجم أولنثس ، ديمتين يكتب « أولنثياكمس الأول والثانى » .
- ٢٤٨ - هرتليدس الپنتوسى الفيلسوفى ، اسبوسيبوس يخلف أنفلاطون فى رياسته
المجمع العلمى .
- ٢٤٦ - « فى السلم » تأليف ديمتين ؛ « رسالة لفليپ » لإسقراط .
- ٢٤٤ - تيمليون ينقل سراقوصة ؛ « فليپ الثانى » تأليف ديمتين .
- ٢٤٣ - محاكمة إسكينز وثبرته .
- ٢٤٢ - ٢٨ أرسطاطاليس معلم الإسكندر .
- ٢٤٠ - تيمليون يهزم القيرطاجيين .
- ٢٣٨ - فليپ يهزم الأثينيين فى قيرونية ؛ موت إسقراط .
- ٢٣٦ - اغتيال فليپ ، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرشى بلادها .
- ٢٣٥ - الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية .
- ٢٣٤ - أرسطاطاليس يفتتح القوقيون ، واقعة نهر غرنيقوس ؛ نصب تذكاريه ،
ليسقراطس .
- ٢٣٣ - واقعة إسوس .
- ٢٣٢ - حصار صور والاستيلاء عليها ؛ تسليم أورشليم ؛ تأسيس الإسكندرية .
- ٢٣١ - واقعة جوجيلا (أبريل) ؛ الإسكندر فى بابل واليموس .

ق . م .

- ٣٣٥ - أبلز الميوني المصور ، ايميوذ الأرجوسى المثال ، مسرحية و فمه
تسيفون ، لإسكينز ؛ و مسرحية و على التلج و للمستين .
٢٨ - ٣٢٩ الإسكندر ينزو آسية الوسطى .
٣٢٧ - موت كليثس و كلثينز .
٢٥ - ٣٢٧ الإسكندر فى الهند .
٣٢٥ - رحلة نيركس .
٣٢٤ - نقى دمستين .
٣٢٣ - موت الإسكندر ؛ الحرب اللامية .
٣٢٢ - موت أرسطاطاليس ، و دمستين ، و ديمين .
-

الباب التاسع عشر

فليب

الفصل الأول

إمبراطورية اسبارطة

بسطت اسبارطة الآن سيادتها البحرية على بلاد اليونان ، ودامت لها هذه السيادة فترة قصيرة من الزمان مثلت في التاريخ مرة أخرى مأساة من مآسي النجاح يذل صاحبه الكبرياء . فهي لم تمنح المدن التي كانت من قبل خاضعة لأثينة ما وعدتها به من حرية ، بل فرضت عليها بدلا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة ٦٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، وأقامت في كل منها حكماً أرستقراطياً يشرف عليه حاكم لسهده وفي تويده حامية اسبارطية . ولم تكن هذه الحكومات مسئولة إلا أمام الحكام الاسبارطيين البعيدين عنها ، فأوغلت في الفساد والظلم لا يغالا لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجليدة أكثر مما كانت موهرة على الحكومة القديمة .

وفي اسبارطة نفسها كان سيل المال والهدايا المنهمر من المدائن الخاضعة لاستبدادها والأجركيين الأذلاء سبباً في تقوية العوامل الداخلية التي كانت تدفع المدينة دفعا إلى الانهيار . فلم يستهل القرن الرابع حتى تعلمت الطبقة الحاكمة كيف تجمع بين الترف في الحياة الخاضعة والبساطة في الحياة العامة ، وحتى الحكام أنفسهم لم يعودوا يتأدبون بأدب ليتورغ إلا في

المظهر الخارجى دون غيره . وانتقل الكثير من الأراضى عن طريق البائئات والوصايا إلى النساء ؛ وهذه الثروة المكسدة جعلت النساء الاسبارطيات - وهن اللاتى لم يكن يتحملن عبء تربية الذكور من الأبناء - يحيين حياة مريحة متحللة من القيود الأخلاقية لا توائم الأنوثة بحال من الأحوال . هذا إلى أن ما تعاقب على بعض الضياع من تقسيم فى إثر تقسيم قد أفقر بعض الأسر فقراً عجزت معه عن تقديم نصيبها من الطعام العام ، ففقدت بذلك ما كان لها من حقوق المواطنة ، على حين أن تضخم بعض الثروات الأخرى عن طريق الزواج والوصايا قد أوجد لدى العدد القليل من « الأنداد » الباقين ثروات كبيرة مركزة أثارت الغيرة والحسد فى القلوب (*) . وفى ذلك يقول أرسطاطاليس : « من الاسبارطيين من يمتلك ضياعاً واسعة ، ومنهم من لا يكادون يمتلكون شيئاً على الإطلاق ، فالأرض بأجمعها فى أيدي عدد قليل منهم (٣) » . وتكون من الطبقات العليا التى فقدت حقوقها السياسية ومن البريسيين المشرومين من هذه الحقوق ، والهيلوتيين الخائنين ، مجموعة من الأهلين يضطرب فى نفوسها من القلق والعداء ما لا يسمح للحكومة أن تقدم على شئ من المغامرات العسكرية الخارجية التى تتطلبها الحكم الإمبراطورى إقداماً يشغلها زمناً طويلاً فى أماكن واسعة .

وكانت الحرب الأهلية القائمة فى بلاد الفرس وقتئذ تشكل مصائر بلاد اليونان ؛ فقد ثار قورش الأصغر فى عام ٤٠١ على أخيه أرتمخستر الثانى ، واستعان عليه باسبارطة ، وجند جيشاً من آلاف اليونان وغيرهم من الجنود المرتزقة الذين أصبحوا ولا عمل لهم فى آسية على أثر انتهاء حرب الهلوبيونيز الفجائى . والتقى الأخوان المتقاتلان فى كونكسما بين دجلة والفرات وقرب ملتقاهما . وهزم قورش فى هذه الواقعة وقتل الوأسر جيشه كله أو أبعد عدا فرقة مؤلفة من اثنى عشر ألفاً من اليونان استعانوا بسرعة بديتهم وإقدامهم

(*) كان عدد الهلوبيون Homoloi أو « الأنداد » ثمانية آلاف فى عام ٤٨٠ ، وألفين فى عام ٢٧١ وسبعمائة فى عام ٢٤١ .

على الحرب إلى داخل بلاد بابل . وطاردهم قوات الملك فاخثاروا على طريقهم الديمقراطية الساذجة ثلاثة قواد يهدونهم سبيل السلامة . وكان من بين هؤلاء القواد أكسانوفون الذى كان فى يوم من الأيام تلميذاً لسقراط ، والذى كان وقتئذ جندياً شاباً مغامراً ، قدر له أن يتخذ اسمه على الأخص بمؤلفه المعروف بالأناباسيس *Anabasis* أو الصعود الذى وصف فيه وصفاً بسيطاً رائعاً « ارتداد العشرة الآلاف » الطويل متبعين مجرى نهر الفرات نحو منبعه وفوق تلال كردستان وأرمينية إلى البحر الأسود . وكان هذا الارتداد من أعظم المغامرات فى تاريخ البشر . ولنا لتدهشنا أشد الدهشة بسالة هؤلاء اليونان وهم يشقون طريقهم سيراً على أقدامهم يوماً بعد يوم خمسة شهور كاملة ، قطعوا فى اثنتائها ألفى ميل كاملة فى بلاد معادية لهم ، واجتازوا سهولا قافلة لا يجدون فيها طعاماً ، وطرقاً وعرة خطيرة فوق الجبال تتراكم فيها الثلوج إلى عمق ثمان أقدام ، يتعرضون فيها لهجمات الجيوش والعصابات المسلحة من خلفهم وأمامهم ، وعن أيانهم وشمالهم ، ولا يترك أهل البلاد وسيلة إلا اتبعوها لقتلهم أو لإضلالهم أو سد الطريق فى وجوههم . ونحن حين نقرأ هذه القصة الرائعة ، التى شوهها فى شبابنا لإرغامنا على ترجمتها ، نذكر أن أهم سلاح تحتاجه الجيوش هو سلاح الطعام ، وأن مهارة القائد فى تدبير المؤن لجيشه لا تقل أهمية عن مهارته فى تدبير الفوز فى المعركة . وقد هلك من هؤلاء اليونان من التعرض للعوامل الجوية أكثر ممن هلك منهم فى الوقائع الحربية ، وإن كانت هذه الوقائع لم تنقطع يوماً واحداً . ولما أن وقعت عيون الباقين منهم أحياء ، وكانت عدتهم ٨٦٠٠ ، على بحر اليوكسين عند تريزى (طربزون) نغمرت قلوبهم موجة من السرور :

« ولم تكدمقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت فى الجو صيحة شديدة سمعها أكسانوفون ومن فى المؤخرة فخيّل إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم . . . فاستحثوا الخطى إلى

الأمم ليساعدوا رفاقهم ، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون « البحر ! البحر ! » والصيحة تنتقل من صف إلى صف . وبحيث لا يفرحون جنود المؤخرة جميعهم ، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام . . . ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم يعانق زميله ، لا فرق بين الجنود والضباط والقواد ، والدموع تترقق في أعينهم من فرط السرور (٥) .

ذلك أن هذا البحر بحر يوناني وأن مدينة تراپيزى مدينة يونانية ، فهام أولاء قد وصلوا سالمين ، وفي وسعهم أن يستريحوا ولا يخشوا أن يفاجئهم الموت في سكون الليل . وترددت أصداء جهودهم المضنية في طول بلاد هلاس القديمة وعرضها ، وشجعت فليب بعد مائتي عام من ذلك الوقت على الاعتقاد بأن قوة يونانية حسنة التدريب خليفة بأن يركن إليها في هزيمة جيش فارسي يفوقها في العدد أضعافاً مضاعفة . وهكذا مهد أكسانوفون على غير علم منه السبيل إلى الإسكندر .

ولعل أجسلوس الذي اعتلى عرش اسبارطة في عام ٣٩٩ قد شعر بهذا الأثر . فلقد كان في الاستطاعة إقناع بلاد الفرس أن تغفر لاسبارطة لإقدامها على معونة قورش ، لكن هذا الملك ، وهو أقدر ملوك اسبارطة على الإطلاق ، لم يكن ينظر إلى حرب الفرس أكثر من نظرته إلى مغامرة ممتعة ، ولذلك سار على رأس قوة صغيرة ليحرر جميع بلاد آسية اليونانية من حكمهم (٦) . ولما علم أرغشتر الثاني أن أجسلوس لم يكن يلقى عناء في تشتيت شمل جميع الجيوش الفارسية التي أرسلت لصدده ، بعث الرسل يحملون كذبات كبيرة من الذهب إلى أثينة وطيبة ليرشوا بها هاتين المدينتين كي تعلن الحرب على اسبارطة (٧) . وسرعان ما أفلح هؤلاء الرسل في مهمتهم ، وتجددت الحرب بين اسبارطة وأثينة بعد أن دامت السلم بينهما تسعة أعوام . واستدعى أجسلوس من آسية ليواجه جيوش أثينة وطيبة مجتمعين عند

(٥) وقال رينولد : « في أي شيء يملو ملك الفرس ، إلا إذا كان أكثر من استقامة وأشد من كسباً بلطاع نفسه » (٥) .

كرونيا . واستطاع أن يهزمها بشق الأنفس ، ولكن أسطولى أثينة وفارس مجتمعين بقيادة كونون Conon دمرا الأسطول الاسبارطى قرب نيدس بعد شهر واحد من ذلك الوقت وقضيا بذلك على ما كان لاسبارطة من سيادة بحرية قصيرة الأجل . وابتهجت أثينة بهذا النصر المؤزر وأخذت تعمل بجهد مستعينة بما أمدتها به فارس من المال لإعادة بناء أسوارها الطويلة . ودافعت اسبارطة عن نفسها بأن أرسلت رسولا يدعى أنتلسداس Antalcidas إلى الملك العظيم يعرض عليه أن تسلمه المدن اليونانية فى آسية ليحكمها الفرس إذا فرضت فارس على مدن اليونان الأصلية صلحاً يحمى اسبارطة من العدوان . ووافق الملك العظيم على هذا الشرط ، وامتنع عن مساعدة أثينة وطيبة بالمال ، وأرغم المتنازعين جميعاً على أن يوقعوا فى سرديس (٣٨٧) « صلح أنتلسداس » أو « صلح الملك » وأعطيت بمقتضى هذا الصلح لمنوس ، وأمبروس ، وسبروس إلى أثينة ، وضمن الاستقلال للدول اليونانية الكبرى ، ولكنه أعلن أن جميع المدائن اليونانية فى آسية ، وجزيرة قبرص ، قد أضحت للملك العظيم . ووقعت أثينة على شروط الصلح بعد أن احتجت عليها لعلها أن هذه كانت أكثر الحوادث إذلالاً لها فى تاريخ اليونان كله . وهكذا ضاعت ثمار نصر مرثون كلها ، وظلت أثينة ضائعة جيلاً كاملاً ، وبقيت دول اليونان الأصلية جرة بالاسم ، أما فى واقع الأمر قد ابتلعتها قوة الفرس . ونظرت بلاد اليونان بأجمعها إلى اسبارطة نظرتها إلى الخائن الغادر ، وأخذت تنتظر على أحر من الجمر أن تقوم أمة من الأمم تهلكها وتدمرها .

الفصل الثامن

إياميننداس

وكأنما أرادت اسبارطة أن تقوى هذا الحقد في صدور الدول اليونانية الأخرى ، فادعت لنفسها حق تفسير شروط « صلح الملك » وإرغام هذه الدول على الخضوع لها . وأرادت أن تضعف قوة طيبة فأصرت على أن الحلف البوثوني لا يتفق مع الشرط القاضى باستئلال الدول اليونانية الكبرى وحتمت حله . وتلذعت اسبارطة بهذه الحجة فأقامت في كثير من المدن البوثونية حكومات أبحرية موالية لها ، تؤيدها في كثير من الحالات حاميات اسبارطية ، ولما احتجت طيبة على هذا العمل استولت قوة لسديمونية على كدميا Cadmeia معقلها الحصين ، وأقامت فيها حكومة أبحرية خاضعة لسيطرة اسبارطة . وأثارت هذه الأزمة في نفس طيبة بطولة لا عهد لها بها . فاغتال پلپيداس Plopidas وستة من رفاقه طغاة طيبة الأربعة صنائع اسبارطة ، وأعادوا إلى المدينة حريتها واستقلالها . وأعيد تنظيم الحلف واختير پلپيداس زعيماً له ، واستدعى پلپيداس لمعونه صديقه وحبيب إياميننداس ، فدرب الجيش الذى أعاد اسبارطة إلى عزلتها القديمة ، وقاده بنفسه في المعارك التى انتهت بهذه النتيجة .

وكان إياميننداس من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر تفخر بأن ترجع بأصولها إلى أنياب الهولة التى زرعها كلدس قبل مولده بألف عام : وكان رجلاً هادئاً قليل عنه لأنه ليس بين الناس من هو أقل منه كلاماً أو أكثر منه معرفة (٧) ، وقد حبه إلى أهل طيبة ، على الرغم من النظام العسكرى الذى أحلهم به ، تواضعه واستقامته ، وحياته التى لا تكاد تفرق في شيء عن حياة الزهاد ، وإخلاصه لأصدقائه ، وسداد رأيه إذا استنصح ، وشجاعته

المصحوبة بالتؤدة ، ضبط النفس وقت العمل : ولم يكن يحب الحرب ولكنه كان يعتقد أنه لا توجد أمة على ظهر الأرض تستطيع الاحتفاظ بحريتها إذا فقدت روحها وعاداتها الحربية . ولما اختير المرة بعد المرة رئيساً للحلف البوثى حذر الذين أراحوا أن يعطوه أصواتهم بقوله : « فكروا فى الأمر مرة أخرى لأنى إذا وليتمونى قيادتكم سأضطركم إلى الخدمة فى جيشى » (٨) .

ودرب الطيبون المتراخون تحت قيادته حتى صاروا جنوداً بواسل ، وحتى العشاق اليونان الذين كثر عددهم فى المدينة ألفت منهم بيلداس « عصابة مقدسة » تبلغ عدتها ثلثمائة من المحاربين قطع كل منهم على نفسه عهداً بأن يقف فى المعركة إلى جانب صديقه حتى يموت .

ولما غزا بوثوية جيش اسبارطى عدته عشرة آلاف جندى يقوده الملك كليمبروتس ، التقى به إلاميننداس عند لكثرا بالقرب من پلاتية ومعه ستة آلاف رجل وانتصر عليه نصراً كان له أعظم الأثر فى تاريخ اليونان كله وفى أساليب أوروبا العسكرية . وكان هو أول يونانى وجه عنايته إلى دراسة الحركات العسكرية ، وكان يقدر على الدوام أنه سيواجه فى كل معركة عدواً يفوقه فى عدد الرجال ، فكان يركز نخبه مقاتليه ليهاجم بهم أحد جناحي العدو ، ثم يأمر بقية الجيش أن تلتزم خطة الدفاع ، فإذا تقدم العدو فى القلب أمكن تشتيت شمله بهجوم على جناحه الأيسر . ولما تم له النصر فى واقعة لكثرا زحف هو وبيلداس إلى الهلوبيونيز وحررا مسينيا من تبعيتها لإسبارطة التى دامت قرناً من الزمان ، وأسسا مدينة مغالوبوليس لتكون معقلاً لجميع الأركاديين . ونزل الجيش الطيبى إلى لكونيا نفسها ، وتلك حادثة لم يكن لها مثيل منذ مئات من السنين ، ولم تستفد اسبارطة قط مما لحق بها من الهزيمة فى هذه الحملة : « فلم تستطع » على حد قول أرسطاطاليس « أن تفتيق من هزيمة واحدة ، وقضى عليها قلة عدد مواطنيها » (٩) .

ولما أقبل فصل الشتاء انسحب الطيبون إلى بوثوية . واغتر إلاميننداس

بالنصر كما كان يغتر به سائر قواد اليونان المنتصرون ، فبدأ يفكر فى إنشاء
إمبراطورية طيبة تحل محل الوحدة التى أفاءتها زعامة أثينة أو اسبارطة من
قبل على بلاد اليونان ، وقد جرته هذه الخطة إلى محاربة الأثينيين ، وأرادت
اسبارطة أن تسترد مكانتها السابقة فتحالفت مع أثينة ، والتقت جيوش
الأعداء عند منتينيا عام ٣٦٢ ق : م ، وانتصر إلاميننداس فى هذه المعركة ،
ولكنه قتل فى أثنائها بيد جرلس Gryllus بن أكسانوفون . ولم تجن هلاس
خيراً دائماً من زعامة طيبة القصيرة . نعم إنها حررت بلاد اليونان من طغيان
اسبارطة ، ولكنها عجزت ، كما عجز من قبلها ، عن أن توجد خارج
نطاق بوثة وحدة متجانسة متماسكة ، وكان من أثر النزاع الذى خلقتة فى
بلاد اليونان أن أضحت اللول اليونانية من أثره مضطربة ضعيفة عاجزة عن
لقاء فليب حينما انقض علىها من الشمال .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأثينية الثانية

وحاولت أثينة للمرة الأخيرة أن تؤلف هذه الوحدة : واستطاعت بفضل أسوارها الطويلة ، وأساطيلها التي جددت بناءها ، ومالياتها الثابتة الموثوق بها ، وما تيسر لها من زمن بعيد من الوسائل المالية والتجارية ، استطاعت بفضل هذا كله أن تستعيد ما كان لها من سيادة تجارية في بحر إيجه . وكانت الدول التي خضعت لها من قبل والدول المتحالفة معها قد علمتها الحروب التي دامت خمسين عاماً كاملة أنها في مسيس الحاجة إلى سلامة أعظم مما تهيوه لها السيادة الفردية ، ولهذا اتحدت معظم هذه الدول مرة أخرى في عام ٣٧٨ بزعامة أثينة ، ولم يحل عام ٣٧٠ حتى كانت هذه المدينة مرة أخرى أقوى الدول سلطاناً في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الصناعة والتجارة هما وقتئذ عماد حياتها الاقتصادية . ذلك أن أرض أتكالم تكن في يوم من الأيام مما يوائم الزراعة الجماعية . نعم إن العمل الشاق الطويل قد جعلها أرضاً مثمرة بفضل عناية الأهليين بأشجار التوت وبالكروم ، ولكن الإسبارطيين كانوا قد دمروا هذه الغروس ، وقلموا كان من المزارعين من يستطيع الصبر نصف جيل حتى تثمر بساتين الزيتون الجلدية ثمارها . وكان معظم الزراع الذين عاشوا قبل الحروب قد قضوا نحبهم ، وكان معظم من بقى من الزراع قد دب اليأس في نفوسهم فمنهم من يهودوا إلى أملاكهم المخربة فباعوها بأبخس الأثمان لملاك يستغلونها وهم يعيدون عنها ، وفي وسعهم أن يستثمروا أموالهم فيها استثماراً طويلاً الأجل . وبهذه الطريقة ، وبانتزاع ملكية الأراضي الزراعية المثقلة بالدين ، انتقلت هذه الأراضي في أنكا إلى أيدي عدد قليل من الأسر كانت

تستغل كثيراً من المزارع الواسعة بجهود الأرقاء^(١٠) . وأعيد فتح مناجم لوريوم ، وأرسل إلى الخفر ضحايا جدد ، وتكونت ثروات جديدة من الفضة الغفل ومن الدماء البشرية ، وعرض أكسانوفون^(١١) طريقة ظريفة تستطيع بها أثينة أن تملأ خزائنها بالمال ، ولا تكلفها أكثر من أن تشتري مائة ألف موز الأرقاء توّجرهم إلى المقاولين في لاريوم . وأثمرت هذه الطريقة ثمرتها المرجوة فاستخرجت من الفضة مقادير تفوق ما كان ينتج من السلع ، فارتفعت الأثمان أسرع من ارتفاع الأجور ، ووقع عبء هذا الانقلاب على كاهل الفقراء :

وازدهرت الصناعة وتلقت محاجر بنتلكس مصانع الفخار في السرمكس طلبات من عالم بحر إيجة كله . وجمع بعضهم ثروات طائلة بشراء منتجات الصناع اليدويين أو المصانع الصغيرة بأثمان بخسة وبيعها بعدئذ بأعلى الأثمان في الأسواق المحلية أو الخارجية . وسرعان ما تضاعف عدد المصارف المالية في أثينة تبعاً لنمو التجارة وتجميع الثروة النقدية بدل الثروة العقارية . وتلقت هذه المصارف كثيراً عن النقود أو اللخائر القيمة لحفظها لديها ، ولكن يلوح أنها لم تكن تؤدي فوائد من هذه الودائع . وسرعان ما وجد أصحاب المصارف أن هذه الودائع لا تسترد كلها في وقت واحد في الظروف العادية ، فشرعوا يقرضون المال بفوائد عالية ، وقتصروا في بادئ الأمر على إقراض المال دون الاشتغال بوسائل الائتمان الأخرى ، فكانت تضمن عملاءها ، وتحصل لهم مطلوباتهم ، وتقرض النقود بضمان العقار أو النفائس ، وتمتد السفن التي تنقل البضائع بحاجتها من المال . وكان في وسع التاجر ، بفضل هذه المصارف وأكثر من هذا بفضل القروض التي يقدمها الأفراد مجازفة منهم ومضاربة بلخي الأرباح الطائلة ، أن يستأجر سفينة ينقل عليها بضاعته إلى إحدى الأسواق الأجنبية ، ويشتري منها بدل هذه البضاعة شحنة أخرى ، وإذا وصلت إلى بيرية بقيت فيها ملكاً لأصحاب الديون حتى يستردوا ديونهم^(١٢) ، ولما تصرم بعض القرن الرابع نشأ نظام من نظم الائتمان الحقيقي : فشرع

(١٠ - ٢٠ - ١٧)

أصحاب المصارف يصلحون خطابات الاعتماد ، والأذن المالية ، والتحويل المصرفية بدل أن يقدموا النقود ؛ وهذه الطريقة أصبحت الثروة تنتقل من عميل إلى عميل بتدوينها في سجلات المصارف لا غير^(١٣) . وكان رجال الأعمال أو أصحاب المصارف يصلحون السندات للحصول على القروض التجارية ، حتى صارت هذه السندات جزءاً كبيراً من كل شركة . وكان لبعضهم — كالمعتوق پاسيون مثلاً — صلات مالية متشعبة ، واشتهروا بين الناس بأمانتهم ونزاهتهم فوثقوا بهم ، وكانت سنداتهم موضع الثقة في جميع بلاد اليونان : وكان لمصرف پاسيون Pasion أقسام متعددة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين معظمهم من الأرقاء ، ويحفظ بطائفة كبيرة من السجلات المختلفة الأنواع تدون فيها كل عملية مالية بعناية فائقة جعلت في المحاكم أدلة لا يقبل الطعن فيها . ولم يكن إفلاس المصارف أمراً غير مألوف ، ويحدثنا المؤرخون عما كان يحدث من « ذعر » مالى يغلق فيه مصرف بعد مصرف أبوابه^(١٤) . وكانت توجه أحياناً إلى المصارف ، ومنها أعظمها نفوذاً ، تهمة خطيرة من سوء استعمال ما آت إليها من سلطان ، وكان الناس ينظرون إلى رجال المصارف نظرة يجتمع فيها من الحسد والإعجاب ، والكرهية مثل ما يجتمع في نظرة الفقراء إلى الأغنياء في جميع العصور^(١٥)

وأنتج تبدل الثروة من عقارية إلى منقولة كفاحاً شديداً للحصول على المال ، وكان لابد للغة اليونانية من أن تخترع لفظاً تعبر به عن هذه الشهوة الجارحة للحصول على « أكثر فأكثر » من المال ، فأطلقت عليها لفظ « بليونكسيا Pleonexia » ولفظاً آخر يعبر عن الانهماك في طلب الثراء « كرماتستيكى Chrematistike » . وأخذت السلع والخدمات من ذلك الوقت تقدر قيمتها بالمال ، بل إن الناس أنفسهم أصبحوا يقدرون به وبما يمتلكون منه ، وأصبحت الثروات تتكون ثم تزول بسرعة لا عهد للناس بها ، وتنفق في مظاهر من البذخ لو شهدتها أثينة في عصر بركليز لارتاعت واهتزت منها مشاعرها . فأخذ « الأثرياء المحدثون » (وكان له

عند اليونان اسم خاص هو نيوبلوتوى (neoplutoi) يشيدون البيوت الكثيرة الزخرف ، ويزينون نساءهم بالملابس والجواهر الغالية ، ويفسدونهم بكثرة الخدم ، وأصبح تقديم أغلى أصناف المأكول والمشرب للضيوف دون غيرها من المأكوت والمشروبات هو القاعدة المقررة المألوفة (١٦) .

وانتشر الفقر وسط هذه الثروة الطائلة ، ذلك بأن حرية التبادل وأنواعه المختلفة اللتين أمكنتا مهرة الناس من جمع المال جعلتا السدج منهم يفقدونه أسرع مما كانوا يفقدونه من قبل ، فكان الفقراء فى نظام الاقتصاد التجارى الجديد أفقر نسبيا مما كانوا فى أيام استرقاقهم فى أملاك الإقطاعيين ؛ فكان الفلاحون فى الريف يكدحون ليحصلوا بكدحهم وعرقهم على قليل من الزيت أو الخمر ؛ وفى الحواضر ظلت أجور العمال الأحرار منخفضة المستوى بسبب منافسة الأرقاء ؛ وكان مئات من المواطنين يعملون فى معيشتهم على الأجور التى ينالونها نظير حضور جلسات الجمعية أو المحاكم ؛ ولم يكن آلاف من الناس يجدون طعاما إلا ما تقدمه لهم المعابد أو الدولة ، ولا يملكون شيئا . وفى عام ٤٣١ وبلغ عدد من لا يملكون شيئا قط من الناحيين (دح عنك عدد السكان بوجه عام) خمسة وأربعين فى المائة من مجموعهم الكلى ، فلما حلت سنة ٣٣٥ ارتفعت هذه النسبة إلى سبعين وخمسين فى المائة (١٧) . ونفذت الطبقات الوسطى ، التى كانت لكثرة عددها وسلطانها تحفظ التوازن بين الأشراف والعامه ، جزءا كبيرا من ثروتها ، ولم يعد فى وسعها أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، بين المتحفظين الشديدي العناد والخياليين المتطرفين ، وبذلك انقسم المجتمع الأثينى إلى « مدينقى » أفلاطون - « لإحدهما مدينة الفقراء والأخرى مدينة الأغنياء ، وكتاهما فى حرب مع الأخرى » (١٨) . وأخذ الفقراء يضعون الخطط لسلب مال الأغنياء بالتشريع أو الثورة ، كما أخذ الأغنياء ينظمون أنفسهم جماعات لانتقاء شر الفقراء . ويقول أرسطاطاليس إن المنتمين إلى بعض النوادى البحرية كان كل منهم يقسم بأن « أكون عدو الشعب »

(أى العامة) « وأن أوديعهم فى المجلس يكل ما أستطيع من الأدنى » (١٩) .
وقد كتب إسقاط حوالى عام ٣٦٦ يقول : « لقد أصبح الأغنياء ينفرون
من سائر الطبقات الأخرى نفوراً يفضلون معه أن يلقوا بثروتهم فى البحر
عن أن يعينوا بشيء منها المحتاجين على حين أن الرقيق الحال يسرهم أن
يتنهبوا أموال الأغنياء أكثر مما يسرهم العثور على كنز ثمين » (٢٠) .

وانحاز عدد متزايد من أفراد الطبقات المتعلمة إلى جانب الفقراء (٢١) .
ذلك بأنهم كانوا يحقرون التجار ورجال المصارف لما بدا لهم من أن ثروتهم
تتناسب تناسباً عكسياً مع ثقافتهم وأذواقهم . وحتى الأغنياء من هؤلاء العلماء
أخذت تلور بخلدتهم أفكار شيوعية . وكان بركليز قد اتخذ من الاستعمار
صهام أمان ليقال به حدة النزاع بين الطبقات (٢٢) ، ولكن ديونيشيوس كان
يسيطر على الغرب ، ومقدونية كانت تمد أملاكها فى الشمال ، فأخذت الصعاب
تزداد فى سبيل فتح أثينة ببلاداً جديدة والاستقرار فيها . واستحوذ الفقراء فى
آخر الأمر على جميع السلطة فى الجمعية وشرعوا يقررون مصادرة أموال
الأغنياء ويحولونها إلى خزائن الدولة ، لتوزعها من جديد على المحتاجين
والناخبين عن طريق المشروعات الحكومية والأجور (٢٣) . وأخذ رجال
السياسة يذلون كل ما فى وسعهم من جهود ويستخلصون كل ما وهبوا من
ذكاء ليكشفوا عن موارد جديدة لزيادة إيراد الدولة ، فضاغفوا الضرائب
غير المقررة ، والضرائب الجمركية على الواردات والصادرات ، وضريبة
الواحد فى المائة على نقل الملكية العقارية ، وظلوا فى وقت السلم يجبون الضرائب
غير الاعتيادية التى قررت زمن الحرب ، وأخذوا يطالبون بالتبرعات
« الاختيارية » ، وفرضوا على الأغنياء « فروضا » أو « خدمات » جديدة
متزايدة لتمويل المشروعات العامة من أموالهم الخاصة . وكانوا يلجأون بين
الفينة والفينة إلى مصادرة الأموال ونزع الملكيات ، ووسعوا نطاق ضريبة
الإيراد حتى شملت مستويات من الثروة أدنى مما كانت تشملها من قبل (٢٤) ،

وكان في وسع كل من يلقى عليه عبء إحدى الخدمات العامة أن يستعين بالقانون لكي يرغم غيره على أدائها إذا استطاع أن يثبت أن هذا الممول الثاني أكثر منه ثروة ، وأنه لم تفرض عليه خدمة ما في خلال سنتين . وعملوا على تسهيل جميع الإيراد بتقسيم دافعي الضرائب إلى مائة جماعة من الشركاء . فكان يطلب إلى أغنى الأعضاء في كل جماعة أن يؤدوا في بداية كل سنة ضرائبية جميع الضريبة المفروضة على هذه الجماعة طوال السنة ، ثم يترك لهم بعدئذ أن يجبوا في خلال السنة ما يخص غيرهم من الأعضاء بما يروونه من الوسائل .

وكانت نتيجة هذه الفروض أن أخذت الجماعات والأفراد تخفي ثروتها وإيرادها لإخفاء تاماً ، وانتشر التهرب من الضرائب بين الناس جميعاً ، وتفطنوا في أساليبه تفنن الدولة في فرضها وجبايتها . وفي عام ٣٥٥ عين أندروتيون Androton على رأس فرقة من رجال الشرطة مهمتها البحث عن الإيرادات الخبوءة ، وجباية الضرائب المتأخرة ، وحبس الذين يفرون من الضرائب ، فكانت تكبس البيوت وتصادر الأمتعة ، ويلقى الرجال في السجون . ولكن الثروة مع ذلك ظلت تختفي أو تلوب . وقال إسقراط الشيخ الغني الغاضب في عام ٣٥٣ يشكو مما فرض عليه من خطمات : « لما كنت في صباهي ؛ كانت الثروة تعد من الأشياء المأمونة التي يعجب بها الناس ، حتى كان الواحد منا يتظاهر بأن لديه أكثر مما يملك فعلاً . . . أما الآن فقد أصبح من واجب كل إنسان أن يدفع عن نفسه تهمة الغنى ، كأن هذا أشنع الجرائم » (٢٥) . ولم تكن الطريقة التي اتبعت في غير أثينة لمنع تركيز الثروة تستند إلى القانون كما كانت تستند إليه فيها . من ذلك أن المدينين في مئطيني قتلوا دائيهم جملة بحجة أنهم جياع ، وأن الديمقراطيين في أرغوس (٣٧٠) انقضوا فجأة على الأغنياء وقتلوا منهم ألفاً ومائتين ، وضادروا أملاكهم ، وعقدت الأمر الغنية في غير هذه من الدول التي كان العداء قائماً بينها لغير هذا من الأسباب حلفاً سرياً تعهدت فيه أن يساعد بعضها بعضاً إذا قامت

في إحداها ثورات شعبية . وأخذت الطبقات الوسطى تحذو حذو الطبقات العليا في عدم الثقة بالديمقراطية وترى أنها حسد أتيح له السلطان ، كما أخذ الفقراء يفقدون ثقتهم فيها ويرونها مساواة زائفة بين الناحبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات . وقد تركت هذه الأحقاد المريعة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً ودولياً حين انقضض عليها فليب ، حتى لقد رجب بقدمه كثيرون من الأغنياء في المدن اليونانية ، ورأوا أنه لولاه لما كان هناك مفر من اندلاع هيب الثورة في أرجائها (٢٦) .

وسار الانهيار الخلقي مع ازدياد الترف واستنارة العقل جنباً إلى جنب ، واعتزت العامة بخرافاتها واستمسكت بأساطيرها ، فقد كانت آلهة الأولمبس تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن آلهة أخرى كانت تولد ، فكانت أرباب غربية مثل لينيزين وأمون ، وأتيس ، وبنديس ، وسيل ، وأدنيس تستورد من مصر وآسية ، وجمع انتشار الأرفية عبادة جدد للديونشس في كام يوم . ولم يكن للدين التقليدي القديم فائدة تذكر لطبقة الملاك الوسطى النصف الأجنبية الآخذ شأنها في الارتفاع ، فلم تكن آلهة المدينة التي ترعاها تنال من هذه الطبقة إلا الاحترام الصوري الرسمي ، ولم تعد توحى إلى أفرادها بالمبادئ الخلقية أو الإخلاص للدولة والولاء لها (*) . وكافحت الفلسفة لكي نجد في الولاء السياسي ومبادئ الأخلاق الطبيعية بديلاً من الأوامر الإلهية ، أو أن تتخذ منها رباً يرقب الناس من عل ، ولكن قل من المواطنين من كان يهمه أن يعيش عيشة البساطة السقراطية أو عيشة رجل سقراط السامى « ذى العقل العظيم » .

ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلمة زاد بالتدريج تحرر الأفراد

(*) يقول أفلاطون (في القوانين صفحة ٩٤٨) : « والآن وفي الناس طائفة لا تؤمن قط بوجود الآلهة ... أصبح الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التي تنقسمها كلتا الطائفتين » .

من القيود الأخلاقية القديمة - فتحرر الابن من سلطان أبويه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحررت المرأة من الأمومة ، وتحرر المواطن من القبضة السياسية . وما من شك في أن أرسطوفان قد بالغ في وصفه لهذه التطورات ، وإذا كان أفلاطون ، وأكسانوفون ، وإسقراط كلهم يتفقون معه في رأيه ، فإنهم كانوا جميعاً من المحافظين الذين ترتعد فرائضهم من مثال الجيل الناشئ الجديد . وتحسنت أخلاق الناس في الحبيب خلال القرن الرابع ، وجاءت موجة من الإنسانية المستنيرة . أعقاب تعاليم يوربيديز وإسقراط والمثل الذي ضربه للناس أجلسوس (٣٧) . ولكن الآداب والجنسية السياسية ظلت سائرة في طريق الانهيار ، وزاد عدد العزاب والسراري وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هي الطراز الحديث الذي يهواه الناس ، كما أن الانصال الحر بين الرجال والنساء أصبحت له الغلبة على الزواج الشرعي (٣٨) . انظر مثلاً إلى هذا السؤال الذي يسأله أحد الأشخاص في مسلة ألفت في القرن الرابع : « أليست الخطيئة مرغوباً فيها أكثر من الزوجة ؟ ولم لا ؟ إن إحداهما في جانبها القانون الذي يرفعنا على الاحتفاظ بها ، مهما تكن كارهين لها ، أما الأخرى فهي تعلم أن من واجبها أن تسلط على الرجل بحسن سلوكها ، وإلا فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره (٣٩) ، وعلى هذا النحو عاشر بركستليز ومن بعده هيريديز Hyperides فريفي Phryne ، وعاشر أوستيوس لثيس Laïs ، وعاشر أستلبو Stilpo نكريتي Nikaeete ، وعاشر ليسياس ميترا Metaneira ، وعاشر إسقراط الصارم بحسكيوم Lagiscium (٤٠) . وفي ذلك يقول ثيويميس مبالغاً في قوله كمادة رجال الأخلاق : « لقد كان الشبان يقضون كل أوقاتهم بين السراري والقبان . أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلاً فكانوا منهمكين في الميسر والفسق ، وكان الناس كلهم يفتقون على المآذب العامة والملاهي أكثر مما يفتقونه على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها (٤١) »

وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختيارياً هو الطراز العصري في ذلك الوقت ؛ وكانوا يصلون إلى هذا الغرض بمنع الحمل ، أو الإجهاض ، أو قتل الأطفال : ويقول أرسطاطاليس إن بعض النساء كن يمتنعن الحمل بطلاء جزء الرحم الذى يسقط عليه منى الرجل بزيت شجر الأرز ، أو بمرهم الرصاص . أو الكندر المزوج بزيت الزيتون (*) (٣٢) . وكانت الأسر القديمة سائرة في طريق الانقراض فلم تكن توجد ، على حد قول إسقراط ، إلا في قبورها ، وأخذت الطبقات الدنيا يتضاعف عدد أفرادها ، أما طبقة المواطنين في أتكا فقد نقص عددها من ٤٣٠٠٠ في عام ٤٣١ إلى ٢٢٠٠٠ في عام ٤٠٠ وإلى ٢١٠٠٠ في عام ٣١٣ (٣٣) . ويقابل هذا نقص في عدد المواطنين الذين كانوا يجنسون للخدمة العسكرية ؛ ويرجع بعض هذا النقص إلى مذابح الحرب ، وبعضه إلى قلة من لهم في الدولة أملاك يتحتم عليهم الدفاع عنها ، وبعضه إلى رغبة الناس عن الخدمة العسكرية . ذلك أن حياة الدعة والانصراف إلى العناية بالشئون المنزلية ، والانهماك في الأعمال التجارية والصناعية ، وطالب العلم ، كل ذلك قد حل محل حياة الرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ، والعناية بالشئون العامة ، وهى الحياة التى كان يألفها الناس في عهد بركليز (٣٤) . فأما الرياضة فقد أصبحت حرفة ، وصار المواطنون الذين كانوا في القرن السادس يملأون مدارس التدريب الرياضية يقنعون الآن بأن يجهد غيرهم أنفسهم بالنياحة عنهم ، وحسبهم هم أن يشاهدوا استعراض المحترفين . وكان بعض الشبان يتلقون بعض الدروس في فن الحرب ، ولكن الكبار كانوا يحملون عشرات من الطرق للهرب من الخدمة العسكرية . وأضحت الحرب نفسها مهنة بسبب ما دخل عليها من التعقيدات الفنية ، تحتاج إلى رجال مدربين

(*) إذا شاء القارئ أن يعرف استعمال زيت الزيتون لهذا الغرض ذاته في الوقت الحاضر فليطلع على كتاب التاريخ الطبى لمنع الحمل **Medical History of Contraception** تأليف هيمز Himes من ٨٠ .

لها تدريباً خاصاً يستغرق وقتهم كله ؛ وكان لا بد من استبدال الجنود المرتزقة بالمحاربين المواطنين ، وكان هذا نديراً بأن زعامة بلاد اليونان لن تلبث أن تنتقل من رجال السياسة إلى رجال الحرب . وبينما كان أفلاطون يتحدث عن الملوك الفلاسفة ، كان الملوك العسكريون ينشئون تحت سمعه وبصره . وكان مرتزقة اليونان يبيعون أنفسهم إلى القواد سواء كانوا من اليونان أو « البرابرة » بلا تفرق بين هؤلاء وأولئك ؛ ولقد حاربوا في الجيوش التي غزت بلاد اليونان بقدر ما حاربوا دفاعاً عنها ، وشاهد ذلك أن الجيوش الفارسية التي واجهها الإسكندر كانت ملأى باليونان ؛ فلم يكن الجنود وقتئذ يسفكون دماءهم دفاعاً عن بلادهم ، بل كانوا يسفكونها في سبيل من يؤدي لهم أكبر الأجور .

وظل الفساد السياسي والاضطراب اللذان أعقبا موت بركليز سائرين في طريقهما خلال القرن الرابع ، إذا استثنينا من ذلك حكم يكلديز الطاهر الزيه (٤٠٣) ، وإدارة ليقورغ المالية (٣٣٨ — ٣٢١) . فالرشوة مثلاً كان يعاقب عليها ، حسب نص القانون ، بالإعدام ؛ لكن إسقراط يقول إن المرتشى كان يجزى على ارتشائه بالترقي في المنصب العسكرية والسياسية . ولم يجد الفرس أية صعوبة في إرشاء ساسة اليونان وحملهم على أن يشنوا الحرب على الدول اليونانية أو على مقلونية ، وحتى دمستين نفسه أصبح في آخر الأمر مرآة تنعكس عليها أخلاق أهل زمانه . لقد كان من أنبل الأفراد في جماعة من أحط الجماعات و أثينة — أعنى جماعة الخطباء المأجورين الذين صاروا في ذلك القرن محامين وساسة محترفين . ومن هؤلاء الناس من كانوا مثل ليقورغ شرفاء معقولين ، ومنهم من كانوا مثل هيردين خوى شهامة ومروءة ، ومنهم من لم يكونوا خيراً مما وجب عليهم أن يكونوه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنهم أرسطاطاليس فقد كان منهم من تخصص في إبطال نصوص الوصايا^(٣٦) . وجمع الكثيرون منهم ثروات طائلة بانتهاز الفرص السياسية وبالتهريب والخطابة في الجماهير .

وانقسم الخطباء المأجورون أحزاباً ،نومزقوا الهواء بمحملاتهم ، ونظم كل حزب لنفسه بلحانا ، ووضع له كلمات سر ، وعين له وكلاء ، وجمع له مالا . وكان الذين يؤدون نفقات هذه الأعمال كلها يعترفون صراحة بأنهم « سيستردونها ضعفين » (٣٧) .

وكانت الروح الوطنية تضعف كلما زادت السياسية قوة واستغلت . مرارة الانقسام كل الجهود العامة والوفاء للوطن ، فلم تترك للمدينة من هذه الجهود وذلك الإخلاص إلا القليل الذى لا يغنى ، وكان دستور كليستينز ، والنزعة الفردية التى أثارها التجارة والفلسفة ، قد زعزعا كيان الأسرة ، وحررا الفرد ؛ وكأنما أراد الفرد الحر وقتئذ أن يثار للأسرة . مما أصابها من انحلال فهوى بمعوله على الدولة يقوض أركانها .

وأراد الديمقراطيون المنتصرون فى عام ٤٠٠ ق . م أو حواليه أن يضمّنوا حضور المواطنين الفقراء فى الإكليزيا ، وأن يمنعوا بذلك ذوى الأملاك أن تكون لهم السيطرة عليها ، فجعلوا حضور الجمعية هو الآخر عملا من الأعمال التى يؤجر الناس عليها . وكان كل مواطن فى بادئ الأمر يؤجر على حضور الجلسة أبلة (بـبـبـب من الريال الأمريكى) ، ولما زادت نفقات المعيشة زيد هذا الأجر إلى أبلتين ، ثم إلى ثلاث أبلات ، وظل يزداد حتى كان فى زمن أرسطاطاليس درخمة (أى ريالاً أمريكياً) عن اليوم الواحد (٣٨) . ولقد كان هذا فى حد ذاته تدبيراً معقولاً لا غبار عليه ، لأن المواطن العادى كان يكسب فى أواخر القرن الرابع درخمة فى كل يوم ؛ ولم يكن ينتظر منه أن يترك عمله دون أن يعرض عن تركه . وما لبثت هذه الخطوة أن جعلت للفقراء الأغلبية فى الجمعية ، وبئس الأغنياء من الانتصار فيها . فراد إعراضهم عنها تدريجاً ، وامتنعوا عن حضور جلساتها . وعُدل الدستور فى عام ٤٠٣ وقصر حق التشريع على هيئة مكونة من خمسة مشرعين nomothetei يختارون من بين المواطنين الذين انتخبوا بالقرعة ليكونوا :

قضاة ، ولكن هذا التعديل لم تكن له أقل فائدة في الحد من طغيان الطبقات الدنيا . ذلك أن هذه الهيئة الجديدة انحازت هي الأخرى إلى جانب العامة ، والانتفاص من سلطانه . ويبدو أن مستوى الدكاء في الجمعية قد نقص في القرن الرابع ، ولعل منشأ هذا النقص هو أداء الأجور على حضور جلسات الجمعية . نقول هذا ببعض التحفظ لأن الذين نعتمد عليهم في هذا القول هم الرجعيون المتحيزون أمثال أرسطوفان وأفلاطون^(٣٩) . ويقول إسقراط إن أعداء أثينة هم الذين يجب عليهم أن يؤدوا الأجور لحضور جلسات الجمعية . حتى يكثر اجتماعها ، وذلك لكثرة ما ترتكبه من الأغلاط^(٤٠) في أعمالها .

وخسرت أثينة بسبب هذه الأغلاط إمبراطوريتها وحريتها جميعا . ذلك أن الحرص الشديد على المال والسلطان الذي قوض أركان الحلف الأولى قد دك وقتله قواعد الحلف الثاني أيضاً ، فقد شعرت أثينة بعد سقوط إسبارطة في لكرا أن في وسعها الآن أن توسع أملاكها ، وكانت وهي تنظم إمبراطوريتها الجديدة قد قطعت على نفسها عهداً ألا تسمح للرعايا الأثينيين بامتلاك أرضين خارج حدود أتك^(٤١) . ولكنها بعد أن فتحت ساموس ، والكرسنيز التراقية ، ومدائن پدنا ، وپوتيدبا ، وميتوني على سواحل مقدونية وتراقية استعمرتها على أيدي المواطنين الأثينيين . واحتجت على ذلك الدول المتحالفة معها وانسحب الكثير منها الحلف . واستخدمت أثينة وسائل القسر والعقاب التي استخدمتها من قبل في القرن الخامس ، ولكنها لم تجن من ورائها فائدة في هذه المرة كما لم تجن منها فائدة في المرة السابقة . وكانت النتيجة أن أعلنت طشيوز ، وكوس ، ودرس ، وپيزنطية في عام ٣٥٧ « حرب » عصبان « اجتماعية » : ولما أن رفض تموثيوس Timotheus وأفكراتيز ، وهما قائدان من أعظم القواد الأثينيين كفاية ، أن يهاجما الأسطول الثالث في الملهسنت أثناء عاصفة هوجاء ، أتهمتهم الجمعية

بالجن ، وفرضت على تموثيوس غرامة باهظة لا قبل لأحد بأدائها قدرها مائة وزنة (٦٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي) . فلم يجد أمامه سبيلا إلا الفرار من البلاد ، وبرئ لفكرتيز ولكنه لم يبق لأئينة بخدمة ما فيها بقى من حياته . وأحبط الثوار كل ما بذلته من محاولات لإخضاعهم ، فاضطرت في عام ٣٥٥ إلى أن توقع صلحا تعترف فيه باستقلال بلادهم ، وأضحت المدينة العظيمة بلا أحلاف ، ولا زعماء ، ولا مال ، ولا أصدقاء .

ولعل عوامل أخرى أدق وأخفى من العوامل السابقة كان لها أثر في إضعاف أئينة . ذلك أن حياة الفكر تعرض للخطر كل حضارة تزدان بهذه الحياة . ففي المراحل الأولى من تاريخ الأمة قل أن يكون للتفكير وجود ، بل الذي يسود وينتشر هو العمل ، ويكون الناس في هذه المرحلة صريحين ، محررين من عوامل الكبت جريئين في مشاكساتهم وصلاتهم الجنسية . وكما أرتقوا في مدارج الحضارة وفرضت عليهم العادات ، والأنظمة ، والشرائع ، وقواعد الآداب والأخلاق ، قيودا تزداد على مر الأيام كبتا للفرائز ، حل التفكير محل العمل ، والخيال محل الإقدام ، والاحتياط محل الصراحة ، والخفاء محل التعبير الصادق ، والعطف محل القسوة ، والشك محل اليقين ، وزالت الوحدة الأخلاقية التي يشترك فيها الإنسان البدائي مع الحيوان ، وأصبح السلوك مجزعا طابعه التردد ، والإدراك ، وتقدير العواقب ، وضعفت الرغبة في القتال ، واستحالت ميلا إلى الجدل الذي لا يقف عند حد : وما أقل الأمم التي استطاعت أن تصل إلى الرقي العقلي والإحساس القوى بالجمال من غير أن تضحي في سبيل ذلك بالقدر الكثير من رجولة أبنائها ووحدتها ، فلم تستطع صد الاقوام المجمع المعدن الطامعين في ثروتها : فحول كل رومة يحوم الغاليون ، وحول كل أئينة يحوم المقده نيون .

الفصل الرابع

نهضة سراقوسة

كانت سراقوسة طوال القرن الرابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة ، رغم ما كان يفتأها من الاضطرابات السياسية الكثيرة . وكان ملكها ديونيشيوس الأول مجرداً من الضمير ، خائناً غداراً ، مختالاً مغروراً ، ولكنه كان أقدر رجال زمانه في الشئون الإدارية . حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكناً له ، وسور الطريق الذي يوصلها بأرض القارة ، فأصبح مركزه فيها أمن من عقاب الجو ، ثم ضاعف أجور جنده ، وقادهم بنفسه إلى انتصارات هينة ، فحبب نفسه إليهم وكسب ولائهم . فاستطاع البقاء على العرش ثمانية وثلاثين عاماً . ولما أن ثبت قواعد حكمه استبدل بسياسة القسوة التي نهجها في بداية أمره سياسة رحيمة استرضى بها الأهليين ، وبسط على البلاد حكماً استبدادياً طابعة العدالة والمساواة (*) ، وأقطع ضباطه وأصدقائه أجزاء من أحسن الأراضي وأعظمها خصباً ، وخص جنوده بجميع المساكن في أرتيجيا والطريق الموصل إليها إلا القليل النادر منها ، ووزع كل ما بقى من أرض سراقوسة وما حولها على سكان المدينة الأحرار منهم والأرقاء من غير تمييز بينهم . وبهديه وإرشاده ازدهرت سراقوسة ، وإن كان قد فرض عليها من الضرائب ما لا يكاد

(*) ولما حكم مل فتياس Phintias (المسمى خطأ بفتياس Pythias) الفيثاغوري بالإعدام لاشتراكه في إحدى المؤامرات ، استأذن فتياس في أن يلعب إلى منزله يقضى فيه يوماً ينظم فيه شؤونه . وعرض صديقه دامو Damon (وهو غير دامون معلم الموسيقى ليركليز وسقراط) أن يكون رهينة له حتى يعود ، وعرض أن يعدم إذا لم يده فتياس . ولكن فتياس عاد ودهش ديونيشيوس كما دهش تايلون فيما يده من أن يبلغ الإخلاص بين الأصدقاء هذا المبلغ ، فمما عن فتياس ، ورجاه أن يكون هو زميلاً لها في هذه الصداقة المثينة .

يقل عما فرضته الجمعية على الأثينيين . ولما أن أسرفت نساء المدينة في زيهن أعلن أن دمر قد جاءته في الحلم وأمرته أن يجمع حلى النساء كلها ويودعها في معبدها . وصدع الملك بأمر الإلهة ، وصدعت به كذلك معظم النساء ؛ ثم ما لبث أن « اقترض » الحلى من دمر ليحول بها حروبه (٣) .

ذلك أن خططه كلها كانت تهدف إلى إخراج القرطاجيين من صقلية . وقد آلمه وحز في نفسه أن يستطيع هنيئال استخدام آلات التدمير القوية في حصار سيلينس ، فجمع في خدمته خيرة الصناع والمهندسين من بلاد اليونان القريبة ؛ وطلب إليهم أن يعملوا على تحسين عدد الحرب . وكان من بين ما اخترعه هؤلاء الرجال من آلات الهجوم والدفاع الجديدة المتجنق الذى يقذف الحجارة الثقيلة وغيرها من القذائف ، وانتقل هذا الاختراع وغيره من المخترعات العسكرية من صقلية إلى بلاد اليونان واستخدمه فليب المقدونى . وأرسل يدعو لخدمته جنودا مرتزقة ، وأخذت دور الصنعة في سراقوصة تخرج مقادير لا عهد للناس بها من الأسلحة والدروع تنفق مع عادات كل طائفة من طوائف الجند المختلفة ومع حلقها في القتال . وكان المشاة قبل هذا الوقت هم الذين يقاتلون في المعارك البرية لكن ديونيشيوس نظم فيالق كبيرة من الفرسان ، وأفاد من هذا أيضاً فليب والإسكندر . وأخذ في الوقت نفسه يصب المال صبا لبناء مائتى سفينة معظمها من ذات الأربعة الصفوف أو الخمسة ، فأنشأ بذلك أسطولا ضخما لم تر له بلاد اليونان قبل ذلك الوقت مثيلا في سرعته أو قوته .

ولم يحل عام ٣٩٧ حتى كان كل شيء على أهبة الاستعداد ، وأرسل ديونيشيوس بعثة إلى قرطاجة يطلب إليها أن تحرر جميع المدن اليونانية في صقلية من سيطرة القرطاجيين ، وتوقع ألا يجاب إلى طلبه فدعا هذه المدن إلى خلع نير الحكم الأجنبي ، فاستجابت إلى دعوته ، وكانت لاتزال حاقدة على القرطاجيين ولم تنس ما ارتكبه فيها هنيئال من المذابح ، فأعدت جميع من وقع في

أيديهم منهم بعد أن أذاقتهم من ألوان العذاب ما لم يعذبه اليونان أحداً غيرهم من قبل ، ولم يلخر ديونيشيوس جهداً في الحيلولة بينهم وبين هذا التعذيب لأنه كان يريد أن يبيع أسرى القرطاجيين في أسواق الرقيق . وتقلت قرطاجة جيشاً كبيراً بقيادة هملكون Himilcon بطريق البحر ، ودارت الحرب بين الأمتين في فترات متقطعة خلال أعوام ٣٩٧ ، ٣٩٢ ، ٣٨٤ ، ٣٦٨ . وانتهت هذه الحرب بأن استردت قرطبة كل ما استولى عليه ديونيشيوس من أملاكها ، وعادت الأمور بعد الدم المهرق كله إلى ما كانت عليه من قبل .

وكان ديونيشيوس في هذه الأثناء قد وجه قوته الحربية لإخضاع المدن الليوانية في الجزيرة ، وربما كان مدفوعاً إلى هذا بحب السلطان ، أو بما كان يحس به من أنه لاسبيل إلى القضاء على سلطان قرطاجة في صقلية إلا إذا اتحدت كلها تحت حكومة واحدة . فلما تم له إخضاعها ، عبر الجزيرة إلى إيطاليا ، وأخضع رجيوم Rhegium وفرض سلطانه على جميع إيطاليا الجنوية . ثم هاجم إتروريا واستولى على ألف وزنة من هيكلها القائم في أجلا Agylla ، ووضع الخطط لنهب ضريح أبولو في دلقي ، ولكن الأيام وقفت في سبيله فلم تمكنه من تنفيذ خطته . فقد وأدت بلاد اليونان في نفس ذلك العام (٣٨٧) حريتها في الغرب ، ثم باعها « بصلح الملك » إلى الفرس في لشرق . وكان برنس Brennus والغالليون قد وقفوا ظافرين أمام أبواب رومة يدقونها دقاً . وكان البرابرة المحبطون بالعالم اليوناني يزدادون قوة في كل مكان ، وكان ما حل بإيطاليا الجنوية من التدمير على يد ديونيشيوس قد مهد السبيل للأهلين القاطنين حول المستعمرات أولاً ، ثم للرومان أنصاف البرابرة بعدئذ ، لغزو هذه المستعمرات والاستيلاء عليها . وقام الخطيب لسياس في الدورة التالية من دورات الألعاب الأولمبية يدعو بلاد اليونان إلى الخروج على الطاغية الجديد ، فهاجت الجماهير الثائرة خيام رسل ديونيشيوس وأصمت آذانها عن الاستماع إلى أشعاره .

وهذه الطاعة الذى عرض على أهل رجيوم بعد أن تم له الاستيلاء عليها
حريتهم إذا آتوه بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ، فلما جاؤوه به باعهم
بيع الرقيق ، هذا الطاغية نفسه كان رجلا واسع الثقافة من أرباب السيف
والقلم ، ولم يك فخره بقلمه أقل من فخره بسيفه . ولما أن طلب إلى الشاعر
فلكينس رأيه فى شعره وأجاب بأنه غث لا قيمة له حكم عليه بالأشغال
الشاقة فى المهاجر^(٤٤) . على أن ديونيشيوس ، كان يناصر الآداب والفنون
على الرغم من هذه الأعمال المثبطة ، وقد استضاف أفلاطون أثناء أسفاره فى
صقلية وسره أن يستمتع لحظة بهذا الفيلسوف (٣٨٧) . وهناك قصة ذاتية
نقلها ديوجانس ليرتيوس تقول إن الفيلسوف أخذ يطعن فى حكم الطغاة
فرد عليه ديونيشيوس بقوله : « إن أقوالك أقوال عجوز محترف » ، فأجابه
أفلاطون قائلا : « إن هذه اللغة هى لغة الطغاة » . ويقال إن ديونيشيوس باع
أفلاطون فى سوق الرقيق ولكن أنسريز القيرونى لم يلبث أن افتداه^(٤٥) .

ولم يقض على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان
يخشى بأسهم بل قضى عليها شعره نفسه . وتفصيل ذلك أن مأساته افتداء
هكز نالت الجائزة الأولى فى عيد لينيا الأثينى عام ٣٦٧ . وسر ديونيشيوس
من هذا الفوز سرورا جعله يحتفل بأصدقائه ويفرط فى الشراب ، فيصاب
بالحمى ويموت .

وقبلت المدينة المغتظة التى كانت قد ارتفضته بديلا من الخضوع لقرطاجة ،
قبلت أن يخلفه ابنه على العرش راجية الخير على يديه . وكان ديونيشيوس الثانى
وقتشا شابا الخامسة والعشرين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل ، فظن
السراقوصيون الماكرون أنه لهذا السبب سيحكمهم حكما رحيا يترك لهم فيه الجلب
على الغارب . وكان له من عمه ديون Dion والمؤرخ فلستوس مستشاران
قديران . فأما ديون فكان رجلا واسع الثراء ولكنه جمع إلى ثرائه حبه للآداب
والفلسفة ، وكان من أوفى تلاميذ أفلاطون وألفقهم به . وأصبح عضوا

في المجمع العلمي وعاش في داخل بيته وخارجه عيشة البساطة الفلسفية . وخطر بباله أن الطاغية الحديد الشاب اللدن العود سوف يتيح له الفرصة لأن يقيم على الأقل حكماً دستورياً يستطيع به توحيد صقلية بأجمعها وتمكينها بسبب هذه الوحدة من القضاء على سلطان القرطاجيين فيها ، هذا إذا لم يتمكن من أن يجعل منها « المدينة الفاضلة » التي وصفها له أفلاطون .

ودعا ديونيشيوس الثاني بناء على اقتراح ديون ، أفلاطون إلى بلاطه ، فلما قبل أفلاطون الدعوة تتلمذ عليه ديونيشيوس وصار من أتباعه . ومما لا شك فيه أن الشاب الطاغية أراد أن يظهر للفيلسوف خير طباعه ، فأخفى عليه إدمانه الخمر والعهر^(١٧) ، الذي جعل أباه يتنبأ أن الأسرة ستقرض بموت ولده . وانخدع أفلاطون برغبة الشاب الظاهرة في الفلسفة فقادته إليها من أصعب السبل - من سبيل العلوم الرياضية والفضيلة . وعلم الحاكم ، كما علم كنفوشيوس دوق لو ، أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم هو القدوة الصالحة ، وأنه إذا أراد أن يصلح شعبه ، فعليه أن يجعل نفسه أنموذجاً لم في الذكاء والنية الحسنة ، وشرعت الحاشية كلها تدرس الهندسة ، وتقف مذهولة مياسياً أمام خطوط مرسومة في الرمل . ورأى فلستبيوس أن مقام أفلاطون أصبح أعلى من مقامه ، فهمس في أذن الطاغية أن ذلك كله لم يكن إلا مؤامرة أراد بها الأثينيون ، الذين عجزوا عن فتح سراقوصة بقوة الجيش والأسطول ، أن يستولوا عليها بعمل رجل واحد ، وأن أفلاطون بعد أن استولى على القلعة المنيعة بالرسوم والحوار ، سينزل ديونيشيوس عن عرشه ، ويجلس ديون مكانه . ووجد ديونيشيوس في هذا الهمس فرصة قيمة للنجاة من متاعب الهندسة ، ففنى ديون ، وصادر أملاكه ، ووهب زوجته لرجل من رجال البلاط كانت ترهبه ، وغادر أفلاطون سراقوصة ، رغم تأكيد الطاغية له بأنه يحبه أشد الحب ، وانضم إلى ديون في أثينة . وبعد ست سنين من ذلك الوقت عاد إلى سراقوصة استجابة لطلب الملك نفسه ، وألح عليه في أن يستدعي ديون ولما

رفض ديونيشيوس رجاءه اعتزله أفلاطون وآوى إلى المجمع العلمى^(١٨) .

وفى عام ٣٥٧ جند ديون من بلاد اليونان القارية ، وكان وقتئذ فقيراً فى المال غنياً فى الأصدقاء ، قوة مؤلفة من ثمانمائة رجل أبحرهم إلى سراقوصة ، ودخل فيها سراً فألقى الأهلين شديدى الرغبة فى تأييده . وكانت معركة واحدة نال فيها النصر ببسالته ، مع أنه كان وقتئذ فى سن الخمسين ، كافية لمزينة جيش ديونيشيوس ، ودب الرعب من هولها فى قلب الملك الشاب فأثر الفرار إلى إيطاليا . وفى هذا الوقت عزلت الجمعية السراقوصية ديون من القيادة ، وكان هو الذى دعاه إلى الاجتماع ، خشية أن ينصب نفسه حاكماً بأمره . وكانت فى عملها هذا تجرى على ما طبع عليه اليونان من الاندفاع وعدم التبصر فى العواقب . وانسحب ديون فى سلام إلى اليونتينى ، ولكن جيوش ديونيشيوس شجعها تقلب الأحداث فهاجمت الجيش الوطنى على حين غفلة ، وبددت شمله . وأرسل الزعماء الذين كانوا قد عزلوا ديون من القيادة يطلبون إليه أن يعود مسرعاً ويتولى قيادة جيش الشعب ، فاستجاب إلى دعوتهم ، وانتصر على أعدائه مرة أخرى ، وعفا عن الذين قاوموه ، وأعلن قيام دكتاتورية مؤقتة قال إنها ضرورية لعودة النظام إلى البلاد ، وأبى أن يكون له حرس خاص مخالفاً بذلك نصيحة أصدقائه ، وقال إنه « يفضل أن يموت على أن يعيش على حذر دائم من أصدقائه وأعدائه على السواء »^(١٩) . واحتفظ بدلاً من هذا الحرس بحياته المتواضعة المعتدلة رغم ما كان يحيط به من الثراء وقوة السلطان .

ويقول فلوطرخس « إنه ، وإن كان قد نال ما يشتهي من النجاح ، لم يكن يرغب فى أن ينال فائدة عاجلة . أتاحتها له حفظه الطيب . . . فاكفى بقدر معتدل من الثراء راعى فيه جانب الاقتصاد ، وأدهش بذلك الناس جميعاً . وبينما كانت صقلية وقرطاجة وبلاد اليونان بأجمعها ترى أنه قد بلغ أعلى مراتب النعيم والثراء . ، وأن ليس بين الأحياء جميعاً من هو أعظم منه ، أو بين القواد

من هو أوسع منه شهرة في البسالة والظفر ، كان يبدو في حرسه ، وحاشيته ، وعلى مائدته ، أنه يشترك مع أفلاطون في المجمع العلمي . ولا يعيش بين ضباطه الأجورين وجنوده المرتزقة الذين يجلسون في ملء بطونهم بلذيد المأكول والمشرب والاستمتاع بلذائذ الحياة عزاء لهم عن كدحهم المتواصل وما يتعرضون له من الأخطار (٥٠)

وإذا أخذنا بقول أفلاطون فإن ديون كان ينبغي إقامة ملكية دستورية ، وإلى إصلاح حياة السراقوصيين وأخلاقهم على مثال الحياة والأخلاق الإسبارطية ، وأن يعيد بناء المدن اليونانية المستعيدة أو المخربة في صقلية ، وينشئ منها دولة موحدة ، حتى إذا تم له ذلك أخرج القرطاجيين من الجزيرة . ولكن السراقوصيين كانوا يحرسون أشد الحرص على النظام الديمقراطي . ولم يكونوا يتوقون إلى الفضيلة أكثر مما يتوق إليها ديونيشيوس الأول أو الثاني . فاغتال ديون صديق له ، وانطلقت على أثر اغتياله الفوضى من عقالها ، وأسرع ديونيشيوس بالعودة إلى سراقوصة ، واستولى مرة أخرى على أوتيجيا وعلى أزمة الحكم ، وسار فيه بالقسوة والفظاعة التي ينتظرها الإنسان من طاغية خلع عن عرشه ثم استرده .

وبعد ، فإن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد ، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم . لقد استغاث السراقوصيون بأهم كورنثة . وجاءت الاستغاثة في وقت كان فيه كورنثي نبيل نبلا لا يكاد يصدقه العقل ينتظر أن تتاح له فرصة يظهر فيها بطولته . لقد كان يملكون رجلا من الأشراف ، بلغ من حبه للحرية أنه لم يتردد في قتل أخيه تموفانيز حين أراد هذا الرجل أن يقيم نفسه حاكماً مستبداً في كورنثة . واستنزلت أمه اللعنة عليه عقاباً له على عمله هذا ، وأنبه عليه ضميره ، فاعتزل هذا القاتل الناس وآوى إلى الغابات ، ولكنه سمع وهو في مأواه بحاجة سراقوصة إلى النجدة ، فخرج من ملجئه ، ونظم قوة من المتطوعين ، وأبحر بها إلى صقلية ، وقاد شردمته

القليلة بمهارة لم يرجئ الملك معها بدأ من الاستسلام ، بعد أن ذاق البلاء من جراء براعته في القيادة ، ومن غير أن يقتل من رجاله رجل واحد ، ومنح تيمليون الطاغية الدليل من المال ما يمكنه من العودة إلى كورنثة حيث قضى ما بقي من حياته يعلم في المدرسة ويسأل الناس القوت في بعض الأحيان^(٥١) ،

وأعاد تيمليون الديمقراطية ، وهدم الحصون التي جعلت أرثيجيا معقلاً حصيناً للاستبداد ، ورد عنها غارة شنها القرطاجيون ، وأعاد الحرية والديمقراطية إلى المدن اليونانية . وبفضله ساد السلام وعم الرخاء صقلية جيلاً من الزمان ، هرع إليها في خلاله مستوطنون جدد من جميع أنحاء العالم اليوناني . وأبى مع ذلك أن يتولى منصباً عاماً ؛ بل اعتزل الحياة السياسية وفضل عليها الحياة الخاصة ؛ ولكن الديمقراطيات القائمة في الجزيرة كانت تعرض عليه كل شئونها الكبرى تستنصحه وتعمل برأيه إيماناً منها بحكمته واستقامته . ولما اتهمه اثنان من « المرشدين » بسوء استخدام سلطته أصر على الرغم من احتجاج الشعب وإعلانه شكره له واعترافه بجميله ، أن يحاكم من غير محاباة حسب قانون البلاد ، وحمد الآلهة على أن عادت إلى صقلية حرية الكلام والمساواة أمام القانون . ولما مات في عام ٣٣٧ حزن عليه بلاد اليونان كلها وعدته من أعظم عظماء أبنائها .

الفصل الخامس

تقدم مقلونية

بينما كان تيمليون يعيد إلى الديمقراطية أنفاسها الأخيرة في صقلية القديمة ، كان فليب يقضى عليها في أرض اليونان القارية . لقد كانت مقلونية حين اعتلى فليب العرش ٣٥٩ لا تزال في الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية ، والحق أنها وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمولف أو فنائ أو فيلسوف واحد .

وكان فليب قد أقام ثلاث سنين مع أقارب إياميننداس طيبة فاستقى منهم قدرأ متوسطأ من الثقافة وقدرأ عظيماً من الأفكار الحرية . وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة ، كان قوى الجسم والإرادة ، مولعاً بالرياضة البدنية ، وسياً ، وجملة القول أنه كان حيواناً عظيماً ، يحاول بين الغيبة والغبية أن يكون أثينا مهذباً . وكان كاهنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق ، مولعاً بالحرب إلى حد كبير وبالشراب إلى حد أكبر . وكان يختلف عن الإسكندر في مرحه وميله إلى الضحك ، ولأحد الأرقاء منصباً كبيراً لأنه أدخل على قلبه السرور .. وكان يحب الغلمان كثيراً ، ولكنه يحب النساء أكثر منهم ، وتزوج أكبر عدد استطاعه منهم ، وحاول وقتاً ما أن يقتصر على زوجة واحدة هي أولمبياس الأميرة المولوسية Molossian الجميلة التي كانت تعيش على الفطرة والتي ولدت له الإسكندر ، ولكنه لم يلبث أن مال إلى غيرها ، فأخذت أولمبياس تدبر الانتقام منه إلى نفسها وكان أحب الناس إليه أشداء الرجال الذين يجازفون بأرواحهم طوال النهار ، ويقامرون معه وينادونه على الشراب إلى نصف الليل . وكان (إلى ما قبل

الإسكندر) أشجع الشجعان بلا منازع ، وخلف جزءاً من نفسه في كل ميدان من ميادين القتال . وقد أعجب به دمستين وقال فيه : « ياله من رجل ! لقد خسر في سبيل القوة والسلطان عيناً ففُتت ، وكفناً كسرت ، وذراعاً وساقاً أصبينا بالشلل^(٥٢) » . وكان ذا قريحة وقادة ، قلدرأً على أن ينتظر فرصته متربصاً ، وعلى أن يسير بعزم ثابت إلى هدفه مجتازاً في سبيله كل ما يعترضه من صعاب . وكان في سياسته لطيفاً غداراً ؛ لا يبالي بأن يحنث في وعده ، ويجدد هذا الوعد لساعته ؛ لا يعترف في الحكم بالمبادئ الأخلاقية ، ويرى أن الكلب والرشوة وبدلين رحيمين من القتل وسفك الدماء . ولكنه كان رحيماً في انتصاره وكان من عادته أن يعرض على اليونان المنهزمين شروطاً أحسن مما يعرضها بعضهم على بعض . وقد أحبه كل من التقى به ، عدا دمستين العنيد ، ووصفوه بأنه أقوى رجال زمانه وأكثرهم طرافة .

وكانت حكومته ملكية أرستقراطية يدوم سلطان الملك فيها ما دام متفوقاً في قواه الجسمية أو العقلية ، وما دام أشرف البلاد راغبين في معونته . وكان ثمانمائة من أمراء الإقطاع يكونون « صحابة الملك » وكان هؤلاء الصحابة من كبار الملاك الذين يحتقرون حياة الحواضر والزحام والكتب فلماذا ما أعلن الملك الحرب برضاهم خرجوا من ضياعهم وهم أقوياء الأجسام صناديد ليوث غاب . وكانوا في الجيش يؤلفون فرقة الفرسان ويمتطون صهوة الجياد المقدونية والتراقية القوية الشكيمة ، وقد دربهم فليب على أن يحاربوا جماعات متراسة يستطيعون إذا صدر إليهم أمر قائدهم أن يبدلوا حركاتهم العسكرية من فورهم كأنهم رجل واحد . وكان إلى جانب هؤلاء الفرسان مشاة من الصيادين والفلاحين الشعث منظمون في « فيالق » ، يصوب ستة عشر صفاً منهم رماحهم فوق رؤوس الصفوف التي أمامهم — ويضعونها فوق أكتافهم — وبذلك يكون كل شلق أشبه بجدار من الحديد . وكان طول الرمح إحدى وعشرين قدماً ،

وكان متزناً من مؤخرته فإذا شرعه صاحبه برز إلى الأمام خمس عشرة قدماً . ولما كان كل صف من الجند يتقدم ثلاث أقدام عن الذى يليه ، فإن رماح الخمسة الصفوف الأولى كانت تبرز أمام الفيلق كله ، وكانت رماح الثلاثة الصفوف الأولى تبرز أمام الفيلق أطول من حراب أقرب المشاة اليونان التى لا تزيد على ست أقدام . وكان الجندى المقدونى بعد أن يقلد عدوه برمح يحارب بسيف قصير ويقى رأسه ببيضة من نحاس ، وجسمه بدرع ، وساقيه بحزموقين ، وصدره بترس خفيف . ويأتى من وراء هذا الفيلق فرقه من الرماة على الطراز القديم يصوبون سهامهم فوق رؤوس حملة الرماح ، ومن وراء هؤلاء فرق الحضار بمناجيقها وكباشها المدمرة . ودرب فليب فى صبر وعزيمة هذا الجيش المكون من عشرة آلاف جندى حتى جعله أعظم قوة محاربة شهدتها أوربا حتى ذلك الوقت ، وأعدده للإسكندر كما أعد فردرك ولیم جيشه لابنه فردرك الأكبر .

واعترزم أن يستخدم هذه القوة لتوحيد بلاد اليونان وإخضاعها لحكمه حتى إذا تم له ذلك استعان ببلاد هيلاس جميعها وعبر الملسينت وطرده الفرس من آسية اليونانية . ولكنه كان فى كل خطوة يخطوها نحو هذه الغاية يجد نفسه يعمل ضد حب اليونان للحرية ، وكان وهو يحاول أن يتغلب على هذه النزعة ينسى الغاية التى يعمل لها بهذه الوسيلة . ووقف فى حركته الأولى وجها لوجه أمام أثينة لأنه أراد أن يستولى على المدن التى ضمتها إلى أملاكها على ساحل مقدونية وتراقية . ولم تكن هذه المدن تسد طريقه إلى آسية وحسب ، بل كانت فوق هذا تحتوى مناجم غنية من الذهب ، وكانت ذات تجارة رائجة فى مقدوره أن يفرض عليها الضرائب . وبينما كانت أثينة منهكة فى « الحرب الاجتماعية » التى انتهت بها إمبراطورتها الثانية ، استولى فليب على أمفوليس (٣٥٧) ، وهدنا ، وبوتيديا (٣٥٦) ، ولما احتجبت أثينة على هذا العمل العدوانى أجابها بالثناء على آدابها وفنونها ، وفى عام ٣٥٥ استولت على ميتونى ، وفقد عينه فى

حصارها ، وفي عام ٣٤٧ استولى على أولتس بعد حرب طويلة استعين فيها بضروب كثيرة من البسالة والخذاع . وتمت بهذه الأعمال السيطرة على الشاطئ الأوربي لبحر إيجه الشمالى ، ودخل خزائنه فى كل عام ألف وزنة من مناجم تراقية^(٥٣) ، واستطاع أن يوجه تفكيره نحو اكتساب معونة بلاد اليونان .

وكان فليب قد حصل على المال اللبى أنفقه فى حروبه يبيع آلاف من الأسرى فى أسواق الرقيق ، وكان من بينهم كثيرون من الأثينيين ، فنشرت منه قلوب الملبينيين ، وكان من حسن حظه أن المدن اليونانية كانت فى خلال هذه السنين تنهك قواها فى « حرب مقدسة » ثانية (٣٥٦-٣٤٦) سببها انتهاب الفوسيين كنوز دلفى . وأيد الاسبارطيون والأثينيون الفوسيين ، وحاربت العصبة الأمفكتيونية : بووتية ، ولكريس ، ودوريس ، وتساليا ، ضدهم . ولما دارت الدائرة على هذه العصبة استغاث مجلسها بفليب ، ووجد الفرصة ملائمة له فجاء مسرعاً مخترباً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه ، وأخذ الفوسيين على غرة (٣٤٦) ، وضم إلى الحلف الأمفكتيونى الدلفى ، ونودى به حامياً للضريح المقدس ، وقبل الدعوة التى وجهت إليه لرياسة اليونان جميعاً فى الألعاب البيشية . وهنا امتد بصره إلى دول البلو يونيز المنقسمة على نفسها ، وأحس أن فى استطاعته أن يحملها جميعاً ، عدا اسبارطة الضعيفة ، على أن ترتضيه زعماً لحلف يونانى فى مقدوره أن يحرر جميع اليونان فى الشرق والغرب . ولكن أثينة استمعت إلى أقوال دمستين فلم ترف فليب محرراً لها ، بل رأتها ساعياً لا متعبادها ، وقررت أن تحارب لتحفظ للمدن اليونانية بالسيادة التى كانت تمحصر عليها ، وبالديمقراطية الحرة التى جعلتها نور العالم الوضاء .

الفصل السادس

دمستين (دمستينز)

إن تمثال الحطليب العظيم القائم في متحف الفاتيكان ليعد من الروائع الفنية الواقعية التي أخرجها العصر الذي انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ؛ فوجهه يبدو عاياه الهم والقلق ، كأن كل نصر أحرزه فليب قد أحدث غصناً جديداً في جبهته ؛ والجسم نحيل منهوك ، ومظهره مظهر الرجل الذي يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة ، وتنبئان بموت مدبر .

وكان أبوه صانع سيوف وأسلحة ، ترك له تجارة تبلغ قيمتها أربع عشرة وزنة (٨٤٠٠٠ ريال أمريكي) . واختار الوالد ثلاثة من الرجال ليدبروا هذه الأملاك لصالح الغلام ، ولكنهم أنفقوها على أنفسهم بسخاء ، اضطروا معه دمستين حين بلغ سن العشرين (٣٦٣) أن يقاضي الأوصياء عليه لكي يستعيد ما بقى من ميراثه . وأنفق معظم ما آل إليه في تجهيز سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف وهبها للأسطول الأثيني ، ثم أخذ يعمل لكسب عيشه بكتابة الحطليب للمتناقضين ؛ وكان أقدر على الكتابة منه على الكلام ، لأنه كان ضعيف الجسم عوى اللسان . ويقول فلوطرخس إنه كان في بعض الأحيان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين . وكان يعمل في هذه الأثناء للتغلب على ما فيه من نقص طبيعي ، فكان يخاطب البحر وفه مملوء بالخصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل . وكان مجدداً في عمله لا يشغله عنه إلا السراري والفلمن . وقال أمين سره يشكو أمره :
و ماذا عسى أن يفعل الإنسان بدمستين ؟ إن الشيء الذي قضى عاماً

كاملاً يفكر فيه لربكة امرأة واحدة في ليلة واحدة^(٥٤) . وأصبح الرجل بعد جهود مضية دامت عدة سنين أغنى المحامين في أثينة ، يعرف دقائق هذا الفن ويقنع المستمعين إلى خطبه ، ولا يتقيد كثيراً بقواعد الأخلاق . وشاهد ذلك أنه دافع عن المصرفي فورميو طالباً تبرئته من تهم وجهها هو بعينها إلى الأوصياء عليه ، وكان يتناول أجوراً عالية من الأفراد نظير تقديم بعض القوانين للجمعية والدفاع عنها ، ولم يدفع عن نفسه التهمة التي وجهها إليه زميله هيريديز وهي أنه كان يتلقى المال من ملك الفرس ليشعل نار الحرب على فليب^(٥٥) . وبلغت ثروته في ذروة مجده عشرة أضعاف ما خلفه له أبوه .

لكنه رغم هذا بلغ من النزاهة درجة رضى معها بالتعذيب والموت في سبيل الآراء التي استوَجِر للدفاع عنها . ذلك أنه أخذ يندد باعتماد أثينة على الجنود المرتزقة ، وأصر على أن المواطنين الذين يتقاضون أجوراً من « الرصيد » المخصص لإعانة من يحضرون ألعاب الحفلات الدينية ويشاهدون المسرحيات ، يجب أن يكسبوها بالخدمة في الجيش ، وبلغ من شجاعته أن طالب بالأيوذي هذا المال أجوراً لهؤلاء المواطنين ، بل يجب أن يتفق في إعداد قوة حربية للدفاع عن الدولة أحسن من القوة التي لديها^(*) . وقال للأثينيين إنهم قوم كسالى منحلون فقدوا ما كان يتصف به آباؤهم من فضائل حربية ، وأبى أن يصدق أن دولة المدينة قد وهنت قواها بالانقسامات الحزبية والحروب ، وأن الوقت قد آن لتوحيد بلاد اليونان . وأنذر الأثينيين بأن هذه الوحدة ليست إلا أقوالاً تخفى وراءها خضوع

(*) لقد توسعت الدولة في رصيد « المناظر » هذا (theoric fund) حتى صار يستخدم في كثير من الاحتفالات بدرجة كاد معها أن يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين في عداد من يتلقون إعانات من الدولة . وفي ذلك يقول جلوتز Glotz : « إن الجمهورية الأثينية قد أصبحت جمعية تعاونية غيرية تأخذ المال من إحدى الطبقات لتنفقه على طبقة أخرى »^(٥٦) . وكانت الجمعية قد جعلت الإعدام جزاء كل من يقترح تحويل هذا المال لأغراض غير الغرض . الذي رصد له .

بلاد اليونان جميعها لرجل واحد . ولقد تبين أطماع فليب من أعراضها الأولى وتوسل إلى الأثينيين أن يجاربوا للاحتفاظ بأحلافهم ومستعمراتهم في الشمال . وكان ، اسكنيز وفوشيون وحزب السلم يعارضون دمستين وهيريديزو حزب الحرب . وليس بعيد أن كلتا الطائفتين كانت مرشحة الثانية من قبل الفرس والأولى من قبل فليب^(٥٧) ، وإن الاثنتين كانت تعملان بإخلاص للوصول إلى أغراضها تدفعهما الحماسة التي أثارها كلتاهما في قلوب أتباعها . وقد أجمع أهل ذلك العصر على أن فوشيون كان أشرف رجال السياسة في أيامه - كان رواقيا قبل أن يؤنس زينون الرواقية ، وفيلسوبا من خريجي مجمع أفلاطون العلمى ، وخطيبا يحترق الجمعية احتقارا يستطيع القارئ أن يتبينه إذا ذكرنا له أنها حين صفت له التفت إلى أحد أصدقائه وسأله : « ألم أرتكب خطأ في قولى من حيث لا أدري ؟ »^(٥٨) . وقد اختبر قائدا (Strategos) خسا وأربعين مرة ففاق في هذا بركليز نفسه ؛ وتولى مرارا كثيرة قيادة الجيش وأظهر في كل مرة كفاية عظيمة ، ولكنه قضى معظم حياته يدعوا إلى السلم . ولم يكن رفيقه إسكنيز رواقيا في معيشته ، بل كان رجلا ارتقى من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع ، اشتغل في صباه بالهتريس والتشيل فأعانه ذلك على أن يكون خطيبا مصقعا ، وأول خطيب يونانى - على ما يقول المؤرخون - يرتجل الخطب ارتجالا وينجح في ذلك أعظم نجاح^(٥٩) ، بينا كان منافسوه يعلنون خطبهم ويكتبونها قبل إلقائها . واشترك مع فوشيون في عدة وقائع حرية ، فأخذ عنه سياسة التراضى مع فليب بدل الاشتباك معه في الحرب ؛ ولما أن كافأه فليب على جهوده استحال نجمه للسلم ولاء لها وإخلاصا .

واتهم دمستين اسكنيز مرتين بأنه يرتشى بالذهب من مقلونية ، ولكنه في كلتا المراتين عجز عن إثبات التهمة . على أن فصاحة دمستين الحرية وتقدم فليب نحو الجنوب أقنعا الاثنيين آخر الأمر أن يمتنعوا وقتا ما عن توزيع رصيد المناظر وأن يستخدموه في الاستعداد للحرب . ففي عام ٣٣٨ نظموا على عجل

قوة زحفوا بها إلى الشمال للملاقاة فيالق فليب عند قبرونيا البوثرية . وأبت اسبارطة أن تقدم معوتها لأثينة ، ولكن طيبة أحست بقبضة فليب تطبق على عتقها فأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين ، وقتل الثلاثمائة جندي الذين تتألف منهم هذه الفرقة في الميدان ؛ وحارب الأثينيون بهذه الشجاعة نفسها أو بما يقرب منها ، ولكنهم كانوا قد تباطأوا فوق الحد المباح ، ولم يعدوا العدة للملاقاة جيش المقدونيين المسلح على أحدث طراز . فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتت شملهم ففروا أمام بحر الرماح الزاحفة عليهم وفر معهم دمستين . وكان الإسكندر بن فليب يبلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره ، وكان يقود فرقة الفرسان المقدونية بشجاعة تبلغ درجة التهور أنالته شرف الانتصار في هذه المعركة الحامية الوطيس .

وكان فليب كرمًا في انتصاره كرما تمليه عليه خطته السياسية التي رسمها . نعم إنه أعدم بعض زعماء طيبة المعادين للمقدونيين ، وأقام في تلك المدينة حكومة أجزكية من أشياعه ، ولكنه أطلق سراح الإلني أثيني الذين وقعوا أسرى في يديه ، وأرسل الإسكندر الظريف وأنباتر Antipater العاقل الحكيم ليعرض الصلح على أثينة على شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان . كلها ضد عدوها المشترك . وكانت أثينة تتوقع شروطاً أقسى من ذلك كثيراً ، ولهذا فلما لم تقبل هذا الشرط فحسب ، بل أصدرت فوق ذلك قرارات . تكبل فيها الشاء لهذا الأجمنون الجديد . وعقد فليب في كورنثة جمعية (سندريون Synderion) من الدول اليونانية ، وألف منها جميعاً (عدا اسبارطة) حلفاً على نظام الحلف البوثرى ، ورسم الخطوط الرئيسية لخططه التي تهدف إلى تحرير آسية . واختير بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى ، وتعهدت كل دولة أن تمدد بالرجال والسلاح ، ووعده ألا يحارب يوناني من أى بلد كان في صفوف أعدائه . وكانت هذه التضحيات كفارة رخيصة للعداء الذي أظهرته هذه المدن من قبل .

ولم تقف النتائج التي تمخضت عنها قبرونيا عند حد . فقد تحققت بها الوحدة التي عجزت عن تحقيقها بلاد اليونان من قبل ، وإن كانت لم تتحقق إلا على طلبا سيف رجل يكاد أن يكون أجنبياً عنها . وكانت الحرب البلوونيزية قد أثبتت عجز أثينة عن تنظيم هلاس ، وأثبتت الحوادث التي أعقبت هذه الحرب عجز اسبارطة عن هذا التنظيم وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد ، وأنهكت حرب البليوش والطبقات قوى دول المدائن ، وتركها ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . لهذا كان من حسن حظها أن تجدها في هذه الظروف فاتحاً معقولا يعرض عليها أن ينسحب من ميدان النصر ويترك للمغلوبين قسماً كبيراً من الحرية . والحق أن فليب ومن بعده الإسكندر كانا يحيطان استقلال الدول المتحالفة بحمايتهما ووقايتهما ، حتى لا تنضم إحدى هذه الدول غيرها إليها فيكون لها من القوة ما تستطيع به أن تحمل بينها محل مقدونية . بيد أن فليب قد سلبها نوعاً غالياً من الحرية — ونعني به حق الثورة . فقد كان محافظاً صريحاً ، يرى أن استقرار الملكية حافز لا غنى عنه للإقدام والنشاط ، ودعامة لا بد منها للحكم . ومن أجل هذا حمل المجمع المقدس في كورنثة على أن يضع بين مواد الحلف عهداً يقطعته المتحالفون على ألا يدخلوا في الدستور تغييراً ما ، وألا يبدلوا النظم الاجتماعية بحال من الأحوال ، ولا يتورطوا في الانتقامات السياسية . وكان في كل ولاية يؤيد بنفذه المدافعين عن الملكية ، وقضى قضاء تاماً على الضرائب الفادحة التي تبلغ درجة مصادرة الأملاك .

وكان قد أحكم وضع خططه كلها إلا ما يختص منها بزوجه أولمبياس Olympias ، ولهذا فلأن الذي قرر مصيره آخراً الأمر لم يكن هو انتصاره في ميدان القتال ، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته . ولم يكن يرهب منها أخلاقها وحدة طباعها فحسب ، بل كان يرهب فوق ذلك اشتراكها في الطقوس الديونيشية الهمجية . وقد وجد في ذات ليلة أفعى إلى جانبها في (٢٩ - ٢ ج - ٢٩١)

السريـر فارتاع ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الأفعى إله من الآلهة . وأسوأ من هذا أن أولمبياس أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقى ، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار ، وأن الإله العظيم زيوس — أمون هو الذى حملت منه بالأمير المقدام . ونفرت هذه المنافسات المختلفة فليب منها فولى وجهه شطر غيرها من النساء ، وشرعت أولمبياس تتأثر لنفسها منه فأخبرت الإسكندر بسر أبوته الإلهية^(٦٠) . وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فليب يدعى أتلنس Atallus طلب أن يشرب نخب ولد فليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث « الشرعى » (أى المقدونى لحما ودما) لعرش البلاد . فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس فى رأسه وصاح قائلاً : « وهل أنا إذن ابن زنى ؟ » . واستل فليب سيفه يريد أن يقتل به ولده ولكنه كان ثملاً لا يستطيع الوقوف . فضحك منه الإسكندر وقال : « ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوربا إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمناً من مقعد إلى مقعد » . وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضباط من ضباط فليب يدعى بوسنياس أن يأخذ له الملك بعقه من أتلنس لإهانة لحقت به منه ، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله (٣٣٦) . وكان الإسكندر محبوباً من الجيش حبا يقرب من العبادة ، وكانت أولمبياس تؤيده^(٦١) فاستولى على أزمة الملك ، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة ، وأخذ يعد العدة لفتح العالم .

(٦٠) كان يظن أنها هى التى سرخت بوسنياس على قتل فليب .

الباب العشرون

الآداب والفنون في القرن الرابع

الفصل الاول

الخطباء

كانت الآداب في أثناء هذا الاضطراب كله ينعكس عليها ما انتاب بلاد اليونان من اضمحلال في الأخلاق وضعف في صفات الرجولة . فلم يكن الشعر كما كان من قبل تعبيراً عاطفياً إبداعياً يبتكره الأفراد ، بل أصبح تدريجاً ظريفاً وثمرة من نتاج العقول في الندوات ، وصدى للواجبات والتمارين المدرسية . . نعم إن تموثيوس الملطي كتب ملحمة شعرية ، ولكنها لم تكن توائم عصر الجدل والنقاش ، وظلت بعيدة عن الشعب بعد موسيقاه في عهدها الباكر ، وظلت المسرحيات تمثل ولكن تمثيلها كان أضعف وأضيق نطاقاً من ذي قبل . ذلك إن إقفار خزانة الدولة من المال وضعف الروح الوطنية عند الأثرياء من الأفراد قللا من أقدار الممثلين وأفقداهم ما كان لهم من شأن في ماضى الأيام . واكتفى كتاب المسرحيات شيئاً فشيئاً بالمقطوعات الموسيقية التي تعزف بين الفصول ولا صلة لها بالمسرحية بدل الأغاني التي تكون جزءاً منها . واختفى اسم رئيس فرقة المرتلين فلم يعد مما يهتم به النظارة ، ثم اختفى بعدئذ اسم الشاعر نفسه ، ولم يبق إلا اسم الممثل . وبعدت المسرحية بالتدريج عن القصيدة وأضحت شيئاً فشيئاً عرضاً للحوادث التاريخية ، وأصبح العصر كله عصر كبار الممثلين وصغار الكتاب المسرحيين . ذلك أن المأساة اليونانية قد قامت على الدين والأساطير ،

وكانت تتطلب شيئاً من التقى والإيمان عند المستمعين ، ومن أجل هذا كان لا بد أن يضمحل شأنها حين أوشكت شمس الآلهة على الأفول :

وازدهرت المسلاة في الوقت الذي اضمحلت فيه المأساة ، وانتقل إليها بعض ما كان يتصف به مسرح يوربديز من براعة ، وظرف ، ومادة طيبة ؛ وفقدت هذه المسلاة الوسطى (٤٠٠ - ٣٢٣) حياء للهجاء السيامى وتشجيعها له ، وقت أن كانت السياسة تتطلب « الصديق الصريح » ؛ وليس بعيد أن يكون هذا الهجاء قد حرّم أو أن النظارة قد سثموا السياسة بعد أن أصبح حكام أثينة رجالاً من الطراز الثانى . وكان اعتزال الرجل اليونانى بوجه عام الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فى القرن الرابع سبباً فى توجيه اهتمامه إلى شئون منزله وقلبه وإغفاله شئون الدولة . وظهرت فى ذلك الوقت المسلاة الأخلاقية ، وأخذ الحب يسيطر على مناظرها ، ولم يكن يسيطر عليها دائماً عن طريق الفضيلة ، بل كانت العاهرات يظهرن على خشبة المسرح مع بائعات السمك ، والطهاة والفلاسفة الحيارى . - وإن كان زواج الممثل والكاتب يتخذ شرفهما فى آخر التمثيل : خلت هذه المسرحيات من فحش أرسطوفان ومجونه اللذين كانا سبباً فى خشونة المسرحيات وخلوها من الصقل الجميل ، ولكنها خلت أيضاً من حيويته وخصب خياله . ولدينا أسماء تسعة وثلاثين شاعراً من كتاب المسلاة الوسطى ، وإن لم يكن لدينا شىء من مسرحياتهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم من القطع الباقية لدينا أنهم لم يكتبوا شيئاً جديراً بالخلود . وقد كتب ألكسيس الثوريائى (of Thuri) ٢٤٥ مسرحية ، وكتب أنتفانيز Antiphanes ٢٦٠ . لقد ذاع صيتهم فى زمانهم فلما انقضى ذلك العهد أفل نجمهم .

أما الخطباء فكان هذا زمانهم . ذلك أن نهضة الصناعة والتجارة قد حولت عقول الناس إلى الحياة الواقعية والعملية ؛ وأخذت المدارس التى كانت قبل تعلم أشعار هومر تدرب تلاميذها الآن على أساليب البلاغة . ولقد كان

إسيوس (Isaeus) ، وليقورغ ، وهيريديز ، ودمديز Demades ،
 وديناركس Deinarchus ، وإسكنيز ، ودمستين كلهم خطباء سياسيين ،
 يتزعمون أحزاباً سياسية ، ويسيطرون ببلاغتهم على عقول الجماهير. وظهر
 رجال في سراقوصة في الفترات التي ساد فيها الحكم الديمقراطي ، أما الدول
 الديمقراطية فلم تكن تطيقهم ، وكانت لغة الخطباء الأثينيين تمتاز بالوضوح
 والقوة ، والبعد عن المحسنات اللفظية وكانت تسمو بين الفينة والفينة إلى
 مراق الوطنية النبيلة ، وتسف إلى المهارات المنحطة والشتائم القذرة التي
 لا يسمح بها حتى في المنازعات الحديثة . وكان ما تتصف به الجمعية الأثينية
 والمحاكم الشعبية من عدم التجانس في أعضائها سبباً في انحطاط فن الخطابة
 اليونانية ، وحافزاً لها في الوقت عينه ، وانتقل هذا الأثر بنوعيه عن
 طريق الخطابة إلى الأدب اليوناني بوجه عام ، فقد كان سرور المواطن الأثيني
 من سماع الشتائم في خطب الخطباء لا يكاد يقل عن سروره من مشاهدة
 مباراة لنبل جائزة ، وإذا عُرِف أن مبارزة لفظية ستقوم بين محاربين
 بالألفاظ مثل إسكنيز ، ودمستين أقبل الناس لسماعهما من القرى النائية
 والدول الأجنبية ، وكان أكثر ما يستثيره الخطباء هو غريزة الكبرياء والهوى .
 وقد عرّف أفلاطون البلاغة ، وكان يكره الخطابة ويصفها بأنها السم القاتل
 للديمقراطية ، عرفها بأنها فن حكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم .
 وحتى ديمستين نفسه ، رغم حيويته وقوة أعصابه ، وسموه في كثير من
 الأحيان إلى فقرات تفيض بالحماسة الوطنية ، ورغم هجومه الشديد على
 الأشخاص هجوماً أبعده يضعف على مر الزمان ، ومهارته في تعاقب القصص
 والجدل في خطبه تعاقباً يريح الأذن ويطرد السآمة ، وما في لغته من انسجام
 وتوازن . كان يعنى بهما كل العناية ، ورغم تدفقه في خطبه كالسيل
 الجارف ، نقول إن ديمستين نفسه رغم هذا كله يبدو لنا أقل قليلاً من
 الخطيب العظيم . وكان يرى أن التمثيل هو سر العظمة الخطابية ، وبلغ
 من إيمانه بهذا المبدأ أن كان يعيد خطبه مراراً في كثير من الأناة

ويتلوها على نفسه أمام مرآة ، واحترق لنفسه كهفاً كان يعيش فيه عدة أشهر ، لا يكاد يعلم به أحد ، وكان في مثل هذه الفترات يخلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه^(١) . وكان إذا وقف على منصة الخطابة اتجه بوجهه نحو تماثله ، ودار يمناً ويسرة ، ووضع يده على جبهته كأنه يفكر ، ورفع صوته في أغلب الأحيان إلى حد الصراخ^(٢) . ويقول فلوطرخس إن هذا كله « كان يسر العامة كل السرور ، أما المتعلمون أمثال دمتروس الفاليري (Demetrius of Phalerum) فكانوا يظنون هذا عملاً حقيراً ، مهيناً ، لا يتفق مع الرجولة الحقة » . وإننا لنسر من حركات دمستين المسرحية ، ونعجب بتقديره لنفسه واعتزازه بها ، وتحيرنا استطراداته وتروّعنا بذاءته . وليس في خطبه إلا القليل من الفكاهة والقليل من الفلسفة . ولولا حماسه الوطنية ، وما يبدو من إخلاص في دعوته الحارة اليائسة إلى الحرية ، لما كان له شأن كبير .

وبلغت الخطابة اليونانية أرق درجاتها في عام ٣٣٠ . وكان تسفون Ctesiphon قبل ذلك العام بست سنين قد اقترح على المجلس مبدئياً أن يهدى دمستين تاجاً أو إكليلاً من الزهر اعترافاً منه بحسن سياسته ، وبما قدمه للدولة من منح مالية كثيرة . ووافق المجلس على هذا الاقتراح . وأراد إسكنيز أن يحول بين منافسه وبين هذا الشرف العظيم فاتهم تسفون بأنه عرض على المجلس اقتراحاً غير دستوري (وهو اتهام صحيح من الناحية الشكلية) وأجلت القضية المرة بعد المرة ، ثم عرضت أخيراً على هيئة القضاء المؤلفة من خمسمائة من المواطنين . وكانت هذه بطبيعة الحال قضية من أشهر القضايا شهداها كل من استطاع الحضور إلى أثينة مهما بعد موطنه ، ذلك بأن أعظم خطباء أثينة في ذلك الوقت كان في واقع الأمر يدافع فيها عن سمعته وعن حياته السياسية . ولم يثُغ إسكنيز في مهاجمة تسفون إلا قليلاً من الوقت ولكنه وجه هجومه إلى أخلاق دمستين

وسيرته ، ورد عليه دمستين فى خطبة من نوع خطبته هى خطبته الشهيرة المعروفة باسم « فى سبيل التاج » . ونزال نحس فى كل سطر من أسطر الخطبتين بما كان يضطرم فى صدر صاحبيهما من احتياج شديد ، وحقد فى قلب عدوين التقيا وجهاً لوجه فى ميدان القتال . وكان دمستين يعرف أن الهجوم أفضل من الدفاع ، فقال إن فليب قد اختار بوقاً له فى أثينة أحط خطبائها وأشدهم فساداً ، ثم أخذ يرسم صورة لحياة إسكثيز يتجلى فيها الحقد بأوضح معانيه فقال :

لا بد لي أن أدلكم على حقيقة هذا الرجل الذى يطلق لسانه بالشائيم المقلدة . . . وإلى أى الآباء ينتسب . الفضيلة أيها الوجد الخائن ١ . . . ما شأنك أنت أو أسرتك بالفضيلة ٢ . . . وبأى حق تتحدث عن التربية والتعليم ٣ . . . هل أقص على الناس كيف كان أبوك عبداً يدير مدرسة أولية قرب هيكـل ثسيوس ، وكيف كان مصفداً بالحديد فى ساقه ، وكيف كان حول عنقه طوق من الخشب ، وكيف كانت أمك تقيم حفلات الزواج فى مرافق بيت فى وضوح النهار ٤ . . . لقد كنت تساعد أباك فى كدحه فى مدرسة صغيرة ، تطحن له الخبز ، وتنظف المقاعد بالإسفنج ، وتكنس الحجرة ، وتقوم بعمل الخادم . . . ثم سجلت اسمك فى سجل أبرشيتك - وليس فى مقدور أحد أن يعرف كيف استطعت أن تفعل ذلك ، ولكن ما علينا من هذا . - لقد اخترت لنفسك مهنة خليقة بأشرف الرجال المهذبين فكنت كاتباً وموصل رسائل لصغار الموظفين . وبعد أن ارتكبت جميع الجرائم التى تعبر غيرك من الناس ، أعفيت من هذا العمل . . . والتحققت بخدمة الممثلين الشهيرين سميلس Simylus وسقراط المشهورين باسم « المدمدين » . ومثلت أدواراً صغيرة تحت إشرافهم ، فكنت تلتقط التين والعنب والزيتون وتعيش على هذه القذايف خيراً مما تعيش من جميع الولايع التى كنت تخوضها للتجاة من الموت . إن الحرب التى كانت قائمة بينك وبين النظارة لم تكن فيها هدنة أو وقف للقتال . . .

واذن اذن يا إسكندر بن حياتك وحياتي . لقد كنت تعلم مبادئ
القراءة وكنت أنا طالباً في المدرسة ؛ وكنت أنت راقصاً وكنت أنا رئيس
الممثلين ... وكنت كاتباً عمومياً ، وكنت أنا خطيباً عاماً . وكنت ممثلاً
من الدرجة الثالثة وكنت أنا ممن يشهدون التمثيل . وأخفقت أنت في تمثيل
دورك وبنحرت أنا منك بالصغير (٣) .

وكانت هذه خطبة عنيفة ؛ ولم تكن نموذجاً للترتيب والأدب ولكنها
كانت فصيحة اللفظ شديدة الانفعال إلى حد حملت القضية على أن يبرثوا
تسعون بأغلبية خمسة أصوات ضد صوت واحد . وفي العام التالي منحت
الجمعية دمتين التاج المتنازع . ولما عجز إسكندر عن أداء الغرامة التي
تفرض حتماً على من يعجز عن إثبات جريمة يتهم بها أحد المواطنين ، فر إلى
رودس ، حيث أخذ يكسب الكفاف من العيش بتعليم البلاغة . وتقول
إحدى الروايات إن دمتين كان يرسل إليه المال ليخفف عنه آلام الفاقة .

الفصل الثاني

إسقراط

وكانت هذه المبارزة في الخطابة من الموضوعات التي يمجدها ويعنف بدراستها كل جيل من الأجيال اللاحقة . ولكنها في واقع الأمر تمثل اللرك الأسفل من الانحطاط الذي هوت إليه السياسة الأثينية . ولسنا نرى شيئاً من النبل أو الكرامة في هذا التناوب بالشتائم ، وهذا الكفاح الحقيّر لنيل الثناء من الجماهير ، بين رجلين كان كلاهما يتلقى الذهب الأجنبي في الخفاء . أما إسقراط فكان أكثر منهما جاذبية إلى حد ما وينتقل فيه إلى القرن الرابع بعض عظمة القرن الخامس . ولد إسقراط في عام ٤٣٦ ، وعاش حتى عام ٣٩٨ ، ومات حين ماتت الحرية اليونانية . وكان أبوه قد جمع ثروة كبيرة بصنع آلات الناي الموسيقية ، وأتاح لابنه جميع الفرص التعليمية ، ولم يعخل عليه بإرساله للدراسة البلاغة على غورغياس في تساليا . وقضت حرب الهلويونيز وخطة ألقبيادس على صناعة الناي وزهبتا بثروة الأسرة ، فاضطر إسقراط إلى كسب قوته بعرق قلمه . فبدأ بكتابة الخطب لغيره ، وفكر في أن يكون هو خطيباً ، ولكنه كان خجولاً ، ضعيف الصوت ، شديد البغض لسفالة الحياة السياسية ، وكان يمتق أشد المقت الزعماء المهرجين الذين سيطروا على الجمعية ، وانزوى وقتاً ما في حياة التعليم الهادئة .

فافتتح في عام ٣٩١ أعظم مدارس البلاغة نجاحاً في أثينة ، وهرع الطلاب إليها من جميع أنحاء العالم اليوناني ، ولعل اختلاف أصولهم ونظراتهم إلى الحياة قد ساعد على تكوين فلسفته الهلينية الجامعة . وكان يظن أن من عداه من المدرسين يسبرون كلهم في غير الطريق السوي . وقد ندد في نشرة له ضد السوفسطائيين بالذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دريهمات

معدودة ، والذين يرجون ، كما يرجو أفلاطون ، أن يعدوا الناس لتولى الحكم بتدريهم في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة . أما هو فكان يقر بأنه لا يستطيع أن يحصل من الطالب على نتائج طيبة إلا إذا كان هذا الطالب ذا موهبة طبيعية . ولم يكن في وسعه أن يدرس العلوم الطبيعية أو ما وراء الطبيعة لأنها ، كما يقول ، بحوث لا يرجى منها خير ، في أمور غامضة لا يمكن الكشف عن خفاياها . ولكنه رغم هذا كان يطلق اسم الفلسفة على ما يعلمه في مدرسته . وكان منهاج الدراسة يدور حول فني الكتابة والكلام ، ولكنه كان يدرسها من حيث صلتها بالأدب والسياسة^(٥) . وكان يدرس للطلاب منهجا ثقافياً ، على حد تعبير هذه الأيام ، يخالف المنهج الرياضي الذي كان يدرس في مجمع أفلاطون العلمي . وكان الهدف الذي يريد الوصول إليه هو فن الخطابة ، وقد كان هذا الفن في ذلك الوقت وسيلة التقدم في الحياة العامة ، لأن الجدل هو الذي كان وقتئذ يحكم الدولة الأثينية . ومن أجل ذلك كان إسقراط يعلم تلاميذه طريقة استعمال الألفاظ ، كيف يضعونها في أوضح ترتيب ، وفي تتابع منسجم ولكنه غير موزون ، وفي عبارات مصقولة ولكنها غير مزخرفة ، وكيف ينتقل بالأصوات والأفكار انتقالاً هادئاً سلساً^(٦) ، وكيف تكون الجمل متزنة والوقفات كثيرة . وكان من رأيه أن هذا النشر يسر الأذن الملهدة بقل ما يسرها الشعر . وتخرج في هذه المدرسة كثيرون من الزعماء في عصر دمستين : تيموثيوس القائد ، وإفورس وثيوبومس المؤرخان ، وإسيوس ، وليقورغ ، وهيريدنز ، وإسكينز الخطباء ، وإسيوس خليفة أفلاطون ، وأرسطاطاليس نفسه في رأى بعضهم^(٧) .

(٥) مثال ذلك أن إسقراط - وحذا حذوه في ذلك معظم من جاء بعده من كتابه اليونان - كان يرى أن من الخطأ أن تختتم كلمة بأحد الحروف المتحركة ، ثم تبدأ الكلمة التي تليها بحرف متحرك أيضاً .

ولم يكن إسقراط يقنع بتكوين عظماء الرجال ، بل كان يرغب في أن تكون له يد في تصريف شئون عصره . وإذ كان عاجزاً عن أن يكون خطيباً أو سياسياً فقد أخذ يولف النشرات . فكان يوجه خطاباً طويلة لجمهور الأثينيين ، ولأزعماء أمثال فليب ، أو لليونان المحتشدين في ساحات الألاب اليونانية الجامعة ؛ ولم يكن يلقي هذه الخطب ، بل كان ينشرها ، فابتدع بذلك على غير علم منه المقالة بوصفها فناً من فنون الأدب . وقد بقيت لنا تسع وعشرون من خطبه تعد من أكثر ما بقي من الأدب القديم إمتاعاً . وكانت خطبته الأولى العظيمة المعرفة باسم الجمعية العامة أو الهانيجر كرس Panegyricus (*) مفتاح تفكيره كله ، والهدف الذى كان يتنغيه معلمه القديم غورغياس ، وهو دعوة بلاد اليونان إلى نسيان سيادتها الصغيرة والاندماج في دولة واحدة . وكان إسقراط أثينياً فخوراً بوطنه ... « لقد فاقت مدينتنا سائر بلاد العالم في أفكارها وخطبها حتى أصبح تلاميذها معلمى الدنيا بأجمعها » ، لكنه كان يفخر يونانيته أكثر من فخره بأثينيته ؛ ولم يكن معنى الهلينستية عنده (**) ، كما لم يكن معناها عند رجال العصر الهلينستى ، هو الانتساب إلى جنس بعينه ، بل كان معناها الاشتراك في ثقافة بعينها ؛ وكان يشعر بأن هذه الثقافة هى أرق ثقافة ابتدعها الإنسان في أى بلد من بلاد العالم (٧) ، وكان « البرابرة » يحيطون بهذه الثقافة من جميع الجهات — فى إيطاليا ، وصقلية ، وإفريقية ، وآسية ، والبلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد البلقان — وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يرى هؤلاء البرابرة يزدنون كل يوم قوة ، وأن يرى بلاد الفرس تقوى سيطرتها على أيونية ، على حين أن الدولة اليونانية كانت تقضى على نفسها بعروبها الداخلية .

(٥) سميت كذلك لأنها كانت موجهة إلى الهانيجر كرس أو الجمعية العامة (بان -- أجورا Pan-agora) اليونانية في الدورة الأولمبية المائة .

(٥٥) الهلينستية هى الاصطلاح بالصيغة اليونانية في غير بلاد اليونان الأصلية . (المترجم)

« ما أكثر الشرور التي تلازم الطبيعة البشرية ، ولكننا نحن قد اخترعنا من أكثر الشرور التي تفرسها علينا الطبيعة ، بإثارة الحروب والانقسامات الداخلية . . . ولم يبق أحد قط بمقارنة هذه الشرور ، والناس لا يستحيون أن ييكونوا من الكوارث التي اصطبغها الشعراء ، على حين أنهم ينظرون بعين الرضا إلى ما تؤدي إليه الحرب القائمة بيننا من آلام حقه ، وكوارث لاحصر لها . وهم لا يشفقون منها ، بل لهم ليتجهجون مما يصيب غيرهم من الأحران أكثر من أبتهاجهم بما ينالون من النعم » (٨) .

وكان يقول إنه إذا كان لا بد لليونان أن يقاتلوا فلم لا يقاتلون علوا حقيقيا ؟ لم لا يطردون الفرس إلى مضاهيم ؟ ويتنبأ بأن شرذمة قليلة من اليونان تستطيع أن تهزم جيشا كبيرا من الفرس (٩) ، وقد توحد حرب مقدسة من هذا النوع بلاد اليونان في آخر الأمر ، ولم يكن أمام اليونان إلا واحدة من اثنتين فلما وحده اليونان ولما انتصار البرابرة ولا ثالثة لها .

واعترز إسقراط أن يحقق نظريته هذه عمليا ، فأخذ يطوف ببحر إيجه بعد عامين من نشر هذه الدعوة (٣٧٨) وبصحبه تلميذه السابق ثموثيوس ، وساعد على وضع شروط الحلف الاثيني الثاني . وكان ما تعاقب على هذا الأمل الجديد في الوحدة من قوة تارة وبخية تارة أخرى من أشد الآلام الكثيرة التي منى بها في حياته الطويلة . فأخذ يقرع أثينة في نشرته القوية الجريئة « في السلم » لأنها أفسدت الحلف مرة أخرى فحولته إلى إمبراطورية ، وأهاب بها أن توقع صلحا يؤمن كل دولة يونانية من أن تعتدى عليها أثينة مرة أخرى : « إن ما تسميه إمبراطورية لهوفى الحقيقة كارثة ، لأنها بطبيعة تكوينها تفسد كل من له صلة بها » (١٠) . ومن أقواله أن الاستعمار قد قضى على الديمقراطية لأنه علم الاثينيين أن يعيشوا على الجزية الأجنبية ، فلما خسروا هذه الجزية أرادوا أن يعيشوا على

الإعانات التي تقدمها لهم الدولة ، ورفعوا إلى أعلى المناصب من وعدوهم
بأكبر معونة

« إنكم حين تتناقشون في أعمال الدولة ترتابون في أصحاب الذكاء الفائق
ولا تحبونهم ، وترفعون بدلا منهم أخطر من يتقدم إليكم من الخطباء . . .
إنكم تفضلون السكراري عن لا يتعاطون الخمر ، ومن لا عقل لهم عن الحكماء ،
ومن يبددون أموال الدولة عن يودون الخدمات العامة وينفقون عليها من
مالهم الخاص (١١) » .

وكان أخف من هذا وطأة على الديمقراطية في خطابه الثاني المسمى
الأوروبيستس . ويقول في إحدى فقراته التي تصدق على كل زمان : « إنا
لنجتمع في حوانيتنا نندد بالنظام الحاضر ، ولكننا نرى أن الديمقراطيات
الفاسدة النظام نفسها تسبب من الكوارث أقل مما تسببه الأجركية (١٢) » :
« ويتساءل ، ألم تكن سيادة اسبارطة على بلاد اليونان أسوأ من سيادة أثينة ؟
« ألم نصبح نحن جميعاً بفضل جنون « الثلاثين » أشد تحمساً للديمقراطية من
من الذين احتلوا فيلي (١٣) » ؟ (١٤) ولكن أثينة قد قضت على نفسها بتجاوز
الحد في الأخذ بمبدأ الحرية والمساواة ، و« بتلريب المواطنين تلريباً يجعلهم
يعدون الوقاحة ديمقراطية ، والخروج على القانون حرية ، والسفاهة في القول
مساواة ، وقدرتهم على أن يفعلوا كل ما يشاءون سعادة » (١٥) . « ليس
الناس كلهم أكفاء ، ويجب ألا يكونوا كلهم أكفاء ، في تولى المناصب
العامة » . وكان يشعر أن نظام القرعة قد نزل بمشوى الحكم الأثيني إلى
الدرك الأسفل ، وأدى إلى أوخم العواقب . ويقول إن خيراً من « حكم
الغوغاء » هذا « حكم الملاك » الذي كان يدعو إليه صولون وكليسثينز لأن
الجهل المحب للناس ، والفصاحة التي تبتاع بالمال ، تقل أمامهما فرص

(*) ثرازيبولس ، وأنيستوس ، وغيرهما من أعادوا للديمقراطية في عام ٤٠٤ .

الارتقاء إلى مراتب الزعامة ؛ ولأن القادرين من الناس يرقون رقياً طبيعياً إلى أعلى المناصب ، فإذا تلقفهم الأريوچس بعد فترة توليهم مناصبهم ، أصبحوا من تلقاء أنفسهم عقل الدولة الناضج .

ولما عقدت أثينة الصلح مع فليب في عام ٣٤٦ ، وكان إسقراط وقتئذ في سن التسعين ، وجه إلى الملك المقدوني خطاباً مفتوحاً . وقد هداه تفكيره إن أن فليب سيفرض سيادته على بلاد اليونان فتوصل إليه ألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم ، بل يستعين به على جمع شمل اليونان المستقلين وتوجيههم إلى حرب يحررون بها بلادهم من « صلح الملك » ، وتحرير أيونيا من حكم الفرس ، وأخذ حزب الحرب يطلعن في هذا الخطاب ويصفه بأنه استسلام للطغيان ، وظل إسقراط سبع سنين ممسكاً بقلمه يرد به على هذه التهمة . ثم كتب خطبة أخرى في عام ٣٣٩ موجهة للخطاب إلى اليونان الذين اجتمعوا لمشاهدة الألعاب الأثينية الجامعة . وكانت « الخطبة الأثينية الجامعة » (البان أثينيكس Panathenaicus) تكرر آراء ضعيفاً مسهباً للخطبة الجمعية العامة . فنحن نحس أسلوبها يرتجف في يد الشيخ الطاعن في السن ، ولكنها مع ذلك عمل عجيب من رجل لا تنقص منه عن قرن كامل إلا ثلاث سنين . وفي عام ٣٣٨ دارت معركة قيرونية وهزمت فيها أثينة ، ولكن ما كان يحلم به إسقراط من وحدة بلاد اليونان أو شك أن يتحقق . ونقول لإحدى الروايات اليونانية التي ذاعت بعدئذ إنه لما بلغه الخبر لم يفكر في فليب أو في الوحدة ، بل كان تفكيره كله في مدينته التي ذلت ، وفي أيام مجدها التي ولت ، وإنه بعد أن بلغ ثمانية وتسعين عاماً وبلغ من العمر كفايته ألمات نفسه جوعاً (١٥) . ولسنا نعرف هل هذه القصة صادقة أو كاذبة ، ولكن أرسطاطاليس يحدثنا بأن إسقراط مات قبل أن تمضي على قيرونية خمسة أيام .

الفصل الثالث

أكسانوفون

إذا كان أثر « الشيخ الفصيح » في ساسة عصره قابلاً للشك ، فإن أثره في الأدب كان أثراً عاجلاً وخالداً(*) . وكان المؤرخون أول من أحسوا به ، فلقد قلده أكسانوفون وغيره من المؤرخين في الصورة التي رسمها لإفجروس Evagoras(**) ؛ وأصبحت السير من بعده فناً شائعاً من فنون الأدب اليوناني ، بلغت غايتها في روائع فلوطرخس الثائرة . وقد عهد إسقراط إلى تلميذ من تلاميذه يدعى إفورس Ephorus أن يضع تاريخاً عاماً لبلاد اليونان — لا يؤرخ حوادث دولة واحدة من دوله بل يؤرخ لبلاد اليونان بوجه عام . وقام إفورس بما عهد إليه خير قيام وأجاده لإجادة حملت معاصريه على أن يضعوا كتابه « التاريخ العام » في مستوى كتاب هيرودوت . ونخص إسقراط تلميذاً آخر هو ثيويمبس الطشيوزي بتاريخ الحوادث القريبة العهد ، فصنع ثيويمبس بالأمر ووصف هذه الحوادث في كتابيه الهلينيكا والفليبيكا وهما مؤلفان رائعان يمتازان بحيويتها وعبارتهما اللاذعة ، وحازا إعجاب معاصريه . وكتب دسياركس Dicaearchus المساني (of Messana) حوالي عام ٣٤٠ تاريخاً للحضارة اليونانية عنوانه حياة اليونان (Bios Hellados) ألا ما أقدم هذه المغامرة التي أقدمنا نحن عليها ، وما أعظم الشبه بين ذلك العمل القديم وعملنا هذا الذي يتفق معه حتى في الاسم . ولم يخلد من مؤرخي القرن الرابع أحد غير أكسانوفون . ويضفه ديوجانس ليرتيوس في شبابه بقوله :

(*) لقد بنى شيشرون وملتن ، وماسيون ، وجرى تيلر ، وإدمند بيرك أسلوبهم للنثر على الجمل المتزنة الطويلة التي هي من خصائص أسلوب إسقراط .
(**) الطاغية المتثير الذي أدخل الثقافة اليونانية في قبرص ٤١٠ - ٣٨٧ .

كان أكسانوفون رجلاً شديداً التواضع ، وسياً كأعظم ما يتصور الإنسان الوسامة ؛ ويقال إن سقراط التقى به في حارة ضيقة فسد عليه مدخلها بعصاه ، ومنعه أن يخرج منها ، وأخذ يسأله عن الأماكن التي تباع فيها كثير من ضرورات الحياة . فلما أجابه أكسانوفون عن أسئلته سأله من جديد أين يصنع الرجال الطيبون الأفاضل ؟ ولما عجز أكسانوفون عن الإجابة قال له سقراط : « اتبعني إذن وتعلم مني » وأصبح أكسانوفون من ذلك الوقت أحد أتباع سقراط (١٧) .

وكان أشد تلاميذه ميلاً إلى الفلسفة العملية ، وكان يعجبه في سقراط قوة حيلته الجذابة ويرى أنه قديس فيلسوف . ولكنه كان يعجب بالعمل كما يعجب بالتفكير ، ولذلك صار جندياً مغامراً على حين أن غيره من رجال العلم كانوا كما يقول فيهم أرسطوفان مستهزئاً « يقيسون الهواء » (١٨)

وخدم وهو في سن الثلاثين أو ما يقرب منها في جيش قورش الأصغر وحارب في كونكسا وقاد العشرة الآلاف إلى النجاة . وفي بزنطية انضم إلى الامبارطين في حربهم ضد الفرس وأسر مبدياً غنياً ، وقبل مبلغاً كبيراً من المال فدية له ، وعاش من هذا المال بقية أيام حياته ، وأصبح بعد تلك الحرب صديقاً لأجسلوس ملك اسپارطة ، وأعجب به ، وترجم له ترجمة تدل على هذا الإعجاب ، وعاد إلى بلاد اليونان مع أجسلوس بعد أن أعلنت أثينة الحرب على اسپارطة ، وآثر الولاء له على الولاء لمدينته ؛ فلم يكن من أثينة إلا أن أعلنت نفيه وصاحرت أملاكه ؛ وحارب في صفوف اللسديمونيين في قورونية وكوفي على هذا بضبعة في سلس Scilus من أعمال إيليس Elis ، وكانت وقتئذ تحت سيطرة اسپارطة ، وقضى فيها عشرين عاماً يعيش عيشة سادات الريف ، يزرع ويصطاد ، ويكتب ، وير . أولاده تربية صارمة على الطريقة الامبارطية (١٩) :

ونحن مدينون بنفيه إلى كتبه المختلفة التي رفعتها إلى المقام الأول بين المؤلفين في زمانه . وكان يكتب ، إذا حلت له الكتابة ، في تذليل الكلاب ، وترويض

الحيل ، وتدريب الزوجة ، وتربية الأمراء ، والحرب إلى جانب أجسلوس ، أو جباية المال لأثينة : وقد قص في الآباسباسيس بأسلوبه العذب السائغ أسلوب الرجل الذى شاهد الأعمال التى يصفها أو اشترك بنفسه فيها ، قص فى هذا الكتاب قصة مسير العشرة الآلاف إلى البحر ، وهى القصة المثيرة التى لا سند لها غيره . وفى كتابه الهلينيكا واصل قصة بلاد اليونان من حيث انتهى توكيديدس ، إلى واقعة متينيا التى قتل فيها ولده جريس وهو يحارب ببسالة بعد أن قتل بيده أبامينداس . والكتاب فى حد ذاته مرد ممل للحوادث يدل على أن كاتبه يفهم التاريخ على أنه سلسلة لانهاية لها من الوقائع الحربية ، وسرد الانتصارات والهزائم ، ومحاولة غير مجدبة لتعليلها منطقياً . والأسلوب قوى ، والشخصيات واضحة ، لكن الحوادث قد أحسن اختيارها لكى تثبت تفوق الأساليب الاسبارطة . وفى كتاب أكسانون تعود الخرافات التى كانت قد اختفت من التاريخ فى كتاب توكيديدز ، وهو يستند إلى القوى غير الطبيعية ليفسر بها سير الحوادث . ويمثل السذاجة و هذا النفاق نحيل المورايليا سقراط إنسانا كاملا إلى حد لا يصدق عقل سليم ، فهو مستمسك بالدين القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والحب العذرى ، وقصارى القول أنه مكمل فى كل شئ إذا استثنينا احتقاره للديمقراطية ، ذلك الاحتقار الذى حبه إلى قلب أكسانوفون الطريد . وكتابه « المائدة » أقل من هذا الكتاب الأخير جدارة بالثقة . وهو ينقل حديثا يزعم أنه دار حين كان لا يزال أكسانوفون طفلا .

أما فى الإكونوميكس Oeconomicus فإن أكسانوفون يتحدث فى الميدان الذى يحق له أن يتحدث فيه ، ويكشف عن نزعة التحفظية بصراحة تسحر عقولنا على الرغم منا . لقد كان أكسانوفون خبيراً فى الزراعة ، وشاهد ذلك أنه لما طلب إلى سقراط أن يعلم فنونها أقر فى كثير من التواضع بجهله ، ولكنه ذكر نصيحة المالك الثرى إسكوماكش Ischomachus والمثل الذى ضربه للناس بنفسه . ويجهز إسكوماكس هذا باحتقار أكسانوفون لكل عمل (٣٠ - ح ٢ - مجلد ٢)

هذا الزراعة والحرب ، ولا يكتفى بشرح أسرار النجاح في الأعمال الزراعية ، بل يشرح معها فن إدارة الرجل أملاكه وأملاك زوجته . ومحدثنا إسكوماكس في أسلوب لا يكاد يقل رشاقة عن أسلوب أفلاطون كيف علم عروسه أن تعني بمنزلها ، وتضع كل شيء في مكانه ، وتسوس خدمها بالرفق من غير أن تختلط بهم وتفقد منزلتها في أعينهم ، وتشتهر بين الناس ، لا بجملها المصطنع ، بل بإخلاصها في أداء واجباتها بوصف كونها زوجة ، وأما ، وصديقة . والزواج في رأى إسكوماكس - أكسانوفون رابطة اقتصادية وجسمية معاً ، وهو يضمحل حين يقوم الشريك الصامت بالعمل كله . ولعل حديثه عن استعداد الزوجة الشابة لقبول هذا كله لا يعدو أن يكون أمنية يتمناها ذلك القائد الذى لم ينل نصراً ما في ميدان البيت ، ولكننا لا نمنعنا مانع من أن نصدق كل شيء في القصة إلا أن إسكوماكس قد استطاع في لحظة وجيزة أن يقنع زوجته بترك المساحيق والأصباغ الحمراء (٢٠) .

وبعد أن شرح أكسانوفون فن الزواج أخذ يصف في القيروبيديا (أى تربية قورش) مثله العليا في التعليم والحكم ، كأنه يرد بها على آراء أفلاطون في الجمهورية . وكان أكسانوفون بارعاً في تكيف السبر الخرافية لخدمة الفلسفة ، فأخذ يروى قصة خيالية عن تعليم قورش الأكبر ، وحياته ، ونظامه الإدارى ، وهو يجعل القصة شخصية مسرحية ، ويبعث فيها الحياة بجواره ، ويجملها بما يدخله فيها من أقدم قصص الحب في الآداب التى كانت موجودة في زمانه . ويكاد يغفل في كتابه التربية الثقافية ، ويركز اهتمامه في كيفية جعل الغلام صحيح الجسم ، قادراً ، شريفاً ، فالصبي يتعلم الألعاب الرياضية الخلقية بالرجال ، وفنون الحرب ، وعادة الصمت والطاعة ، ويتعلم أخيراً كيف يسيطر على مروضيه سيطرة قوية قائمة على الإقناع . ويرى أكسانوفون أن خير أنواع الحكم هو الحكم الملكى المستنير الذى تؤيده وتحدد منه أرسقراطية متخصصة في الأعمال الزراعية والشئون الحربية . وهو يعجب بقوانين الفرس التى تقضى بمكافأة المحسن وعقاب المسيء (٢١) ،

ويقول ليونان ذوى الزعة الفردية إن من المستطاع ضم كثير من المدن والدول في إمبراطورية واحدة تستمتع بالنظام والسلم في الداخل ، ويضرب لهم بلاد القرم مثلا . ولقد بدأ أكسانوفون كما بدأ فليب وهو يحلم بالفتح وبسطة الملك ، وينتهى كما انتهى الإسكندر أسير حب الشعوب التى فكر فى التغلب عليها .

وهو قصاص بارع ، ولكنه ميسوف وسط . وهو هاو فى كل شىء هذا الحرب ، يبحث فى مائة موضوع وموضوع ، ولكنه يبحث فيها على الدوام بعقلية العسكرية . وهو يبالغ فى مزايا النظام ، ولا يجد كلمة يقولها عن الحرية ، وفى مقدورنا أن نستدل من هذا على مقدار ما بلغه الاضطراب فى أثينة . وإذا كان القدامى قد وضعوه فى مرتبة هيرودوت وتوكيديدز ، لذلك راجع من غير شك إلى أسلوبه الذى يمتاز بصفاته الأتكى الساحر الطلى ، ونثره السلس المتدفق المنسجم الذى وصفه شيشرون بأنه « أحلى من الشهد (٣٣) » ، وإلى اللوحات الشخصية التى تكسب الموضوع حياة وإنسانية ، وإلى لغته ذات البساطة والثقافة التى تمكن القارئ أن يرى من خلال هذا الوسط الصافى رأى أو الموضوع الذى يعالجه الكاتب . وإن الصلة التى بين أكسانوفون وأفلاطون من جهة وتوكيديدس وسقراط من جهة أخرى لشبهة كل الشبه بالصلة التى بين أبلز وهرستليز من ناحية وبلجنونس من الناحية الأخرى... فقد بلغت أناقة الأسلوب والمهارة الفنية على أيديهما أهل مزاتهما بعد عصر من الابتكار فى التفكير وقوة الأسلوب •

الفصل الرابع

أپليز

إن الذى بلغ فيه القرن الرابع إلى اللروة لم يكن الأدب بل الفلسفة والفن ؛ ذلك أن الفرد قد تحرر فيه ؛ كما تحرر فى السياسة ، من المعبود ومن الدولة ، ومن التقاليد ومن المدرسة . فلما أن حل الولاء الفردى لخل الإخلاص الوطنى ، نزل فن العمارة إلى الدرجة الوسطى ، وازداد طابعه الدنيوى شيئاً فشيئاً ، واطمحل شأن تمثيليات الموسيقى والرقص وحل محلها تمثيل يقوم به أفراد محترفون ، وظل التصوير والنحت يزينا المباني العامة بصور طرز من الآلهة أو النبلاء ، ولكنهما فى الوقت ذاته دخلا فى خدمة الأفراد الأحياء وشرعا بصورتهم حتى أصبح هذا طابع العصر الذى أعقب ذلك القرن . وإذا كانت بعض المدن قد ظلت تناصر الفن مناصرة قومية واسعة النطاق ، فما ذلك إلا لأنها كانت كدائن نيدس ، وهليكرنس ، ولفسوس لم تفتحها الحرب اجتياحاً تاماً ؛ أو كسراقوصة قد وجدت فى مواردها الطبيعية ونظام حكمها وسائل الانتعاش العاجل .

وأما فن العمارة فى أرض اليونان الأصلية فقد كان فى ذلك الوقت واقفاً يترقب لا يتقدم ولا يتأخر وإن كانت قد شيدت فيه بعض العائثر . من ذلك أن ليقورغ جدد فى عام ٣٣٨ بناء ملهى ديونيشيوس ، وساحة الألعاب ، واللوبيون ، وشاد فيلون بإشرافه دار صنعة كبيرة رائعة فى پيرية . ولما أن ازداد ميل الناس إلى الرقة والدقة فى البناء فقد الطراز الدورى جدته وانصرف الناس عنه ، لأن بساطته الصارمة لم تعد تستجيب لما النفس ، وارتفع شأن الطراز الأيونى وازداد انتشاراً ، وكان هذا فى الفن يقابل طرف پرستليز فى النحت وسحر أفلاطون فى الأدب . وأنشى على الطراز الكورنثى « برج الرياح »

والنصب التذكاري للتمثيل في لسكربتيز Lysicartes : وشاد أسكوباس Scopas في تيجيا Tegea الأركادية هيكلًا لأثينا جميع فيه بين الطرز الثلاثة ، فكانت فيه مجموعة من العمود الدورية ، وأخرى أيونية ، وثالثة كورنتية (٢٣) ، ثم جملة بالتمثيل نحتها بيده الصناع العضلية .

وكان التمثال الثالث المقام لأرتيميس في إفسوس أكبر من هذا وأعظم شهرة ، وكان التمثال الثاني قد احترق يوم ولد الإسكندر في عام ٣٥٦ ؛ وتلك مصادفة يقول عنها فلوطرخس بظرفه المعهود إلى هجسياس المغنيزي Hegesias of Magnesia « اتخذها سيباً لغرور بلغ من البرودة حداً يكفي لإخماد النار (٢٤) » . وسرعان ما بدئ بإقامة البناء الثاني ، ولم ينته ذلك القرن حتى كان البناء قد تم . وعرض الإسكندر أن يتحمل جميع نفقات المبنى كلها إذا نقش اسمه على هذا الصرح ، وقيل إنه أقيم من ماله ؛ ولكن يونان إفسوس أبت عليهم عزة أنفسهم أن يقبلوا هذا العرض ، وكانت حجبتهم في رفضه حجة لا تستطيع مقاومتها (أو لعلهم أرادوا بها هجو الإسكندر والسخرية منه) وهي أنه « لا يليق أن ينشئ إله هيكلًا لإله آخر (٢٥) » . غير أن الذي حدث رغم هذا أن مهندس الإسكندر المقرب إليه هو الذي رسم مبنى الهيكل وجعله أكبر هياكل هلاس على الإطلاق . وقام عدد من المثاليين بعمل النقوش القليلة البروز على ستة وثلاثين عموداً ، وكان من بينهم أسكوباس الذي نرى له نقوشاً في كل مكان في بلاد اليونان . وفي المتحف البريطاني صحيفة من أحد هذه العمد ، نُحتت عليها تماثيل ، وكأنها قد قاومت عواذي الزمان لكي تثبت بما عليها من تصوير للثياب دون غيره أن فن النحت اليوناني لا يزال قريباً جداً من ذروته . وليست رؤوس التماثيل جامدة نُحتت على غرار طرز حددتها التقاليد والأجيال الطوال ، ولكنها تمثل وجوهاً لأفراد تلبس بالشعور والمميزات الخلقية — وتبشر بالواقعية الهلنستية .

وفي الأحجام الصغيرة امتاز القرن الرابع بالتماثيل الصغيرة المصنوعة من

الأجر المحروق . وقد أضحى اسم تنجارا البووتية *Bocotiam Tangara* مرادفاً للتأليل الصغيرة المصنوعة من الصلصال المحروق غير المزجج المصبوب على غرار طرز عامة ، ولكنه يُشكل ويلون باليد فتخرج منه آلاف من الصور الفردية التي تنبعث فيها ألوان الحياة العامة على اختلاف أشكالها . وكان يلجأ إلى التصوير في هذا القرن كما كان . يلجأ إليه في القرون السابقة له لمساعدة غيره من الفنون . غير أنه قد أصبحت له وقتئذ كرامة ومنزلة مستقلة ، وأضحى أساتذته يستدعون لأداء أعمال فنية في جميع أنحاء العالم اليوناني . وكان بَمفيلس الأمفبولوسي *Panphilus Amphipolis* معلم أبلير يرفض أى تلميذ لا يبقى عنده اثنتى عشرة سنة كاملة ، وكان يطلب ما يعادل ستة آلاف ريال أمريكي لتدريس المنهج . وقد أدى ناسون *Mnason* طاغية إلاتيه اللكرية *Locrian Elatea* عشر مينات أجراً عن كل صورة من المائة الصورة في منظر واقعة حربية رسمه أرستيديز الطيبي ، وبذلك حصل هذا الرسام على مائة ألف ريال أمريكي أجراً لرسم منظر واحد وهذا الطاغية المتحمس نفسه وهب اسكليبيودورس ما يعادل ٣٦٠.٠٠٠ ريال أمريكي أجراً للوحة صور عليها الاثنا عشر الكبار من الآلهة الأولمبية . ودفع ما يعادل ١٢.٠٠٠ ريال أمريكي ثمناً لنسخة ثانية من الصور الملونة التي رسمها بوسياس السشيوني باليسيرا عشيقه مناندر^(٣٦) . ويقول بلني إن صورة من عمل أبلير كانت تباع بثمان يعادل ما في خزائن مدائن بأجمعها^(٣٧)

ويقول هذا الهاوى المتحمس نفسه أن « أبلير القوسى فاق كل من عدهاء من المصورين السابقين واللاحقين ، فإنه بمفرده أفاد فن التصوير كما لم يفده جميع المصورين مجتمعين^(٣٨) » . وما من شك في أن أبلير كان أعظم أهل فنه وأهل زمانه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يسرف هذا الإسراف النادر في مدح غيره من المصورين ؛ من ذلك أنه لما علم أن پروتجنيز أكبر منافسيه يعيش في فقر مدقع ، سافر إلى رودس لزيارته . ولم يكن پروتجنيز في مرسمه حين أقبل أبلير

لأن أحداً لم ينبئه بهذه الزيارة . وقابلت الزائر خادماً عجوز وسألته عن اسمه لتبلغه إلى سيدها بعد أن يعود . فإكان جواب أبليز إلا أن أخذ فرشاة ورسم على لوحة إطاراً غاية في الدقة بجرة واحدة . ولما عاد پروتجنيز وأخبرته الخادم العجوز أنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تخبره باسم زائره ، ثم أطلع على الأطار وشاهد دقته ، صاح قائلاً : « إن أحداً لا يستطيع رسم هذا الإطار إلا أبليز » . ثم رسم في داخله إطاراً أدق منه وأمر المرأة أن تطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد ، وعاد أبليز فعلاً ودهش من حلق پروتجنيز الغائب ، ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً بلغ من الرقة والرشاقة حداً لم يسع پروتجنيز معه حين رآه إلا أن يعترف أن منافسه قد غلبه ، ثم أسرع إلى الميناء ليستقي أبليز ويرحب به . وانتقلت هذه الآلة الفنية من جيل إلى جيل حتى اشتراها يوليوس قيصر ، ثم احترقت في النار التي دمرت قصره القائم على تلى الپلاتين . وتاقت نفس أبليز إلى أن يوقظ في العالم اليوناني الاهتمام بپروتجنيز وتقدير قيمته فسأله أن يخبره كم من المال يطلب ثمناً لبعض رسومه ، ولما طلب پروتجنيز مبلغاً متواضعاً عرض عليه أبليز بدلاً منه خمسين وزنة (٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ثم أذاع أنه سيبيع هذه الرسوم زاعماً أنها من صنع يده . وكان هذا الإعلان سبباً في أن أهل رودس قدروا عمل فنانهم خيراً من ذي قبل فدفعوا إلى پروتجنيز أكثر مما عرضه عليه أبليز واحتفظوا بالصورة بين كنوز مدينتهم^(٢٩).

وكان أبليز في هذه الأثناء قد نال إعجاب العالم اليوناني كله بصورة أفروديتي أنديوميني Aphrodite Anadyomene أى أفروديتي الخارجة من البحر . وأرسل الإسكندر في طلبه وعرض عليه أن يرسمه في مواقف كثيرة . ولم تعجب الشاب الفاتح صورة بلواده بسفالس Bucephalies في أحد هذه الرسوم ، وأمر بأن يقرب الجواد من الصورة ليوازن بينه وبينها ، فلما نظر الجواد إلى صورته صهل ، فقال أبليز للإسكندر « يلوح أن جواد

جلالتك يعرف عن التصوير أكثر مما تعرف ، (٢٠) . وكان الملك في مرة أخرى يتحدث عن الفن في رسم أبلز ، فرجاه الفنان أن ينتقل إلى موضوع آخر حتى لا يسخر منه الغلمان الذين يسحقون الألوان ، ولم يغضب الإسكندر من هذا القول . ولما أن استخدم الفنان في تصوير حظيته المحبوبة ، وشغف بها أبلز أهداها إليه الملك (٢١) . وكان أبلز يغطي صوره بعد الفراغ منها بطبقة رقيقة من الطلاء ، تحفظ الألوان ، وتخفف من بريقها ولكنها تجعلها أكثر بهجة وإمتاعاً من ذي قبل . وظل أبلز يعمل إلى آخر أيامه ووفاته المتنية وهو يعمل مرة أخرى في تخطيط صورة أفرديتي الخالدة .

الفصل الخامس

پرکستلیز

وكانت خير آيات النحت في ذلك العصر وأعظمها روعة هي الضريح الذي أقيم لموسولوس Mausolus ملك هليكرنسس. وكان موسولوس مرزباناً من مرازبة الفرس بالاسم ، ولكنه بسط سلطانه على كاريا Caria وأجزاء من أيونيا وليشيا Lycia ، واستخدم موارده الكبيرة في إنشاء أسطوله وتجميل عاصمته . ولما مات (٣٥٣) أقامت أخته وهي أيضاً زوجته مباراة شهيرة في الخطابة تكريماً له ، واستدعت أشهر الفنانين اليونان ليشاركوا في إقامة ضريح يكون تذكراً جديراً بعبقريته . وكانت ملكة بطبعها كما كانت بزواجها . ولما أن اغتتم أهل رودس فرصة موت الملك وغزوا كاريا غلبتهم بحيلها واستولت على أسطولهم وعاصمة بلادهم ، وما لبثت أن أملت شروطها على أولئك التجار الأثرياء (٣٢) . ولكن حزنها على وفاة موسولوس هدد ركنها فلم تتش بعده أكثر من عامين ، قبل أن يتم الضريح الذي صار فيها بعد حديث الناس كلهم في بلاد الغرب . وكان اسكوباس ، وليوكاريز Leochares ، وپريتكسيس Bryaxis ، وتمثيوس يعملون في جدد وأناة لإقامة ضريح رباعي الشكل من ألواح من الرخام الأبيض فوق قاعدة من الحجر ، ويغطونه بسقف هرمي ، ويزينونه بستة وثلاثين عموداً ، وبطائفة كبيرة من التماثيل الصغيرة والنقوش . وقد عثر الإنجليز في خرائب هليكرنسس عام ١٨٥٧ على تمثال لموسولوس يمثل مرة أخرى كفاح اليونان مع الحاربات الخرافيات الأمزونيّات . وبعد هذا النقش وما فيه من رجال

ونساء وجياد من أعظم روائع العالم كله في النقش القليل البروز وليست الأمزونات التي به نساء مسترجلات خلقت للحرب ، بل هن نساء ذوات جمال شهوانى ، ما أخلقهن بأن يثرن في اليونان عواطف أرق من عاطفة الحرب . وقد أضحي هذا الضريح هو وهيكلا لإفسوس الثالث من عجائب العالم السبع .

وبلغ فن النحت وقتئذ ذروة مجده من نواح كثيرة . نعم إنه كان ينقصه الحافظ الدينى ، ولم يبلغ ما بلغته قواصر البرثنون من جلال وقوة ، ولكنه استمد إلهاما جديدا من الرشاقة النسوية ، وبلغ من الجمال ما لم يبلغه ذلك الفن قبل هذا الوقت أو بعده . لقد صور القرن الخامس رجالا عراة ، ونساء مكشيات ، أما القرن الرابع فقد آثر أن ينحت نساء عاريات ورجالا مكشيين ؛ وجعل القرن الخامس نماذجه مثالا عليا يمتدحى الفنانون حذوها ولا يحيدون عنها ، وصبوا أو نحتوا حياة الإنسان الشقية في صورة خلّات مجردين من العواطف يستريحون من عناء تلك الحياة وشئونها ؛ أما القرن الرابع فقد حاول فنانونه أن يمثلوا في الحجر شيئا من الفردية والإحساسات البشرية . وأضحت للرأس والوجه في صور الرجال أهمية أكثر مما كان لها من قبل ، وقلت أهمية الجسم نفسه ، وحلت دراسة الأخلاق محل عبادة القوة العضلية ، وتسابق كل من كان ذا مال على أن تكون له صورة من حجر ؛ وتحرر الجسم من وضعه الجامد المعتدل ، وصارت كفى مستريحا على عصا أو شجرة ؛ ومثل فيه التفاعل الحى للضوء والظل . وقد بلغ من حرص ليستراتس السكيونى على أن يكون واقعا إلى أقصى حد ، أن كان يعمل غلافا من الجص فوق وجه الشخص المراد تصويره ، ويصب فيه القالب المبدئى ، ولعمري كان أول من فعل هذا من اليونان (٣٣) .

وبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقتها حد الكمال على يدى بركستليز . والعالم كله يعرف أنه أحب فيرينى Phryne ، وأنه صور جمالها تصويراً مخلصاً ، لكن أحداً من الناس لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفى . وكان

ابنا وأبا لمثالين يعرفان باسم سفسدوتس Cephissdoutis ، ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجددين الصابرين . وكان يعمل في البرنز والرخام على حد سواء ، وبلغ من شهرته أن كانت اثنتا عشرة مدينة تتنافس للحصول على خدماته ؛ منها كوس التي عهدت إليه في عام ٣٦٠ أن ينحت لها تمثالا لأفرديتي ، فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فيريني ، ولكن الكوسيين ساءهم أن وجدوا الإلهة مجردة من الثياب ، فما كان من بركستليز إلا أن هدا ثورة غضبهم بأن صنع لها تمثالا آخر مكنتها ، وابتاعت نيدس التمثال الأول . وعرض نكومديز ملك بيثيا على نيدس أن يتناع هذا التمثال بكل ما على المدينة من ديون ، ولكن نيدس آثرت المجد الخالد على العرض الزائل . وأقبل السياح من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ليشاهدوا التمثال ، وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صنع حتى ذلك الوقت في بلاد اليونان كلها ، وقال الثرثارون إن الرجال كانت تستثار عواطفهم إلى حد الجنون حين يشاهدون هذا التمثال (٣٤) (*) .

وكما أذاع تمثال أفرديقى شهرة نيدس في الخافقين ، وكذلك اجتذبت بلدة
ثسبيا الصغيرة إحدى بلاد بوثوية مسقط رأس فريفي الساميين ، لأن
فريفي وقد وضعت فيها تمثالا لإيروس (الحب) من تحت پر كستليز . ذلك أنها
سألته يوما ما أن يقدم لها بهانا على حبه أجهل تمثال في منحته ، وأراد أن يترك
لها الخيار ، ولكن فريفي أرادت أن تكشف بنفسها عن تقديره لأعماله ،
فهرولت إليه في يوم من الأيام وأخبرته أن منحته يحترق ، فلما سمع هذا النبأ صاح
قائلا : إن كان تمثال جنى الغاب وتمثال إيروس قد احترقا فيا لهول النكبة (٣٥) ،

(٥) وإن منصف التمييزان صورة أطلاق صورة هذا التمييز المتفرقة على التفرقة التامة التي من غير علم أي أوضاع الميزة .

واختارت فيريني من فورها تمثال إيروس وأهدته إلى مسقط رأسها(*) .
وكن إيروس في أول أمره إله هزبود Hesiod وخالقه ، ثم استحال
تفكر پرکستلیر شابا حالما رقيقاً ، يرمز إلى سلطان الحب على النفوس ؛
ولم يكن قد أصبح بعد كيوبد Cupid اللعوب الخبيث الذي نعرفه في الفنين :
الميلنستی والرومانی .

ولعل تمثال جینی الغاب المحفوظ في متحف الكبتولين برومة والمعروف
باسم إله الحقول والرعاة الرخامی صورة من التمثال الذي فضله پرکستلیر عن
تمثال إيروس . ويظن بعضهم أن جذع التمثال المحفوظ في متحف اللوفر
جزء من التمثال الأصلي نفسه^(٣٦) . وتمثال الجنى يصوره في صورة غلام
متين البنية مبهجاً سعيداً ، ليس فيه من جسم الحيوان إلا أذناه الطويلتان
القائمتان ؛ وهو يتكئ متراخياً على جذع شجرة وقد لف إحدى قدميه
بالأخرى . وقل أن نجد في الرخام تمثيلاً أصدق من هذا للراحة الكاملة .
فأنت ترى تراخي الحدوثة الساحر بادياً في الأطراف المرتخية والوجه المطمئن
الواثق . وربما كانت الأطراف مستديرة ناعمة فوق ما يجب أن تكون ؛ وذلك
لأن پرکستلیر لم يستطع لطول نظره إلى قريبى أن يمثل الرجال تمثيلاً صادقاً .
ويؤيد ذلك أن تمثال أبولو قاتل العظايا Apollis Sauroctomus نسأى إلى حد
يكاد يحملنا على أن نضمه إلى تماثيل الخبثين الكثيرة بين التماثيل الميلنستية .

ويقول بوسنياس في عبارة موجزة إيجازاً يؤسف له إن من بين تماثيل
هيرايوم Heraeum في أولمبيا تماثلاً « من الحجر لهرمس يحمل ديونيشس
من عمل پرکستلیر^(٣٧) » . وبيننا كان علماء الآثار الألمان ينقبون في هذا

(*) وأمر نيرون فجئ به إلى رومة ، حيث أحرق في النار التي شبت في عام ٦٨ م
وقد يكون تمثال كيوبد المتوسل Cupid of Centocelle المحفوظ في الفاتيكان صورة
منقولة عنه

المكان عام ١٨٧٧ إذ توجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً في طبقات من الأقدار والطين ظلت تراكم عليه عدة قرون . وليس في وسع القارئ أن يتخيل صورة حقيقية له من وصفه ، وصورة الشمسية ، والتماذج التي تعمل له ، بل على الإنسان أن يقف خاشعاً أمامه في متحف أولمبيا الصغير ، ويمر بإصبعه خلسة على سطحه لكي يدرك ما في نسيج هذا اللحم الرخام من نعومة وحياة ، أما موضوعه فهو أن الإله الرسول قد عهد إليه إنقاذ الطفل ديونيشس من غيرة هيرا وحمله إلى بحور الغابات والبحيرات ليربته في السر . ويقف هرمس في الطريق ، ويضطجع على جذع شجرة ويمسك بعنقود من العنب أمام الطفل . وليس تمثال الطفل نفسه جيد الصقل ، كان تمثال الإله الأكبر قد استنفد جميع وحي الفنان . وقد ضاعت ذراع هرمس اليمنى وأعيدت إليه بعض أجزاء من السابقين ، أما بقية الجسم فيبدو أنها هي كما صاغتها يد المثال . وتكشف الأطراف المتينة ويكشف الصدر العريض عن قوة الجسم وصحته ، والرأس في حد ذاته آية فنية رائعة يجالها الأرستقراطي ، ومعارفه الرقيقة وشعره المثنى ، والقدم اليمنى قد بلغت درجة الكمال حيث ينذر الكمال في التماثيل . وكان الأقدمون يعدون هذا التمثال من أعمال الفنان الصغير ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على مقدار ما كان يمتاز به هذا العصر من ثروة فنية عظيمة .

ويصف هوسنياس^(٢٨) في فقرة أخرى مجموعة رخامية أقامها پرکستلز في مثنيا . ولم يعثر المتقبن إلا على قاعدة هذه المجموعة ، تحمل تماثيل لثلاث من ربوات الفن لعل الذين نحوها هم التلاميذ لا الأستاذ نفسه . وإذا جمعنا ما في هوسنياس من إشارات إلى تماثيل پرکستلز في الكتابات اليونانية التي كانت موجودة في أيامه ، خرجنا منها بنحو أربعين من الأعمال الكبرى^(٢٩) ، وما من شك في أن هذه الأربعين لم تكن إلا جزءاً من إنتاجه العظيم . ونحن إذا درسنا القطع الباقية من هذه الأعمال نجد فيها ما نجد في تماثيل فدياس

من سمو وقوة وهية وإجلال ، ونرى الآلهة قد أدخلت مكانها لفيرينى ، وترى مشاكل الحياة القومية الكبرى قد أغفلت ليحل محلها الحب الفردى . ولكن ما من مثال قد فاق بركستليز في دقه الصياغة ، وفي قدرته التي تكاد تبلغ حد الإعجاز على أن يمثل في الحجر الصلب الراحة والرشاقة ، وأرق العواطف وبهجة الحواس ، والاستمتاع بالغابات . لقد كان فدياس فناً دورياً وأما بركستليز فكان أبونياً ، وإنا لنجد فيه مرة أخرى ما ينذر بغزو أوروبا الثقافى الذى أعقب انتصارات الإسكندر .

الفصل السادس

اسكوباس وليسبوس

لقد كان اسكوباس ليرن Byron كما كان فدياس للمتن وپركستلين لكيثس Keats . ولسنا نعرف شيئاً عن حياة المثال القديم إلا من أعماله ، وهى الترجمة الحقة لأى إنسان ، ولكننا لا نعرف أعماله نفسها معرفة أكيدة موثوقاً بصحتها . وإن الرؤوس القصيرة الممتلئة المنفرة للتماثيل المعزوة له ، أو النسخ التى يقال إنها منقولة عن التماثيل الأصلية ، لتظهره فى صورة الرجل المسرف فى قوته وفى نزعته الفردية . ولقد سبق القول إنه كان يعمل فى تيجيا مهتلساً معمارياً ومثالا معاً ، وإنه لا يفوقه فى قوته وتعدد كفاياته أحد فى جميع القرون التى بين فدياس وميكل أنجلو . وكل ما عثر عليه المنقبون من أعماله قطع قليلة من قوصرة ، أهمها رأسان أصيبا بكثير من التلف يمتازان بقصرهما وعرضهما واستدارتهما وبالنظرة العابسة الجافة ، وهى الصفات الغالبة على جميع أعمال اسكوباس ، ومنها تمثال مهشم لأطلنطا . ويشبه هذه البقايا شهاً عجيباً رأس ملياجر Meleager المحفوظ فى بيت مديشى برومة . وفى هذا الرأس أيضاً نرى الخدين الممتلئين ، والشفيتين الشوانيتين ، والعينين المكتئبتين ، والجبهة ذات الحافة البارزة بروزاً قليلاً فوق الأنف ، والشعر الملوى الأشعث بعض الشيء ، ولعل هذا التمثال نسخة رومانية من تمثال ملياجر الذى نحتت اسكوباس ليكون جزءاً من مجموعة تمثل منظر صيد كلدونى . وفى متحف نيويورك الفنى رأس آخر لا نكاد نشك فى أنه من صنع اسكوباس ، أو منقول عن رأس من صنعه ، وهو قوى بليد ولكته وسيم ذكى ، وهو أصدق الرؤوس تمثيلاً لما بقى من آثار النحت فى العصور القديمة ٥

ويقول پوسنياس^(٤٠) إن اسكوباس قد « صَبَّ » في « إليس » تمثالاً من الشبه لأفرديتى الهندية جالسة فوق جَدْنَى من الشبه . ونحت في سيكون تمثالاً رخامياً لهرقلز لعل النسخة الرومانية المحفوظة في بيت لاندسلون بلندن منقولة عنه مباشرة . وجسم التمثال يدل على النكسة الفنية والعودة بالفن إلى الطراز العضلي البولكىتى ، والرأس صغير مستدير كالعادة ، والوجه يكاد يبلغ من الرقة وجوه تماثيل پرکستلز . وقد أقام في ميغارا ، وأرجوس ، وطية ، وأثينة ما يكفى من الوقت لنحت تماثيل شاهدها پوسنياس بعد خمسة قرون من ذلك الوقت ، ولعله قد اشترك في تجديد بناء معبد أبيلورس . وعبر بعدئذ بجر لمجة ونحت لنيدس تماثيلن لأثينا وديونيشس ، وكان له شأن كبير في أعمال النحت التى احتاجها بعض الأعمدة في هيكل إفسوس . وفي برجوم Bergamium نحت تمثالاً ضحفاً لآريس Ares يمثله جالساً ، وفي كريسا في أرض إطرودة أقام تمثالاً لأپلوسمىثيوس Apollo Smintheus ليخيف الجرزان ويطردها من الحقول . وأقام في سمثريس Samothrace تمثالاً لأفرديتى كان من أسباب شهرتها العظيمة ، ونحت في بيزنطية البعيدة تمثالاً لكاهنة باكس Bacchante ربما كان التمثال المحفوظ في متحف البرنتوم . بدرسدن والمعروف باسم ميناد الغامضة نسخة رومانية منه . وإن هذا التمثال الرخامى الصغير وحده خلّيق بأن يرفع صانعه إلى مرتبة الفنانين العظام^(٤١) — فهو تمثال قوى النحت ، فخم الثياب ، فذ في وقفته ، حى في غضبه ، وجميل من كافة نواحيه . ويشير پلنى إلى تماثيل أخرى كثيرة من صنع اسكوباس كانت في أيامه قائمة في قصور رومة . منها تمثال لأبلو يرجح أنه هو الذى نقل عنه تمثال أبلو ئيسارودس Apollo Citharoedus المحفوظ في الفاتيكان ، ومجموعة تماثيل لپسیدن ، وثيتيس ، وأخيل ، ونه پدينز ، وهى كما يقول پلنى آية في دقة الصنع حتى لو أن صاحبها قد قضى حياته كلها في إتمامها ، ومنها تمثال لأفرديتى عارية يكفى . لده لأن يذبح شهرة آية مدينة^(٤٢) .

وملاك القول أن هذه الأعمال ، إذا جاز لنا أن نصدر حكماً على صاحبها يستند إلى بقايا قليلة ظنية ، توحى بأن لاسكوباس منزلة تقرب جداً من منزلة پرکستلیز . فهو يمتاز بالابتكار في غير إصراف ، والقوة في غير غلظة ، وبالتمثيل المسرحي للنوازح والعواطف والمزاج ، دون أن تشوه هذه كلها شدة متكلفة . لقد كان پرکستلیز يعشق الجمال ، أما اسكوباس فكان ينجذب نحو الخلق ، وكان پرکستلیز يرغب في الكشف عن الرشاقة والحنان في النساء ، وعن الصحة المبهجة والمرح في الشباب ، أما اسكوباس فقد اختار أن يمثل آلام الحياة ومآسها ، ورفع من شأنها بهذا التمثيل الغني البديع . ولو أننا كان لدينا من أعماله أكثر مما عثرنا عليه منها لما فضلنا عليه أحداً غير فدياس .

حسبنا هذا عن اسكوباس ، أما ليسپوس السيكوني فقد بدأ حياته صانعاً وضيعاً في النحاس ، وكان يتوق إلى أن يكون فناناً ، ولكنه لم يكن لديه من المال ما يمكنه من أن يتعلم على معلم . غير أنه تشجع حين سمع يويومس المصور يعلن أنه يفضل محاكاة الطبيعة نفسها عن محاكاة أى فنان مهما يكن قدره^(٢٢) . فلما سمع ليسپوس هذا القول اتجه من فوره إلى دراسة الكائنات الحية ، ووضع قانوناً جديداً للنسب في فن النحت ليستعير به عن قاعدة بلكليتس الصارمة ، فأطال الساقين وقصر الرأس ، وزاد من ثخانة الأطراف ، وخلع على الصورة كلها كثيراً من الحيوية والراحة . ومن أعماله تمثال آپكسيومونوس Apxyomenos وهو صورة لتمثال ديامنوس ، تختلف عنها من بعض الوجوه . فرجل بلكليتس الرياضي يربط عصابة فوق جبينه ، أما ليسپوس فيزيل الزيت والغبار عن خراجه بمكشط ، ويبدو فيها أكثر نحافة ورشاقة . وأكثر من هذا التمثال جاذبية وحيوية ، إذا جاز لنا أن نستند في حكمنا إلى الصورة الرخامية المحفوظة في متحف دلي ، تمثال أجيانس Agias الشاب التسالي النحيل . ذلك أن ليسپوس لم يكذب يتحرر من القيود حتى أخذ يشق طريقه في ميادين فنية جديدة ، فاستبدل تصوير الفرد بتصوير

(٢١- ج ٢ - مجلد ٢)

الطراز ، والنزعة الانطباعية بالعرف والتقاليد(*) .

وكاد هو أن يتدع النحت المصور عند اليونان . وقد قطع فليب حروبه وعشقه ليجلس أمام ليسبوس لينحت له تمثالا ؛ وسر الإسكندر من التماثيل النصفية التي نحتها له الفنان سروراً جعله يختاره دون غيره مثاله الملكي الرسمي ، كما منح من قبل أبلز وحده حق تصويره وإلى برجتلز حق نقش هذه الصور على الجواهر .

وثمة طائفة من أجمل التماثيل التي خلفها القرن الرابع في فن النحت لا يعرف من صنعها : منها تمثال من الشبه لشاب عثر عليه في البحر قرب مرثون ، ومنها نسخة قديمة لتمثال هرمس الأندرشى الذي صنع في القرن الرابع ، وتمثال رقيق لهيجيا المفكرة عثر عليه في تيجيا(**) — وكل هذه التماثيل في متحف أثينة ، وفي متحف بسطن رأس فتاة من طشيوز غاية في الجمال . ومن آثار هذا العصر ، بقدر ما وصل إليه علمنا ، معظم تماثيل نيوبى التي نقلت إلى رومة من آسية الصغرى في أيام أغسطس ، والتي نراها الآن موزعة في متاحف أوروبا . وربما كان من آثار هذا العهد أيضاً التماثيل الأصلية الثلاثة من تماثيل أفرديتي التي تعزى إلى پرستلير : وهي تمثال فينوس المفكرة الذي جيء به من كهوا Capua والمحفوظ في متحف نابلي ، وتمثال فينوس المضطجعة المحفوظ في متحف الفاتيكان

(*) يقول ليسبوس ، في عبارة لو ضمها مائت Mianet لرمها أيما سرور ، إن غيره من النالين يصورون الرجال كما هم أما هو فإنه يصوم « كما يبلون للناس (٤٣) » .

(**) وقد سرق هذا الرأس الجميل الذي يرى للقارى صورته في الصفحة الأولى من الجزء الأول من هذا المجلد ، من متحف تيجيا الصغير ، ثم عليه بعد بحث دام تسع سنين اسكندر فيلادلفيوس Alexander Philadelphus أمين المتحف القومى بأثينة في هرى قمع بقرية من قرى أركاديا . وموضوع التمثال والمصر الذي صُنع فيه غير معروفان على وجه التحقيق . ولكن طرازه البركستيل يرجعه في ظننا إلى القرن الرابع . ويرى السيد فيلادلفيوس الأخير الجواد أنه « درة تلج المتحف القومى » .

. وتمثال فينوس أرلوس المتواضع المحفوظ في متحف اللوفر . وأعظم من هذه كلها من ناحية الجمال الناضج ، وعمق الشعور الهادئ ، تمثال دمتري الجالس الذي عثر عليه في نيدس عام ١٨٥٨ ، والذي يعد الآن من أروع التحف المحفوظة في المتحف البريطاني . ولسنا نعرف موضوع التمثال على وجه التحقيق ، ولعله لا يعلم أن يكون أجمل صورة جنازية وصلت إلينا من العهود القديمة ، أو لعله يمثل إلهة التلال في صورة الأم الحزينة Mater dolorose ؛ تتحسر وهي صامتة على اغتصاب پرستوني . وقد مثلت العاطفة هنا في غير إسراف كما كان المثالون يفعلون في العصر الذهبي ؛ ويبدو في الوجه والعينين حنو الأمومة كله واستسلامها الصامت . وهذا التمثال مضافاً إلى تمثال هرمس ، لا تمثال أفرديتي المتحبة المستعطفة ، هي روائع النحت الحية وآياته الخالدة التي أنتجتها بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد .

ابواب المادى والعشرون

العصر الذهبى للفلسفة

الفضل الأول

العلماء

إذا وازنا بين حال العلم فى القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التى خطاها إلى الأمام فى القرن الخامس ، وبالاتقلاب الثورى الذى حدث فيه فى القرن الثالث ، نحكمنا من فورنا بأنه كان فى هذا القرن الأوسط فى حالة ركود ، وأنه قنع فى معظم الأحوال بتسجيل ما تجمع له فى القرن السابق .

بعد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudémus وتوارينغ الحساب ، والهندسة ، والفلك^(١) . وبدأ لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراسة موضوعية إلى البحث فى أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ، وكاد فى سراقوسة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان فى نظره نظريات فى الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هى قياس الأرض ، بل كانت تلربياً عقلياً ، خالصاً ، وطريقاً يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Archytas لأنهما قاما بتجارب في الميكانيكا ، فأفسدا الشيء الوحيد الطيب في الهندسة ، وقضيا عليه قضاءً مبرماً ، وأبعداه بطريقة مخجلة مجللها العار من المسائل العقلية الخالصة غير المحسنة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة . ويقول فلوطرخس . بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب ^(٢) . على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ، فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط ^(٣) ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التي هي مجموع مربعين ^(٤) ، واخترع التحليل الرياضي أو ارتقى به ^(٥) ، ونعنى بالتحليل الرياضي البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التي يؤدي إليها الأخذ بها ، وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات في منهاج الجمع العلمي عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أودكسوس النيدى ^(*) ، وهرقليدس الهتي ^(*) ، لكفاه فضلاً .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى ، وضاعف المكعب ، وكتب أول رسالة معروفة في الميكانيكا . هذا إلى أنه اخترع حاكماً للمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث في الفلسفة الفيثاغورية . ويعزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر — البكرة وطارة السير ، واللوب ، (والخشيشة) . وكان الاختراعات الأولان أساس الصناعة الآلية ، أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس في كثير من الجلد والوقار « إنه هياً للأطفال

عملا يشغلون به أنفسهم فبنعمهم بذلك أن يحطموا ما في البيت من أدوات^(٦) . وفي هذا العصر نفسه « ربيع » دينوستراتس Dmostratus « الدائرة » باستخدام القوس الذى يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لمخيطات الدوائر أو غيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية^(*) ، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة^(**) ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها في أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس^(٨) » .

وأعظم رجال العلم في القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان بركستيز على تخليد اسم نيدس في التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو في الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فليستيون Philistion في لكبرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس في تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون في أثينة . وكان لفقره يعيش بمعيشة ضنكاً في بيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى في كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

(*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال - القطع الناتص ، والقطع المكافئ ، والقطاع الزائد - التى تنتج من قطع مخروط ذي زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة المخطوط المتقاطعة .

(**) وهما الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب (ذو الستة الأوجه المنتظم) ، والمثلث المنتظم ، وذو الأثنى عشر وجهاً المنتظم ، وذو العشرين وجهاً المنتظم - وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أو ستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطوحاً أو عشرون .
(+) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت في الإمبراطورية الفارسية . وتميز هذه القصة أيضاً إلى إقليدس وبطليموس الأول^(٨) .

أقام زمنا ما في نيدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك في سيزقوس البربونثية Proportin Cyz'cus يحاضر في العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصداً ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين^(٩) .

وقد وضع في الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذي وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التي انتقلت إلينا في الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذي اخترع طريقة إفناء الفرق التي أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والمهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئ مستحيلاً . ولكن العلم الذي وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم في قوله إنه يسره أن يحترق كما احترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها^(١٠) . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل في ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر في مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة في أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع في كتابه الفينومينا Phainomena - الذي يعدّه الأقدمون أعظم ما كتبوه في علم الفلك - أساس التنبؤات الجوية .

(٩) وكان من المسائل المحيطة له مسألة إيجاد « القطع الذهبى » أ أن يقسم الخط في نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفافة لا تراها العين لشفيفها تدور في اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرقاً في الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة (إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة في مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء) أوقات اقتران الكواكب وحلولها في البروج المختلفة (*). وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى في الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمي .

وكتب إكفتوس السراقوصي حوالي عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها في اتجاه شرق (١٢) . وأخذ هرقليلس الپتي هذا الإيحاء ، أو لعله وصل إليه مستقلاً ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة في كل يوم حول محورها (١٣) . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

(*) إن فترة الاقتران بلحرم من الأجرام السماوية هي الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول في ج من البروج فهي الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوي مرتين متتاليتين في هذا البرج أي في ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيماً خيالياً إلى اثني عشر قسمًا يسمى كل منها برجاً . وقدّر أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٢٩٠ يوماً وتقديرها نحن الآن بـ ٣٨٧ ؛ والمشتري بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ وتقديرها نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ (وقد ورد في أحد المخطوطات ١١٦) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب في الأبراج مرتين متتاليتين كما قلدها أودكسوس فهي ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة ١٦٦ يوماً ، والمشتري ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوماً ، والمريخ سلتان ، وتقديرنا سنة ٣٢٢ يوماً ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالغريب مع تقديرنا (١١)

حول الشمس ، ولعل هرقليدس في لحظة من لحظات التجلي العلمي قد استبق أرسطرخوس وكوپرنيق ، لأننا نقرأ في الجزازات الباقية من كتابات مينوس Geminus (حوالى عام ٧٠ ق . م) أن هرقليدس الهنئى قال :
« حتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم^(١١) » . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية في هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففي الجغرافية قام ديقايرخوس المسانى Dicacarchus of Messana كاتب السير اليونانى بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس في المد والجزر . وفي عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بجزراً من مصب نهر السند محازيا ساحل آسية الجنوبى إلى مصب الفرات ، وكان بحل سفينته الذى احتفظ أريان Arrian ببعضه في كتابه Indica^(١٥) من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية - أى قياس السطوح ، والمرتفعات . والمنخفضات والمواقع ، والأحجام - قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا^(١٦) . وكان فلسطين Philistion أحد أبناء بلدة لكبرى Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات في بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسى للحياة ، ومركز النيوما أى النفس . وشبرج ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرستوس Carystus العويية حوالى ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بلىرى » الذكر والأنثى تشتركان في تكوين

الجنين^(١٧) . وكانت امرأة تدعى أسيلزيا (غير أسپازيا أم الإسكندر) من أشهر الطبيبات في أثينة في القرن الرابع ، وذاع صيتها بمؤلفاتها في أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب^(١٨) . وخشى إنياس تكتيكوس Aeneas Toticus الأركادى أن يودى. تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تختمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهير في فن الحرب ، وجاء نشره في الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا بما ورد فيه من المعلومات .

الفصل الثاني

المدارس السقراطية

١ - أرسطوبوس

إذا كان العلم في القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقي ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبي . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة ، في نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا في كل شيء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التي زرعت في مائتي عام وصارت نظاماً عظيمة في بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ لدولة بمصلحة طيبة ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، فأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذي لا معقب لحكمه في شئوننا العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أدخلوا يكافحون لكي يجدوا في الطبيعة وفي العقل بديلاً من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهادياً للناس في سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التي فتحتها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقترضوا في الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ، ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغاري Eucleides of Megara ، الذي سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » في مسقط رأسه كما يقول تيمن الأثيني^(١) ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فتاً من الجدل يرتاب في كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك في القرن التالى إلى نزعة بيرون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس اتجه تلميذه النابه استلپون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكايبية (Cynic) التى تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون فى بحوث ما وراء الطبيعة ، بل فى الحياة البسيطة التى تحرر الفرد من الاعتماد فى رفاهيته على العوامل الخارجية . ولما سأل دمتريوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلپون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يغتصبها منه (٢٠) . وكان من بين تلاميذه فى آخر سنى حياته واضح أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزىنون واختتمت بزىنون آخر .

وسافر أرسنبوس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت فى سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Laïs فى كورنثة (٢١) ، ثم ألقى عصا الترحال فى قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا فى هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرسنبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً فى الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له فى كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضى ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ، فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن (٢٢) .

وكانت فلسفته بسيطة وصرىحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً فى اللذة أو خوفاً من الألم — حتى إذا أفقرنا أنفسنا لخير أصدقاءنا ، أو ضحينا

يحياتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذى لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قلوبته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء غير مؤكدة ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون فى السعى وراء الحقيقة المجردة بل فى اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذى يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، والذى لا يضحى بخير عاجل فى سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذات وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه فى الساعة التى نحن فيها^(٢٣) . وليست فائدة الفلسفة فى أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها فى أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتعسف الممتنع عنها ، بل هو الذى يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذى يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذات التى تعرضه للخطر ، والله لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذى يظهر الاحترام المقرون بالفتنة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيذا لإنسان ما أو عبداً له^(٢٤) » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعوا الناس إلى عماله فقد كان أنتسپوس خليفاً ببعض هذا الشرف . فقد كان فى فقره وغناه على السواء ممحاً كريماً ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصر على أن يتقاضى أجراً على ما يعلمه ، ولا يتردد فى أن يتملق الطغاة إذا كان فى هذا الملق ما يوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول فى وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء ليمسك بسمكة

أصغر من التي أريدها (٢٥) ، ولما أن لأمه صديق له على ركوعه أمام دنيوسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنًا الملك في قدميه ، ولما سأله دنيوسوس لم يلزم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلزم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه (٢٦) » . ولكنه مع ذلك كان يحترق من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجي الثرى يتتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسيبوس في وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه (٢٧) . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهى ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسنان (على ما كان يبدو له) . ولما أن لأمه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض في أن يعيش في بيت سكة آخر قبله أو أن يسافر في سفينة سافر فيها غيره (٢٨) . ولما قالت له عشيقته : « إني أعاشرك معاشرة الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولي إنني أنا الذي أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولي بعد أن تخترقي أجرة أية شوكة فيها خلدشتك (٢٩) » .

وقتلته الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذباً ، مثقفاً ، طيب القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك في أن من أسباب دعوته السافرة للسعى وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سقراط ، وجهه الفلسفة (*) ، واعترافه بأن أجل منظر في الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذي يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأندال (٣١) .

وقال وهو على فراش الموت (٣٥٦) إن أعظم تراث يتركه لابنته

(*) يقول أرسطوبس إن مثل الذين يهملون الفلسفة في تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يخطبون يطلعي ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الحاديات أسهل لهم من زواج السيدة (٣٠) » .

أريتي Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشيء تستطيع أن تستغنى عنه ؟ (٣٢) وهو استسلام منه لديوجانس عجيب . وقد خلفته ابنته في رئاسة مدرسة قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحجتها مدينتها قبرية مشرفة هي : « ضياء هلاس » (٣٣) .

٢ - ديوجين (ديوجانس)

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشتها ، واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التشف . وكان مؤسس المدرسة الكلبيية ابن مواطن أثيني وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة في يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپروذكوس ، ثم أنشأ بعدئذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه ليتلقى فلسفة الذي يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش في پيرية ، ويسير إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريباً . ولعله كان حاضراً حين كان سقراط (أو أفلاطون) يناقش بخطيباً ظريفاً في مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . المأكول والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك في لذات الحب — هل يجب عليه أن يهتم بها ؟

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية —

كالحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة

الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يفتنى بهذه الأشياء ، أن

يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟

سمياس : من واجبي أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذي يحتقرها (٣٤)

هذا هو جوهر الفلسفة الكلية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضة حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسي يوناى بلا دين . وكان شعار أرسطوس هو : « إني أملك ولكن أحداً لا يملكنى » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إني لا أملك حتى لا يملكنى أحد » . ولم يكن عنده مال^(٣٥) ، وكان يرتدى ثوباً خلقا غيره به سقراط بقوله : « إني أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثوب ثوبك^(٣٥) » وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ؛ وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطلابها واختار موضعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلب على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التى تدرس فيها^(٣٧) ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى فى أول الأمر أن يقبل دييجين ضمن تلاميذه ، فلما أصر دييجين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه فى جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه فى معيشته لا يحيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس فى أصله نصف رقيق وكان دييجين رجلاً مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرت له شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من الفضيلة ، والحكمة ، فلبس أثواب المتسولين ، وحمل جرابهم ونوكاً على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصعة فى ساحة معبد سييل فى أثينة^(٣٨) . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم . مما يستطيع الحصول عليه أينما وجدته ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مرأى من جميع الناس^(٣٩) . ولما رأى طفلاً يشرب الماء بيديه ألقى هو الآخر كوب الماء^(٤٠) ، وكان في بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل^(٤١) . ولم يسنّ في حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقين بزم طويل أنه مواطن عالمي (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت في سراقوصة ، وقبض عليه القراصنة في بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذة أكسنياديس مريباً لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديجين القيام بكلا العملين إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقري الصالح » ، ويعمل بمشورته في كل شيء . وظل ديجين يحيا حياته البسيطة لا يحميد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل في بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشيء ، وما من شك في أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً في الجدل ، ويقول سميه إنه لم يغلب قط في مناقشة^(٤٢) . وكان يهدف بحرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هي والمزاج الخشن ، والفكاهة التي لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تركع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألها : « ألا تخافين أن تكوني في هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان^(٤٣) ؟ » ، ولما رأى ابن حفظة يرمي جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أباك^(٤٤) » . وكان يكره النساء ، ويحتقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورنثياً جاءه متعطراً متأثراً في ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابه بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرني : أولد أنت أم بنت^(٤٥) ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف في كورنثة (٣٢ - ج ٢ - مجلد ٢)

تأثماً في الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ، وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديجين الكلب » . وقال له الملك : « أسألك أي شيء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عني الشمس » . وقال الهندي الشاب : لو لم أكن أنا الإسكندر لتميت أن أكون ديجين^(٤٦) ، ولسنا نعرف أن ديجين قد رد على هذه التحية . ويراد بنا أن نعتقد أن الرجلين توفيا في يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر في بابل وهو في سن الثالثة والثلاثين ، وديجير في كورنثة بعد أن جاوز التسعين^(٤٧) . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ، وأقامت له سينوب التي نفته نصباً تذكارياً تخليداً لذكراه .

وليس ثمة شيء أوضح من الفلسفة الكلية : فهي لم تعتمد إلى المنطق إلا ريثما تلخص نظرية المعرفة التي كان أفلاطون يحير بها عقول العلماء في أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا في نظر الكليبين عبثاً عقيمًا ، وكانوا يقولون إن من واجبنا ألا ندرس الطبيعة لنفس العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل : بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها في الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هي فلسفة الأخلاق ، والغرض من الحياة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون في طلب اللذة ، بل في الحياة الفطرية البسيطة المستقلة قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ، ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملاً مشروعاً إذا أنت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شيء من الندم ووخز الضمير^(٤٨) ، كثيراً ما تغلبنا أثناء السعي إليها ، أو تنهيب رجاعتنا فيها بعد أن تناولها ، ومن أجل هذا فإن الأخلق بنا أن نعدّها شراً لا خيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هي أن يحيا الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدا الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملاً خطيراً ، والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة في الرق كما يجدها في الحرية ، لأن حرية النفس هي الحرية الحقة . ويقول ديجين إن الآلة

: قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلف على الترف . وليس معنى هذا أن الكلبيين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيماً أخذ يعدد لأنتستانس ما يتمتع به المستمسكون بأسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ » (٤٩) ، وكان ديمجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرايين التى قربها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرايين قد هلكوا لا الذين نجوا لكنت أكثر من هذه عدداً » (٥٠) ، وكان كل شيء فى الدين عدا الاستمسك بالفضيلة يبدو للكلبيين أوهاما وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : وسئل ديمجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم » (٥١) . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكلبيين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البغايا . وكان ديمجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات (٥٢) ، وكان أنتستانس يطلب الاستقلال فى كل شيء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو (٥٣) . وإذا كان الكلبيون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم ينجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى (٥٤) . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلاً فى كل شيء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ، وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس (٥٥) .

وكانت الفلسفة الكلية جزءاً من الحركة التي تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهي الحركة التي قامت في أثينة في القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقدة من ملل في النفوس وعدم توازن في شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التي بين روسو وفلنير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء به إلى بنى الإنسان (٥٦) . وكان الكلييون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو في العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية » (٥٧) ، وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيئ لأن طهو الطعام عمل غير طبيعي (٥٨) ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالي من أسباب الخداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكليين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع في العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، اتحلوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشيوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون في الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكلية على أيدي استلبو Stillpo وأقراطيس Crates تلميذى ديجين إلى العصر الهلنستي ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختفت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالى القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوى في التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود في شخص الأسينين(*) في بلاد اليهود ، والرهبان في مصر ،
في أوائل عهد المسيحية . وليس في مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن
مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة
في الهند أو ما كان للثانية من أثر في الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى
الطبيعة في أيامنا هذه ، لهم الأبناء الدهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين
عاشوا في بلاد الشرق أو اليونان في الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود
الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن في وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات
ويعيشوا بينها ؛ واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة
الحضرية ؛

(*) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة العزلة والتشف
وكالت الملكية عندهم مشاعة . (المترجم)

الفصل الثالث

أفلاطون

١ - المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلية . وشاهد ذلك أنه يصف في المقالة الثانية من الجمهورية^(٥٩) مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ؛ ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه لإياها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « في الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه — الفلاسفة نستشف في هذه الصورة الحلم الكلي ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجل خيال في تاريخ اليونان . وكانت الخطوة التي رسمها أفلاطون لإيجاد أرسطراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للديمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيلن إله البحر^(٦٠) . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أفريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الديمقراطية أن يكون متأصلا في دمه . وقد سمي أرسطقليس Aristocles — أى الأحسن الشهير — ، وبرع الشاب في جميع نواحي الحياة تقريبا ، فنبغ في الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتنت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعته ؛ وصارع في الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاتون Platon أى العريض لامتلأ جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

في ثلاث معارك ، ونال جائزة في الشجاعة^(١١) . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية^(١٢) ، وبينما كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له في الحياة ، إذ افتتن وهو في سن العشرين بسقراط ، وما من شك في أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لحاله خرميدس ، ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره في الهواء كالبهلوان ، مرتكباً على أسنة أسئلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى پوريديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويعاً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات في كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان المرهف الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم في مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره ثبت ثورة المحافظين في عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الأبحركي العصبية ، وشجاعة سقراط في تحدى الثلاثين ، وموت أقرينياس وخرميدس ، وعودة الديمقراطية ، ومحكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذي كان من قبل لا يتطرق اليه إلى قلبه ، ففر من أثينة التي بدت في نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة في ميغارا في بيت إقليدس ، ثم في قورينا ولعله كان فيها مع أرستيبوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية^(١٣) . ونراه مرة أخرى في أثينة حوالي عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالي عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(١) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مأسى وراية هجائية ، كانت تمثل مجتمعة في ميد ديوليس في أثينة . (المترجم) .

في تاراس ومع تياوش في لكرى ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ،
وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقُدِّمَ لديسوس
الأول ، ويبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة في عام ٣٨٦ . ولما رفض
أنسريس Annicertis الثلاثة الآلاف درخمة التي جمعها أصدقاؤه ليقتلوه بها ،
ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكمة للتنزه في ضواحي المدينة وأطلقوا
عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلى أكديموس ^(٦٢)Academus ، وفيها أنشأ
أفلاطون الجامعة التي قلدها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلي
تسميته عام كاملة(*)

وكان المجمع العلمي (الأكاديمية) من الناحية الفنية إخوة دينية
(ثاسيوس Thasios) مخصصاً لعبادة ربّات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب
يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا في الغالب من أبناء الأشر
الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آبائهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة .
وفي ذلك يقول سويداس إن الأغنياء كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء
المدرسة بما يكفل لهم أن يحيا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل
لكسب أقواتهم ^(٦٣) . ويقال إن ديسوس الثاني وهب المعهد ثمانين
وزنة (٤٨٠٠٠ ريال أمريكي) ^(٦٤) — وفي هذا ما قد يفسر صبر
الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون في ذلك الوقت
يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون في أخلاقهم متطرفون في
ملابسهم — ذرو فلانس رشيقه وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية ^(٦٥) .
ألا ما أقدم تقاليد إثنين والأثواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن
في المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقي من هذه الناحية متطرفاً في

(*) ولم تكن هي أولى جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أقروطونا الفيثاغورية
كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة للمجتمع على متحد النزمة ، كما كانت مدرسة
إسقاط قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمي بثمان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات
الدرس هي العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير :
« لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ، ولعل قلداً كبيراً من
الحساب كان شروط القبول في المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم
في العلوم الرياضية في القرن الرابع على أيدي رجال ممن درسوا فيه . وكان
منهاج الرياضة يشمل الحساب (بنظرية العدد) والهندسة الراقية ، والفلك ،
« الموسيقى » (ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ) ، والقانون ،
والفلسفة^(٣٦) ، وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات في هذا
المناهج ، هذا إذا كان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التي ينطق بها سقراط
في معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاطوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة في العدالة والخير تعلمناها
في طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :
أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور
إسحاق.أرواخنا ونجلبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أي إحساس
بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آبائهم وطاعتها .
أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان في هذه الحال وسأله روجه السائلة . ما هو
الشيء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذي يأمر به القانون ،
نقضت الحجج أقوال المشتري ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شيء فيه
من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما
فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه
التي نخلع عليها الزمن جلالات وتعظيماً ، إذا حدث هذا فهل تظن أنه سيظل
يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟ .

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنها كما كان يظنها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التي تتملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل يتقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بل لرب

سقراط : وإذا فلأبد من الحذر الشديد في إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين في الجدل . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العزيزة قبل الأوان ؛ هذا شيء ينبغي تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجدل بدعوا من فورهم يجادلون حبا في الجدل ، ولا ينفكون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم في هذا أشبه بصغار الكلاب التي تسرها أن تشد أثواب كل من يقترب منها وتمزقها .

أجلوكون : نعم إن هذا هو الذي يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنف إلى حال لا يؤمنون معها بأى شيء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس

أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقي الذي يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الخصيم الذي يعارض لما يجده في المعارضة من لذة ؛ وإن لإجلال الناس تلخفه سيزيد من شرف هذا السعي بدل أنه ينقص منه (٧٦) .

وكان أفلاطون وأعدائه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، ويعرض

المسائل على الطلاب لحلها ، وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التي يمكن بالاستناد إليها تحليل حركة الكواكب »^(٧٨) ، ولعل أود كسوس وهرقليدس قد وجدا في هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ، وكانت في بعض الأحيان غنية لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادى ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ، وهيزيليس ، وأكسانوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثير ونشروا في كثير من الأحيان ما كتبه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التي كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه في شبابه لم يفهموها إلا في شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ في إحدى المدن القائمة في أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع في الصيف حينما تسبح^(٧٩) .

٢ - الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب في حياته رسالة علمية^(٨٠) ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلقي من العلوم في الجمع العلمى بقوله « تعاليم أفلاطون » غير المكتوبة^(٨١) . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد في المحاورات^(٨٢) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت في بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكها إلى حد ما^(٨٣) . ومن مغريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التي تدرس في الجامعات الأوربية والأمريكية والتي تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال في هذه الأيام قد ألقت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء بربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوار الفلسفى ، فقد اتبع زينون الإلبائى وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها^(٨٤) ، ونشر تيمن الأثينى قاطع الجلود بطريقة

(٥) إن من فقرات في كتب أرسطو ما يوحي بأنه كان يدهم أفلاطون وخاصة نظريته في الأفكار بل غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التي كانت تلور في حانوته^(٧٤) . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعى أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التي كانت تجري قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أو خمسين ، بل ولا يدعى أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمعا الألفاظ التي أنطقهما بها الفيلسوف المسرحي^(٧٥) . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت في فترات متباعدة نباعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذي يقوم به عقل ينمو ويتطور تطوراً واضحاً ملموساً عن الحقيقة التي لا يستطيع الحصول عليها أبداً^(*) .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهي تصور الأفكار تصويراً مسرحياً ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ، وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسم القارئ في كثير

(*) ليس في وسعنا أن نحدد تواريخ المحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا مطن فيه . غير أن في وسعنا أن نقسمها تقسيماً منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أول وأهمها الأولوجيا ، وأقريطون ، وليسيز ، وأيون ، وخرميدس ، وأقراطيلوس ، وأوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، وممرض الآراء (سمپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهورية (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرميدس ، وتيتياتوس ، والسوفسطائي ، والسپاسي ، وفيلابوس ، وتيماسوس ، واقراتين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثالثة قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يختص الستين التي بين كل مجموعة والتي تليها للجمع العلمي .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه - فيجعل رجلا واحداً ينقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته غاية في الضعف » (٧٧) ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعاً وأربعين صفحة من نقاش جرى في أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . ومما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أو ما في معناها . ولكن هذه العيوب تختفي في تألق اللغة ووضوحها ، وما في الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاهة ، والعالم الحي وما فيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتح هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكل نتاج عقل وصل إلينا من أى مؤلف يوناني ، وإن شكلها ليضعها في تاريخ الأدب في منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التي يضعها فيها موضوعها في تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة في جدل الشباب الخصيم الذي يندد به في الفقرة التي أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التي تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثيني تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه في أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحي للمناظر (ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأنتى أنا وأصحابى ضيوفكم » (٧٨)) ، والصورة الحية التي رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرحية عن ألقبيادس التل الذي افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته في التأليف بين الواقعية القاسية في صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة في فن النثر . أما الفيديون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالتقاش الرئيسي فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا التواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأي

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هلوؤها على ما فيها من مأس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليسبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليسوس Ialissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما في ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هي الجمهورية لأنها أكل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهي في أول أجزائها صراع مسرحي بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقي في الأدب كله ، كما أنه أجراً مثل في تاريخ الفلسفة للمفكر الذي يفند أحب العقائد إلى نفسه - نغني نظرية الأفكار - تفنيدياً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفي المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ؛ وتفقد الميثافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوى الذي ورث جميع ثقافة أثينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسهارطة ، وطلق الحدة ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

٣ - الميثافيزيقي

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعنا الهارثوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً في شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويحددها بحدود . وإذا كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يحول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل في التشبيهات التي تعرضه لأشد الأخطار ؛ ثم دخلنا في تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى في بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج (٧٩) ، ويختم حديثه بهذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق (٨٠) » . ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات (٨١) ، ويبحث في التحليل والتركيب ، والتشبيهات والمغالطات ، وقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال (٨٢) ؛ ويضع في هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهي المصطلحات التي استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء الخمس من المقولات العشر التي أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس الأشياء جميعها ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا في قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى غبول ، أو أى قرد (٨٣) .

واسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضيا من التغيرات المرقليطية ؛ ولولم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معاومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتي إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعقدة ، والأشكال التي تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم (٨٤) . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نهرب عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، فلفظ رجل يمكننا من أن نفكر في جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير في جميع المناضد ، ولفظ ضوء في جميع الأنواء التي سطعت في البر أو البحر . وليست هذه الآراء (ideai و eida) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعدمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يبقى عاجلاً أو آجلاً ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقى نسبياً ، ولكن « مثلث » — أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات — كامل سرمدى^(٨٥) . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة^(*) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقى » ولولم توجد هذه الأشكال فى العالم المادى فى الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير ؛ وأداة للتفكير ؛ وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها^(٨٧) . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالضرورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار^{(**) (٨٨)} ؛

(*) ولقد حاول أفلاطون فى سنيه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية^(٨٦) .

(**) وازن بين هذا وبين قول كركل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق^(٨٩) . وانظر أيضاً قول اسبنوزا : « لست افهم من قولهم تتابع العلل والممولات الحق ، أن هناك سلسلة من الأشياء الفردية المتغيرة ؛ وليس ذلك فقط لأن عددها يخطئه الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المعينة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو حقيقة أزلية » (لكن تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضرورى أن يوجد أى مثلث خاص) . « على أنه ليس من الضرورى أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المتغيرة ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكوّنة لشرائعها الحق التى يقتضاها صنعت ورتبت^(٩٠) . » . ويلاحظ اقارئ أن هرقليطس وبارمنيدس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : فهرقليطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء حقيقى فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيدس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السَّيَر هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله . المحرك الأول الذى لا يتحرك ، أو روح العالم^(٩١) ، يحرك كل شيء وينظمه . حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهى الأفكار التى لا تتبدل والتى تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرقى الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون في بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه^(٩٢) ، ولكنه في أكثر الأحيان هو أداة الخلق الهادية المرشدة ، والشكل الأعلى . الذى تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذى يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبغها المعرفة^(٩٣) . وليست الحركة وعملية الخلق عملتين آليتين . بل هما محتاجان في العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوى يكون هو قوتها المنشئة المبدعة^(٩٤) .

وليس شيء حقيقياً إلا الذى فيه قوة^(٩٥) ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هى مجرد مبدأ من القصور الدائى ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلاً خاصاً وكياناً حسب فكرة من الأفكار . والروح هى القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الإنسان ، وهى جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها^(٩٦) . وهى قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، وخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلاً الحقائق (٢٣٠ ح ٢ - ٢٠٠)

الرياضية. فهي بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التي عرفتها الروح في حيواتها الكثيرة الماضية^(٩٧) . وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذي فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرق منه أو أحط حسب ما استحقته في تجسدها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين^(٩٨) . فإذا ما تطهرت الروح في خلال الحيات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية^{(*) (٩٩)} .

٤ - العالم الأخلاقي

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودليلنا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانوني أخلاقي طبيعي يبعث في نفوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم^(١٠١) ، وإن المحاورات التي كتبها في حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة ، إن أعظم أنواع الحكمة وأجلها هي الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر^(١٠٢) .

والمشكلة الرئيسية في علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعي . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Callias من الحجج التي تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التي أوردتها أى داعية لمخالفة القواعد الخلقية في عصر من العصور^(١٠٣) . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

(*) يصعب علينا أن نحكم من مقدرا ما في هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية - الفيشاغورية - الأورفية من تصوير متعمد يهدف إلى حماية الناس من الزلل . ويعرضها أفلاطون عرضاً فكرياً ، كأنها في نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، أو عوفاً شهياً على الخلق الطيب .

وأن الإنسان في حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ،
وأن من الواجب أن تربي في الطفل عادة الاعتدال وإدراك الأواسط
الذهبية للأمور ، خشية أن يأتي الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت (١٠٤) .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء - الشهوة ،
والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة -
الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ، ويجب أن تضيف إليها القوى والعدالة -
وأداء واجب الإنسان نحو والديه وأهله . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي
تعاون الأجزاء في الكل ، أو العناصر في الأخلاق ، أو الأهالي في الدولة ،
بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل (١٠٥) . وليس
الخير هو الفعل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقايير
نتج منها حياة الفعل (١٠٦) . والخير الأسمى كائن في العلم الخالص بالأشكال
والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما في
النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن
تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة (١٠٧) » ومن يجب
الحقيقة لا يهمه أن يجرى الإساءة بالإساءة (١٠٨) ، بل يفضل أن يتحمل على
أن يرثكب هو الظلم ، و « يضرب في الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين
لا يجد الفساد سبيلا إليهم ، والذين لا تُقَوِّمُ محبتهم بالمال أيا كان ...
والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحثاً يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا
ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، أحسوا بأن
من واجهم ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ، ومن أجل ذلك يميلون نحوها ،
ويسيرون خلفها للهدف الذي تقودهم إليه (١٠٩) » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك
شاهراً وعابداً ، يغير فكرته عن الخير إحساساً قوياً بالجمال وتقوى متمزجة

بالزهد والتقشف ؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان في دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزعة مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه — الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغفياً — يجب أن يضحى به . وكان يميز في هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدورية والفريجية ؛ ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يمدثون « أصواتا وحشية » في أثناء عرضهم الفنى^(١١٠) ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الاعتماد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ؛ وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتما في أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل في الدولة تدريجاً ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والسماتير ، ويظهر في هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقلب كل شيء في الدولة رأساً على عقب^(١١١) .

والجمال كالفضيلة إنما يكون في اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقاً حياً ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحيدها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة^(١١٢) . ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال الهندسية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق التجموع في جمالها^(١١٣) . والحب هو طالب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة للتناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود^(١١٤) ؛ ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمى بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل (١١٥) . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : ففي هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الباهر السرمدى ، والشاب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية (١١٦) . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة التى يتحدث عنها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر .

لأن آدمينتس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً بطل فيه على شئون الناس ، أو يمتلئ فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادئ الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يحلو يحلو هذه المبادئ ، وعلى مثالها يشكل حياته قدر المستطاع (١١٧) .

٥ - الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتمثل أمام ناظره رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويعلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روجه ما كان يسود أثينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تنخب نارها حتى تعود إلى الاشتعال » (١١٨) . وكان يحتقر البحرية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم بجشعهم ، ويدفعون سمومهم — أى ما لهم — في جسم كل من لا يحدّ رهم ، ثم يستردون ما أدخلوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعلمين » (١١٩) « ثم تنشأ الديمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أقساطاً متساوية من الحرية والسلطة » (١٢٠) . ويتضح آخر الأمر أن الديمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويداهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطغيان بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الأبجركى ، كذلك يقضى على الديمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : ففى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال علواها إلى الحيوانات . . . فيعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . . ويتعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل . ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبي ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما ببعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعلم وقتئذ سبيلاً للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أنحمت بالحرية . . .

أدمنتنس : ولكن ما هي الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أى شيء فوق حده كثيراً ما يؤدي إلى انقلاب في الاتجاه المضاد له . . . ولهذا يبدو أن الإفراط في الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدي إلا إلى الاستعباد . . . ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً . وإذا ما صارت الحرية تحللاً من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء ينجثون وقتل أن تجردهم الديمقراطية من مالم فيأتمرون بها ليقضوا عليها (١٣٢) « وقد يغتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولاً أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه « حتى يظهر الدولة « من هولاء وأولئك ، ويقم حكومة دكتاتورية (١٣٣) . وفي هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذي ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش » ، فإذا كان حكماً « احتسب بجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء » (١٣٤) .

ومن العلماء من يلجئون في هذه الأزمات إلى الماضي ، ويشغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ، ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجرى التجارب على شعبه ، وواجبنا الثاني هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضي . ثم نعد الشباب رجالاً كانوا أو نساءً منهمجا تعليمياً يمد إلى عشرين عاماً ، ويشمل تعليم الأساطير ، وهؤلاء يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفس طاعة الآباء والدولة (*) . فإذا قضوا في التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(*) أي أن أفلاطون يعم بأن القانون الأخلاق الطبيعي يمكن بمفرده .

في هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد في الدولة — رجال الأعمال ، والصناع ، والزراع ، ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة ، وأن يكونوا على درجات مختلفة في الثراء (داخل حدود معينة) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد . أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يجتازون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ، فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون في شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثاني فيبدأون في ذلك الوقت (لاقبله) دراسة « الفلسفة الإلهية »^(١٢٥) مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا في هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاماً ، ألقوا في الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاماً يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك — الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمهم التي لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك — الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهم على الدوام ، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف في أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعاً من الديمقراطية ، بل هي أرستقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيماً دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل ، « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهم ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربي أبناء الأولين ولا يربي أبناء الآخرين ، لأن هذه هي السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب في حالة صالحة ، (١٣٦) وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمتنع النساء من تولي مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ، وبالعامل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويختم بحثه بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكاً ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمرأؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر » (١٣٧) .

٦ - المشترع

وظن أنه وجد في دنيوسوس الثاني الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر فليبي أن الملكية المطلقة تمتاز من الديمقراطية بأن المصلح في الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد (١٣٨) . وفي ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صالحة فإ « عليك إلا أن تضع على رأسها حاكماً بأمره ، شاباً معتدلاً ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعاً ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حفظه في أنه معاصر لمشرع عظيم ، وأن الظروف الموفقة تجمع أحدهما إلى الآخر » (١٣٩) لكن اجتماعه بدنيوسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون في آخر سنى حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشرعاً ، ولذلك عرض على الناس دولة تلى الدولتين السابقتين في الحسن ، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة في كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوروبية المعروفة في التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة في عهد الشيخوخة

اليوناني الذي أعقب عهد الشباب الإبداعي . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغي أن تكون في داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية لإيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبي بساطتها وانطوائها على نفسها^(١٣٠) . ويجب أن يقتصر عدد مواطنيها الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلاثة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع في الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية^(١٣١) . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخلوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات » الري « توصل الكثير من الماء لجميع الأراضي حتى الأراضي الجافة »^(١٣٢) . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشيء من الذهب أو الفضة ، ولا يتعاملوا بالربا^(١٣٣) ، وألا يشجع أى إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاشتغال بزرع الأرض بمجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقي إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود^(١٣٤) وجعل للنساء فرصاً تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال^(١٣٥) ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة^(١٣٦) ، وعليهم ألا يلدوا أطفالاً إلا في خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب^(١٣٧) .

وللوصول إلى هذا كله في هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة لإشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام ، وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف في الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن نحل السلطة عمل الحرية في شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يجيز لنا أن نتركهم يختطون لنفسهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذا كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هي التي تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد . وكل من يتردد في الخضوع لهذا الدين الرسمي يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل (١٣٨) .

وليس الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلية . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يجب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوها إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يقن أن ما أصاب الأثينيين من انحلال أيوفى في الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسبارطية المشتقة من النظام الدورى . والزعة السارية في تفكير أفلاطون كله هي خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون في كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التي استوفت حياتها لاسبارطة التي قضت نجها من أيام ليقورغ ، وإذا لم يكن في وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية . فعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على أتم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا إلهشة. إذ نرى أن أفلاطون قد جاء في هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به في العصور الوسطى للفلسفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشئ الكثير مما جاءت به الفاشية في العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هي « واقعية » المدرسين — واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية — على حد قول نتشه — فحسب ، بل كان فوق ذلك متزمتاً مسيحياً قبل وجود عصر التزمت المسيحي . فهو يرتاب في الطبيعة البشرية ويرأها شراً ، ويعتقد أنها هي الخطيئة الأولى التي لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتي كانت هي الفكرة الرئيسية في القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قلسية^(١٢٩) . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق في تناسخ الأرواح ، والكرما^(*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب في كتبه الأخيرة على نغمة أخروية شبيهة بنغمة أوغسطين أي نغمة الرجل الذي تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذي بلغ غاية الكمال لشك الإنسان في أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقي أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعبوبهم الجذابة المحبوبة . وكان مثل دانتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدي وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً في كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوي العنيف^(١٣٠) . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهيجه التحمس الذهني

(*) عقيدة بوفية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع الملل والمطلوبات السابقة بنظام محتم لا يتبدل . (المترجم)

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التى كانت تستمتع بها أثينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل فى العصر القديم ، فقد كان أدق فى جدله من زينون الإلبائى ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى فى آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه البعاث الأكبر فى رواية دسئوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكي يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلاً لكان هو أول ضحاياها .

الفصل الرابع

أرسطوطاليس

١ - أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس ملجأ له وكرمه تكريماً يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يعيل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه في اسطاغيرا وهي مستعمرة يونانية صغيرة في تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثاني Amyntas II والد فليب ، وكان قد علم الشاب (إذا لم يكن جالينوس مخطئاً في قوله) شيئاً من التشريع قبل أن يبعث به إلى أفلاطون^(١) . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان في تاريخ الفكر - النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية - وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة (التي يقدرها بعضهم بعشرين عاماً) لجاز أن يكون له عقل علمي محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المزمّت ، ولم تغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أى النزعتين بطبع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفى لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها في القالب الأفلاطوني الذي صنع عقله المدرسي على غرارهِ . ولقد نقض حجج أفلاطون في كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه في كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجداً، وشرعاً ما لاحظ فيه معلمه هذا الحد . ولما قرأ أفلاطون رسائله عن الروح في المجتمع العلمي كان أرسطوطاليس (على حد قول ديجين

لبرتس) « الشخص الوحيد الذى يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاط هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه فى المجمع العلمى وارتفع من ، عبد رقيق إلى أن صار حاكماً . بأمره فى أترنيوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسية الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس بيثياس Pythias ابنة هرمياس (٣٤٤) ؛ وأوشك أن يستقر فى أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطة لمعاونة فليب فى غزوه المرتقب لبلاد آسية (١٤٣) . وفر أرسطوطاليس مع بيثياس إلى لسبوس القرية وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعى (١٤٤) . ثم مات بيثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هريليس Herpyllis أو عاشرها (١٤٥) ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى بيثياس ، وأرضى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذى قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفى عام ٣٤٣ دعاه فليب ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً فى الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليب قد عرف الفيلسوف أيام شبابه فى بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى بلا ، وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفى عام ٣٤٠ كلفه فليب بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت فى أثناء الحرب مع أولثيوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تحبى ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له فى كل عام (١٤٦) .

وفى عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة - وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها فى أجل دار للتدريس الرياضى فى أثينة ، وهى طائفة من المباني خاصة بأهل لوقيوس

Apollis Lyceus (إله الرعاة) تحيط بها حدائق غناء ، وطرق مسقوفة ، وكان في صدر النهار يلتقى على الطلبة المنتظمين فيها دروساً في موضوعات راقية ، وفي عصره يلتقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه في الصباح ؛ وأكبر الظن أن هذه المحاضرات كانت في البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع في هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي ، وسميت المدرسة فيما بعد ، باللوقيون Lyceum ، كما سمي الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى الماشي المسقوفة (Pereptaoi) التي كان أرسطو طالس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم^(١٤٧) . وقامت منافسة حادة بين اللوقيون التي كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين المجمع العلمي الذي كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التي كان يؤمها في الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ المجمع العلمي يعني بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعني بالتاريخ الطبيعي . وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات في الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كعادات البرابرة ، ودمائير المدن اليونانية ، وتواريخ الفاترين في الألعاب البهشية والدبونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ، وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التي يخطئها الحضر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق :

وكتب لأوصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاوره يرى شيشرون وكونتليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ؛ وهذه المحاورات هي التي قامت عليها شهرته في الزمن القديم^(١٤٨) ؛ وقد ضاعت فيها ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة .

أما ما بقي لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المحررة إلى أبعد حد في التجريد ، والحالية من المتعة إلى درجة تعز على التقليد ، وكلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها في مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها في السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها في محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات ؛ ولم تكن هذه اللخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرونكوس Andronicus من أهل رودس في القرن الأول قبل الميلاد^(١٤) .

وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين ليرتس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها في موضوع واحد . وهذه البقايا العلمية القليلة هي التي يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التي كانت وقتاً ما أفكاراً حية ، والتي أكتسبت أرسطوطاليس في العمود التي تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعلينا ألا نتوقع أن نرى في كتاباته من البهجة ما في أفلاطون ، ومن الفكاهة ما في ديجين ؛ بل كل الذي نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش من رفدهم^(١٥) .

(٥) ويمكن تقسيم ما بقي من رسائله ستة أقسام :

١ - رسائل في المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدلالات سوفسطائية

٢ - علوم :

(أ) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، هيت ، ظواهر جوية .

(ب) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، إلهامات

الحيوان ، تناسل الحيوان .

(ج) علم النفس : في الروح ، مقالات قصيرة في طبيعة للعالم .

٣ - ما وراء الطبيعة .

٤ - علم الجمال : البلاغة ، والشعر .

٥ - علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماغية الأخلاق الأوردمية .

٦ - السياسة : علم السياسة ، دستور أثينا .

(٢٤ - ج ٢ - مجلد ٢)

٢ العالم الطبيعي

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شيء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده في هذا الكتاب عالما طبيعيا أولا ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى في الرجل جديد :

وأول ما نقوله عنه أن عقله الطلعة يهتم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلا بلغ من الدقة حدا أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) - وهو الاسم الذي أطلق بعد وفاته على رسالاته في المنطق - المرجع الذي ظل المناطقة يعتمدون عليه مدى ألقى عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادرا ؛ فهو يقضى نصف وقته في تعريف مصطلحاته ، فلماذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التي يبحث فيها ؛ وهو يعرف التعريف نفسه تعريفا دقيقا بأنه تحديد الشيء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذي ينتمي إليه ذلك الشيء ، أو تنتمي إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التي تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . ومما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التي يمكن دراسة أي شيء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والميلك ، والفاعلية ، والانفعالية - وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً مجمعة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهي ملزكات وليست أشياء (١٥٠) . وهو يقرر قرار

لواثق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البدهي في المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته في العلاقة الواحدة (١٥١) » . ويكشف عن المغالطات التي يقع فيها السوفسطائيون أو يغفرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل في الرصد والتجارب بصبر وأناة (١٥٢) . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقي وهو القياس — المكون من ثلاث قضايا ثالثها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع في خطأ المصادرة على المطلوب الأول (*) ، وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان في رسائله الفلسفية يفضل في ببداء الاستدلال بمجد الاستقراء ويجمع في كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل في بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء (**). وقصارى القول أنه رغم أغلاطه واضح أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون في البحث العلمى .

فهو يبدأ بحته العلمى من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يلج كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون في الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيهما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو في كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللا نهائى ، والتغير ، والنهاية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

(*) هو انتراس صحة ما يراد إثباته . (المترجم)

(**) مثال ذلك أنه يشير في كتابه « تناحل الحيوان (٤ : ٦ : ١) » إلى نمرة العينين من جديد إذا أزيلتا في سفار طير ؛ وهو يرفض النظرية المتألفة : إن الحصى اليمنى قبيح الذكور واليسرى تنزع الإناث من البناء ، ويحتدل على ذلك بأن رجلا أزيات عصىته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائى » موجود بالقوة لا بالفعل^(١٥٣) . وهو يحس بالمشاكل التى أثارت تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ، وهذه المشاكل هى القصور الذاتى ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول فى قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك الجسم »^(١٥٤) .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات — ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطيع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية^(١٥٥) . وهو يدرك الأزمنة الجيولوجية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلاً إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالى الأيام ، ولكننا لانحس بهذا التحول^(١٥٦) ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اختفت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطيء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرات ثم اختفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة »^(١٥٧) . والحرارة أهم عامل فى التغيرات الجيولوجية والجوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته فى الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة فى الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى التوى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما فى الجو من تقلبات تبدو له غير منطقية على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترقى العلوم الطبيعية فوق الحد الذى وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق فى الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيقي ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ، وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلاط ، وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات في بلاد بحر ليجه كما جمع في مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول بليني Pliny^(١٥٨) فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياده ، وحارمى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يملوه بما يريده من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس في الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير في الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه » (١٥٩) .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيما ، وأنيا Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيماً لإياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقواذب(*) ، وطيور ، وثدييات .

وتشمل بحوثه في هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث في أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ، وفي أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومثالث غيرها من الأصناف ؛ وفي فصول تزاوجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها لإياها ؛ وفي ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإنتام ؛ وفي مواطن الحيوانات وهجرتها ، وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفي طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً (١٦٠) . وكتابه مليء بالملاحظات

(*) القواذب أو البرمائيات : هي التي تعيش في البر والبحر على السواء . (المترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجملدى بنوع خاص قد تدر اللبن ، وإن الخيل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(*) (١٦١) .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها في الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التي تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد » (١٦٢) ، وقد ظل عمله في هذا الميدان فلما منقطع النظر حتى القرن الماضي . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بورتين - الأكل والتوالد (١٦٣) : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوى على ما يكون في بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة (**) ، . والعنصر الأنثوى يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هي العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشط الفعال (١٦٤) . ويرفض أرسطو ما يراه أبداً وقليلاً وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصري التكاثر على العنصر الآخر ، ثم يصوغ بعدئذ هذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كلما عجز العنصر المكوّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها في شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى ... صورة الأنثى (١٦٥) » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحياناً أن تلد

(*) تدل بعض الإشارات الواردة في « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعد مجلداً في الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا المجلد على جدران القوتون ، وهو يستخدم في كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقاط في الرسوم .

(**) لقد عجز أرسطو ليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصفه لم يحسن تصحفاً إذ بال قبل عمل استنس Stenson في عام ١٦٦٩ .

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة في أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولده امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث في زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا (١٦٧) .

وهو يستبق القرن التاسع عشر في كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بوساطة جزيئات دقيقة (هي ذرات التناسل بالتجمع العام » التي يذكرها دارون(*)) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد (١٦٨) . وهو يقول كما يقول فون بير Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر في الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلي هذه الخواص المميزة للفرد (١٦٩) . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت اسپنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحي بوجه عام تتناسب تناسباً عكسياً مع تعقد تطوره (١٧٠) وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجز إذا شئت هذه التجربة : إيت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم نخل منها بيضة في كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثاني إلى أن تنفقس واكسرها وافحص عنها . . . ففي حالة الدجاجة العادية تستطاع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب في صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران في تلافيف ، وغشاء يحمل نخيوطا رفيعة دموية من

(*) يشير الكاتب إلى ملهـب دارون في الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلتقيها ذرات التناسل ، وهذه الذرات رموز جميع الأنسجة تتجمع في البرموزة ومنها يتفلق المولود الجديد (معجم الدكتور شرف) . (المترجم)

أنايب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح (١٧١) .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل في رحم أمه بهذه الطريقة عينها . . . لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان (١٧٢) » . وهو يستطيع بنظرته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان في صورة جامعة : « فالظفر مائل للمخلب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة (١٧٣) » وهو يقترب في بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتي بعد الجادات غير الحية في سلم الرقي ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حتى إذا ووزن بالأشياء الجامدة . وفي النبات سلم تصاعدي مستمر نحو مرتبة الحيوان . ففي البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هي حيوان أو نبات . . . فالإسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة في أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظهر فيها غامضة . . . وهذا التنوع بعينه يظهر في سلم الرقي الحيواني (١٧٤) .

وهو يرى أن القرد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التي تلد (١٧٥) ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعي للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما في كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطري لكي ينمى نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحقيق طبيعته . إن لهذا التطور خطة موضوعة ولكنها دفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويمتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده في ذلك الزمن القاصي الذي يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرناً من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو في علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه^(١٧٣) . فكتابه في تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء في الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان - الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كليب^(*) ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذي يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع في وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح^(١٧٤) . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقراط قد تحررا من سلطان الدين فأقدا على تشريح الأجسام البشرية^(١٧٥) . ومن أجل هذا وقع في أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان إلا ثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل^(١٧٦) ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس^{(**)(١٨٠)} . وإن وظيفة المخ هي تبريد الدم (بالمعنى الحرفي لهذه العبارة)^(١٨١) . وآخر ما نذكره من هذه الأغلاط أنه (هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلاً) قد ذهب بنظرية الخطة الموضوعة . مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن فوات الأربع تستطيع أن تقف

(*) ويسمى أيضاً المحدث والقريش والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)

(**) وقد أرقه في هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بتنبهه المباشر . (المترجم)

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو في حاجة إلى ما يجلس عليه^(١٨٢) . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فـ «فولف هذا الكتاب يرى أن من الأهور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق في التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان في مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم في بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

٣ - الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء بنى الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى » أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً باتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ؛ أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وتحلله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين^(١٨٣) . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكيب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس(*) » .

(*) ويفسف أرسطوطاليس إلى قوله السابق الدال على نزعة مثالية عجيبة قوله : إن « النفس هى معنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أفكار^(١٨٥) » وهو يتفق فى آرائه مع بركل **Berkeley** ومع هيوم **Hume** فى أن واحد . انظر مثلاً إلى =

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان في النفس النامية — أى في قدرته على تغذية نفسه وعلى إخماء الداخلى ، وللحيوان والإنسان فضلاً عن هذه النفس نفس حاسة — أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعلة عاقلة » — أى قدرة على الأشكال البسيطة البديهية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » — أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت (١٨٧) . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ؛ والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ؛ وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسيئاً ؛ وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت (*) .

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية entelechy » — طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه (***) كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

سأقول : « إن العقل واحد مستمر بالمعنى الذى تكون به عملية التفكير واحدة مستمرة ؛ والتفكير هو هيئة الأفكار التى هى أجزاءه »

(*) ويمكن تفسير أنال أرسطوطاليس المتناقضة في هذه المعلقة تفسيرات أخرى . والنص الذى أشتبهه مأخوذ من المجلد الرابع من تاريخ كامبريدج القديم Cambridge Ancient History ص ٢٤٠ ؛ ومن الجزء الثانى من كتاب أرسطوطاليس تأليف جروت Orotin ص ٢٢٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف رود Rhode ص ٤٩٢ .

(**) ويرى أرسطو أننا نرى أفلاطون أن الأمر الجوهري في أى شيء هو « الصورة » eidon لا المادة المصورة ؛ وليست المادة هى « الشيء الحقيقى » بل هى إمكانية سلبية منفعلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحدتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التي لا علة لها(*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذي لا يحرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصل أو مبدأ لما في العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . وإنا لنرى الأشياء في كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فلأسنان الأمامية تنمو حادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والجفن يطوف ليقى العين ، والحدقة تتسع في الظلام لتدخل قدرأ كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها في الأرض ، وغصونها نحو الشمس (١٨٩) . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هي الله . وليس الله هو خالق العالم المادى ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب (١٩٠) ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل ، يتبدى في الصور السرمدية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هي القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة (١٩١) ، ولكنه ليس نسخة آتية لها ، والذي تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ، وعن طريق هذه البصيرة أو عكس هذا الجوهر لنا تعكس المرأة الجسم قد يبدو الشيء القبيح نفسه جميلاً . والجمال

(٥) يقول أرسطو : إن كل معلوم يخرج من أربعة عالم : المادية (التي يتكون منها) ، والفعالة (العالم فيها أرقلة) ، والشخص (طبيعة الشيء) ، والمائية (الهدف) وهو يشرب لذلك ، من حيث يقول : « ما هي المادة المتحركة ؟ هي المادة (أى وسرد البنية) . وما هي العلة الفعالة ؟ هي المادة والبنية (أى ما به تتلوهج) . وما هي الشكلية ؟ هي الطبيعة (أى طبيعة العوامل ذات الشأن) . وما هي العالم المائية ؟ هي الغاية التي يهدف إليها » (١٨٨) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتمائلها في الكل . وتكون هذه الوحدة في المسرحية وحدة العمل قبل كل شيء ، ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملاً واحداً ، وأن يكون الغرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفني غاية في الروعة والجودة وجب أن يكون موضوعه متسا بالنبيل أو البطولة .

ويقول أرسطو في تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع في البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهي تمثل رجالاً يعملون ولا تعتمد على القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها (١٩٣) » . والمأساة تستثير أعظم عواطفنا ثم تهدئها بخاتمها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا يضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عصباً أو عنفاً . فهي تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة في تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالاً خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب : بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل (١٩٣) » .

فما هي الحياة الطيبة إذن ؟ يجب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصراحة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث في كتاب الأخلاق (*)

(*) لقد كان كتاب أجلاق نيقوماخوس (وسمى كذلك لأن الذي نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة في أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناشر اليوناني يستخدمون هذه الصيغة المزدوجة وهي الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليعبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هي حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

(كما يبحث أفلاطون) كيف يجعل الناس أختياراً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسعى إليها لذاتها بل هي وسيلة لغاية ، أما السعادة فهي وحدها التي تبتغى لذاتها (١٩٣) . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح (١٩٥) . « وليس في وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخالقة (١٩٦) » « أما الذين يقولون إن الذي يعذب على العذراء ، أو تحمل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحاً فقولهم هراء (١٩٧) » . وينقل أرسطو بصراحة ينشر وجودها في الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى » ، لأننا نرى الحكماء يقضون أوقانهم على أبواب الأغنياء (١٩٨) » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهي في حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ، وإذا كانت الثروة نسبية فلماذا لا ترضى إنساناً زمناً طويلاً . وسر السعادة هو العمل ، أي بدل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهي تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير (١٩٩) ، وهي في العادة وسط بين نقيضين ، والإنسان في حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس (إنكرا تيا enkrateia أو القوة الداخلية) لممارستها . ويقول أرسطو في جملة من جملة النموذجة إن « الذي يغضب مما ومن ينبغي أن يغضب منه ، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفي الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خلقي بالثناء (٢٠٠) » . وليست الفضيلة عملاً ، بل هي تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض في أول الأمر بالتدريب والتهديب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا في مثل هذه الأمور حكماً صادقاً حكماً ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أي « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة .

وينتظم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة في العمل ، وإن أحسن حياة هي حياة الفكر . ذلك أن الفكر في رأيه هو الدليل على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن العمل الحليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله (٢٠١) . « وأسعد الناس حظاً هو الذي يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة (٢٠٢) » . « والذين يرغبون في اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها في الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان (٢٠٣) » .

٤ -- السياسي

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد يكافئ لتحقيق جميع أغراض الحياة (٢٠٤) » ، وهي نتاج طبيعي ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسي (٢٠٥) » ، أي أن غرائزه تؤدي به إلى اجتماع مع غيره . « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد في مجتمع منظم من قبل يشكله في صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستوراً يونانياً ، قسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وديمقراطية ، أي حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنهباء . وكل نوع من

(٥) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أسرار الدولة الأثينية » Athenion Polltel ، وقد عثر عليه في عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستوري لأثينة من غير ما كتب في مؤلفه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى
الجمال التي يجب على كل أمريكي أن يحفظها عن ظهر قلب : إن نوعا من
أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع
أن يكون نوع آخر خيرا منه في ظروف خاصة (٢٠٦) . وكل حكم حسن
إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعا لا لمصلحتها الخاصة ، فإذا
لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح
شبيه فاسد حين يكون حكما لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ،
ففي هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح
أجركية ، والتمقراطية فتكون ديمقراطية أى حكم العادة (٢٠٧) . فإذا كان
الحاكم المفرد صالحا وقديرا كانت الملكية خيرا أشكال الحكم ، أما إذا كان
أفقرافيا أنانيا كان حكمه حكما استبداديا ظالما ، وهو شر أنواع الحكم .
وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن الأشراف (الأرستقراط)
الذين يتولون أمورهم ينزعون إلى الاضمحلال والانحطاط . ويندر أن
نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون
لشيء على الإطلاق . . . فالأسر ذوات المواهب العالية كثيرا ما تنحط
فيكون أبناؤها من الهجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألقبيادس وديسوس
الأكبر ، أما المتوسطون منهم فكثيرا ما يكونون حتى أو أغبياء كأبناء
سيمون ، وهركليز ، وسقراط (٢٠٨) . وإذا ما انحطت الأرستقراطية
حلت محلها في العادة حكومة أجركية من أصحاب المال أى حكومة ذوى
الثراء . وهذه خير من طغيان الملك أو طغيان الفوضى ، ولكنها تضع السلطة
في أيدي رجال لا تتسع نفوسهم لأكبر من ذلك العمل الصغير وهو حساب
تجارهم ، أو ذلك العمل الإجرامى الدنيء وهو أكل الربا (٢٠٩) ، وينتهى
أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير (٢١٠) .

والديمقراطية - وهو يعنى بها حكومة العامة من المواطنين demos - لا تقل خطورة عن الأبركرية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء فى كفاحهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هى الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الديمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاى المدن من الصناع والتجار (٢١١) . نعم إن « حكم الكثرة يكون فى كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعد الماء الكثير عن التلوث » (٢٢) . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة وهـ ليس فى مقدور من يعيش عيشة الصناع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب (٢١٣) ، (أى على الخلق الطيب والتدريب ، وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل فى المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء » (٢١٤) . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية (*) (٢١٥) . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الديمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذه الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الحال بصب الماء فى المنخل » (٢١٧) . ومع هذا فإن الرجل المحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعاً ، وهـ يجب على الوطنى الحق فى الحكومة الديمقراطية أن يحذر من أن تكون أغلبية الشعب فى فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده فى أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذا كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيث يكفي نصيب كل منهم لأن يبتاع به حقلاً (٢١٨) .

(*) ويظن أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ فلما أن من الصواب أن يحكم العقل الجسم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون فى الذكاء من لا يتفوقون إلا فى قوة الجسم (٢١٦) .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم في زمانه إلى حد ما :

ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن تناول العامة ، أو مع تلك الثرية التي لا ينالها إلا من هيات له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التي يضعها الناس في أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذي تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذي تستطيع معظم المدن أن تقيمه^(٢١١) . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فستوضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولاً إلى القليل^(٢٢٠) . . . إن الشيء الذي يشترك فيه كثيرون لا يعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركون فيه غيرهم^(٢٢١) . . . ولا بد لنا أن نبدأ بحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذي يرغب في بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذي لا يرغب في بقاءه^(٢٢٢) ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء . . . وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة^(٢٢٣) .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطي » ، وهو خليط من الأرستقراطية والديمقراطية ، يمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب في هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضي ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هي مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين »^(٢٢٤) . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق »^(٢٢٥) . كذلك يجب ألا يفلحوا الأرض ، ... بل ينبغي « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » — ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفون العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله في نهاية المدة التي يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعة وفقاً لنظام قويم ما يصدر من الأحكام في جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة^(٢٢٦) ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . » ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أياً كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله في بعض الأحيان وحشاً . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولاها ، أما القانون فهو العقل مجرداً عن الشهوة^(٢٢٧) . والدولة القائمة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد الناس حداً معيناً . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدي إلى افتقار المواطنين^(٢٢٨) ؛ ويجب ألا يسمح بتربية أبناء مشوهين عاجزين » ، ومن هذه الأسس السليمة تفتتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربي ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة^(٢٢٩) » .

وبعد فليس من الضروري أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهني إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطاء أرسطو — أو أخطاء المجلدات التي نعدّها بالحق أو بالباطل ثمار قلمه — لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطقي ، ولكن هذا لا يمنع أن يقع في كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيكة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفثة من ريح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا في هذه الأيكة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلي الذي شق طرقا كثيرة في ميدان العقل .

وليس في وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبي — إذ ليس في العالم قط بدايات — ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أي رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التي يسرت في صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والمهوبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث ، والغاية ، principle, maxim, faculty, means, category energy, motive habit, end . ولقد كان كما سماه بيتر Pater « أول المدرسين »^(٢٣١) .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى
بمخضبة تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه في الأخلاق والسياسة(*)
ليفوقان أمثالهما كلها في الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا
من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » .
وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو
إلهام مطمئن إلى الذين يكسحون في سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة
وتنسيقها وفهمها .

(*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد وطبعتهما
بلغة التأليف . (المترجم)

الباب الثاني والعشرون

الإسكندر

الفصل الأول

نفسية فائح

لقد كانت حياة أرسطو العقلية بعد أن غادر تلميذه الملكى مماثلة لحياة الإسكندر العسكرية ؛ ذلك أن كلتا الحياتين تعبر عن نزعة الفتح ، والبناء ، والتركيب . وربما كان الفيلسوف هو الذى غرس فى عقل الشاب تحمسه الشديد للوحدة وهو التحمس الذى رفع بعض الشيء من قدر انتصارات الإسكندر ؛ لكن أرجح من هذا أن هذا التحمس قد انحدر إليه من مطامع أبيه ، ثم أحاله دم أمه إلى ولع وهيام . وإذا شئنا أن نفهم الإسكندر على حقيقته ، وجب علينا أن نتذكر على الدوام أن عروقه كان يجرى فيها نشاط فليپ العارم وحدة أولمپياس الهمجية ؛ يضاف إلى هذا أن أولمپياس كانت تدعى الانتساب إلى أخيل ، ومن أجل هذا كان الإسكندر يهوى الإلياذة ويفتن بها ، وكان يفسر عبوره الهلسينت بأنه تتبع لخطوات أخيل نفسه واستيلاءه على آسية الغربية بأنه إتمام للعمل الذى بدأه جده الأعلى فى طروادة . وكان فى خلال حملاته العسكرية كلها يحتفظ معه بنسخة من الإلياذة عاها شروح بقلم أرسطو ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته أثناء الليل بجوار خنجره ، كأنه يرمز بها إلى أدواته وهدفه .

وعنى ليونidas وهو مولوسى Molosian صارم بترية الغلام الجسمية ، وعلمه ليسمخوس الأدب ، وحاول أرسطو أن يكون عقله . وكان فليپ

يرغب في أن يدرس ولده الفلسفة « حتى لا يفعل أشياء كثيرة من نوع الأشياء التي فعلها أنا والتي آسف على فعلها »^(١) كما قال فليب نفسه . وقد أفلح أرسطو إلى حد ما في أن يجعل منه رجلاً هليينياً ؛ وذلك أن الإسكندر كان طوال حياته يعجب بالأدب اليوناني ويحسد اليونان على حضارتهم ؛ وقد قال مرة لرجلين يونانيين كانا يجلسان معه أثناء المأدبة الوحشية التي قتل فيها كليتوس : « ألا تشعران حين تجلسان في صحبة المقدونيين بأنكما أشبه إليهن بين خلّاق من الهمج »^(٢) .

وكان الإسكندر من الناحية الجسمية شاباً مثالياً . وذلك أنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية : كان عداء سريعاً ، وفارساً جريئاً ، ومبارزاً ماهراً ، وكان يجيد الرماية بالقوس ، ولا يرهب أى شيء في الصيد . ولما رغب إليه أصدقاؤه أن يشترك في سباق العدو في أولمبيا أجاب بأنه لم يكن يمانع في ذلك لو أن المتبارين معه كانوا ملوكاً . ولما عجز غيره عن قتل بوسفلس Bucephalus الجواد الجامح الجبار ، نجح الإسكندر في هلم العمل ؛ فلما رأى ذلك فليب ، كما يقول فلوطرخس ، حياه بتلك الألفاظ التي كانت أشبه بنبوءة بما يخبؤه له القدر : « أى بنى ، إن مقلونية لا تتسع لك ، فابحث لنفسك عن إمبراطورية أوسع منها ، وأجلد بك »^(٣) . وكان حتى في أثناء زحفه بصرف بعض نشاطه في أن يرى بالسهم بعض ما يمر به من الأهداف ، أو ينزل من مركبته ثم يعود فيركبها وهي تجري بأقصى سرعتها . وكان إذا تراخت الحرب خرج إلى الصيد وواجه بمفرده وهو واقف على قدميه وحشاً ضارياً ؛ وسمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يجارب الأسد كأنه يبارزه لتقرر نتيجة البراز أيهما يكون هو الملك^(٤) ، فسر من هذا القول إيما سرور . وكان مولعاً بالعمل الشاق والمغامرات الخطرة ، ولم يكن يطيق الراحة . وكان يسخر من بعض أصدقائه الكثيري الخلد ويقول إنهم لا يجحدون ما يفعلون . ومن أقواله لهم : « عجيب أمركم ،

كيف لم تدلكم تجاربكم على أن من يعملون ينامون نوماً أعمق من نوم من يعمل لم غيرهم ، وهل لا تزالون بحاجة إلى من يدلكم على أن أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل وأسباب الضعف التي كان يتصف بها من غلبناهم على أمرهم (٥) . وكان يؤله ما يضيع من الوقت في النوم ويقول : « إن النوم وعملية التناسل هما أهم ما كان يشعره بأنه آدمي فان (٦) . وكان معتدلاً في الطعام ، وظل إلى آخر سني حياته معتدلاً كذلك في الشراب ، وإن كان يحب أن يطيل المكث مع أصدقائه على كأس من الخمر . وكان يحضر الأظعمة اللسمة ، وقد رد مشهورى الطهارة الماهرين الذين عرضوا عليه ، وقال إن مشى ليلة كفيل بأن يقوى شهوته للفطور ، وإن فطوراً خفيفاً يقوى شهوته للغداء (٧) . ولعل هذه العادات هي التي جعلت وجهه وضاه إلى حد كبير ، وجعلت رائحة جسمه ونفسه « زكية تفوح من ملابسه التي على جسمه (٨) . وإذا ما أخذنا بأقوال معاصريه وضرينا صفحا عن ملق الذين رسموا صوره أو نحوتوا تماثيله أو نقشوا رسمه ، حكمنا بأنه كان وسيما بدرجة لم يسبق إليها أحد من الملوك الذين قبله : كان ذا معارف قوية التعبير ، وهينين زرقاوين رقيقتين وشعر غزير أصحر . وهو الذى ساعد على إدخال عادة حلق اللحية في أوزبا ، وحبته في ذلك أن اللحية تمكن العدو من القبض على صاحبها (٩) . ولعل أكبر آثاره في التاريخ هو هذا الأثر النافه .

أما من الناحية العقلية فقد كان طالباً شديداً التحمس للدرس ، لكن التبعات التي ألقى عليه قبل الأوان لم تترك له فسحة من الوقت ينضج فيها عقله . وكان يحزنه ما يحزن الكثيرين من رجال الجهد والعمل وهو أنه لا يستطيع أن يكون أيضاً مفكراً . ويقول فيه فلوطرخس إنه « كان شديداً الشغف بالعلم ، شغفاً يزداد على مر الأيام . . وكان مولعا بجميع أنواع المعارف محبا لقراءة جميع أنواع الكتب » . وكان من أسباب سروره بعد أن يقضى يوماً في السير أو القتال أن يسهر إلى منتصف الليل يتحدث إلى الطلاب والعلماء . وقد كتب مرة إلى أرسطو يقول : خير لى أن أتفوق على غيرى

فى العلوم من أن أتفوق عليهم فى اتساع الملك وقوة السلطان ، (٩) . ولقد أرسل بعثة لارتىاد منابع النيل - وقد يكون هذا بإيعاز أرسطو - ، وأعان بالمال كثيراً من البحوث العلمية . وليس فى وسعنا أن نحكم أكان إذا امتد به أجله يبلغ ما بلغه قيصر من صفاء الذهن أو ما بلغه نابليون من دقة الفهم . لكن مشاغل الملك أدركته وهو فى العشرين من عمره ، واستغرقت شئون الحرب والإدارة كل وقته وجهده ، ومن أجل هذا بقى ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته . نعم إنه كان متحدثاً لبقاً ، ولكنه كان يتورط فى ماث الأغلط إذا تطرق الحديث إلى شئون السياسة والحرب . ويلوح أنه رغم حروبه الكثيرة لم يعرف من الجغرافية ما كان فى مقدور ذلك العلم فى أيامه أن يمد به . وكان عقله فى بعض الأحيان يسمو عن الآراء الضيقة التحكيمية ، ولكنه بقى إلى آخر أيام حياته عبداً للمخاوف والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدهم بهم حاشيته . ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أرييلا يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر أرسندلر Aristander ويقرب القربان إلى إله الخوف . وكان هذا الرجل الذى واجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة « يرتاع لأقل النلر الموهومة » ارتباعاً يحمله على تغيير خططه (١٠) . وكان فى مقدوره أن يقود آلاف الرجال ، ويهزم الملايين منهم ، ويحكمهم ، ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه . ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من خطأ أو بما فيه من نقص ، وكان يفتخر بالثناء اغتراراً يطنى على حكمته ويفسدها . وقد عاش طول حياته فى جو من الانفعال والمجد يكاد يذهب بعقله ، وكان يحب الحرب حباً استحوذ على عقله فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام .

وكانت أخلاقه تخوم حول أمثال هذه المتناقضات . فقد كان فى قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال ، تستبقه عبراته ، شديد التأثير بالشعر والموسيقى ، وكان فى أيام شبابه الأولى يعزف على القيثارة ويتأثر بأنغامها

أشد التأثير . ولما عنفه فليب على هذا هجر تلك الآلة ، ورفض من ذلك الوقت أن يستمع لغير النغمات العسكرية ؛ ولعله أراد بهذا أن يهود السيطرة على حواسه^(١١) كذلك كان يستمسك بالفضيلة في الناحية الجنسية ، ولم يكن ذلك عن مبدل يدين به ، بل لأن مشاغله كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية . ذلك أن نشاطه الدائم ، وسيره الطويل ، وحروبه الكثيرة ، وخططه المعقدة ، وأعباءه الإدارية ، كانت تستغذ كل قواه ، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب . وكانت له زوجات كثيرات ، ولكن زواجه بهن كان تضحية منه قضت بها شئون السياسة والحكم ، وكان شهماً ذا مروعة في معاملته للنساء ، لكنه كان يفضل عليهن محبة قواده . وجاءه رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره ، فسألها « لم تأخرت إلى هذا الوقت ؟ » فردت عليه بقولها : « كان على أن انتظر حتى أنيم زوجي » . فصرفها الإسكندر وعنف خدمه وقال لم إنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً^(١٢) . وكان فيه كثير من صفات اللوطيين ، وكان يحب هفستيون Hephaestion إلى حد الجنون ؛ لكنه حين جاءه ثيودورس التاراسي Theodorus of Taras يعرض عليه أن يبيعه غلامين بارعي الجمال ، طرد ثيودورس من مجلسه وطلب إلى أصدقائه أن يفصحوا له عما أظهره من سفالة وخسة نفس تحملان إنساناً ما على أن يتقدم إليه بهذا العرض الذي^(١٣) . وكان يستمسك بصدقة الأصدقاء وبهم ما يهبه معظم الناس إلى المحب من اشتياق ورقة عاطفية ؛ وليس بين من نعرف من الساسة ، دع عنك القواد ، من فاقه في صدق القول الخالي من التكلف أو في الصداقة الوفية القوية ؛ أو في إخلاصه في حبه وغرضه ، أو في كرمه لمعارفه وأعدائه دع عنك أصدقاءه^(١٤) . وفي ذلك يقول فلوطرخس « وهو ينتهز أقل الظروف ليكتب الخطابات لخدمة الأصدقاء » . وقد كسب حب جنوده بعطفه عليهم ؛ وكان يخاطر بحياتهم ولكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً من غير مبالاة ، كأنه كان يحس بجميع جراحتهم ؛ وكما عفا قيصر عن

بروتس وشيشرون ، وكما عفا نابليون عن فوشيه Foch وتايران Talley - كذلك عفا الإسكندر عن هرپالس Harpalu صاحب بيت المال الذى اختفى بما فى عهده منه ثم عاد إليه يرجو عفوهُ ؛ وقد أدهش الشاب الفائح الناس جميعاً بأن أعاده إلى منصبه ، ويبدو أنه أصلحه بذلك العمل^(١٥) . ومرض الإسكندر فى طرهوس عام ٣٣٣ فعرض عليه طبيبه فليب شرباً مسهلاً . وفى تلك اللحظة وصلت إلى يد الملك رسالة من پرمنيو يقول فيها إن دارا قد رشا فليب ليدس له السم ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة على فليب ، وبينما كان الطبيب يقرأها شرب الإسكندر الدواء - ولم يصب بسوء . وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عوناً له فى حروبه ؛ فقد كان كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه ، وكانت المدن تفتح أبوابها إذا اقترب منها لأنها تخشى على أنفسهم من النهب . ولكنه كان فيه شيء من الشراسة المولوسية ، وقد شاء القدر القاسى أن يقضى عليه ما كان يشابه أحياناً من نوبات القسوة . مثال ذلك أنه لما استولى على غزة بعد أن حاصرها واقتحم أسوارها واستفزته بطول مقاومتها أمر بأن تحرق قدما باتيس Batis قائداها الباسل ، وأن توضع فيها حاققات من نحاس . ثم أسكرته ذكرى أنخيل ، فشدد القائد الفارس بعد موته إلى العربة الملكية بالجبال ، وجرت به أقصى سرعتها حول المدينة^(١٦) . وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً ليهدي به أعصابه مما دفعه فى سنيه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء التى أخذت تزاد على مر الأيام ، وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت وتوبيخ الضمير العنيف .

وكان من صفاته صفة لما الغلبة على كل ما عداها ونغى بها الطموح فقد كان وهو شاب يتبرم من انتصارات فليب ، حتى لقد شكاه مرة إلى أصدقائه من أن « أباه سيفرغ من كل شيء قبل أن نستعد نحن ، ولن يترك لى أو لكم فرصة نعمل فيها شيئاً عظيماً خطيراً^(١٧) » . وقد دفعته هذه

الرغبة الشديدة في العمل العظيم إلى محاولة القيام بكل واجب واقتحام كل خطر ففى يوم قيرونيا مثلاً كان هو أول من هجم على « العصابة الطيبية المقدسة » ، وفى يوم غرانيقوس أطلق العنان لما كان يسميه رغبة في ملاقاته الأخطار^(١٨) . وقد أصبحت هذه الرغبة هى الأخرى شهوة جامعة ، فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه ، فيندسى فى ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال ، وكثيراً ما كان جنوده يلحون عليه أن يرتد إلى المؤخرة لخوفهم أن يفقدوه . على أنه لم يكن قائداً عظيماً ، بل كان جندياً بأسلاً أوصله جلده وعناده وعدم مبالاته بالعقبات التى كانت تبدو مستحيلة التذليل إلى انتصارات مؤزرة لم يسبقه أحد إلى مثلها . وكان هو الملهم لجنوده ، أما قواده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجع أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم والتدريب والكر والفر والفنون الحربية . وكان يقود جنوده يخياله الوضاء ، وفصاحته الطبيعية غير المتكلفة ، واستعداده لمقاومتهم صعابهم وأحزانهم استعداد المخلص الوفى . ولا جدال فى أنه كان إدارياً حازماً ، وقد حكم الأملاك الواسعة التى افتتحها بقوة السلاح حكماً رقيقاً حازماً ، وكان ينفى بالعهود التى يقطعها على نفسه لقواد الجند المهزومين وللمدن المغلوبة ، ولم يسمح قط لموظفيه أن يظلموا رعاياه أو يستبدوا بهم ، ولم يكن وهو يخوض غمار القتال والهيحاء مشجرة والأرض متزازلة يغفل قط عن هدفه الأسمى الذى لم يحل موته دون إنجازه : وهو ضم البحر المتوسط الشرقى فى وحدة ثقافية جامعة ، تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان الآخذة فى الانتشار .

الفصل الثاني

طريق الحجد

لما ارتقى الإسكندر العرش ألقي نفسه على رأس دولة متصدعة ؛ فقد ثارت القبائل الشمالية الضاربة في تراقية وإليريا ؛ وخرجت عن طاعته إيتوليا وأكرنانيا Acarnania ، وفوسيس ، وإليس ، وأرجولس ، وطرد الأمبراقويتون Amparciotes الحامية المقدونية من بلادهم ؛ وكان أرمنخشنر الثالث يفخر بأنه هو المحرض على قتل فليب ، وأن بلاد الفرس لا تخشى شيئاً من هذا الحدث المراهق الذي ورث الملك وهو في العشرين من العمر . ولما أن وصلت البشائر إلى أثينة بأن فيلب قد مات ازين دهستين بأفخر الثياب وتوج رأسه بإكليل من الزهر ، واقترح على الجمعية أن تضع تاجاً على رأس قاتله هوسنياس تكريماً له^(١٩) . وفي مقدونية نفسها كانت عشرة أحزاب أو أكثر تأتمر بحياة الملك الشاب .

وواجه الإسكندر هذه الصعاب كلها بهمة قعساء وعزيمة ماضية قضى بهما على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم . ولما أن ألقى القبض على زعماء المتآمرين في داخل البلاد وقتلهم انجبه بجيوشه جنوباً نحو بلاد اليونان (٣٣٦) وبلغ طيبة بعد بضعة أيام . وأسرعت بلاد اليونان فقدمت له ولاءها ، وبعثت إليه أثينة معذرة عما فرط منها ، وعرضت عليه تاجين ، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم . فلما هدأت سورة الإسكندر أعلن إلغاء جميع الحكومات الدكتاتورية في بلاد اليونان ، وأمر أن تعيش كل مدينة حرة حسب قوانينها . وثبت له المجلس الأمفكتيوني جميع الحقوق التي منحها فليب ،

واجتمع في كورنثة مؤتمر من جميع دول اليونان ما عدا اسبارطة وأعائه قائدا عاما لجميع اليونان ، ووعد أن يعينه بالمال والرجال في حروبه الآسيوية المرتقبة : ثم رجع الإسكندر إلى پلا ، ونظم شئون العاصمة ، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليقلم أظفار الفتنة التي أوقدت نارها القبائل المتبربرة (٢٣٥) . وزحف على رأس جنوده بسرعة نابلينة حتى وصل إلى موضع مدينة بخارست الحالية ، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية . ثم تراءى إليه أن أهل إلريا يزحفون على مقدونية فاجتاز مائتي ميل في قاب بلاد الصرب وفاجأ مؤخرة الغزاة ، وهزمهم ، ورد فلولم إلى جبالهم .

لكن إشاعة راجت وقتئذ في أثينة بأن الإسكندر قد قتل وهو يحارب عند نهر الدانوب . فأخذ دمستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال ، ولم ير حرجاً في أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس يستعين بها على تنفيذ خططه . واستجابت طيبة إلى تحريضه فخرجت عن طاعة الإسكندر ، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الملك الشاب ، وحاصرت الحامية المقدونية المعكسة في حصن الكدميا . وأرسلت أثينة المدد إلى طيبة ، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف على مقدونية . واثارت ثائرة الإسكندر لهذا العمل الذي لم يكن الدافع إليه في نظره رغبة اليونان في الاستقلال ، بل كان غلواً منها وكفراً بفضله عليها ، فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى . ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً ، وشتت شمل جيش سيرته ليصد زحفه ، ثم ترك مصير هذه المدينة المحجدة من وسائل الدفاع عن أعدائها الأقدمين - پلاتيه ، وأركنوس وثسپيا ، وفوسيس ، فقررت هذه المدن أن تحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء . وأراد الإسكندر أن يلقي درساً على غيرها من المدن فأمضى هذا القرار ، ولكنه اشترط ألا يمس الجنود الظافرون بيت پندار بسوء ، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطبييين الذين يثبتون أنهم قاوموا الثورة . وقد ندم

خفا بعد على هذا الانتقام العنيف وعده سبة له « ولم يكن يتردد في أن يعطى
أى طبيى ما يطلبه إليه » ، وقد كفر عن بعض ذنبه بمعاملته اللينة لأثينة ،
فتمد عننا عن نكثها ما قطعته على نفسها من عهود في السنة السابقة ، ولم
يتشدد في طلبه تسليم دمستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين .
وظل إلى آخر حياته يظهر لها دلائل الاحترام والحب ، فوهب الأكربوليس
كثيراً من الغنائم التي ظفر بها في انتصاراته الأسبوية ، ورد إلى أثينة تمثالى
قائلى الطغاة اللذين نهبما خشيارشاي ، وقال عقب حملة حرية مجهدة :
« أيها الأثينيون ، هل تعلمون أى أخطار أعرض نفسي لها لأكون خليقاً
بمحمدكم (١٦) » .

وبعد أن أعربت جميع الدول اليونانية ما عدا اسپارطة عن ولائها
للإسكندر عاد إلى مقدونية وأخذ يستعد لغزو آسية . وقد وجد أن خزان
الدولة تكاد أن تكون خاوية ، بل وجد أنها مثقلة من عهد فليب بعجز
يبلغ مقداره خمسمائة وزنة (نحو ٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) (١٧) ، فاقترض
ثمانمائة وشرع يتغلب على ديونه قبل أن يتغلب على العالم . وكان قد عقد
النبة على محاربة الفرس بوصفه بطل هلاس وناصرها ، ولكنه عرف أن
نصف بلاد اليونان كان يرجو أن يلاقى حثفه . ونقل إليه عيونه أن في
مقدور الفرس أن يحشدوا لقتاله ألف ألف رجل ، أما هو فلم تزد قوته التي
سيرها لقتالهم على ثلاثين ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان . بيد
أن هذا الأخييل الحديد لم يعبأ بهذا الفرق الهائل ، وترك اثني عشر ألف
جندي بقيادة أنتباتر Antipater لحراسة مقدونية ومراقبة بلاد اليونان ،
وبدأ في عام ٢٣٤ أجراً وأعجب مغامرة روائية في تاريخ الملوك . وعاش
بعد ذلك إحدى عشرة سنة ولكنه لم ير من ذلك اليوم بلاده أو أوربا . وبينما
كان جيئشه يعبر الهسپدات من لسبوس إلى أبيدوس اختار هو أن ينزل إلى البر
عند رأس سيجيوم Sigium ويسير في الطريق الذي كان يعتقد أن أجهمون
سار فيه إلى طروادة . وكان في كل خطوة يذكر لرفاقه فقرات من الإلياذة :

فقد كان يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب . ولما جاء إلى قبر أخيل المزعوم سمب عليه الزيت تكريماً له ووضع عليه تاجاً من الزهر ، وسعى عارياً حوله كما كان يفعل الأقدمون ، وصاح قائلاً : « ما أسعد أخيل ! إذ كان له في حياته هذا الصديق الوفي ، وبعد مماته ذلك الشاعر العظيم ليمجده ويخلد ذكره » (٢٨) . وأقسم في تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوربا وآسية الذي بدأ عند طروادة حتى نهايته المطفرة .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نعيد ذكر انتصاراته . وحسبنا أن نقول إنه التقى بأول جيش فارسي عند نهر غرانيقوس وهزمه . وفي هذه الواقعة أنقذ كليتس Cleitus حياة الإسكندر بأن قطع يد جندي فارسي أوشك أن يضرب الإسكندر من خلفه . وليس من دأبنا أن نفعل ما يفعله بعض المؤرخين الخياليين فنفترض الفروض ونبنى التاريخ على أمثال هذه الحوادث العارضة أو نتخذها أساساً لهذه الفروض . وبعد أن أراح رجاله بعض الوقت واصل السير إلى أيونيا ، وأنشأ في المدن اليونانية حكومات ديمقراطية تحت حمايته . وقد فتحت له معظم هذه المدن أبوابها من غير متماومة . والتقى عند إسوس بجيش الفرس الرئيسي ، وكان يبلغ ٦٠٠٠٠٠ مقاتل يقودهم دارا الثالث . وكسب المعركة مرة أخرى باستخدام فرسانه للهجوم ومشاته للدفاع . وفر دارا من الميدان وترك وراءه أهواله وأسرته ؛ وشكر له الإسكندر هديته الأولى وعامل الهدية الثانية معاملة الرجل الشهم الكريم . وبعد أن استولى على دمشق وصيدا من غير قتال حاصر صور ، وكان بها أسطول فينيقي قوى استأجره الفرس لخدمتهم في القتال . وقاومته المدينة القديمة مقاومة طويلة غضب لها الإسكندر أشد الغضب ؛ ولما أن استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه فترك رجاله يذبجون ثمانية آلاف من أهلها ، ويبيعون منهم ثمانين ألفاً بيع الرقيق . واستسلمت له أورشليم بلا

مقاومة فأحسن معاملتها ، وحاربته غزاة حتى قتل كل رجل في المدينة وسبيت كل امرأة .

وواصل المقدونيون زحفهم المظفر محترقين صحراء سيناء إلى مصر ، وفيها كان الإسكندر حكيما ، فعظم آلهتها ورحب به أهلها ، ورأوا فيه متقدماً أرسلته الآلهة ليحررهم من نير الفرس . وعرف الإسكندر أن الدين أقوى من السياسة فاخترق صحراء أخرى إلى واحة سيوة ، وقدم الطاعة إلى الإله آمون - وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدق أولمبياس . وتوجه القساوسة المرنون فرعوناً ، وأقاموا له الطقوس القديمة ، ومهدوا بعملهم هذا الطريق لأسرة البطالة . فلما تم له ذلك عاد إلى وادي النيل وبدا له أن يقيم عاصمة جديدة ، أولعله وافق على إقامتها ؛ عند أحد مصاب نهر النيل الكثيرة ؛ وربما كان اليونان المقيمون في نقراطس (نقراش) القرية من هذا المكان قد أشاروا عليه بإنشائها لأنها بموقعها هذا تكون مستودعاً أحسن من نقراطس للتجارة اليونانية الكبيرة التي كان يرجى أن تتبادل بين مصر وبلاد اليونان . وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية وحدود شوارعها الرئيسية ، ومواضع المياكل التي اعتزم أن يقيمها لآلهة المصريين واليونان ، ثم ترك ما عدا هذا من التفاصيل لمهندسه دنقراطيس Dinocrates (*) .

ثم عاد بجيشه إلى آسية والتي عند جوكيلا قرب أرييلا بجيش دارا المؤلف من خليط من الأمم ، وارتاع لكثرة عدده ؛ وكان يعرف أن هزيمة واحدة كفيلاً بأن تذهب بجميع ما سبقها من انتصارات . لكن جنوده هداؤا زوعه وقالوا له : طب نفساً أيها السيد المعظم ، ولا ترهبك كثرة عدد الأعداء ،

(*) وكان دنقراطيس قد أدخل أسروا على قلب الإسكندر بأن عرض عليه أن يثبت جبل آفوس - الذي يبلغ ارتفاعه ستة آلاف قدم - ليحمله تمثالاً للإسكندر يقف والبحر يغمره إلى وسطه ، ويمسك مدينة في إحدى يديه ومرفأ في اليد الأخرى (٢٤) ، لكن هذا المشروع ظل حلماً من الأحلام . (٣٦ - ج ٢ مج ٢)

لأنهم ان يستطيعوا الوقوف أمام رائحة المعز التي تصحب جيوشنا (٢٥) ، وقضى الليلة يستكشف الأرض التي ستدور فيها المعركة ، ويقرب القرايين للآلهة ، وكان نصره مؤزرا حاسما ، فلم تستطع جيوش دارا المخفلة النظام أن تصمد أمام فيالق الإسكندر المتراسة ، ولم تعرف كيف تدافع عن نفسها أمام هجمات الفرسان المقدونيين السريعة المتكررة ، فتبدد شملها وولت لأدبار ، ولم يكن دارا آخر الفارين . وقتله قواده جزاء له على جنبه ، في الوقت الذي كان الإسكندر يتقبل فيه خضوع بابل ، ونصيبا من ثروتها ، ويوزع بعضها على جنده ، ويأسر قلوب أهل المدينة بتعظيم آلهتها وإصدار أوامره بإعادة أضرحتها المقدسة . ولم تفته سنة ٣٣١ حتى كان قد وصل إلى مدينة السوس ، وكان أهلها لا يزالون يذكرون مجد عيلام القديم فاستقبلوه استقبال المتقذ . وقد حمى المدينة من النهب وعوض جنوده عن ذلك بأن قسم بينهم بعض الخمسين ألف وزنة (١٠٠٠ ر ٣٠٠٠ ريال أمريكي) التي وجدها في أقبية دارا . وأرسل إلى أهل بلانية قدراً كبيراً من هذا المال لأنهم قاوموا الفرس مقاومة عنيفة في عام ٤٨٠ ، ويبدو أنه رد إلى مدن آسية « العطايا » التي استولى عليها . منها في بداية الحملة (٣٦) . وأعلن إلى اليونان في جميع أنحاء العالم في فخر وكبرياء أنهم أصبحوا الآن أحراراً مستقلين أتم الاستقلال عن حكم الفرس .

ولم يكذ يستريح في السوس حتى واصل الزحف فوق الجبال في قلب الشتاء ليستولى على پرسبوليس ؛ وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية . وهنا ركب رأسه فحرق المدينة العظيمة ودكها دكا ، وانطلق جنوده ينهون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال . ولعل الذي أثار سخطهم هو أنهم رأوا وهم مقبانون على المدينة ثمانمائة من اليونان قد مثل بهم الفرس لأسباب مختلفة فقطعوا أرجلهم

أو أيديهم أو آذانهم أو فقاؤا عيونهم . وأبصرهم الإسكندر فبكى من فرط
التأثر وأقطعهم أرضاً زراعية وخصهم باتباع يزرعونها لهم .

ولم يكتف الإسكندر بما نال من مجد فحاول أن يفعل ما عجز عن فعله
قورش — وهو إخضاع القبائل التي كانت تحوم حول تخوم بلاد الفرس
من الشرق ، ولعله كان يأمل لقلّة معلوماته الجغرافية أن يجد وراء الشرق
الغامض المجهول ذلك الأقيانوس الذي يصلح لأن يكون حداً طبيعياً للدولة
العظيمة التي أقامها بسيفه . ولما دخل سجديانا مر بقرية يسكنها أبناء
البرنشيدي Branchidae الذين أسلموا لخشياريشاي قرب ميليطس كنوز
هيكلمهم . وتملكته فكرة الانتقام للاله الذي انتهب ماله ، فأمر بأن يقتل
جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال — فاقتصر بهذا العمل من الآباء بعقاب
الجيل الخامس من الأبناء . وكانت حروبه في سجديانا ، وأريانا ،
ويكثريانا ، وحشية لم يحن منها نفعا ، فقد نال فيها بعض النصر ، وعثر
في أعقابها على بعض الذهب ، وترك من وراءه أعداء في كل مكان . وقبض
رجاله قرب بخارى على بسوس Bessus قاتل دارا . وأقام الإسكندر نفسه
لهجاءة مطالباً بدم الملك العظيم ، فضرب بسوس بأمره بالسياط حتى كاد يقضى
عليه ، وجدع أنفه وصملت آذناه ، ثم أرسل إلى إكباتانا حيث قتل بأن ربط
خرايمه في إحدى الأشجار وساقه في شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان قد
خسمتا بالحبال ، فلما قطعت حبالهما مزقت الشجرتان جسمه (٣٧) . وهكذا
نكأن الإسكندر كلما بعد عن بلاد اليونان قلت فيه صفات اليونان وزادت
نزعة الممجيّة .

ونراه في عام ٣٣٧ يتحرق جبال الهملايا لينقض على الهند . وكان غروره
وتشوفه كانا يأتريان به ليقوداه إلى هذا الصقع الثاى . ونصحه قواده بالألا يقدم
على هذه المغامرة ، وأطاعه جنده وهم كارهون ، فعبر نهر السند ، وهزم الملك
پورس Porus ، وأعلن أنه سيواصل الزحف حتى نهر الكنج Ganges لكن

جنوده أبو أن يتقدموا خطوة واحدة . فحاول إقناعهم ، وقضى ثلاثة أيام متجهما في خيمته كما فعل جده أنخيل من قبل ؛ ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن جنوده قد سئمو القتال ، فعاد أدراجهم مكتئبا حزينا ، كارهاً أن يواجه الغرب مرة أخرى ، وشق طريقة وسط قبائل معادية له ، بشجاعة لم يسع جنوده حين شهودها إلا أن يبكوا لعجزهم عن تحقيق جميع أحلامه وكان هو أول من تسلق أسوار ماليا Mallia ؛ وبعد أن قفز هو واثنان من جنده إلى داخل المدينة ، تحطم السلم الذي صعدوا عليه ، ووجد هو وزميلاه أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب . وحارب الإسكندر حتى سقط على الأرض متخنناً بالجراح ؛ وكان جنوده في هذه الأثناء قد اقتحموا أسوار المدينة ، وأخذوا واحداً بعد واحد يضحون بحياتهم دفاعاً عن مليكهم الملقى على الأرض . فلما انتهت المعركة ، حمل الإسكندر إلى خيمته ، والجند يقبلون ثيابه وهو مار بهم . وبعد أن قضى ثلاثة أشهر في دور النقاة بدأ الزحف من جديد بمحاذاة نهر السند حتى وصل آخر الأمر إلى المحيط الهندي . ومن هنا أرسل قسماً من جيوشه بطريق البحر بقيادة نپارخوس Nearchus ، واستطاع هذا القائد الماهر أن يقوم بهذه الرحلة بعد أن اخترق بحاراً لا عهد له بها وقاد الإسكندر بنفسه بقية الجيش متجهاً به نحو الشمال الغربي بمحاذاة ساحل الهند ، وغترقا صحراء جلدروسيا Gedrosia (بلوخستان) ؛ وقاسى جنوده فيها ما قاسته جنود نابليون في أنناة ارتدادهم من مسكو ، فقد قضى آلاف منهم من شدة الحر ، وهلك من العطش أكثر من هؤلاء ؛ ثم وجدوا قليلاً من الماء ، وجيء به إلى الإسكندر ، فصبه متعمداً على الأرض^(٢٨) . ووصلت فلول جيشه إلى السوس بعد أن قتل منهم عشرة آلاف ، واختلت موازين عقل الإسكندر نفسه من كثرة ما لاقاه من الأهوال .

الفصل الثالث

موت إله

وكان قد قضى حتى ذلك الوقت تسع سنين فى آسية ، أحدث فيها من التأثير بانتصاراته قل مما أحدثته هى فيه بأساليبها الشرقية . ذلك أن أرسطو قد علمه أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل « البرابرة » معاملة العبيد . ولكنه دهش إذ وجد بين أشرف الفرس مستوى من الرقة وحسن الخلق لم يره كثيراً فى الديمقراطيات اليونانية المضطربة ، وأعجب بالطريقة التى نظم بها الملوك النظام إمبراطوريتهم ، وارتاب فى مقدرة المقدونيين الغلاظ على أن يحلوا محل حكام هذه الإمبراطورية ، وأدرك أن السيل الوحيدة إلى تثبيت فتوحه واستقرارها بعض الاستقرار هى أن يسترضى أشرف الفرس حتى يقبلوا زعامته ، فإذا فعلوا استخدمهم فى المناصب الإدارية . وزاد سروره برعاياه الجدد يوماً بعد يوم ، فتخلى عن فكرته القديمة وهى أن يحكمهم بوصفه ملكاً مقدونياً ، وشال نفسه إمبراطوراً يونانياً - فارسياً يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، وتمتزج ثقافتهم ودماءهم امتزاجاً سلمياً ، فينتهى النزاع الطويل بين أوروبا وآسية بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما .

وكان آلاف من جنوده قد تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة ، وأخلوا بعاشرونها ، فلم لا يفعل هو أيضاً فعلمهم ؟ فيتزوج بآبنة دارا ويسوى النزاع بين الاثنين بأن يلد لها ملكاً يجرى فى جروقه دم الأسرتين . لقد تزوج قبل ذلك الوقت رَمَسَنا الأُميرة البكترية ، ولكنه لم يكن يرى أن هبسه عقبة تقف فى طريقه ، وعرض الفكرة على ضباطه وأشار عليهم أن يتخلوا لهم

أزواجاً فارسيات . وتبسموا ضاحكين من فكرة توحيد الأمتين ، ولكنهم كانوا قد قضوا زمناً طويلاً بعيدين عن ديارهم ، وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع . ومن ثم أقيم عرس عظيم في السوس (٣٢٤) تزوج فيه الإسكندر استاتيرا Stati ابنة دارا الثالث ، وپرساتس Parysatis ابنة أرتخشتر الثالث ، وبهذا ربط نفسه بفرعى الأسرة المالكة الفارسية ، واتخذ ثمانون من ضباطه لم زوجات فارسيات . وحذا حلوهم بعد زمن يسير آلاف من الجنود فتزوجوا من فارسيات . ووهب الإسكندر كل ضابط من ضباطه بائنة قيمة وأدى ما على الجنود الذين تزوجوا من ديون - وقد بلغت هذه الهبات (إذا جاز لنا أن تأخذ بأقوال أريان Arrian) عشرين ألف وزنة (نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي^(٣٦)) . وأراد أن يزيد هذا الاتحاد بين الشعبين قوة ، ففتح أراضي الجزيرة وفارس للمستعمرين اليونان ؛ وخفف بهذا العمل ضغط السكان في بعض الدول اليونانية وقلل من حدة حرب الطبقات . ومن ذلك الوقت بدأت تقوم تلك المدن المتأغرة الآسيوية التي صارت فيما بعد جزءاً هاماً من الإمبراطورية السلوقية Seleucid Empire وجمع في الوقت نفسه ثلاثين ألفاً من شباب الفرس وعلمهم على الطريقة اليونانية ودرهم على فنون الحرب اليونانية .

ولعل زوجاته كن من أسباب ميله إلى الأساليب الشرقية ، أو لعل هذا الميل كان خطأ وقع فيه لشدة تواضعه ، أو لعله كان جزءاً من خطة موضوعة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « فلما كان في فارس بدأ يلبس الثياب « البربرية » (أى الأجنبية) ولعله أراد بذلك أن ييسر تخضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر في الناس هو اتباع عاداتهم ... بيد أنه لم يتبع عادات الميديين ... بل اختط خطة وسطاً بين الأساليب الفارسية والمقلونية ، وكيف عاداته بحيث خلت من التباخر الذي هو من مميزات الأولين ، ولكنها كانت أكثر أبهة وفخامة من الآخرين^(٣٧) »

وكان جنوده يرون في هذا التغير استسلاماً من الإسكندر للشرق ، ويحسون أنهم بذلك قد خسروه ، وفقدوا ما كانوا يرونه من أدلة العناية والعطف التي كان يضيفها عليهم في كل حين . وأظهر له الفرس فروض الطاعة والولاء ، وأرضوه بضروب المائق والدهان ، وشرع المقدونيون ، بعد أن رقق الترف الشرقي طباعهم يظهرهم استيائهم من الواجبات الثقيلة التي كان يفرضها عليهم ، ونسوا إحسانه لهم ، وأخلوا يتهايمسون بالفرار من الجيش ، بل إنهم شرعوا يأتمرون به ليقتلوه . وبدأ هو يفضل صحبة عطاء الفرس على صحبة اليونان .

وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه أو على حسن سياسته هو جهره بألوهيته ، وذلك أنه بعث في عام ٣٢٤ إلى جميع الدول اليونانية ما عدا مقدونية (لأن ما في الرسالة التي بعث بها من إهانة لقلب قد يثير غضب أهلها) يبلغها أنه يرغب في أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس — أمون . وصدعت معظم الدول بما أمرت ، ولم ترفى الأمر أكثر من لقب صوري ، بل إن الاسبارطيين المعاندين أنفسهم لم يخرجوا على الأمر وقالوا في أنفسهم : « فليكن الإسكندر إلها إذا شاء » . ولم يكن تأليه إنسان ما ، بمعنى لفظ الألوهية عند اليونان ، ليرفع من شأنه كثيراً ، ذلك أن الهوة التي تفصل بين الإنسانية والألوهية لم تكن وقتئذ واسعة كما أصبحت في الأديان الحديثة . ولقد جمع كثيرون من اليونان بين الصفتين ، ومن هؤلاء هوداميا ، وأوديب ، وأخيل ، وإفخينيا ، وهلن . كذلك كان المصريون يحسبون فراعنتهم آلهة ، ولو أن الإسكندر غفل عن أن يضع نفسه في هذا الوضع لكان من المحتمل أن يغضب المصريون لخروجه هذا الخروج العنيف على السوابق المقررة عندهم . ولقد أكد كهنة سيوة ، وديديما Didyma ، وبابل ، وهم الذين يعتقد الناس فيهم أن لديهم مصادر خاصة يستقون منها أمثال هذه الأنبياء ، أنه من نسل الآلهة . أما أن الإسكندر قد اعتقد بحق (كما يظن جروت^(٣١)) أنه إله بأكثر من المعنى المجازي لهذا اللفظ فأمر

بعيد الاحتمال . نعم إنه بعد أن ألّه نفسه أصبح سريع الغضب متغطرساً ، وإن سرعة غضبه و غطرسته تردادان على مر الأيام . ولستنا ننكر أيضاً أنه جلس على عرش من الذهب ، وارتدى ثياباً كهنوتية ، وزين رأسه في بعض الأحيان بقرني أمون^(٣٢) . ولكنه حين لم يكن يظهر ألوهيته لأغراضه الدنيوية كان يسخر من هذه العظمة التي يدعيها لنفسه ؛ ولما أن جرحه سهم قال لبعض أصدقائه : « ها أنتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذية كالتى تسيل من جراح الآلهة المخلدين^(٣٣) » . وما من شك في أنه لم يكن يحمل قصة والدته عن الصاعقة محمل الجد ، وذلك واضح من غضبه الشديد على أتلس حين قال ما قال عن مولده ، ومن قوله هو عن حاجته إلى النوم الذى يميز البشر من الآلهة . وحتى أولمبياس نفسها قد ضحككت ساخرة حين سمعت أن الإسكندر قد سجل قصتها الخرافية في السجلات الرسمية ، وسألت قائلة : « ألم يأن للإسكندر أن يمتنع عن التشنيع على^(٣٤) عند هيرا^(٣٤) ؟ » ولقد ظل الإسكندر نفسه بالرغم من ربوبيته يقرب القرابين إلى الآلهة ، وهو عمل لم نسمع قط بأن إلها قد أتى به ، ولم يكن فلوطرخس وأريان وهما الرجلان اللذان يستطيعان أن يحكما في هذه المسألة لأنهما يونانيان ، يشكان في أن الإسكندر قد ألّه نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلطة الأعجناس والذين يؤمنون بالخرافات^(٣٥) . ولا ريب في أنه كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعادين تيسّر له إذا قبلت الطبقات العليا من أهلها دعوى ربوبيته وعظمته الطبقات الدنيا وقدمته . ولعله قد فكر في أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة في الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة وديناً عاماً تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية^(*) .

(*) ويحدثنا لوشيان عن هذا رأى القديم في إحدى « محاورات الموتى » فيقول : « فليپ : لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولدى ، ولو أنك كنت ابن أمون لما جاز عليك -

ولم يكن في مقدور المقلونين أن يسبروا غور خطط الإسكندر السياسية : ذلك أنهم وإن تأثروا بالروح اليونانية إلى الحد الذي تحررت به عقولهم من الاسترقاق الفكري ، لم يرقوا إلى درجة التسامح الفلسفي ، ورأوا أن ما طلبه إليهم من السجود له حين يقتربون منه مذلة لا يرضونها لأنفسهم . ومن أجل ذلك دبر فيلوتاس Philotas ، وهو ضابط من أشجع ضباطه ابن قائد من أكفأ قواده وأحبهم إليه ، بالاشتراك مع القائد برمنيو Parmenio مؤامرة لقتل الإله الجديد . ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع الإسكندر ، فأمر بالقبض على فيلوتاس وانتزع منه بضروب التعذيب اعترافاً باشتراك أبيه مع المتآمرين . وأرغم على أن يكرر هذا الاعتراف أمام الجند ، فبرجوه من فورهم بالحجارة حتى مات ، وكانت هذه عادتهم في مثل هذه الحالة . أما برمنيو فقد أعدم بأمر الملك لأنه يجرم في أغلب الظن ، وأنه على كل حال عدو لا يؤمن جانبه . وتوترت العلاقات بين الإسكندر وجيشه من ذلك الحين — فأخذ الجنود يزدادون غضباً واستياء ، وأخذ الملك يزداد في كل يوم ريبة وقسوة وعزلة .

وحمله تساميه ، وعزلته ، وكثرة مشاغله المطردة الزيادة ، على أن يحاول إغراق همومه في الشراب . وقد حدث في مأدبة أقيمت في سمرقند أن شرب كليتس الذي أنقذ حياة الإسكندر في يوم غرانيقوس حتى فقد وعيه ، فقال للإسكندر : إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه ، وإن أعمال فليب أعظم من أعماله . وكان الإسكندر هو الآخر ثملاً فقام ليضربه ، ولكن بطليموس لاجوس Ptolemy Lagus (الذي أصبح بعد قليل والياً

— الموت الإسكندر : لقد كنت طوال الوقت أمرف أنك أبي ، ولم أقبل قول الوحي إلا لأنني ظننته غطة سياسية صالحة ... ذلك أن البرابرة حين عرفوا أن الذي أمامهم إله ، امتنعوا عن القتال ، وقد يسر لي ذلك هزيمتهم وفتح بلادهم

على مصر) أخرج كليتس من مكان المأدبة . بيد أن كليتس كان يريد أن يقول أكثر مما قال ، فعاد ليواصل طعنه . فرماه الإسكندر بحربة أردته قتيلا . وندم الإسكندر بعدئذ على عمله هذا ندما حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة ، امتنع فيها عن الطعام ، وانتابته نوبات هستيرية ، حاول فيها أن ينتحر : ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى قام هرمولوس Hermolaus ، وهو خادم من خدم الإسكندر عاقبه في يوم من الأيام عقابا ظالما ، بتدبير مؤامرة أخرى لقتله . وقبض على الغلام وعذب حتى أتى باعتراف اتهم فيه كلستانس Callisthenes ابن أخى أرسطو . وكان كلستانس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها ، وكان قد أغضب الملك لأنه أبى أن يسجد له ، وأخذ ينتقد أساليبه الشرقية ، ويتباهى بأن الخلف لن يعرف الإسكندر إلا عن طريق كلستانس المؤرخ . وأمر به الإسكندر فسجن حتى مات بعد سبعة أشهر من ذلك الوقت(*) . وقضت هذه الحادثة على ما كان بين الإسكندر وأرسطو من صداقة ، وكان الفيلسوف قد ظل عدة سنين يعرض حياته لأشد الأخطار بدفاعه عن قضية الإسكندر في أثينة .

وظل سخط الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون في آخر الأمر تمرداً علنياً . ولما أعلن الملك في يوم من الأيام أنه يريد أن يرجع إلى مقدونية أكبر الجنود ستا بعد أن يمنح كلا منهم جائزة سنوية نظير خدمته(**) ، هاله أن يسمع الجند يتهايمسون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً من سلك الجندية ، لأنه وهو إله لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه . فلم يكن منه إلا أن أمر

(*) تروى قصة متناقضة عن جريمته وموته (٣٧) . وأشهر ما تركه وراءه ثلاثة كتب : « الملينيكا He Hemia » وهو تاريخ لبلاد اليونان من ٣٨٧ إلى ٣٣٧ ، « وتاريخ الحرب المقدسة » و « تاريخ الإسكندر » .

(**) ويؤكد لنا أريان أنه وهب كلا منهم وزنه زيادة على مرتبه الذى لم يكن لينقطع حتى يعود إلى وطنه .

بقتل زعماء الفتنة ، ثم ألقى على الجنود خطبة مؤثرة (٣٩) ولكنها في أغلب الظن مشكوك في صحتها) ذكر فيها كل ما فعلوه من أجله ، وكل ما فعله هو من أجلهم ، وسألم هل فيهم من يستطيع أن يظهر في جسده من الجروح أكثر مما فيه هو ؟ وهل فيهم رجل مثله في جسده أثر من كل سلاح من أسلحة القتال ؟ ثم أذن لهم جميعا في آخرها أن يعودوا إلى ديارهم وقال لهم : « عودوا إلى أوطانكم وقلوا للناس إنكم تخليتم عن مليكم ، وتركتموه في حماية الأجانب المغلوبين » . ثم آوى إلى حجرته وأبى أن يقابل أحداً من الناس . فدم جنوده أشد الندم ، وأقبلوا على قصره ، وألقوا بأنفسهم على الأرض أمامه ، وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يعفو عنهم ويعيدهم إلى جيشه . ولما أن ظهر أمامهم في آخر الأمر ، أجهشوا بالبكاء وأصرروا على أن يقبلوه ، فلما رضى عنهم عادوا إلى معسكرهم ينشدون أناشيد الحمد والثناء .

واغتر الإسكندر بمظاهر الحب هذه ، فأخذ يحلم بمواصلة الحروب والانتصارات ، ووضع الخطط لفتح بلاد العرب الغامضة ، وأرسل بعثة لارتياح أقاليم بحر قزوين ، وفكر في الاستيلاء على أوروبا حتى أعمدة هرقل . غير أن تعرضه للجواء المختلفة وإدمانه الشراب كانا قد أضعفا بنيته القوية ، كما أن مؤامرات ضباطه وتمرد جنوده كانا قد أوهنا قوته النفسية . وبينما كان إبلخيش في إكبتانا مرض هفستيون Hephaestion أعز أصدقائه وقضى نحبه . وكان الإسكندر يحبه حبا بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة دارا خيمة الملك الفاتح وانحنت أولا لهفستيون احتراما له لظنها أنه هو الإسكندر ، قال لها الملك الشاب في رقة ولطف : « إن هفستيون هو أيضاً إسكندر (٤٠) » وكانما أراد بقوله هذا أنه هو وهفستيون رجل واحد . وكثيرا ما كان الرجلان يشتركان في خيمة واحدة ، وكانا في الحرب يقاتلان جنبا إلى جنب . وأحس الملك بعد موته أن نصفه قد انتزع منه ، فأحزنه ذلك وف

في عضده ، وقضى عدة ساعات ملقى على جثة صديقه يبكي وينتخب ؛ واقتلع شعره من فرط الحزن ، وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام عدة أيام متوالية ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى ترك الشاب المريض ليشهد الألعاب العامة . ، وأمر أن تكرم ذكرى هفستيون بإقامة محرقة جنازية ضخمة بلغت نفقاتها كما يقولون عشرة آلاف وزنة (٦٠.٠٠٠.٠٠٠ ريال أمريكى) وبعث يسأل مهبط الوحى من أمون هل يجوز أن يتخذ هفستيون إلها يعبد ، وأمر في الوقائع الحربية التى دارت بعدئذ أن تقتل قبيلة على بكرة أبيها قربانا لروح هفستيون . وكانت الفكرة التى تراوده وهى أن أخيل لم يعيش طويلا بعد موت پتركلس تقض مضجعه كأنها حكم عليه بالإعدام .

ولما عاد إلى بابل زاد انغماسه في الشراب شيئاً فشيئاً . وبينما كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا في شرب الخمر . فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وغاز بالجائزة وهى وزنة من الذهب ، ومات بعد ثلاثة أيام . وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر خاية محتوى نحو جالون ونصف من الخمر ، وعاد في الليلة التالية إلى الشراب ، ثم اشتد البرد فجاءة فأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه . ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل في أثنائها يصدر الأوامر إلى جيشه وأسطوله . ثم مات في اليوم الحادى عشر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢٣) ولما سأل قواده لمن يترك ملكه أجابهم بقوله : « إلى أعظمكم قوة (١) » .

وقد عجز الإسكندر كما عجز أكثر العظماء عن أن يجد رجلا جديراً بأن يخلفه على عرشه ، وكان قد مضى نجبه قبل أن يتم عمله . على أن هذا العمل رغم هذا لم يكن جليلاً فحسب بل كان فوق ذلك أبقى على الدهر مما يظنه الناس عادة . فكان الضرورات التاريخية قد اختارت الإسكندر لتغيير

الأوضاع السياسية القائمة في ذلك الوقت ، فقد قضى على عهد دول المدن ، وأنشأ بعد التضحية بقسط غير قليل من حرية هذه المدائن نظاما أوسع رقعة وأعظم استقرارا من أى نظام عرفته أوروبا قبل عهده . وقد ظلت الفكرة التي قامت بذهنه عن الحكم ، الحكم الاستبدادى الذى يستعين بالدين لفرض السلم على أُمم مختلفة الأجناس والألوان ، نقول ظلت هذه الفكرة هي السيطرة على أوروبا حتى العصر الحديث عصر القومية والديمقراطية . وقد حطم الحواجز القائمة بين اليونان و « البرابرة » ومهد السبيل لعالمية للعصر الهلنستى ، وفتح آسية الدنيا للاستعمار اليونانى ، وأنشأ في بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت في هذا الاتجاه إلى بكتريا ، وجمع عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقى في نظام تجارى موحد واسع النطاق شجع التجارة وأطلقها من قيودها ، ونقل الآداب والفلسفة والفنون اليونانية إلى آسية ، ومات قبل أن يدرك أنه مهد السبيل لذلك الانتصار الدينى العظيم الذى ظفر فيه الشرق بالغرب . ولقد كان ارتدائه الملابس الشرقية وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسية من أوروبا .

ولقد كان من الخير للإسكندر أن يموت وهو في عتفوان مجده ، ولو أنه طال به العمر لتكشف له أنه كان مخدوعاً في كثير من الأمور ، ولعله لو عاش لأقضت مضجعه الهزائم والآلام ولأحب السياسة . . . وكان قد بدأ يحبها — أكثر مما يحب الحرب . لكنه أجهد نفسه فوق طاقته ، وأكبر الظن أن ما كان يتطلبه حفظ دولته العظيمة قوية موحدة ، ومراقبة أجزائها المختلفة بأجمعها ، قد بدأ يحدث الاضطراب في عقله المشرق النير : ذلك أن الجلد ليس إلا نصف العبقرية ، أما نصفيها الآخر فهو السيطرة على أعنة هذا الجلد وتملك ناصيته ، ولكن الإسكندر كان كله جلدًا ونشاطًا : وكان يعوزه — وإن لم يكن من حقنا أن نتطلب منه — نصيب قيصر الهادئ أو حكمة أغسطس ودهاؤه .

ونحن نعجب به كما نعجب بنابليون لأنه لاقى بمفرده نصف العالم ، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بما في نفوس الأفراد من قوة كامنة لا يكاد الإنسان يؤمن بوجودها فيها . ونحن نشعر بعطف طبيعي عليه رغم إيمانه بالخرافات والأوهام وتصديقه ما لا يصح لمثله أن يصدق ، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شابا كريم النفس قوى العاطفة ، كما كان رجلا قديراً باسلاً لا يكاد يدانيه أحد في قدرته وبسالته ، وأنه كان يكافح ليتخلص مما في دمه من تراث من الممجية يذهب بالعقل الحصيف ، وأنه فيما خاض من المعارك العنيفة وفيما أهرق من الدماء الغزيرة لم يغب عنه قط حلمه العظيم وهو نشر نور أثينة في عالم أوسع منها رقعة .

الفصل الرابع

خاتمة عصر

لما علمت بلاد اليونان بموت الإسكندر اندلع لهيب الثورة على سلطان مقدونية في جميع أنحائها . ونظم أهل طيبة المنفيون في أثينة قوة من الوطنيين وحاصروا الحامية المقدونية المرابطة في كدميا . وفي أثينة نفسها ، حيث كان الكثيرون يتضرعون إلى الآلهة أن تقضى على الإسكندر ، توج أعضاء الحزب المعادى للمقدونيين رموسهم بأكاليل الغار حين أحسوا بأن دعاءهم قد استجيب ، وأخذوا يقصفون ويمرحون لموت من كانوا قبل موته يتخلدونه إلها يعبد ، وينشدون ، كما يقول فلوطرخس « أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم » (١٢) .

وكان دمستين في هذه اللحظة القصيرة في ذروة مجده ، ذلك أن أموره في خلال حروب الإسكندر لم تكن كما يجب : فقد اتهم بأنه قبل رشوة كبيرة من هرپالوس Harpalus وزج في السجن ، ثم سمح له بالفرار وعاش تسعة أشهر يقاسى آلام النفي في تريزن Troezen . فلما مات الإسكندر استدعى من منفاه وأرسل في مهمة سياسية إلى الهلوبيز ليعقد حلفاً لأثينة يعاونها في حرب الاستقلال والحرية . وزحفت قوة متحدة نحو الشمال والتقت بجيش ألتاتر عند كرانون Crannon ودارت عليها الدائرة . وفرض الجندى الطاعن في السن ، الذي لم يكن كالإسكندر يشعر بشيء من العطف على الثقافة الأثينية ، أفدح الشروط على المدينة المهزومة ، فطلب إليها أن تتحمل جميع نفقات الحرب ، وأن تقبل فيها حامية مقدونية ، وتلقى دستوراً الديمقراطية ومحاكمها ، ونحرم من حق الانتخاب ، وتنقل إلى المستعمرات الخارجية كل المواطنين (١٢٠٠٠ من ٢١٠٠٠) (٢٧-٢ ج ٢ - مجلد ٢)

الذين تقل قيمة مملكتهم عن أثنى درخمة ، وأن تسلم دمستين ، وهيريلنز ،
واثنين غيرهما من الخطباء المعادين للمقدونيين . فلما سمع دمستين بهذه
الشروط فر إلى كالوريا Calauria ولجأ إلى حمى أحد الهياكل . ولما أحاط
به مطارذوه المقدونيين تجرع ملء قارورة من السم ؛ ومات قبل أن يستطيع
جر نفسه من البهو المقدس .

وشهدت هذه السنة المشثومة نفسها خاتمة حياة أرسطو . لقد كان منذ
زمن طويل غير محبب للأثينيين : فقد كان المجمع العلمى ومدرسة إسقراط
يمقدان عليه لأنه كان يتقدما وينافسهما ، بينما كان الوطنيون يعدونه زعيما
للحزب المناصر للمقدونيين . وانتهاز أعداؤه فرصة موت الإسكندر فاتهموا
أرسطو بالمروق من الدين ، وجيء بفقرات من كتبه دالة على كفره بالآلهة
تأييدا لهذه التهمة ؛ واتهم أيضاً بأنه كرم الطاغية هرمياس Hermeias بما تكرم
به الآلهة ، وكان هرمياس هذا عبدا رقيقا ومن ثم لم يكن فى مقدوره أن
يصبح إلها . وغادر أرسطو المدينة فى هلع وهو يقول إن نفسه لا تطاوعه
أن يتبع لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم فى حق الفلسفة^(١٣) . ولجأ إلى
بيت أسرة والدته فى خلقيديا وأوصى ثاوفراسطوس Theophrastus أن يعنى
بشئون اللوقيون . وحكم عليه الأثينيون بالإعدام ، ولكن الفرصة لم تسنح لهم
لتنفيذ الحكم ، كما أنهم لم يكونوا فى حاجة لتنفيذه . ذلك أن أرسطو قضى نحيبه
بعد بضعة أشهر من مغادرته أثينة ؛ وقد يكون سبب موته مرضا أصيب به
فى معدته واشتد عليه بسبب فراره ، وقد يكون سببه كما يقول بعضهم أنه
تجرع السم . وكان وقت وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وكانت وصيته
مثلا أعلى فى الحنان والتقدير لزوجته الثانية ، وأسرته ، وعبيده

وبعد فقد كان موت الديمقراطية اليونانية موتا عنيفا وطبيعيا فى وقت
واحد . وكان أهم أسباب هذا الموت ما أصاب هذا النظام من اضطراب

تغلغل في كيانه ، ولم يكن سيف مقدونية إلا الضربة الأخيرة التي أجهزت عليه وهو يلفظ آخر أنفاسه . لقد تبين أن دولة المدينة لا تستطيع حل مشاكل الحكم : فقد عجزت عن حفظ النظام في الداخل ، وصدد الأعداء في الخارج ؛ ولم تهتد إلى وسيلة توفق بها بين الاستقلال وبين الاستقرار القومي وقوة السلطان رغم نداء غورغياس ، وإسقاط وأفلاطون لهذه المدن بأن تستعين بشيء من التنظيم الدؤوي للقوى لتكبح به جماح الحرية الأثينية . هذا إلى أن حب دولة المدينة للحرية لم يقف قط في سبيل نزعتها الإمبراطورية . يضاف إلى هذا أن حرب الطبقات قد اشتدت حتى أفلت زمامها من أيدي الزعماء ، وجعلت الديمقراطية سباقاً إلى الانتهاب عن طريق التشريع . وانحطت الجمعية التي كانت هيئة شريفة في أحسن أيامها فأصبحت هيئة من الرعاع الصخابين تكره كل سلطة فوق سلطتها ، وترفض كل قيد يحد من هذه السلطة ، تقسو على الضعيف وتخضع ذليلة للقوى ، توافق على كل ما تنال من ورائه النفع لنفسها ، وتفرض على الأملاك من الضرائب الفادحة ما من شأنه أن يقضى على الابتكار والنشاط والادخار . إن فليب والإسكندر وأنتياتر لم يكونوا هم الذين قضوا على الحرية اليونانية ، بل إن هذه الحرية هي التي قضت على نفسها بنفسها ، ولقد أبى النظام الذي أقاموه حضارة لولاه لقضى عليها ما فيها من عناصر الفوضى الاستبدادية ، ونشر هذه الحضارة في مصر والشرق .

ومع هذا كله فهل استطاعت الأبحركية أو الملكية المطلقة أن تفعل خيراً مما فعلته تلك الديمقراطية ؟ إن حكومة « الثلاثين » قد ارتكبت في الشهور القلائل التي استولت فيها على أزمة الحكم من القلاطع ضد الأنفس والأموال أكثر مما ارتكبته الديمقراطية في مائة السنين السابقة لهذا الحكم^(٥) . وبينما كانت الديمقراطية تخلق الفوضى في أثينة كانت الملكية تخلق الفوضى في مقدونية ، وهل ثمة فوضى أكثر من حروب تربي على عشر جر إليها النزاع

على العرش ، ومائة من الاغتيالات ، وألف من القيود على الحرية ، وذلك كله من غير أن يصحب هذه القوضى شيء من المجد الأدبي أو العلمى أو الفنى يخفف من فظاعتها ؟ ولقد كان ضعف الدولة وصغرها فى بلاد اليونان نعمة كبرى على الفرد ، نعمت بها روحه بلا ريب إن لم ينعم بها جسمه ؛ ذلك أن هذه الحرية ، وإن كلفته كثيراً ، قد أمكنت العقل اليونانى من أن يقوم بجلائل الأعمال . إن الفردية تقضى فى آخر الأمر على الجماعة . ولكنها قبل أن تقضى عليها تقوى الشخصية ، والكشف العقلى ، والإبداع الفنى ؛ ولسنا ننكر أن الديمقراطية اليونانية أضحت فاسدة عاجزة يجب أن تموت ، ولكن الناس أدركوا بعد موتها ما كانت عليه من الجمال فى أيام مجدها ، وكانت الأجيال القديمة التالية على بكرة أبيها ترنو ببصرها إلى عهود بركليز وأفلاطون وتعددها أعظم العهود التى شهدت بلاد اليونان بل أحسن العهود فى التاريخ كله ؛

فهرس الأشكال والصور

٢٤	أثينا الحاملة	في أول الكتاب	شكل
٢٥	اغطفاف عروس لايت	أمام صفحة ٣٤	"
٢٦	لوحة مصمراقي	" "	"
٢٧	هرقل وأطلس	" "	"
٢٨	نيكي تربط حزامها	" "	"
٢٩	هيكلي فيكي إبتروس وملغله	" "	"
٣٠	سائق مركبة دلق	" "	"
٣١	تاج عمود من الأركشيوم	" "	"
٣٢	الهاراثون	" "	"
٣٣	التوصيرة الشرقية الهاراثون	" "	"
٣٤	التوصيرة الغربية الهاراثون	" "	"
٣٥	فرسان من الإفريز الغربي الهاراثون	" "	"
٣٦	سفكليزي (سفكل)	" "	"
٣٧	دمستين	" "	"
٣٨	تمثال من تنجارا	" "	"
٣٩	ضريح هلكرنسس	" "	"
٤٠	نقش بارو من ضريح هلكرنسس	" "	"
٤١	أفردتي پتلنس	" "	"
٤٢	فيكي پونيوس	" "	"
٤٣	هرمس پرگستانيز	" "	"

مقدمة الترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وبعد :
فهذا هو الجزء الثانى من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة الست : وهو
يضم بين دفتيه حضارة اليونان فى العصر الذهبى ، وفى عصر اضمحلال
الحرية اليونانية وسقوطها . وهو كسابقه ترجمة أمينة للأصل الإنجليزى
لا يزيد عليه إلا فى بعض شروح قليلة فى هامش الكتاب . ولقد جرينا فيه
على السنة التى جرينا عليها فى الأجزاء السابقة فأثبتنا أسماء الأماكن والأشخاص
بالحروف الإنجليزية بعد العربية حين يرد ذكرها أول مرة ، حتى يكون
القارئ على بينة منها ، وحتى يسهل عليه نطقها . أما الأسماء اليونانية التى
ورد ذكرها فى الكتب العربية كأسماء الفلاسفة وبلاطون ، فقد كتبناها كما
كتبها العرب أنفسهم وإن خالف ذلك نطقها باليونانية والإنجليزية . ولعلنا
لم نستطع الوصول إلى بعض هذه الأسماء ، ولكننا قد بذلنا كثيراً من الجهد
فى الوصول إليها ، وستتدرك ما نستطيع معرفته منها فى الجزء الثالث كما
تداركنا فى هذا الجزء بعض ما فاتنا فى الجزء الأول .

ونعود فنكرر الشكر للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، التى بفضلها
ترجم هذا الكتاب ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر التى بفضلها نشر . والله
المهتدى إلى سواء السبيل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ح
الكتاب الثالث - العصر الذهبي	١
فهرس للحوادث مرتبة حسب تواريخها	٣
الباب الحادى عشر : بركليز والتجربة الديمقراطية	٦
الفصل الاول : نهضة أثينة	٦
الفصل الثانى : بركليز	١١
الفصل الثالث : الديمقراطية الأثينية	٢١
١ - المناقشات	٢١
٢ - القوانين	٢٧
٣ - القضاء	٣٠
٤ - النظام الإدارى	٣٧
الباب الثانى عشر : العمل والثروة فى أثينة	٤٤
الفصل الأول : الأرض ونظام	٤٤
الفصل الثانى : الصناعة	٤٩
الفصل الثالث : التجارة والمال	٥٤
الفصل الرابع : الأحرار والعبيد	٦٢
الفصل الخامس : حرب البلقات	٦٩
الباب الثالث عشر : أخلاق الأثينيين وآدابهم	٨٠
الفصل الأول : الطفولة	٨٠
الفصل الثانى : التعليم	٨٣
الفصل الثالث : المظهر الخارجى	٨٨
الفصل الرابع : المبادئ الأخلاقية	٩٣
الفصل الخامس : الطباع	٩٨
الفصل السادس : العلاقات الجنسية قبل الزواج	١٠٣
الفصل السابع : الصداقة الونانية	١٠٨

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن : الحب والزواج	١١١
الفصل التاسع : المرأة	١١٧
الفصل العاشر : المنزل	١٢١
الفصل الحادي عشر : الشينوخة	١٢٨

الباب الرابع عشر : الفن اليوناني في عصر بركليز ١٣٢

الفصل الأول : زينة الحياة الدنيا	١٣٢
الفصل الثاني : نشأة فن التصوير	١٣٧
الفصل الثالث : أساطير النحت	١٤٢
١ - أساليبهم	١٤٢
٢ - المدارس	١٤٧
٣ - فنهم	١٥٢
الفصل الرابع : البناءون	١٥٧
١ - ارتقاء فن العمارة	١٥٧
٢ - إعادة بناء أثينا	١٦١
٣ - البارثينون	١٦٧

الباب الخامس عشر : تقدم العلوم ١٧٤

الفصل الأول : علماء الرياضة	١٧٥
الفصل الثاني : ألكسافورس	١٧٨
الفصل الثالث : أبقراط	١٨٤

الباب السادس عشر : النزاع بين الفلسفة والدين ١٩٥

الفصل الأول : المتاليون	١٩٥
الفصل الثاني : الماديون	٢٠٠
الفصل الثالث : ألبادوقليس	٢٠٦
الفصل الرابع : السوفسطائيون	٢١١
الفصل الخامس : سقراط	٢٢٢
١ - فناع سيليس	٢٢٢
٢ - صورة ذهابه الخليل	٢٢٧
٣ - فلسفة سقراط	٢٣٣

الباب السابع عشر : أدب العصر الذهبي ٢٣٩

الفصل الأول : بندان	٢٣٩
---------------------	-----

الموضوع	الصفحة
الفصل اثنان : ملهى ديونيش	٢٤٦
الفصل اثنان : إسكلس	٢٥٦
الفصل الرابع : سفكليز	٢٦٩
الفصل الخامس : يورديز	٢٨٢
١ - المسرحيات	٢٨٢
٢ - يورديز الكاتب المسرحي	٢٩٦
٣ - و الفيلسوف	٢٩٩
٤ - و الطريق	٣٠٥
الفصل السادس : أرسطوفان	٣١١
١ - أرسطوفان والحرب	٣١١
٢ - و المتطرفون	٣١٧
٣ - الفنان والمفكر	٣٢٤
الفصل السابع : المؤرخون	٣٢٧

الباب الثامن عشر : انتحار بلاد اليونان

٣٣٨	الفصل الأول : العالم اليوناني عصر يركليز
٣٤٢	الفصل الثاني : كيف شبت الحرب الكبرى
٣٤٦	الفصل الثالث : من الوفاء إلى السلم
٣٥٠	الفصل الرابع : أقييادس
٣٥٤	الفصل الخامس : المغامرة الصقلية
٣٥٩	الفصل السادس : انتصار اسبارطة
٣٦٦	الفصل السابع : د ث سقراط

الكتاب الرابع - اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

٣٧٥ خهرس للحوادث مرتبة حسب تواريخها

الباب التاسع عشر : فليب

٣٧٨	الفصل الأول : الإمبراطورية الاسبارطية
٣٨٣	الفصل الثاني : أهايننداس
٣٨٦	الفصل الثالث : الإمبراطورية الأثينية اثنان
٣٩٩	الفصل الرابع : نهضة سراقوسة
٤٠٧	الفصل الخامس : تقدم مقدونية
٤١١	الفصل السادس : ديسين

الموضوع الصفحة

الباب العشرون : الآداب والفنون في القرن الرابع ٤١٧

٤١٧	الفصل الأول : الخطباء
٤٢٣	الفصل الثاني : إسقراط
٤٢٩	الفصل الثالث : أكمانوفون
٤٣٤	الفصل الرابع : أبلينز
٤٣٩	الفصل الخامس : بركستليز
٤٤٥	الفصل السادس : أسكوپاس وليسپوس

الباب الحادى والعشرون : العصر الذهبي للفلسفة ٤٥٠

٤٥٠	الفصل الأول : العلماء
٤٥٧	الفصل الثاني : المدارس السقراطية
٤٥٧	١ - أرسطوس
٤٦١	٢ - ديجين
٤٦٨	الفصل الثالث : أفلاطون
٤٦٨	١ - المعلم
٤٧٣	٢ - الفنان
٤٧٦	٣ - الميتافيزيقى
٤٨٠	٤ - العالم الأخلاقى
٤٨٣	٥ - الطوبى
٤٨٧	٦ - المشرع
٤٩٢	الفصل الرابع : أرسطوطاليس
٤٩٢	١ - أعوام التجوال
٤٩٦	٢ - العالم الطبيعى
٥٠٤	٣ - الفيلسوف
٥٠٩	٤ - الحياى

الباب الثانى والعشرون : الإسكندر ٥١٦

٥١٦	الفصل الأول : نفسية فاتح
٥٢٣	الفصل الثاني : طرق المجد
٥٣١	الفصل الثالث : موت إله
٥٤١	الفصل الرابع : خاتمة عصر